الاحتلال الأمريكى للعراق: رؤية مصرية

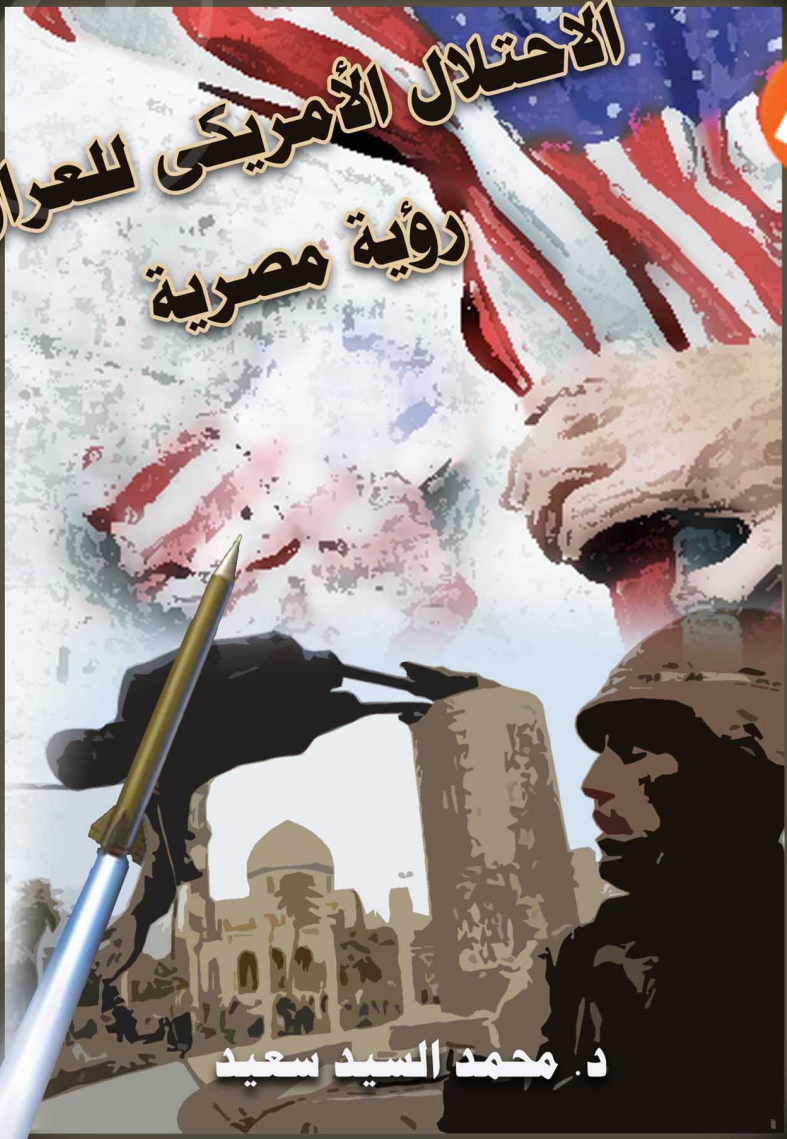

د. محمد السيد سعيد

www.kotobarabia.com

الاحتلال الأمريكى للعراق
رؤية مصرية

د. محمد السيد سعيد

فهرس

من قتل سيرجيو؟

هل تظهر مقاومة جديدة فى العراق؟

هل ما يحدث في العراق مقاومة؟

هل يبقى الأمريكيون في العراق؟

مجلس انتقالى

الشعب العراقى الغامض

الدور العربى ومصير العراق

أربع تحركات عربية سريعة

مرة ثانية من ينقذ العراق

نرسل أو لا نرسل قوات

نقد العنف حتى لو كان مقاومة

أخطاء المقاومة العراقية

تقديم

رؤية مثقف مصرى للأزمة العراقية

يسجل هذا الكتاب تجربة فكرية مؤلمة لأى مواطن عربى، وقد كانت بالفعل أشد ألما بالنسبة لمثقف عربى عـاش هـذه التجربة يوما بيوم، وتفاعل معها مثل تفاعل الجسم الانسـانى مع الأحماض. حسنا، لقد فقد عدد من المثقفين العرب أرواحهم وتلاشت أجسادهم عندما وضعت عمـدا فـى حـوض مـن الأحماض، بهدف يتجاوز كثيرا مجرد التعذيب الشـائع فـى بلادنا على نحو مذهل، لأنه يقصد التصفية البدنى للمغضـوب عليهم. ووظفت نظم عربية عديدة هذا الأسلوب المروع فـى تسوية خصوماتها السياسية بما فيها نظام صدام حسين.

ولا شك أن هذا النظام كان الأكثر توحشا بين جميع الـنظم المتوحشة فى العالم العربى. فما قام به يعد تـدميرا منهجيـا للمجتمع العراقى، الذى توزع بين السجون والمنافى والمقـابر الجماعية وكهوف الخوف دون أن يملك حتى حـق الاختيـار بين تلك الأشكال للمصير. وقد وعيت هـذه الحقيقـة مبكـرا وصرحت برفضى لهذا النظام منذ نهاية السبعينات على الأقل.

ولكن هذا الوضع للمشكلة لا يتلامس إلا مع مقدار معـين من الإشكالية التى واجهت ولا تزال تواجه المثقف العربـى منذ ولد فى العصر الحديث فى سياق محاولة إنقاذ بلاده من عدوان الامبريالية الغربية المتفوقة بسبب الركـود المـزمن وسوء النظم السياسية المهيمنة على العالم العربى. فقد تعـين عليه أن يبدع صيغة ما للإنقاذ وسط استعصاءات تكاد تكون مستحيلة. فالمجتمع القديم لم يكن قادرا على صـد الهجمـة الامبريالية الحديثة. وهو بذاته – أى المجتمع القديم- لم يكن مستحقا للعيش ولا قابلا للدفاع عنه. وعكست تجربة النضال من أجل إبداع صيغة ما محنة المثقف بين مجتمع عاجز عن سحب نفسه من مستنقع التخلف والتشوه الاجتمـاعى ليجـدد خلاياه ويمتلك الاقتدار الضرورى للدفاع عن النفس ضد المد العدوانى للامبريالية الغربية التى ولدت من رحـم الحداثـة باختماراتها المعقدة والمتناقضة. لا شك أن المثقف العربى قد استقبل بشارات الحداثة بقدر واضح من الحماس لما تضمنته من إمكانات تحريرية هائلة. ولا شك أيضا أنه كان يتخذ من تمددها الامبريالى موقف الخصومة والعداء فى نفس الوقت.

لقد حاول أسلافنا إنقاذ بلادهم من خلال طلب اصلاح الامبراطورية العثمانية المتداعية. وعندما فشل هذا الرهان اضطروا اضطرارا لإبداع الصيغة القومية العربية أو الأخذ بمفهوم الدولة الوطنية لنداء مجتمع يستحق ويتعين عليه أن يأخذ مصيره بنفسه، ليس للدفاع عن الذات فحسب، بل وللتقدم بسرعة حتى يصبح الدفاع عن النفس ممكنا. وقد تحققت انجازات محددة ولكنها كما ثبت فيما بعد لم تكن كافية. إن الأطروحة الأساسية تمثلت فيما نسميه اليوم مشروع النهضة. وجمع هذا المشروع بين إنجازات الحضارة العربية الاسلامية أوان ايناعها فى القرنين الثالث والرابع الهجريين من ناحية وانجازات الغرب فى التنظيم الاجتماعى الحديث من ناحية أخرى. ومثلت هذه السبيكة صياغة عامة ولكنها قابلة للتعيين والتحديد مع الزمن. كان الطرف الأول من المعادلة ينهض على مبدأ الهوية. بينما كان من الواضح للمثقف العربى أنه لا يمكن تجنب الأخذ بالانجازات الغربية الحديثة بما تشتمل عليه من تقدم جبار للانسانية فى مجالات العلم والتكنولوجيا وانبثاقات العقل وفى مجال الحياة المدنية والسياسية، بدءا من الأخلاق المدنية وعلاقات الأسرة وصولا

الى الديموقراطية السياسية. وثارت موجات من النقاش العام مع نشوء الايديولوجيات الكبرى حول الطبيعة المحددة لهـذا المشروع. لقد بدت الليبرالية الاقتصادية لفترة طويلـة مـن الزمن أمرا "طبيعيا" للغاية لأنها - باستثناء قضية التعامل مع المصارف الحديثة وقضايا فرعية أخرى- بدت متوافقة مـع التقاليد التاريخية للنشاط التجارى ولفقه العقود فـى التـاريخ والفكر الاسلامى. كما تعين على الحركات الوطنية والقومية أن تنشئ لنفسها تراثا فكريا وأيديولوجيا مستفيضا. ونشـأت الماركسية والفاشية العربية بعد ذلك بزمن، لكى تعبـر مـن ناحية عن أقصى مستويات الخصومة والعداء تجاه الاستعمار الغربى من ناحية وعن الاحبـاط الناشـىء عـن المـداخل التفاوضية لنيل الاستقلال، وعن الاذلال والفقـر والاقـتلاع الاجتماعى الذى تسببت فيه الملكية الفردية للأرض والثـروة من ناحية أخرى.

لقد ضمنت الحالـة الليبراليـة السياسـية التـى شـهدتها المجتمعات العربية خلال القرن التاسع عشر والنصـف الأول من القرن العشرين حدا أدنى مـن التسـامح أمـام مبـادلات وتدفقات الأفكار. ولكن موجات من العنف ثارت أيضـا مـن باطن المجتمع وأثرت كثيرا علـى مجـرى النقـاش العـام. وعكست تلك الموجات التوترات الدفينـة لمجتمعـات نقلـت بتكويناتها الداخلية القديمة المتصدعة الى فضاء حداثة عدوانية ومهيمنة. ولكن تلك الموجات لا تقارن مطلقا بعواصف العنف التى بدأت تثور فى العالم العربى منذ عقد الخمسـينات مـن القرن العشرين، وعندما بدا أن حركات التحرر الوطنى فـى طريقها للانتصار. وولدت الدولة العربية المسـتقلة متوحشـة بالفعل، سواء فى تعاملاتها مع المثقفين أو مع المجتمع نفسـه. ووجد هذا التـوحش تبريـره فـى الأيـديولوجيات القوميـة والماركسية والاسلامية التى لم يسلم أى منها من نزعة قويـة لممارسة جراحات عميقة وفظة على المستويات الاجتماعيـة والثقافية والايديولوجية والسياسية. وتفاوتت تلـك الجراحـات تبعا للطبيعة الشخصية للجراح: أى الزعيم، والطبقة والحزب السياسى المهيمن. كما تفاوتت من حيث الشدة وفقـا للتـراث القديم أو المستحدث للمجتمعات ذاتها.

وفى حالة العراق، وصلت تلك الجراحات الى حد جـرائم الإبادة الجماعية والاستئصال الشامل لقطاعات بكاملها مـن السكان أو المجتمع. فخلال سنى حكم صـدام حسـين، فقـد ملايين من الناس حياتهم وأرزاقهم بل وحقهم فى الحياة فـى وطنهم وهم آمنون على أنفسهم وأسرهم من البطش الذى لـم يحده قانون أو قيمة أخلاقية أو حتى الدور التـاريخى فـى الحركة الوطنية والقومية أو الحياة الثقافية والاقتصادية. ولم يكن هناك مثقف يجرؤ على المعارضة أو النقد إلا إذا كـان بعيدا عن ذراع الدولة وقبضتها الحديدية. لم يكن هناك مـن هو محصن أو أمن ولو كان ساكنا وساكتا، بل وحتى موافقا أو حليفا أو من داخل الحلقات الضيقة للسلطة. وصنع صدام حسين لنفسه أسطورة قسوة عدمية لا يباريها غير الأسـاطير المشابهة فى التاريخ مثل نيرون والحجاج الثقفـى وجنكيـز خان.

ولكن كل ذلك مثل المحنة الشخصية والسياسية الاعتيادية التى يواجهها أى مثقف نقدى. أما ما وقع فى سياق العـدوان الأنجلو أمريكى الوحشى على العراق، فمثل محنة لا تدانيها محنة أخرى.

لا يمكن لأى مثقف أو عالم نزيه أن يعفى نظـام صـدام حسين من المسئولية عما وقع للعراق من دمار فى حلقـات ثلاثة من الحروب والعنـف: الحـرب العراقيـة الايرانيـة ١٩٨٠-١٩٨٨، حرب الكويت بشقيها: أى الاحتلال العراقى للكويت عام ١٩٩٠ والحرب الأمريكية الدولية ضد العـراق عام ١٩٩١، والتعذيب طويل المدى المتمثل فـى الحصـار والعقوبات الدولية والتى مثل الغزو والاحتلال الكامل للعراق نهايتها المنطقية. كان نظام صدام حسين ودولته وعصبته فى قلب تلك المحنة المريعة برعونته وانعـدام مسـئوليته فـى التعاطى مع مفهوم الحرب وجهلـه بهـا، وبسـوء ادارتـه للصراعات الدولية فى منطقة الخليج، وبعجزه الكامـل عـن اصلاح نفسه من الداخل وبفساده المتفشى والمخيف والذى تم تجاهله بصورة تامة حتى فى أكثر تحليلات المحنة العراقيـة أمانة واستقامة.

لم يكن المثقف العراقى وحده فى هذه المحنة. وأشهد أنى كنت منذ منتصف السبعينات بالغ الحساسية لمحنـة المثقـف والمجتمع العراقى. ولهذا كنت أعجب مـن لجـوء بعـض المثقفين المصريين للعراق وللعيش فى ظل هذا النظام، ربما

بحثا عن تضامن عراقى مع نضالهم لوقف الانقلاب الساداتى على ميراث وتقاليد الحركة الوطنية المصرية. لقد عجبت من هذا الاختيار الشاذ الذى يتقوى من الرمضاء بالنار. وكنـت أعتقد أننا نحن فى مصر مسئولون جزئيا عن نشر وشرعنة تلك النظم التى أطاحت بالحريات العامة باسم الثورة والتقـدم ومحاربة الاستعمار وغيرها من الشعارات. بل كنت أعتقـد حتى فى ذلك الوقت المبكر أننا رغم أن نصيبنا من المحنـة العربية العامة أفضل حالا من المثقف العراقى، وأنه يحتـاج الى تضامننا بأكثر بكثير مما كنا بحاجة لتضامنه. وعنـدما أنظر الى الوراء أقول لنفسى إنى قمت بواجبى فى نقد هـذا النظام ورفض محاولات تجميله.

ومن ناحية أخرى، فان الانقلابات المتوالية التـى دبرهـا صدام حسين وصفى فى سياقها أفضـل عناصـر المجتمـع العراقى، بدءا بالأكراد ومرورا بالشيوعيين ثم بأرقى عقـول البعث العراقى نفسه، أقنعتنى بأنه يعجل بأزمة داخلية مريعة فى العراق قد تنتهى الى كارثة إقليمية، وهو ما حدث عندما أقدم فى مغامرة جاهلة ومغرورة على شـن الحـرب علـى ايران عام ١٩٨٠. وأذكر أننا استقبلنا فى بدايـة الثمانينـات

أحد أهم الساسة العراقيين فى مركـز الدراسـات السياسـية والاستراتيجية، ودارت مناقشات قوية حول الأخطاء المريعة فى قرار شن الحرب. وقال الرجل أن الحرب كانت دفاعية، لأن المدفعية الايرانية كانت تفتح نيرانها على المدن والقرى الحدودية العراقية. وقلت بدورى أن هذه هى تحديدا الحجـة الى يستخدمها الاسرائيليون فى العدوان على الدول العربيـة ويبررونه كرد دفاعى على عمليات الفـدائيين الفلسـطينيين. وكنت واعيا بأن قطاعا من الساسة الايرانيين يبحـث عـن طريقة لتصدير الثورة الخومينيـة الـى المحـيط الاقليمـى القريب. ولكنى كنت واثقا بأن العراق يملك وسائلة لحمايـة نفسه دون الحاجة للقيام بعملية غزو كبيرة من النوع الذى قام به صدام حسين. وذكرت هذا السياسى العراقى بـأن إيـران أكبر من العراق ثلاث مرات من حيث عدد السكان والنـاتج المحلى الاجمالى، وأنها بدأت طريقها الى الحداثة قبله بنحـو نصف قرن على الأقل، وأن من الأخطاء التاريخية أن تشـن حربا ضد ثورة ملتهبة اعتقادا بأن البلد يمر بحالـة ضـعف تغرى بحسم الصراعات التاريخية حول الحدود البحرية.

ومن المفارقات الكبرى أن الأمريكيين استخدموا نظريـة صدام حسين فى الحرب الوقائية أو الضربات الاستباقية بعد ذلك لتبرير غزو العراق. ولم يكن من الممكن قبـول تلـك النظرية فى ذلك الوقت لتبرير غزو ايران، كمـا لا يمكـن قبول هذه النظرية الآن لتبرير غزو العراق.

لقد كان قرار غزو العراق كامنا علـى نحـو مـا فـى التصفيات الدموية للنخبة العراقية الحـرة بكافـة تياراتهـا السياسية بما فيها النخبة المؤسسة لحزب البعث. كما أن قرار غزو الكويت عام ١٩٩٠ كان كامنا فـى الـبطش الـداخلى والحرب ضد ايران معا. وقد عشت كمثقـف عربـى هـذه الأحداث بقدر كبير من الوضوح الذهنى والألم الروحى معا. وكان أن عارضت الغزو العراقى للكويت الذى حظى بكـل أسف بتأييد كبير من المثقفين العرب وخاصة المغاربة. وهنا استدعيت نفس الصورة ونفس المبررات التى ساقت عشرات من المثقفين التقدميين المصريين للاسـتعانة بنظـام صـدام حسين للتخلص من نكباتهم الخاصة. وكنت أفهم أن المشـكلة لم تعد مجرد خلاص الكويت من براثن نظام همجى فحسب، بل صارت تضم أيضا ضرورة خلاص العراق مـن شـبح الحرب الأمريكية التى رفضتها بـدورها. ولـذلك تقـدمت

بصيغة لتسوية الصراع بين المعسكرين العربيين المتواجهين بعد نهاية الأزمة عام ١٩٩١، وذلك فى اطار نـدوة عقـدها مركز دراسات الوحدة العربية بتونس، وثارت حولها ماقشات عاصفة، بسبب رفض المثقفين المغاربة لها. وشـملت تلـك الصيغة تنحى صدام حسين مقابل تنازل الكويت وغيرها من الدول العربية عن التعويضات وعما كسبته من أراض بسبب ترسيم الحدود بصورة مغايرة للوضع قبل غزو الكويت.

وقد شاركت مثل غيرى فى الكتابة حول هـذه الأمـور والمحن، بقدر ما أتاحت الصحافة العربية من حرية خـلال هذه الفترة. ولكنى لم أحتفظ بهذه المساهمات الفكريـة فـى وقتها. ومن الصعب بمكان أن استرجعها الآن. ولذلك قلـت لنفسى أنه صار من المناسب أن أوثق مواقفى كمثقف عربى من المحنة العراقية الراهنة قبيل وأثناء وبعد الغزو والاحتلال الأمريكى للعراق. فقد خشيت أن تضـيع تلـك المسـاهمات المنشورة فى الصحف العربية، مثلما ضاعت سابقاتها. ولذلك قررت إصدار هذا الكتاب كوثيقة ربما للدراسة مـن جانـب جيل مقبل من المثقفين العرب، وربما لتمثيل موقف من بـين المواقف المتصارعة فى الساحة الفكرية والسياسية العربيـة حول قضية على هذه الدرجة من الدقة والتعقيد.

وقد عشت وتفاعلت مع المحنة العراقية الراهنة جزئيا فى الولايات المتحدة، حيث كنت أعمل مراسلا للأهرام ورئـيس مكاتبه هناك. وكنت قد قررت العودة الى الوطن قبيل الغزو الأمريكى للعراق فى فبراير ومارس ٢٠٠٣. والواقع أنـى كنت متأكدا كما يظهر من مسـاهماتى بجريـدتى الأهـرام والاتحاد الظبيانية من وقوع الغزو. وحقيقة الأمـر أن هـذا الاعتقاد شكل أحد الاعتبارات التى حسمت قرارى بعدم البقاء فى الولايات المتحدة. فرغم أن الاعتبارات المهنية تقول بأن البقاء هناك أكثر إثارة وأهمية من أى وقت اخر، فلـم أكـن أحتمل أن أعيش فى هذا البلد الذى يقـوم بعـدوان وحشـى لاحتلال بلد عربى وتغيير نظامه السياسى بالقوة فى إشارة لا تخطؤها العين للعودة للنظام الاستعمارى الذى جـثم علـى صدر بلادنا لعقود طويلة.

إن نظام صدام حسين كان مسئولا عن المحنـة العراقيـة الممتدة، بما فيها مسئوليته الجزئية عن الوصول بالأوضـاع السياسية الى حد تمكين ادارة بوش من القيام بالغزو. ولكـن المسئولية الأمريكية عن المحنة العراقية كبيـرة وجوهريـة حتى قبل الغزو. فقد شجعت الولايات المتحدة صدام حسـين

على غزوالكويت. كما أنها قامت بمقابلـة الغـزو العراقـى للكويت بتطبيق أكثر السيناريوهات وحشية. فالعقوبات التـى فرضت على العراق هى الأطول والأسـوأ فـى التـاريخ، والحرب التى شنت ضد العراق عام ١٩٩١ كانت واحدة من أكثر الحروب همجية، وتجاوزت بكثير كل ما هو قابل للفهم من الناحية العسكرية. ولكن غزو واحتلال العراق يعكس هذه المسئولية الجوهرية عن محنة العراق والعرب بدرجة أكبـر بما لا يقاس. وكنت ولا أزال أعتبر أن ادارة بـوش تمثـل تحديا هائلا للبشرية بنزعاتها اللاعقلانية واعتمادها المطلـق على العنف للقيام بانقلاب كامل ضد النظام الـدولى ونمـط العلاقات الدولية الذى نشأ بعد انحسار الاستعمار الأوربـى ونجاح حركات التحرر الوطنى فى الحصول على نفوذ كبير داخل منظومة الأمم المتحدة. والواقع أنى قمت بجهد كبيـر لإيقاظ مراكز البحوث فى واشنطن على حقيقـة المشـروع الامبراطورى الأمريكى والكوارث التى يجلبها غزو العراق على بلادهم ذاتها وبالطبع على العالم كله.

وكنت قد أشرت الى النتائج المريعة المتوقعة للغزو أثناء تغطية النقاشات التى دارت فى الولايات المتحدة حول نوايـا ادارة بوش فى مقالاتى بجريدتى الأهرام والاتحاد وغيرهمـا من الصحف العربية. ومن المؤلم أن نـرى تجسـيدا لهـذه النبوءات فى الكوارث المريعة التى حاقت بالعراق بعد هـذا الغزو. وقد عشت هذه النتائج أيضا بقدر كبير من المـرارة وبقدر ما أسعفتنى أدواتى المعرفية فى فهم وتحليل ما يجرى فى هذا البلد العظيم.

لقد واجه المثقف العربى من جديد نفـس المحنـة التـى واجهت أجداده فى القرن التاسع عشر والنصف الأول مـن القرن العشرين وإن فى ظروف مختلفة قليلا. يتعرض الوطن للغزو والاحتلال. ولا يمكن التصالح مع هذا العمل الإجرامى أو السكوت عنه بتوظيف صـياغات تبريريـة. صـحيح أن الحكام والحكومات العربية وعلى رأسها نظام صدام حسـين منعدمة المسئولية وأن المجتمع قد أسلم قياده لـنظم باطشـة ودموية فضلا عن أنها فاسدة وعاجزة عـن انجـاز تحـول تقدمى واقتلاع التخلف الاقتصادى والاجتمـاعى. ولكـن لا يمكن توقع أن يؤدى الاحتلال الى أى خير، كمـا لا يمكـن

قبول الاهانة الرهيبة الكامنة فى الاحتلال. وكنت متأكدا مـن أن الدولة الصدامية فى العراق عاجزة عـن الـدفاع عـن الاستقلال الوطنى. وقد سعيت مع كثير من المثقفين العـرب لإبداع صيغة لانقاذ العراق قبل الغزو. ولكـن تقـديرى أن الدفاع عن العراق هو حق وواجب على كل عربى.

لقد طرح الاحتلال قضايا جديدة تمامـا علـى المثقـف العراقى والعربى. فمحنة العراق ليست قابلة للاختزال فـى الاحتلال وحده. بل هى أيضا كامنة فـى التـراث الـدموى المخيف لنظام صدام حسين. ولكنهـا أيضـا ليسـت قابلـة للاختزال فى مسئولية النظام الحاكم. فالامبريالية والاحـتلال والعنف الاستعمارى العنصرى يمثل الجانب المباشر والداهم للمحنة. ولذلك فان الموقف السليم يملـى – فـى تقـديرى- النضال ضد الاحتلال دون الوقوع فى فخ التمهيد لعودة نظام مشابه أو أسوأ من نظام صدام حسين. وأن الشعب العراقـى يستحق أن يحقق تحرره عبر صيغة نضال من أجـل بنـاء دولة ديموقرطية وحرة وموحدة. ولكن التطـورات الفعليـة جرت فى طريق آخر. فقد تشكلت المقاومة العسكرية أساسـا من قوى تدعو الى نظام مشابة أو أشد شمولية وقسـوة مـن نظام صدام حسين. كما أن القوى التى ورثت السلطة فى ظل

الاحتلال افتقرت الى فهم صحيح لضرورة اسـناد المطلـب الديموقراطى بالنضال الوطنى والعمـل علـى الانسـحاب الفورى للقوات المعتدية. وكان تقديرى ولا يزال أنه لم تعـد ثمة إمكانية للفصل بين الحق فى تقرير المصير والحق فـى الديموقراطية. فالحرية الخارجية لن يكون لها معنى بـدون حرية داخلية، ومن العبث أن تقـوم القـوى الديموقراطيـة بالنضال من أجل الاستقلال على نحو يجعلها تسلم السـلطة لحكومة أو نظام يقوم باستئصـالها. كمـا أن مـن العبـث والتواطؤ شن نضال ديموقراطى يتصالح مع الاحتلال.

لقد عشنا كمثقفين عرب ألم هذه التجربة واختلفنا واتفقنـا. وأحاول فى هذا الكتاب توثيق أرائى الشخصية فى المسـائل التى يدور حولها النقاش على امتداد العالم العربى، بل وعلى اتساع العالم كله. وأفهم تماما أن مواقفى ليست بالضـرورة هى المواقف الصحيحة، وأنها مواقف أقليـة مـن المثقفـين العرب الذين يتناسون جرائم صدام حسين وعصابته بسـبب التركيز المطلق على انهاء الاحـتلال، أو بسـبب الحمـاس الايديولوجى لهذا النظام. ولا شك أن صراع الأفكـار هـو الطريقة الوحيدة لصنع مستقبل عربى وتجربة سياسية عربية أصيلة. وأنا أتقدم للقارىء العربـى مـن الأجيـال الحاليـة والمستقبلية كتمثيل لتيار فكرى وتحليلى مقابل تيارات أخرى.

هذه إذن تجربة ألم، ولكنها أيضا تجربة اجتهاد قمت بـه كصحفى ومثقف أنتمى الى هذه الأمة المنكوبة. ولعـل هـذه التجربة تكون نبراسا للأجيال المقبلة يتعلمون منها حتـى لا تقع نفس الأخطاء فتعيش نفس الألم ونفس المحنة.

يبقى تحفظ واحد، وهو أن على الكاتب أن يختـار حجـم كتابه. وقد أخترت ألا أرهق القارىء بكل ما نشـرته حـول الموضوع فى الصحافة العربية، ناهيك عما قدمته من أوراق وأراء حول الموضوع فى المؤتمرات والورش والمنتـديات العربية. إذ يكفى أن أقدم فى هذا الكتاب عينة من تلك الآراء المنشورة وليس كل ما نشر، وذلك بحيث تغطى تلك المقالات المنتخبة لحظات زمنية متتالية وقضايا نوعية متعددة وبحيث تمثل فى مجموعها عينة ممثلة تمثيلا كاملا لأرائـى حـول محنة العراق منذ طرح مشروع غزو العراق بجديـة علـى الرأى العام الأمريكى. ويأسف المؤلف أن الوقت لم يسـعفه لتسجيل تاريخ نشر كل مقال، ولذلك وضعت المقالات فـى ترتيبها المنطقى، وليس بالضرورة ترتيبها الزمنى.

لا أطلب من القارىء أن يتفق معى، وإنما أطلـب منـه إعمال عقله فى القضايا المثارة وأن يختلف ويتفق بقدر مـا يعبر عن ذاتيته وعن تطلعاته لمستقبل عربى بديل، يتجـاوز فيما أتمنى جرائم وتشوهات النظم التى حكمتنا بالحديد والنار دون أن تحقق إنجازا يذكر يجعلنا نغفر أو على الأقل نتفهم. أريد من القارىء أيضا أن يدرك- وهذا رأيى الخـاص- أن جرائم تلك النظم والتى أدت بنا الى العودة للاسـتعمار هـى مسئولية مشتركة. فنحن أيضا كمثقفين ومواطنين مسـئولون عما وقع لبلادنا. ولذلك فان فعل القراءة يجب أن يكون جدليا وتأمليا، بمعنى قراءة قادرة على التجاوز الجـدلى للـذات، وصولا الى صياغة مشروع عربى نهضوى جديد وصـياغة ذات عربية جاهزة لتحمل مسئوليات هذا المشروع.

الباب الأول

قبل الغزو

(١) هل العراق مرشح حقا؟

ثمة إحياء منظم ودءوب لا شك فيه لفكرة قيام الولايـات المتحدة بإسقاط نظام الرئيس صدام حسين. الفكرة تتردد علنا في أروقة الكونجرس والصحافة الأمريكية وفى تصـريحات وخطب ساسة أمريكيين من الحزب الجمهوري خاصة. بـل إن بعض رجال الكونجرس يجوبون العالم بما فيـه العـالم العربي في محاولة لتعبئة التأييد للفكرة. فما هي احتمالاتهـا التقديرية؟ وهل يمكن التكهن بهذه الاحتمالات؟.

محركات العدوان :

من المستبعد أن يكون هناك قرار تنفيذي بغزو العراق أو شن حرب شاملة للإطاحة بنظامه السياسـي. ولكـن البيئـة الأمريكية تشتمل على عناصر قوية تدفع لاتخاذ هذا القـرار وتجعله محتملا احتمالا عاليا. ومن ناحية ثانية فـالموقف لا يزال متحركا وقابلا للصياغة والبلورة بأكثر مـن طريقـة. ويتوقف الأمر الى حد بعيد على الطريقـة التـى أدار بهـا وسيدير بها الحكم العراقي اللعبة السياسية وما قد تلـده مـن أزمات مقصودة أو غير مقصودة.

دعنا نبدأ بالعناصر التى تقود المراقبين السياسيين للاعتقاد بأرجحية شن حرب أمريكية على العراق.

أول هذه العناصر هى " النصر" الأمريكي الساحق في الحرب الأفغانية. فنجاح أمريكا في إسقاط حكومة الطالبان وتشكيل حكومة بديلة تحظى بمباركة الأمم المتحدة والتجمعات السكانية الكبرى في أفغانستان وذلك في وقت قياسي يشجعها على تكرار نفس التجربة في العراق.

ويرتبط بذلك عامل ثاني وهو أن تجربة الحرب الأمريكية في أفغانستان أزالت الكثير من المخاوف التى ربما كانت تحول دون تكرار التجربة في بلاد أخرى على رأسها العراق. فأمريكا لم تسجل خسائر بشرية تذكر في أفغانستان حتى الآن بفضل تطبيق نفس استراتيجية الحرب الجوية البرية التى كانت قد طبقتها بنجاح ضد العراق ودولة الصرب. ومن ثم فان مخاوف " فيتنام أخرى" لم تعد واردة. كما أن المخاوف من ردود فعل سلبية واسعة ومقلقة من العالم العربي لم يثبت أنها صحيحة. وأهم من كل ذلك أن سيناريو الفوضى المخيف والرهيب بعد زوال الحكومة القائمة لم يثبت صحته حتى الآن في حالة أفغانستان وهى حالة كان من المتصور أنها أعقد من العراق.

أما العنصر الأساسي والـذي يـرجح تكـرار تجربـة أفغانستان ضد العراق فهو وجود دوافع قوية داخل السـاحة الأمريكية لاقتلاع نظام الرئيس صدام حسين. بعـض هـذه الدوافع قديمة وتنتمي للحرب الأولى ضد العراق. فـالرئيس بوش الابن وجه لسلفه كلينتون أثناء المعركة الانتخابية نقـدا مريرا بسبب فشله في الإطاحة بالرئيس صدام حسين مشيرا إلى تأكيدات الأخير أنه انتصر في حـرب الخلـيج الثانيـة. ويؤكد من يعرفون بوش الابن عن كثب أنه يتوق الى إكمال ما فعله أبوه في عام ١٩٩١ بتصفية النظام البعثى كلية فـي العراق.

يضاف الى هذا كله دوافع استجدت على الساحة الأمريكية وصارت مؤثرة بشدة على السيكلوجيا والسياسة الأمريكيـة بعد أحداث ١١ سبتمبر وأفغانستان. فثمة -على مـا يبـدو- مس من الكراهية الشديدة للحكومات العربية جمعاء أصـاب قطاعا كبيرا من السياسة الأمريكية وخاصة من اليمين. وثمة نوع من نفسية الانتقام المزاح لأحداث ١١ سبتمبر. فحيث أن الولايات المتحدة لا تستطيع شن الحرب على العرب أجمعين ولا إعلان "جهاد" مضاد ضد العرب والمسلمين بأسرهم فان

نقل الحرب الأمريكية آلي العراق بعد استكمال أهدافها فـي أفغانستان قد يشفى غليل هذا القطاع. ولا شـك أن اليمـين الصهيوني المناصر لليكود في الولايات المتحدة قـد نشـط لتغذية هذه المشاعر التى زادت رواجا بعد النجاح في القضاء على الطالبان. ويكفيه تماما لهذا الغرض مجرد ترجمة مـا ينشر في الصحافة العربية من خطاب كاره لأمريكـا وهـى الترجمة التى تقوم مؤسسات صهيونية متخصصة بها بصورة منهجية بهدف إثارة النخبة الاسـتراتيجية الأمريكيـة ضـد العرب جميعا بمن فيهم المصريين.

العوامل اللاجمة :

ومقابل ذلك كله ثمة عوامل مضـادة عديـدة قـد تلجـم الاندفاع الأمريكي لشن حرب ضد العراق. على رأس هـذه العوامل جميعا انعـدام حماسـة حلفـاء أمريكـا الـدوليين والإقليميين لهذه الخطوة الخطيرة. ومن المتوقع أن تسـتمر معارضة معظم الدول الكبرى لهذه النوايا. لقد أعلنت غالبية الدول الأوروبية معارضتها بالفعل لتوسيع نطاق الحملة ضد الإرهاب. وأعلنت روسيا والصين موقفا أقوى تجـاه مبـدأ تغيير النظام السياسي لأية دولة بالقوة.

ويرتبط بنفس المعنى أن قيام أمريكا بشن الحـرب علـى العراق بهدف تغيير النظام السياسي بالقوة ينسـف المبـادئ الأساسية للنظام الدولي كما هي مسجلة فـي ميثـاق الأمـم المتحدة. واتخاذ هذه الخطوة يسبب ذعرا حقيقيا فـي العـالم كله. إذ يهدم النظام الدولي من أساسه. وقد لا يعود بالعـالم إلي عهد الاستعمار التقليدي ولكنه بكل تأكيد يفضـي إلـي تكريس تحول الولايات المتحدة إلي إمبراطورية ويجعل بقية دول العالم "تابعيات" لها.

فثمة فارق نوعى بين الحرب التى شنتها الولايات المتحدة على العراق عام ١٩٩١ وأية حرب أخرى أو جديدة ضد هذا البلد العربي المكلوم. فالأولى جرت باسم رد عـدوان أمـا الثانية فلن يكون لها تسمية سوى العدوان نفسـه. إذ فشـلت المحاولات المستميتة التى تقوم بها أجهـزة وقـوى يمينيـة مختلفة لاتهام العراق في التورط في أحداث ١١ سبتمبر بما يبرر استخدام حجة الدفاع عـن الـنفس كمـا حـدث مـع أفغانستان.

ثمة عامل ثالث قد يحول دون أقدام أمريكـا علـى شـن الحرب ضد العراق وهو النتائج الإقليميـة. فجميـع الـدول العربية تعارض بشدة- على الأقل في العلن- شـن حـرب أمريكية ضد آي بلد عربي بما فيه العراق. ولا شك أيضا أن قيام أمريكا بهذه الخطوة ستشكل سابقة قد تقيس عليهـا فـي حالات تالية وهو ما يعنى أن آي وكل بلد عربي قد يكـون معرضا في آي لحظة في المستقبل لخطوة مماثلـة. ولهـذه المسألة أهمية حاسمة نظرا لأن ضرب العـراق أو آي بلـد عربي أخر لا بد أن تصب لصالح نظرية صراع الحضارات آي أنها ستفسر حتما كاستمرار لاستهداف العرب والمسلمين وهو ما يزال العالم الغربي كله مصمما على تجنبه أو علـى الأقل تجنب الإيحاء به.

وهناك عامل رابع بالطبع يتمثل في استحالة انطباق تجربة حرب كبيرة على حرب أخرى. وليس من المعـروف مـدى المقاومة آلتي قد يبديها العراق ومن ثم مدى الحاجة آي إدخال عنصر القوات البرية الأمريكية في العلميات بالمخالفـة لمـا حدث في حالة أفغانستان التى قام فيها التحالف الشـمالي ثـم القبائل البشتونية بالدور المباشر على الأرض مما أغنى أمريكا عن دفع جنودها والمخاطرة بآي قدر من الخسائر البشرية.

إمكانية تجنب الحرب :

آي من هاتين المجموعتين من العوامل ستكون له الغلبـة في المستقبل القريب؟ يلاحظ القارئ الكـريم أننـا تعمـدنا تصوير موضوعنا كمسألة مفتوحة. فأمريكا تشهد محـاولات مستميتة لتكوين بيئة توسيع الضربة لتشمل العـراق. ولكـن القرار لم يتخذ. وحتى لو اتخذ فلابد أن تكون هناك ذريعـة. وعملية تخليق الذريعة وضمان نجاحهـا هـو مـا يسـمى بالمؤامرة بالمعنى الفني الدقيق للكلمة.

المسألة مفتوحة إذن بمعنى أعمق. إذ أنها تعتمد اعتمـادا كبيرا جدا على ابتلاع العراق للطعم الذي تبدأ به الذريعة أو خلق مبرر شن الحرب. قد يبتلع العراق الطعم كالعادة. ولكنه قد لا يبتلعه ويتصرف بحكمة مضيعا- على من يريد الإيقاع به - الفرصة تلو الفرصة. بل أن العراق يملـك نظريـا أن يبدد البيئة التى تتكون لتبرير العدوان عليه إذا ما فاجأ العالم بطائفة من التدابير الجديدة وغير المتوقعة مثل عملية قويـة للإصلاح والمصالحة الداخليـة وسلسـلة مـن المبـادرات الخارجية التى تحرم اليمين الأمريكي مـن ادعـاء حمايـة وتأمين "جيران" العراق.

هذا ما يجب أن نفهمه كعرب. فحتى لو تأكدنا أن الآخرين ينوون الإيقاع بنا فإننا لا يجب أن نسهل مهمـتهم. السياسـة هي صراع دائم بين عمليات سياسـية بعضـها مـؤامرات وبعضها مزايدات ومناقصات أو ببساطة تدابير لتحسين موقع أو صورة دولة ما بالمقارنة بخصومها المحتملين. هذه هـي السياسة في الدنيا كلها إلا هنا. ففن السياسة عندنا يعنى كيف تكون مبدعا في الإساءة الى نفسك وتسهيل مهمة الخصوم في ضربك ثم الشكوى من مؤامرات الآخرين وإدانـة الزمـان والمكان.

(٢) كيف يفلت العراق
من سيناريو أفغانستان

كل يوم يحمل جديدا في السياسة الأمريكية نحو العـراق. فخلال أسابيع كان نفير الحرب ينطلق من البيـت الأبـيض والبنتاجون وحتى وزارة الخارجية ناهيك عن بعض مراكـز البحث – أو بالأحرى اللولبيات الفكرية و البحثية.

وقد انخفضت حدة النفير قليلا خلال الأسـبوع الماضـي وبصفة أخص خلال زيارة الرئيس بوش لآسيا. وحتى أثنـاء الضجيج العسكري العالي الذي صدر عن واشـنطن حـول العراق لم تكن الأصوات الصادرة عن الإدارة متناغمة،وبدا أن قائد الأوركسترا إما غائب أو واع بما يفعل و أنه تـرك كل عازف يتدرب قليلا أمام المشاهدين قبل البداية الرسمية.

كما أن غالبية المراقبين يعتقدون أن سيناريو أفغانستان أو الفاصل الحاسم و الأشد قوة و غلظة نحو العراق لن يبدأ قبل انتخابات الكونجرس في بداية الخريف. وفـوق ذلـك فـان تصريحات أعضاء مؤثرين في مجلس الشيوخ مثل السيناتور بيرو أوضحت بكل جلاء أن الرئيس لـو طبـق سـيناريو

أفغانستان على العراق سيحتاج الى الذهاب للكونجرس طالبا إعلان الحرب نستنتج من ذلك أمرين :-

الأول : هو أن لدينا على الأرجح – بعض الوقت قبل أن يبدأ الفاصل الحاسـم فـي الصـراع بـين واشنطن وبغداد. وربما نعترف هنا أن مسـألة التوقيت صارت أقل أهمية في هذه الحالة تحديدا لأن الصراع كان قائما طول الوقت،و أن بعض أساليب الصـراع التـى اعترفـت واشـنطن باستخدامها مثل الأعمال الاستخباراتية السـرية بدأ تطبيقها و الأخذ بها بالفعل.

أما الأمر الثاني : فهو أن السياسة الأمريكية نحو العراق فيها جزء لا يزال سائلا.

بمعنى أنه لم يتحدد بعد بصورة نهائية،و هـو مـا يفسـر التقلبات اليومية و التنافر أو على الأقل التباعـد النسـبي فـي التصريحات. ولكن مقابل هذه السيولة التى تسمح بتأثير كبيـر للفاعلين العالميين و الإقليميين ثمة جزء صلب لهذه السياسة. و أظن أن هذا الجزء هو ما عبر عنه رجال و نساء الإدارة بكل وضوح وهو اتخاذ قرار إسقاط نظام الرئيس صـدام حسـين. وهنا يأتي دور الجزء السائل وهو ما يتعلق بالإفراج والشكل.

ولكن هل يعنى اتخاذ قرار التصعيد مع العراق وصـولا الى محاولة إسقاط نظام الرئيس صدام أنه لا توجد طريقـة لتجنب هذا الاحتمال أو تحديدا تجنب الغـزو العسـكري و تطبيق سيناريو أفغانستان؟.

من المعتقد أن الفاعلين العالميين و الإقليميين سـيؤثرون على متغيرات هامة للسيناريو الأفغاني ضد العراق. ولكـن الدولة العراقية وحدها هي التى تستطيع قطع الطريق علـى هذا السيناريو وتفريغ التعبئة المتصاعدة وصولا الى الحرب.

الحلقة الحاسمة إذن هي بغداد و أدائها. وثمة بعـض مـا يطمئن الى حد ما فيما يتعلق بأداء بغداد. فلأول مـرة منـذ أربع سنوات على الأقل تكف بغداد عن اسـتخدام خطـاب التحدى،و عن إطلاق النفيـر و الطبـول مقابـل النفيـر و الطبول. لقد بدأت بغداد تعي أن الإدارة الأمريكيـة الحاليـة جادة في المعنى بالصراع الى نهايته حتى لو وصل الأمـر الى غزو عسكري أو تطبيق سيناريو مشابه بدرجة أو أخرى لما حدث في أفغانستان. و لأول مـرة تـدرك أن الخطـاب العنتري لن يكون هو الذي ينقذ العراق. فالطالبان و القاعـدة استخدما هذا الخطاب دون نتيجة. وحتى لـو أمكـن بغـداد مقاومة غزو عسكري من نوع أو آخر فان العراق.

سيكون قد عاد من جديد الى وضع لا يختلف عما كـان عليه بعد الحرب الأولى في مارس عام ١٩٩١ أي أن كل ما أمكن إصلاحه و إعادة بناءه و تأهيله سـيتم تخريبـه مـن جديد،و أن الدمار الذي قد يلحق بالعراق سـيكون شـديدا و يجب تجنبه بكل الوسائل الممكنة.

هل يعنى ذلك دعوة العراق للاستسلام أو الركـوع؟ لا، بالمرة و إنما دعوة بغداد لفهم حقيقة أن إدارة الصراع علـم يتطلب فهما وخطابا مختلفا عن الخطاب القانوني القائم على الحق أو الخطاب الشعري القائم على الزهـو و الكرامـة و الهجاء و الرثاء.

وإذا اتفقنا على هذه المقدمة، يمكننـا أن نسـتنتج ثلاثـة محاور كبرى لفلسفة إدارة الصراع مع واشـنطن للوصـول الى هدف تجنب الدمار الذي قد يلحـق العـراق و كسـب المعركة السياسية أو على الأقل عـدم خسـارتها بصـورة مؤكدة.

المحور الأول : تكتيكي ويعنى بإجهـاض كـل محاولـة أمريكية للتصعيد و الانتقـال مـن مسـتوى ديبلوماسي – سياسي الى مستوى عنيـف – عسكري للصراع. ويعنى ذلك ضـرورة أن تقبل بغداد بحل معقول لقضية التفتيش التـى تمثل الذريعة الأساسية لاستمرار فتح الملف العراقي في الأمم المتحـدة و فـي السـاحة السياسية و الاسـتراتيجية الدوليـة. بـل و الأفضل هو أن تقوم بغـداد بمبـادرة قابلـة للنجاح بالتنسيق مع الدول الأعضاء الدائمين غير الولايات المتحدة بمجلـس الأمـن. إن تطوير التصريح باستعداد بغداد لحوار غيـر مشروط مع الأمم المتحدة يجب ترجمته بعمل سياسي و دبلوماسي نشط له فرصة حقيقيـة للنجاح في مواجهة الإعاقات التى قد تضعها واشنطن على استجابة الأمانة العامة للأمـم المتحدة.

المحور الثاني : سياسـي جـوهري و يتعلـق بالعلاقـات الإقليمية. ان أقوى ورقة بيد بغداد حتى الآن هو استمرار رفض دول الخلـيج لسـيناريو غزو العراق. وهذا الرفض ينطلق من مبـدأ عام وهو عدم جواز تغيير نظم الحكم بالقوة القهرية الخارجية و هو ما ينسف مبدأ حـق تقرير المصير و سيادة الدول.

ولكن العراق يستطيع أن يدعم هذه الورقـة مـن خـلال مبادرات إقليمية سواءا نحـو الكويـت أو السـعودية ودول الخليج الأخرى بل ان العراق يسـتطيع أن يغيـر جوهريـا الوضع الإقليمي لو أن لديه سياسة جادة و متواصلة لتحسين العلاقات مع إيران في إطار فلسفة جديدة للأمن و الاستقرار الإقليمي و الدولي.

ولكن أهم ما يمكن أن يفعله العراق هو علـى المحـور الثالث أو داخل العراق. تستطيع بغداد أن تغير جوهريا مـن البيئة السياسية المحيطة بمصير العراق إذا ما بدأت عمليـة سياسية جادة للانفتاح و المصالحة الداخلية و إعـادة البنـاء السياسي و الاجتماعي في العراق. الأمر يتطلب أحـداث و مبادرات كبيرة وذات مصداقية حقيقية لوضع دستور جديـد للبلاد يعطى سلطات كبيرة للأقـاليم و حقـوق إدارة ذاتيـة موسعة للجماعات العرقية و القومية و الطائفية ويتيح مناخـا من الحريات العامة ولو في مجال حرية التعبير و التجمع و تشكيل الأحزاب.

إذا بدأت هذه العملية يتكون مناخ عالمي و إقليمي جديـد تماما يجهض عملية التصعيد و يجعلها غير مبررة إطلاقـا، دون أن تكون العراق قـد " ركعـت " لأمريكـا أو قـدمت تنازلات جسيمة أو غيرت اتجـاه السياسـة الاجتماعيـة أو أغارت على الأيديولوجيا القومية.

والأحسن هو أن تبدأ العراق حركة على هـذه المحـاور مجتمعة في وقت واحد أو على نحو شبه متـزامن. عندئـذ سيدافع عنها العالم كله،و نكون قد تجنبنا السـيناريو الأسـوأ ودخلنا مباشرة في السيناريو الأعظم.

(٣) الديموقراطية والحرب
ماذا عن سيناريوهات التطور فى العراق
ما بعد مرحلة صدام؟

شكلت هذه السيناريوهات أحد أهم أبعاد المنـاظرة حـول ملاءمة اتخاذ الادارة الأمريكية لقرار غزو العراق. فالإدارة بررت قرارها أساسا بالاعتبارات الأمنيـة والاسـتراتيجية. والحجة التى استخدمتها الإدارة واليمين الأمريكـى هـى أن العراق يملك أسلحة دمار شامل ويمكـن أن يسـلمها لإحـد المنظمات الإرهابية وخاصة تنظيم "القاعدة" التى قد تفجرهـا داخل الولايات المتحدة. فقال لها المعارضون "حسنا. بوسعكم غزو العراق وإزاحة نظام صدام حسين. ولكن ماذا عن اليوم التالى؟" وهنا تدخلت مختلف مراكز البحوث والسياسة لتقول أن العراق سيكون أفضـل حـالا لأننـا سنؤسـس نظامـا ديموقراطيا". ولكن المعارضين للحرب قالوا بالمقابل إنكم لا تعرفون العراق وهو ليس جاهزا للديموقراطيـة. وواصـل اليسار الأمريكى والعرب الأمريكيون هذه الفكـرة مؤكـدين على أن الديموقراطية ليست شيئا يستورد مـن الخـارج أو

يمكن فرضه من خارج الحدود. وهنا أشار أنصـار الادارة الى نموذج ألمانيا واليابان للتـدليل علـى إمكانيـة نجـاح الديموقراطية فى العراق كما نجحت فى هذين البلـدين بعـد الحرب العالمية الثانية. وينبرى معارضو الحـرب بـدورهم ليبرهنوا على الاختلافات الكبيرة بين حالتى ألمانيا واليابـان من ناحية، وحالة العراق من ناحية أخرى.

ما هى حقيقة الأمر؟ هل يمكن أن يحقق الأمريكيـون أى نجاح فى بناء نظام ديموقراطى بعد قيامهم بغزو العراق؟.

قبل محاولة الإجابة على هذا السؤال لابـد مـن إبـداء ملاحظة مبدئية حول تلك المناظرة. فهدفها هو إثبات ملاءمة أو عدم ملاءمة اتخاذ الادارة الأمريكية لقرار الغزو. وهـى فى الأصل مناظرة أمريكية داخلية تسـتمد عناصـرها مـن التجربة العالمية للولايات المتحدة. وهنا مربط الفرس. لقـد دخل العرب تلك المناظرة لدعم الموقف الأمريكى المناهض للحرب. ولكى يجعلوا حجتهم قوية فقد تبنوا نفس الحجة التى صاغها الأمريكيون المعارضون للحـرب باسـتحالة بنـاء ديموقراطية على أسنة الرماح. ومعنـى ذلـك أن الجانـب العربى لم يفكر فى القضية بصـورة مسـتقلة عـن كسـب المناظرة حول اتخاذ قرار الغزو أصلا.

لكى أكون واضحا تماما فى هذه القضية، فما أقوله هو أنه يجب المحاجاة ضد الحرب والغزو انطلاقا من عدم شرعيته فحسب. فاذا قلنا مثلا أن الغزو الأمريكى سـيجلب كارثـة اقتصادية على العراق لصار الغزو مشـروعا إذا أدى فـى نهاية المطاف الى ازدهار اقتصادى. وهذا خلط فى الواقـع ومغالطة فى المنطق. ويصدق نفس الأمر اذا قلنـا مـثلا أن الغزو قرار سىء لأنه قد يؤدى مثلا الى تجزئة العـراق. إذ أن الغزو الأمريكى للعراق قد لا يؤدى إطلاقـا الـى هـذه النتيجة بل قد يؤدى الى نتيجة عكسية. فاذا أقمنا حجتنا ضـد الغزو على نتائج سلبية محددة ولم تصدق النبـوءة يخـتلط الأمر على الأذهان وقد يفهم البعض أن الغزو كسب شرعية.

الغزو أمر غير شرعى لأنه غير شرعى..وهذا هو الأمر ولا خلاف عليه بين أى عدد من خبراء القانون الدولى. وهو غير شرعى حتى لو أدى الى نتائج عملية ايجابية. فالجريمة فى القانون جريمة ليس لأنها تؤدى دائما الى نتائج سـيئة – فبعضها قد يؤدى الى نتائج جيدة- وإنما لأنها انتهاك للقانون وعدوان على حق، وهو هنا العدوان على الحق فى السيادة.

والآن ماذا عن امكانية أن ينجح الأمريكيـون فـى بنـاء ديموقراطية فى العراق؟.

يؤسس القائلون باستحالة توقع امكانية أن تقوم ديموقراطية فى العراق حجتهم علـى جمـل جميلـة بـذاتها مثـل أن الديموقراطية لا تبنى على أسنة الرماح.

ولكن الجمل الجميلة والذكية لغويا قد لا تكون صـحيحة. فالواقع أن الديموقراطية كلها فكرة وممارسـة هـى فكـرة مستوردة. وهى كذلك ليس فقط بالنسبة لنا فى العالم العربـى أو العالم الثالث بل وبالنسبة لأكثرية البلاد الأوربية التى لـم تدخلها الديموقراطية الا كنوع من العدوى والتـأثر بتجربـة البلاد الأوربية أو العربية التى سبقتها مثل بريطانيا وأمريكا.

وتجربة ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية ليسـت سوى نموذج واحد من نماذج متعددة لانتقال الديموقراطيـة الى بلاد لم تكن ذات تجربة أصيلة فيها. بل ونذهب الى مـا هو أبعد من ذلك. فهناك علاقة ما بين الديموقراطية والحرب أو الأزمات الخارجية عموما. فالديموقراطية قد تطرح نفسها كحل لأزمات خارجية أو داخلية بما فى ذلك الحروب الأهلية والدولية. ففرنسا لم تكن تعيش نظاما ديموقراطيا قبل الحرب

الثانية. والجمهورية الرابعة نشأت فى سـياق محـدد بعـد الحرب وهو سياق حتم الحل الديموقراطى الذى كانت النخبة الفرنسية قد انقلبت عليه عام ١٩٣٦. وهذا هو ما حدث أيضا فى ايطاليا. أما الثورات الديموقراطية فى أوربا الشرقية عام ١٩٨٩ فقد انبثقت أساسا كثورات وطنيـة اتخـذت الشـكل الديموقراطى لأنه الشكل الذى عبر عن التوق للانضمام الى الغرب كحماية من التبعية لروسيا أيا كان نظامها السياسـى. ويمكن القول أن الديموقراطية دخلت بقية أوربا مـن بوابـة الحروب والأزمات السياسية الخارجية والداخليـة الكبـرى وليس من بوابة الفكر الدستورى والتأمل السياسى والمذهبى.

ويصدق نفس الأمر بالنسبة للشرق العربى والاسـلامى. فالحركة الديموقراطية نشأت فى الأساس كاستراتيجية دفاعية استهدف من خلالها المصلحون السياسيون والدينيون الكبـار إنعاش الخلافة أو بالأحرى الامبراطورية العثمانية من أجـل تمكينها من الدفاع عن البلاد الاسلامية والعربية فـى وجـه الزحف الغربى. فالفكرة وكانت تسمى "الحكومـة الشـورية" بزغت فى سياق أزمة مستفحلة تهدد فيها الوجود السياسـى المستقل للعرب والمسلمين.

وبايجاز فإن الديموقراطية قد تنشأ عن الحرب والغزو إما كاستراتيجية دفاعية أو كفرض لأمر واقع من جانـب قـوة غالبة مثل الاستعمار الغربى. والقول بأن الديموقراطيـة "لا تفرض بأسنة الرماح" ليس فيه مـن الصـحة التاريخيـة إلا جمالها اللغوى.

ولكن الاستعمار قد لا يفضل الديموقراطية بل قد يقضـى عليها. وهذا هو ما حدث عموما مع الاسـتعمار البريطـانى الذى غالباً ما فضل صـيغة الحكـم عـن طريـق القـوى والشرعيات التقليدية التى حدث أنها لم تكن ديموقراطية. وفى حالة مصر مثلا، كانت هناك ثورة وطنية أنتجـت دسـتورا ديموقراطيا هو دستور ١٨٨١، وجاء الاستعمار البريطـانى للقضاء عليها: أى على الثورة ودستورها الديموقراطى.

ولكن اذا كانت بريطانيا قد شاءت أن تحكم بصورة غيـر مباشرة عن طريق نظام ديموقراطى لم يكن قائما لكانت قـد تمكنت من ذلك. وبكل تأكيد تستطيع الولايـات المتحـدة أن تنشئ ديموقراطية فى العراق لو شاءت ذلك، أو لـو كانـت ترى مصلحة مؤكدة فى ذلك.

ونستطيع أن نخرج من هذه المناقشة بنتيجتين رئيسيتين :

الأولى : هى أنه حتى لو انصرفت نية الولايات المتحـدة الى تأسيس نظام ديموقراطى فى العراق بعد شـن الحرب عليه، فان نجاحها فى ذلك – وهـو أمـر محتمل بل ومرجح- لا يضفى شرعية على الغزو أو الاحتلال. ومن الناحية العملية، فبمجرد أن تنشأ ديموقراطية فى العراق سوف يتعين على أمريكا أن ترحل عنه.

والثانية : هى أن سيناريو (بيدى لا بيد عمرو) أى إنجـاز تحول سريع فى نظام الحكم فى العراق على نحـو يقود الى نظام ديموقراطى بضمانات دولية قد يكون الحل الوحيد الذى يجنب العراق الغزو والاحتلال. ومثل هذا السيناريو ليس مضمون النجـاح ولكـن نجاحه ليس مستحيلا. وربما يكون ذلك هو الحـل السحرى الذى يهفو الجميع الى تحققه ولو بمعجزة.

(٤) السياسة الأمريكية بين ملفي العراق وفلسطين

وسط تحريض واسـع النطـاق ضـد العـالم العربـي والإسلامي كله، بدأ الصهاينة الأمريكيون يطرحـون فكـرة أكثر خطورة من كل أطروحاتهم السابقة، وهـى أن غـزو العراق يساعد على "حل المشكلة الفلسطينية" حلا إسرائيليا-أمريكيا بالطبع. الأمر المريع بالفعل في هذه الفكرة هـو أن الإدارة الأمريكية بدأت منذ خطاب بوش في الرابع والعشرين من يونيو، تتصرف على ضوء هذه الفكرة بغض النظر عما إذا كان هذا التصرف ناتجا عن غريزة أيديولوجية وتعصبية داخل الإدارة ذاتها أم عن دراسة وبحث مستفيض في البدائل الميدانية للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط أو عن طريق الهيمنة المباشرة والوثيقـة التـي صـارت دوائـر اليمـين الصهيوني تتمتع بها فـي هـذه الإدارة ولـيس فقـط فـي الكونجرس أو غيره من مؤسسات الدولة الأمريكية

ترتب على هذه الفكـرة ظاهرتـان تميـزان المواقـف الأمريكية خلال الشهرين الماضيين.

الظاهرة الأولى هي أن الإدارة الأمريكية تركت التعامـل مع الشعب الفلسطيني وسلطته الوطنية تماما بيـد شـارون ورفاقه في الحكومة الإسرائيلية الراهنة، ولم تعد تحرك ساكنا سوى بالتصريحات المعادية للرئيس عرفات وللسـلطة بـل وللفلسطينيين عموما. فالاتفاق المسمى "غـزة أولا" والـذي يفترض أنه دخل حيز التطبيق التجريبي بدءا من يوم الأحـد الماضي، هو مشـروع إسـرائيلي صـرف لا دخـل فيـه للأمريكيين. ولكن الدليل الأهم على أن السياسـة الأمريكيـة أقلعت فعلا عن التعامل بأي قدر من الاستقلالية عن حكومة شارون فيما يتعلق بالملف الفلسـطيني، هـو أن الإدارة لـم تناقش أية ترتيبات عملية مع الوفد الثلاثي الفلسطيني الأخير برئاسة صائب عريقات. وذهبت كافة الأفكار التـي كانـت وزارة الخارجية الأمريكية تعدها للتنفيـذ خـلال الصـيف والخريف القادمين. فلم يعد هناك حديث عن مؤتمر دولي أو حتى عن انتخابات فلسطينية. وليس هناك أي تحرك يـذكر حول المعونات الإنسانية أو الإصلاح السياسي. فكـل ذلـك صار قرارا إسرائيليا لا شأن فيه للأمريكيين.

أما الظاهرة الثانية، فهي احتلال الملف العراقي لأولويـة اهتمامات الإدارة الأمريكية في المنطقة بل في العالم كله بدلا من الملف الفلسطيني. ويكـاد الاهتمـام بـالملف العراقـي والمناظرات الغريبة التي تدور حوله، تطغى لأول مرة منـذ الحرب العالمية الثانية على القضايا المحلية وتتفوق عليها كما وكثافة.

صحيح أن الملف العراقي أو استهداف العراق بالغزو كان مشروعا معلنا منذ بدء هذه الإدارة، غير أنه ظل طوال هذه الفترة مجرد مشروع أيديولوجي يعكس النوايا أكثر منه ملفاً للعمل المباشر. الآن غادر هذا المشروع العسكري العدواني دائرة النوايا غير محددة الزمن والأطر السياسـية ليصـبح الملف الموضوع على مائدة البحث من أجل التصرف واتخاذ القرار.

دخول الملف العراقي لحيز العمليات السياسـية ولـدائرة اتخاذ القرار العملي لا يعنى أنه ظل طوال هذا الوقت ساكنا. فمنذ البداية كنا نعرف أن لدى إدارة بـوش نوايـا محـددة ومعلنة لغزو العراق وإطاحـة الـرئيس صـدام حسـين أو تصفيته. ولكن هذا المشروع مر بمراحل. فبعد تـولي هـذه

الإدارة مباشرة وربما حتى وقوع أحداث ١١ سبتمبر، كـان هذا المشروع في دائرة الضوء باعتباره حجر الزاويـة فـي السياسة الجديدة نحو الشرق الأوسط. وتمثلت الحجة الرئيسية وراء هذا المشروع العسكري العدواني في أن السياسة التـي انتهجتها الإدارات السابقة والتي تسمى الاحتواء المـزدوج، فشلت في إحداث التغييرات المطلوبة داخل العراق وفى البيئة الإقليمية العربية والشرق أوسطية. بل إنها مكنت (الـرئيس) صدام حسين من الإسراع في تطبيق برنامج أسلحة الـدمار الشامل. ولم يعد مجرد إعادة لجنة التفتـيش التابعـة للأمـم المتحدة كافيا لتحقيـق الأهـداف الأمريكيـة والإسـرائيلية. وتحضيرا لهذا المشروع العسكري طرحـت الإدارة فكـرة العقوبات الذكية كبديل للعقوبات القائمـة. وظلـت الفكـرة الأخيرة تتعثر لفترة حتى بعد وقوع أحداث ١١ سبتمبر إلـي أن تمكنت أخيرا بسبب ركوع الروس أمـام أمريكـا مـن الحصول على قرار مجلس الأمن بخصوص هذه العقوبـات في بداية الصيف. وخلال تلك الفترة كلها كان التحريض ضد العراق والحديث عن الغزو نشطا في الصحافة والإعلام حتى وقعت أحداث ١١ سبتمبر التـي شـغلت الإدارة والإعـلام

والنخبة السياسية والرأي العام كله تقريبا. وخـلال الشـهور التسعة الأولى من تلك الأحداث احتل غزو أفغانستان وتصفية حكومة الطالبان وإقامة حكومة جديدة المرتبة الأولى. ومثـل ما يسمى بالحرب ضد الإرهاب أهم التحركـات الأمريكيـة التي استوعبت تماما الطاقة والقدرة الأمريكية على التحـرك الخارجي سياسيا وعسكريا. بل ووصل الأمر إلـي حـد أن الصحافة الأمريكية نشرت في شهر مارس الماضـي خبـرا يقول أن ذخائر الطائرات والصواريخ الموجهة قد نفذت من المخازن بسبب كمية القذف المذهلة في أفغانستان، وهو الأمر الذي يجعل الحرب ضد العراق فكرة مؤجلة.

لقد شغلت الحرب في أفغانستان والحرب ضد الإرهـاب العقل السياسي والإستراتيجي الأمريكي تماما حتى بداية هذا الصيف. وما كاد الاهتمام بتسوية الأوضاع السياسية المعقدة في أفغانستان ما بعد طالبان ينحسـر قليـلا حتـى احتـل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي قمة الأولويـات الأمريكيـة. وفيما بين بداية شهر إبريل وخطاب بوش فـي ٢٤ يونيـو، تصرفت الإدارة الأمريكية كأنها فوجئت بما يحـدث علـى الأرض بين الإسرائيليين والشعب الفلسطيني. فظلت تتـردد

وتراوح في مكانها وتتخذ الموقف ونقيضه. فعلى حين بـدا الرئيس بوش شخصيا مؤيدا تماما لشار ون ومبررا لوحشيته باسم "الدفاع عن النفس"، صوتت الإدارة لصـالح قـرارات الأمم المتحدة التي تدعو لانسحاب القوات من الأرض التـي أعادت إسرائيل احتلالها ولصالح إنشاء دولة فلسطينية، بـل ولصالح إرسال لجنة لتقصى الحقائق في معسـكر ومدينـة جنين أثناء الاقتحام الإسرائيلي الإجرامي لهما. ومثل قـرار إلغاء هذه اللجنة وخطاب بوش نقطة تحول كيفيـة حاسـمة للسياسة الأمريكية نحو هذا الصراع. ومن بين هذه التحولات أن الإدارة الأمريكية تركت المسألة كلها بيد شـارون تمامـا على كافة الأصعدة بما فيها الصعيد السياسي والدبلوماسـي وبدأت تتفرغ لإعداد الأمريكيين من جديد لفكرة غزو العراق دون أن يبدو من بغداد أي استفزاز أو سـبب يـنعش هـذا المشروع الذي بدا لفترة وكأنه مجرد فكرة أيديولوجية فيهـا من التعصب أكثر مما فيها من إمكانية التنفيذ.

إمكانية التنفيذ الفعلي للغزو والإطاحة هو ما صار يشـعل المناظرات السياسية والإعلامية التي تـدور فـي الولايـات المتحدة خلال الشهرين الماضيين. ففي البداية نشرت صحيفة النيويورك تايمز يوم ٩ يوليو الماضي خبرا مسربا لها مـن مصادر عسكرية حول خطط عمليات محتملة تقوم على فكرة الهجوم على العراق، لا من الأطراف وإنما من المركز: أي من بغداد. وبدأت سلسلة من التسريبات للصـحف الكبـرى حول ما يجرى على المستوى التخطيطي. من هذه التسريبات نفهم أن العسكريين الأمريكيين يعارضـون فكـرة الغـزو ويدافعون عن استمرار سياسة الاحتواء. وأن موازين القوى داخل الإدارة تحولت كلية تقريبا لصـالح أنصـار اليمـين الصهيوني والمسيحي الذين يقولـون للـرئيس أن عليـه أن يرفض تردد العسكريين، أو حتى إشراكهم في اتخاذ القـرار الخاص بالعراق. ونعلم أيضـا أن الإدارة صـارت واعيـة بالعقبات الفنية العسكرية والسياسية التي تحول ضـد فكـرة الغزو. وباختصار فان المرحلة الحالية تعكس الفارق الكبيـر بين الفكرة الأيديولوجية والقرار الإستراتيجي. والمرجح- بل المؤكد في تقديري- أن الرئيس الأمريكي سوف يعبر هـذه

الفجوة مهرولا ويفرض بنفسه اتخاذ قـرار الغـزو تاركـا للعسـكريين مهمـة التعامـل مـع العوائـق والمشـكلات الاستراتيجية خلال الشهور القليلة الماضية وحتى مـا بعـد الانتخابات النصفية للكونجرس، وتاركا للزمن حل المشكلات السياسية إن كان لها حل ممكن.

ما يهمنا في سياق هذه المناقشة أن دخول الملف العراقي دائرة اتخاذ القرار قد عصف بأحد الاعتبارات التـي ظلـت مستقرة في العقل السياسي والإسـتراتيجي الأمريكـي فيمـا يتعلق بالمنطقة وهو ضرورة تسـكين الموقـف وإرضـاء الفلسطينيين ولو بعض الشيء قبل الإقدام على غزو العراق.

نستطيع تماما أن نفهم أن يقدم اليمـين الصـهيوني هـذه النظرية للإدارة الراهنة. فقد فقد اليمـين الصـهيوني عقلـه تماما، وأصبح ممسوسا بلوثة كراهية العرب والمسلمين إلـي الحد الذي أفقده القدرة على الحساب السياسي الدقيق. ولكـن لماذا تقبل الإدارة الأمريكية هذا النوع من التفكير وتتصرف على أساسه. لن نقول هنا كما يقول العرب الأمريكيـون أن إسرائيل صارت تحكم أمريكا وأن ما يهم هـذه الإدارة هـو مصالح إسرائيل وليس مصالح بلادها. ففي نهايـة المطـاف

هناك صهاينة كثيرون داخل الولايات المتحدة وإسرائيل ذاتها ممن لا يقبلون بهذا المنطق. فلماذا إذن تأخذ به الإدارة الأمريكية الراهنة.

هناك أسباب عديدة :

أول هذه الأسباب وربما يكون أهمها، يتعلق بالدوافع النفسية التي صارت تحكم هذه الإدارة بعيدا عن الرشادة، بل وعن بدهيات العلوم الاستراتيجية. ويمكننا القول بأن منحنى العداء للعرب وصل إلى قمم جديدة بعد عام من أحداث ١١ سبتمبر. ويظهر هذا العداء في صورة استهداف عدد كبير من دول المنطقة، بما فيها حلفاء أمريكا التقليديون والذين يعدون مفتاح العالم العربي بل والشرق الأوسط بالنسبة لأمريكا مثل السعودية ومصر. صحيح أن العداء لازال محكوما ولم يفلت من السيطرة. وصحيح أن هناك بعض الجهود للحيلولة دون تفجر خصومة حقيقية مع العالم العربي والإسلامي ككل، ولكن تجاهل حقوق بل وحياة الفلسطينيين من جانب أمريكا يمكن أن يمثل ضربات قوية وإن كانت غير مباشرة حتى لهؤلاء الحلفاء. وبتعبير آخر، فانه إن كانت هناك قوى داخل الإدارة ترى ضرورة أو حتمية

الصدام حتى مع الحلفاء التقليديين لأمريكا في المنطقة، فـان الخوف من تأثير غزو العراق بـدون تسـكين أو إرضـاء الفلسطينيين على استقرار الحكومات أو على الـرأي العـام العربي والإسلامي، يصبح اعتبارا أقل أهمية.

من ناحية ثانية، فان العجز العربي العام في التعامل مـع التحيز الأمريكي الأعمى لإسرائيل يشجع الإدارة الحالية على استنتاج أنه ليس بيد العرب شعوبا وحكومـات، أيـة أوراق ضاغطة ممكنة الاستخدام عمليا وأن الحكومات العربية لـن تفعل شيئا للرد على غزو العراق بالرغم من قيام إسـرائيل بتصعيد القمع الوحشي للفلسطينيين وبقاء قضيتهم وحقـوقهم معلقة دون أمل واضح. ولا يمكن أيضا اسـتبعاد أن تقـوم إسرائيل بطلب من أمريكا بتخفيف مستوى القمع مـن أجـل تحقيق شئ من التهدئة للفلسطينيين قبل الإقدام علـى غـزو العراق فعلا. وقد لا تكون أمريكا قد فعلت شيئا يذكر لبدء أو التفاوض فعلا حول اتفاق "غزة أولا". غير أنها قـد تكـون وقفت بقوة مع اليعازر صاحب هـذا المشـروع أو منعـت شارون من قتله في المهد وفى ذهنها فكرة التهدئة النسـبية. وتبدو تلك التهدئة مؤقتة بطبيعتهـا لأن النصـر إذا انعقـد

لأمريكا في حرب ضد العراق سـيكون الفلسـطينيون قـد خسروا استراتيجيا خسارة أكبر وستمضى مـوازين القـوى بدرجة أكبر لمصلحة إسرائيل عند التفـاوض علـى إطـار سياسي جديد بين الطرفين المتصارعين أو عنـد اسـتئناف الصراع العسكري بمستوياته التي شهدناها في أبريل ومـايو من العام الحالي.

وثمة عامل ثالث قد يكون له بعض القيمة في تفسير لماذا اقتنع بوش بفكر اليمين الصهيوني فيما يتعلق بالعلاقـة بـين العراق وقضية الفلسطينيين. هذا العامل يتعلق بالخبرة الذاتية لبيت بوش فيما يتعلق بالملف العراقي. إذ يمكن لتلك الخبرة أن تفسر بطريقتين مختلفتين. التفسير الـذي يقدمـه التيـار الرئيسي للفكر السياسي الأمريكي يقول "انـك لتسـتطيع أن توجه للعرب ضربتين كبيرتين في وقت واحد دون أن يكون في ذلك مخاطرة كبيرة ببعثرة وخسارة النفوذ الأمريكي فـي المنطقة". وبالتالي إذا كنت تنوى ضرب العراق أو ضـربته فعلا ١٩٩١، فعليك أن تقدم شيئا لإرضاء الفلسطينيين كمـا حدث بالفعل مع مؤتمر مدريد عام ١٩٩١. وهذا هو التفسير الذي يقبل به بوش الأكبر الذي يشكو من أن ابنه وقع تحـت

تأثير اليمين المسيحي والصهيوني المتطرف. أمـا التفسـير الذي يضغط بشدة على الرئيس بـوش الحـالي، فيقـول أن ضرب العراق يجعل فلسطين أسهل منالا. وهو مـا يمكـن استنتاجه أيضا مما حدث عام ١٩٩١ ولو بشيء من التعسف المنطقي.

فلنقل إذن تفسيرا عاما للفكرة التي تزحـف علـى عقـل الرئيس الأمريكي الحالي. باختصار إنه ينوى ضرب جميـع العرب ولو في وقت واحد بعدما فاز في أفغانستان، الآن يبدو للرئيس الأمريكي أنه حقق ٩٠% من الفوز في الحرب ضد الإرهاب بمساعدة العرب، والآن جاء وقت لمعاقبـة جميـع العرب لمجرد أن من قاموا بضرب أمريكا في ١١ سـبتمبر ينتمون للأمة العربية. وبذلك تخرج أمريكا من "الحرب ضد الإرهاب"، وتدخل إلى "حرب الهيمنة المباشرة" على العـالم العربي ككل.

ولكن هل يعنى ذلك أن غزو العراق والمضي فـي إذلال الفلسطينيين وإلحاق العقاب بجميع العرب عموما وفى نفـس الوقت هو أمر حتمي؟ يبدو أن الرئيس بوش يشرف بالفعـل على اتخاذ هذه القرارات. ولكن عليه أن يقفز على عقبـات كثيرة. العقبة الأولى التي ظهرت فجأة في اللحظة الراهنـة هي ثورة التيار الرئيسي في الحزب الجمهوري نفسه، والذي يشعر بتهديد هيمنة اليمين المتطرف داخل الإدارة ويحـارب ربما معركته الأخيرة للحفاظ على مواقعه. تبدو هـذه هـي المعركة الأهم. أما المعركة الأقل أهمية، فسوف تدور داخل الكونجرس عندما يذهب إليه بوش بعد التجديد النصفي طالبا الموافقة على حرب إضافية في سلسلة لا تنتهي من الحروب الأمريكية.

(٥) الرأى العام الأمريكى والحرب ضد العراق

اشتمل مشروع الغزو الاستعمارى الأمريكى للعراق على عدد من "الصناديق السوداء" التى ظلت موضع منازعة فـى النقاش العام حتى فى الولايات المتحدة. وبعد أن مضت آلـة الحرب الجهنمية الى طريقها غير آبهة بشىء، أفصحت كثرة من تلك الصناديق عما بداخلها وعلى نحو مضاد تماما لمـا توقعه منظرو الغزو وما وراء هذا الغزو الاجرامى. فالرأى العام أو ما سمى "بالشارع العربى" انبثق مضادا ومناهضـا كلية لتلك الحرب وفاعلا فيها ولو بدون قصـد. والموقـف الشعبى العراقى حسم مواقفه الى حد كبيـر باسـتلام زمـام المبادرة فى فعل المقاومة. وهو قد مزق اربا تلك الصـورة التى صنعها له أرباب الحرب الدمويون فى الولايات المتحدة.

أما الصندوق الأسود الوحيد وربما الحاسم فى الأمر كلـه والذى لم يكشف بعد كلية عما بداخله وكيف سيتصرف فـى سياق تلك الحرب، فهو الرأى العام الأمريكى.

قد يتناقض ذلك القول مع فيضـان الاسـتطلاعات التـى تغرق وسائل الإعلام الأمريكية بالأرقام والبيانات عن مواقف الرأى العام. غير أن المهم هو كيفية فهم التكـوين الـداخلى والحركية المستمرة لدى الرأى العام الأمريكى وفك طلاسـم التناقضات التى تحفل بها الاحصاءات والأرقام والايديولوجيا التى تقف خلف الاستطلاعات.

ان فهم تداعى الرأى العام الأمريكى وكيفية تحوله لم يعد شأنا كماليا أو مجرد أداة مـن أدوات الصـراع السياسـى الاعتيادى داخل الولايات المتحدة. فقد صار شأنا عسكريا أو استراتيجيا أيضا. بل أن فهم العوامل والرؤى المحركة للرأى العام الأمريكى صار ضروريا لفهم الطريقة التى سيحسم بها مصير العالم.

فثمة اتفاق واسع حول أن الهدف الاسـتراتيجى للعـراق ليس هو إيقاع الهزيمة العسكرية بالقوات الأمريكية الغازية. ولا يكاد يكون هناك شك حول أن تلك القوات سـتنجح فـى النهاية فى فرض الحصـار علـى بغـداد. ومـن الناحيـة العسكرية، ثمة فجوة أساسية فى الرؤيـة العراقيـة لمسـار الحرب. فوزير الدفاع العراقى يقول بنزاهة وأمانة ومهنيـة

واضحة أنه لا يستبعد أن تتمكن القوات الأمريكية من حصار بغداد ولكن بغداد ستكون عصية. ولكن هناك فارقاً كبيراً بين أن تصمد بغداد أمام الحصار وأن تطول الحرب من ناحيـة، وأن يتمكن العراق من إلحاق الهزيمة بالقوات الغازية، وهو ما لا يتم سوى بتصفيتها من ناحية أخـرى. والفـارق هـو الفجوة الواضحة فى الفكر العسكرى العراقى. ويفسر عديـد من المراقبين هذه الفجوة بأن أمل العراق فى كسـر الغـزو سيتمثل فى إطالة أمد الحرب وإيقاع خسائر كبيرة فى القوات الأنجلو أمريكية حتى تصل المعارضة الشعبية فى الولايـات المتحدة وبريطانيا الى أقصى قوتها وتـتمكن مـن الضـغط لسحب القوات الغازية وإنهاء الغزو.

وفى المقابل يرى كثير من المراقبين والمحللين السياسيين الأمريكيين والبريطانيين أن بدء الحرب واستمرارها يغير من خريطة الرأى العام فى الـبلاد الغازيـة وتحديـدا امريكـا وبريطانيا. وتتفق هذه التوقعات مع الخبرة التاريخيـة ومـع النظريات الشائعة حول الموضوع فى مجال دراسات الرأ ى العام الأمريكى. وبالفعل فقد تغيرت تلك الخريطة الـى حـد بعيد جدا فى بريطانيا. فقبل الحرب كانت استطلاعات الرأى

العام تشير الى معارضة أكثر من تسعين بالمائة من الشـعب البريطانى للحرب. وانقلب الاتجاه بعد نشوب الحرب بالفعل حيث تشير آخر الاستطلاعات البريطانية الى تأييـد نسـبة ٥٤% من البريطانيين للحرب.

ووفقا لآخر استطلاع متاح للرأى العام أجرى بعـد أيـام قليلة من بدء الغزو لصالح جريدة الواشنطن بوست ومحطـة تليفزيون إى بى سى وصلت نسبة المؤيـدين للحـرب فـى صفوف الرأى العام الأمريكى الى ٧٤%.

ما تقو له الدراسات الاعلاميـة المتخصصـة فـى هـذا الموضوع يقضى بما يلى. ان الأمريكيين والبريطـانيين قـد يعكفون على مناقشة قضايا الحرب والسلام لفتـرة طويلـة يتعايشون فيها مع الانقسامات والاختلافـات حـول حكمـة قرارات شن الحرب فى العالم الخارجى وذلـك حتـى تقـع الحرب فعلا. عندئذ يميل الرأى العام للتوحـد وراء جنـوده الذين يخوضون المعارك.

ولكن هل "يتوحد" الأمريكيون أو البريطانيون فعـلا مـع "أولادهم" الذين يخوضون المعارك فى الخارج، و فى هـذه الحالة فى العراق مثلا؟ الواقع أن ذلك غير صحيح. فقد نفهم أن يكون هذا هو الوضع أثناء الحرب العالمية الثانية أو حتى فى الحرب الكورية عام ١٩٥٠. ولكن هذا لم يعد صـحيحا الآن. فقد ألغت الولايات المتحدة نظـام التجنيـد الاجبـارى وصارت تعتمد على نظام الجيش المحترف. ولا يذهب الـى الجيش سوى أكثر الناس فقرا وهامشية. ولذلك فالنسبة الغالبة من الجنود الأمريكيين هم من الأقليات العرقية، مثل الأفارقة والهسبانيين والصينيين والأسيويين وفقراء البـيض. وهـذا التركيب العنصرى للجيش الأمريكى يجعل نسبة الأسر التى لها أولاد فى الجيش ضئيلة للغاية. ولا يمكـن تصـديق أن الأغنياء من البيض البروتستانت (أو ما يسمى فى الولايـات المتحدة الواسب:WASP) يتعاطفون مـع هـؤلاء "الأولاد" الذين يزج بهم فى الحروب الخارجية. ويصدق نفس الشـىء بالنسبة للقوات البريطانية التى تأتى نسبة عالية منهـا مـن عناصر غير بريطانية الأصل مثل الكرخا الهنود.

ان هذا العامل وحده قد يقودنا الى نتيجة مختلفـة تمامـا فيما يتعلق بالمسار السياسى والعسكرى للحرب ضد العراق. فكما أشرنا، يعتقد العراقيون أن ايقاع خسائر بشرية كبيـرة بالقوات الأمريكية الغازية سيغير تماما الرأى العام الأمريكى ويقلب اتجاهه الى معارضة الحرب وطلب سـحب القـوات الأمريكية على النحو الذى حدث فى حالة فيتنام عام ١٩٧٥. والواقع أن وقوع خسائر بشرية كبيرة فى القوات الأمريكيـة لن يؤثر إلا قليلا على الرأى العام الأمريكى. فبينما كان فى فيتنام جندى من كل نحو عشرة أسر أمريكية تتوزع على كل اللوحة الطبقية والعرقية بما فيها الأغلبية البيضاء، فالتركيبة الحالية للقوات الأمريكية لا تؤدى الى خسارة قطاع يذكر من الفئة العرقية والطبقية السائدة فى أمريكا لأرواح ابنائها وهو ما يجعلها أقل اهتماما بالخسائر البشرية.

فان لم يكن التعاطف مع الأولاد هو السر، فهـل يحـدث التحول بين مرحلة ما قبل الحرب ومرحلة الحـرب ذاتهـا بسبب "المشاعر الوطنية"؟؟ وهل هذا التحول هو الأخير؟.

لا شك أن للمشاعر الوطنية التى تدعو أى شخص لتأييـد بلاده فى حرب معينة هى من المعطيات العامة المهمة فـى سلوك الرأى العام. ولكن موقف الرأى العام يختلف من حالة الى حالة ومن قطاع اجتماعى الـى آخـر. والـرأى العـام الأمريكى تحديدا يختلف اختلافات كبيرة عن غيره فى البلاد الديموقراطية. فهو مثلا أقل معرفة بالعالم الخـارجى عـن نظيره الأوربى. وهو ما يجعله أكثر تأثرا بالاعلام، ومن ثم بالتيارات الأساسية فى السياسة الأمريكية.

وكان الرأى العام الأمريكى نحو فكرة الحرب ضد العراق قد عكس بالفعل الانقسامات الأساسية فى المجتمع السياسـى الأمريكى. فكان نحو ثلث الرأى العام الأمريكـى يعـارض باستماتة واستقامة نادرين مشروع الحرب تحت أى ظـرف من الظروف. وهذا الثلث يتوزع على عدد كبير من التيارات السياسية اليسارية والانسانية والدينية التى يقع أغلبها علـى هامش، أو يعارض النخبة السياسية الحاكمة. وهذا القطـاع رغم كفاحيته لم يكن بمقدوره قطـع الطريـق علـى هـذا المشروع الاجرامى لأسباب كثيرة.

وكان نحو ثلث آخر من الرأى العـام الأمريكـى علـى استعداد لتأييد مشروع الحرب اذا تمت بتفويض من مجلـس الأمن وبالتعاون مع الحلفاء الدوليين والاقليميـين للولايـات المتحدة. وأغلب عناصر هذا القطاع ينتمى الى يمين ووسـط الحزب الديموقراطى ويشكل أحد التيارات الرئيسـية للحيـاة الأمريكية. ومن الواضح أن هذا القطاع حسم موقفه المتردد على عكس ما يقول به، وهو الإصرار على الحصول علـى الغطاء الشرعى الدولى وتعاون الحلفـاء. وعنـدما تشـير الاستطلاعات الأخيرة الى أن نحو ٧٤% من الـرأى العـام الأمريكى يؤيد هذه الحرب، فان معنى ذلك أن هذا القطـاع المتردد أو الوسط قد خان موقفه الأصلى ومال ولو مضطرا الى التأييد إما تحت تأثير المشاعر الوطنية أو خوفا من وقوع أزمة سياسية كبيرة تشل الحياة السياسية فى الولايات المتحدة أو ببسـاطة لتـأثره بالدعايـة وبـالمواقف التـى تبناهـا الديموقراطيون فى الكونجرس.

أما الثلث الأخير، فهو الذى أيد فكرة الحرب منذ البدايـة بالطريقة التى أعلن عنها الرئيس بوش ومساعدوه: أى حرب بالأمم المتحدة أو بدون الأمم المتحدة. ويعد هذا الثلـث هـو

قاعدة التأييد القوية للجمهوريين بتياراتهم التقليدية والمستجدة، ونخص بالذكر الأصولية المسيحية واليمين المتطرف والذى يتركز فى الجنوب وبعض ولايات الوسط. وهذا القطاع لـن يغير موقفه من الحرب مهما كانت الظروف.

ومن المثير أن ندرس مواقف الرأى العام مع ذلـك مـن زاوية العمق وأسلوب المشاركة. فالقطاع المعارض للحـرب من حيث المبدأ اتسم بقدر كبير من الكفاحية، وأخذ قضـيته الى الشارع (كما يقولون فى الولايات المتحدة) واستطاع أن يمد معارضته للحرب الى جميع الولايات الأمريكية الكبيـرة (باستثناء الجنوب) وأن ينظم مظاهرات كبيرة ومـؤثرة وأن يحافظ على مستوى عال من المعارضة لفترة زمنية طويلـة جدا: أى خلال الشهور الستة الماضـية علـى الأقـل. بـل استطاعت قيادة المعارضة للحرب فى الولايات المتحـدة أن تمدها خارج الولايات المتحدة وخاصة أوربا الغربية. ومـع ذلك ورغم كل النشاط والروعة التى نظم بهـا هـذا التيـار المعارضة للحرب، فلم ينجح فى الوصول الى شد قطاع أخر الى موقفة وظل حجم المعارضة أقل مـن الـرقم السـحرى المؤثر فعلا على القرار السياسى وهو ٥٠%. بل لم يستطع

أن يشد الثلث المتردد الى موقفه الأرقى. إذ حسم هذا القطاع المتردد موقفه لصالح "تحالف الحرب" بالرغم من أنه لا يوافق على أهدافها الحقيقية: أى الهيمنة بالعنف على الشرق الأوسط وبناء الامبراطورية وخدمة مصالح اسرائيل الاستراتيجية.

السؤال الكبير : هو هل يؤدى الصمود العراقى الى استرجاع هذا القطاع المتردد وبالتالى إحداث انقلاب فى الرأى العام الأمريكى. من حيث المبدأ هناك فرصة ولكنها ليست أكيدة وتتوقف على المدخل الذى يتم منه مخاطبة هذا التيار العريض والذى قد يمثل القلب الحقيقى للرأى العام فى الولايات المتحدة.

الواقع أن الصمود وحدة لن يؤدى إلى الغرض. فكما أشرنا لا يضار هذا القطاع من الخسائر البشرية لقوات التحالف والقوات الأمريكية بالذات. وعلينا أن نسأل أنفسنا: ما هو المدخل لهذا القطاع.

ان جانبا كبيرا من الفشل فى شد هذا القطاع الى حركـة مناهضة الحرب يعود الى اللغة فائقة الراديكالية التى ميـزت الخطاب المناهض للحرب. فمن البداية تم الربط بل والمماهاة بين الحرب والعولمة، بل والنظام الرأسمالى نفسه. فقد استلم تحالف "أنسرANSWER: المكون من عـدد كبيـر مـن المنظمات الراديكالية زمام المبادرة فى تعبئة حركة مناهضة الحرب الأمريكية ضد العراق وهو معروف أيضـا بـدوره المؤثر فى حركة مناهضة العولمة. وسريعا ما دخلت أيضـا "الحملة العالمية لمناهضة العولمة والحرب" الـى الميـدان، لتساوى بين النضال ضد العولمة الاسـتغلالية مـن ناحيـة والحرب ضد العراق من ناحية أخرى. صحيح أن كثيرا من المنظمات الدينية والانسانية تشارك أيضا فى حركة السـلام، إلا أنها لا تملك نفس الخبـرات فـى العمـل الجمـاهيرى والسياسى مثل المنظمات الثورية اليسـارية. وبـذلك تلـون خطاب مناهضة الحرب بتلاوين أيديولوجية لا يمكنها كسـب تعاطف قطاع ليبرالى ينتمى الى التيـار الأساسـى للحيـاة الاقتصادية والسياسية الأمريكية.

ومن ناحية أخرى، فان الدعاية الكثيفة ضد الرئيس صدام حسين شخصيا كانت ولا تزال هى أكثر الأسلحة فعالية بيـد تحالف الحرب والامبراطورية. وهـذا القطـاع المتـردد لا يوافق على خرق القانون الدولى أو ذبح الأمم المتحدة، ولكنه يريد أن يرى إصلاحات ديموقراطية جذرية فى العالم العربى يعتقد أنها تحمية من تكرار هجمات ١١ سبتمبر.

ويرجع حسم هذا التيار لموقفه لصالح الحرب الى أن أحدا من حركة مناهضة الحرب أو من العالم العربى لم يخاطبـه باللغه التى يفهمها أو بالمثل التى يؤمن بها.

وقد يكون الصمود العراقى واحدا من العناصر التى يمكن البناء عليها لصياغة خطاب يتلاءم مع هذا التيـار ويقنعـه بالمشاركة فى النضال لوقف تلك الحرب الاجرامية. ولكـن هذا الخطاب يجب أن يشمل كذلك عـددا مـن النقـاط (أو الثيمات) الجوهرية بالنسبة لهذا التيار.

أول هذه الثيمات هو ابراز دور الانسان العراقى العـادى فى المقاومة والصمود. فطالما بدا هذا الصمود وكأنه نتـاج القوات العسكرية أو السياسية الرسمية قد يشتد خـوف هـذا القطاع من النظام العراقى. وعلى العكس فـان تأكيـد دور

المجتمع العراقى العادى يفضح فكرة أن هذه الحرب قصد بها "تحرير الشعب العراقى" وهى كما يعرف أى تلميذ بالابتدائية تزوير كامل للحقيقة.

وثانى هذه الثيمات هى الحركة الاصلاحية والديموقراطية فى العالم العربى. فالحرب الأمريكية بررت بصـورة قويـة للأمريكيين انطلاقا من القول بأن الشعوب العربية غير قادرة على تحرير نفسها بنفسها من الأوضاع اللاديموقراطية والتى تضاعف من الاحتقانات السياسية والثقافية التى يرون أنهـا هى المصدر الأول "للارهاب". وقد لا يمكن إبـراز نضـال اصلاحى ديموقراطى يأتى من قوى المجتمع المـدنى فـى العراق. ولكن إبراز هذا النضال على المستوى العربى العام قد يكفى للغرض. أما على المستوى العراقى فيجـب علـى الأقل ابراز لماذا نجح صدام حسين فى كسب تأييد قطـاع لا بأس به من الشعب العراقى العادى. ولا شـك أن الموقـف الاجتماعى للنظام وربما لصدام حسين شخصيا يكمن جزئيـا وراء هذه الحقيقة. ولا شك أن هذا الجانب (أى تبنى مصالح الفقراء) له قدر من الأهمية حتى بالنسبة للقطاع الرئيسى من الرأى العام الأمريكى. وفى مرحلة تتسم بالتوازن العسـكرى

قد يكون من الضرورى صياغة حل وسط يتضمن السحب الفورى للقوات الأمريكية مقابل أشياء معينة، منها تغيير مهم فى طبيعة النظام السياسى فى العراق أو عقد انتخابات تحت إشراف الأمم المتحدة.

وأخيرا فان الاستراتيجية الاعلامية العراقية على الأقل فى الخارج يجب أن تتغير. فالخطاب الاعلامى العراقى خلال الحرب تمت صياغته ليلائم الاحتياجات التعبوية الداخلية ولكنه ضار ويؤدى الى تثبيت الصورة النمطية عن النظام العراقى كنظام وحشى صرف. فمثلا تمت ترجمة خطاب الرئيس صدام حسين التى يوصى فيها شعبه وجنوده بقتل الأعداء "أقتلوهم.." والبديل السليم هو ببساطة إظهار مدى البربرية فى الموقف الأمريكى الذى عامل العراق بوحشية منقطعة النظير فى التاريخ. قد لا تلائمنا صورة الضحية ولكنها فى هذه المرحلة ضرورية ضرورة مطلقة لكسب معركة الرأى العام الأمريكى ومن ثم المعركة ضد حزب الحرب والإمبراطورية.

(٦) المعارضة للحرب في الكونجرس

بعد نهاية جلسة لجنة الشئون الخارجية في مجلس النواب يوم الخميس ٤ أكتوبر خرج ٢٦ عضوا بـالمجلس بقيـادة النائب دينيس كوزينيتش إلى السـاحة الرخاميـة المواجهـة لبوابة مبنى الكابيتول ليعلنوا معارضتهم العلنيـة لمشـروع القرار الذي يفوض الرئيس باستخدام الوسائل التـي يراهـا مناسبة لتحقيق أهدافه في العراق بما فيها القوة العسكرية.

كانت هذه هي إحدى المناسبات القليلة التي يأخذ فيها مثل هذا العدد من النواب قضيتهم إلى خارج مبنـى الكـونجرس ليتحدثوا عبر الإعلام للشعب الأمريكي وليحرضـوه ضـد الأغلبية التي يتمتع بها حـزب الحـرب فـي الكـونجرس. فالقضية هي من الخطورة بحيث لم يعد من الممكن حصرها في المناقشات داخل الغرف المغلقة. وبالفعل تحدث هـؤلاء النواب للشعب الأمريكي طالبين منه القيام بالضـغط علـى ممثليه في الكونجرس لرفض مشروع القانون.

أكبر من المتوقع :

كان خروج هؤلاء النواب بقضيتهم إلى الجمهور العريض عملا قتاليا بكل معنى الكلمة. فأجواء الكونجرس كانت تشي مبكرا بأن أنصار معسكر الحرب يتمتعون بأغلبيـة كبيـرة خاصة في مجلس النواب الذي يسيطر عليـه الجمهوريـون والقوى اليمينية عامة بصورة قوية. ويعنى ذلك أن النـواب المعارضي لم تكن لديهم فرصة فـي الفـوز فـي معركـة التصويت. ومع ذلك وربما بسبب ذلك،فضل هؤلاء النـواب إعلان موقفهم بوضوح أمام الشـعب الأمريكـي ودعوتـه للضغط على الكونجرس. وكان من المعتقد أن هذا الإعـلان لا يزيد عن كونه ثورة ضمائر تعذبها صورة برلمـان أول ديموقراطية في العالم يفوض رئيسه لشن حرب "إهاضية" أي عدوانية بدون أن يقدم له هذا الرئيس أسبابا قوية أو مقنعـة لهذه الحرب وبدون أن يقدم له أية تفاصيل عنها.

كانت مهمة هؤلاء النواب ثقيلة بالفعـل. فـأغلبهم مـن الديموقراطيين الذين عبروا علنا عن رفضهم للقرار في تحد صارخ لزعيمهم-زعيم الأقلية الديموقراطية بمجلس النـواب ريتشارد جيبهاردت -الذي تآمر مع الرئيس منذ أيام لتمرير

هذا القرار بصورة أدت إلى تصدع الديموقراطيين بل وفـى تحد صارخ أيضا لعدد من الزعماء الديموقراطيين الكبار في مجلس الشيوخ وعلى رأسهم تـوم داشـل زعـيم الأغلبيـة بالمجلس.

ولم يتصور أحد أن هذه الكوكبة من المعارضـين الـذين خرجوا للعلن ستنجح في تعبئة هذا العدد من الأصوات التـي رفضت القرار بالفعل يوم ١٠ أكتوبر. فقـد وصـل عـدد الأصوات الرافضة إلى ١٣٣ صوتا بمجلس النـواب مـنهم ١٢٦ من الـديموقراطيين. خسـر المعارضـون المعركـة التصويتية حيث صوت مع القرار ٢٩٦ صوتا. ولكنهم كسبوا المعركة فـي صـفوف الـديموقراطيين بمجلـس النـواب بنسبة٦١% حيث صوت مع القرار ٨١ عضوا. كما نجحـوا في الحصول على ٢٣ صـوتا مـن إجمـالي ٥٠ صـوتا للديموقراطيين بمجلس الشيوخ بنسبة تقل قليلا عن النصـف. وتحقق هذا الفوز بالرغم من المناخ التآمرى الخـانق الـذي تمت فيه العملية كلها. فوفقا للنائب كـوزينيتش الـذي قـام بالدور القيادي في تعبئة المعارضة فان الرئيس أثار مسـألة الحرب ضد العراق أثناء عطلة الكونجرس وهو مـا جعلـه

يحتكر الإعلام و "لم نكن نعرف أنه سيكون هناك تصـويت إلا منذ أيام قليلة وبعد ٢٤ ساعة فقط مـن إعـداد القـرار المشترك".تعود أهمية هذه الحقيقة إلى أنها قطعت الطريـق على عملية تراكم سريعة بين صفوف الرأي العام الأمريكي لمعارضة القرار رغم الثقل الإعلامـي والقـوى السياسـية الهائلة التي وقفت مع القرار ومع فكرة الحرب ضد العـراق منذ البداية ورغم الظلال الثقيلة لأحداث ١١ سبتمبر في هذا الكونجرس اليميني والتي جعلت المعارضة حيية كثيرا وأقل بمراحل من المعارضة للقرار المماثل الـذي حصـل عليـة جورج بوش الأب عندما ذهب إلى الحـرب الأولـى ضـد العراق عام ١٩٩٠.ففي هذا الوقت صوت مع القـرار ٢٥٠ ضد١٨٣ في مجلس النواب و٥٢ ضد ٤٧ في مجلس الشيوخ وهو ما يوضح ثقل الصوت المعارض للحـرب فـي ذلـك الوقت. ولذلك فوجئ المراقبـون والمتخصصـون بشـئون الكونجرس بعدد المعارضين- هذه المرة- حيث كان تقديرهم الأولى أقل كثيرا ممن صوت بالفعل لمعارضة القرار.

دوافع المعارضة :

غير أن العدد الإجمالي للمعارضة ليس هو الجانب الوحيد المهم لفهم الصورة داخل الكونجرس وفى المجتمع الأمريكي بشكل عام. فتشريح هذه المعارضة لا يقـل أهميـة بحـال وخاصة إذا كان لدينا نحن العرب أيـة نوايـا فـي طـرح مبادرات أو القيام بحوار أو العمل من داخل النظام السياسي الأمريكي من أجل قضايانا وقضايا السلام العالمي. ويكشـف تشريح المعارضة عن عدد من السمات البارزة.

أولى هذه السمات يتعلق بالتركيب الاجتماعي. فقد شـكل الأفارقة واللاتينيون والنساء والشباب القلب المحرك للقـوى المناهضة لحزب الحرب. فمن أصل ٣٧ عضوا فيما يسـمى الكوكس الأسود صوت ٣٢ ضد القرار. ومـن أصـل ١٩ عضوا ينتمون لما يسمى بالكوكس الهسبانى (وقـد جـاءوا أساسا من صفوف المهاجرين الجدد مـن أمريكـا اللاتينيـة وأغلبيتهم الساحقة هم أيضا من الكاثوليك) صوت ١٥ ضـد القرار. ومن أصل٥٩ سيدة في مجلس النـواب صـوت ٣٥ ضد القرار. هذا إضافة إلى أن النسبة الغالبة من هؤلاء مـن الشباب وإن لم يعن ذلك أن غالبية الشباب في المجلـس قـد صوتت لمعارضة القرار لأن الجمهوريين شـبابا وشـيوخا صوتوا بصورة جماعية تقريبا مع رئيسهم في البيت الأبيض.

وبينما لا يمكن القول أن المعارضين لقرار الحـرب هـم أيضا من المعارضين لإسرائيل بوجه عام، لا مجال لإنكـار أن المعارضة سواء في الكونجرس أو في المجتمع الأمريكي ككل تحمل ضغينة حقيقية ضد تغول الصهاينة الأمريكيين في الكونجرس وفى الإدارة. فالحركة الصهيونية الأمريكية قادت الحملة من أجل الحرب ضد العراق وصـوت اليهـود فـي الكونجرس بمجلسيه بأغلبية ساحقة مـع القـرار. كمـا أن الاقتراح الأصلي بفكرة الحرب جاءت في سياق أول اختراق كبير من جانب الحركة الصهيونية الأمريكية لمنظومة الأمن الإستراتيجي للدولة الأمريكية، وهو ما يتضح بدون أدنى شك من المركز القيادي الذي يتمتع به ممثلون كبار لهذه الحركة مثل بيرل وولفيتز في البنتاجون وهو الجناح الذي بادر بشن حملة الحرب وإقناع الرئيس الأمريكي بها.

ولا ينهض استنتاج أن المعارضة للحرب تحمـل رفضـا لهذا الثقل الضـخم للصـهيونية الأمريكيـة داخـل الإدارة ومنظومة الـدفاع الأمريكيـة علـى مجـرد التخمـين أو الاستشفاف. فقد صرح بها عدد من أبرز المعارضين لقـرار الكونجرس ولو عن طريق إدانة إسرائيل وفضـح المنطـق

المنافق الذي تروج به الإدارة لفكرة الحرب ضـد العـراق. ففي المؤتمر الصحفي الذي عقده المعارضون يوم ٤ أكتوبر صرحت النائبة ماكسى ووترز بأنه "ليس من العدل فـرض تطبيق القرارات الدولية على العراق بينما لا تفـرض علـى إسرائيل". وصرحت النائبة مارى كابتور بأن القرار يـؤدى إلى مزيد من نمو الإرهاب في المنطقة العربية "لأننا عادينـا العرب"، وأكدت على الحاجة لتغيير السياسة الأمريكية نحـو العرب "حتى لا نصنع عدوا أشد".وكرر عدد أخر من هؤلاء النواب نفس النغمة في إشارة لا تنكر للنفوذ غيـر المبـرر والدور القيادي الذي تلعبه القوى الصهيونية في دفع أمريكـا لمزيد من الحروب مع العرب.

ثاني هذه السمات يتعلق بالدوافع. ولا شك أن المعارضة تجتمع على كراهية الحرب وعلى الحاجة لمنح السلام فرصة حقيقية قبل اللجوء للحرب كوسيلة أخيـرة. ولكـن التحليـل الدقيق للتكوين السياسي للمعارضـة وحججهـا وأفكارهـا، يكشف عن ملامح أخرى لا تقل أهمية عن الموقف السلامى. ويمكن حصر ثلاثة دوافع أساسية كانت أكثـر بـروزا فـي خطاب المعارضة.

وربما يكون أكبر وأهم هذه الدوافع هـو قـوة الأجنـدة الاجتماعية. فأغلبية المعارضين جاءوا من صـفوف التيـار اليساري في الحزب الديموقراطي، والـذي يحظـى بتأييـد الأقليات الثقافية والعرقية وخاصـة الأفارقـة واللاتينيـين. وإضافة إلى معارضة هؤلاء الضـمنية للنفـوذ المستشـري للصهاينة ولليمين الأمريكي المتطرف وهى القـوى الأكثـر حماسا لاستهداف العرب، يدرك المعارضـون أن الحـرب تسلب منهم موارد هم في أشد الحاجة لها من أجـل تخفيـف الفقر وتحسين الصحة والتعليم والضـمان الاجتمـاعي فـي الداخل. فالحرب هي برنامج الأغنياء الـذين يفيـدون مـن الزيادة المهولة في الإنفاق العسكري وفى إنتاج الصـناعات العسكرية وهى تتم على حساب الفقراء في أمريكا ذاتها.

وربما يكون من المناسب الإشارة هنا إلى أن المعارضين لم ينجحوا في ترويج وتعزيز هذه الفكرة بالصورة الممكنـة والتي كان من شأنها شد قطاع أكبر كثيرا من الرأي العـام الأمريكي بعيدا عن برامج وأفكار اليمين لعسكرة الاقتصـاد. بل كان من الممكن فضح المبالغة الشديدة في تقـدير تكلفـة الحرب والتي وصلت (دون أي سبب مفهوم أو مقنع) إلى ما

يتراوح بين ١٠٠ و٢٠٠ بليون دولاركما صرح وزير الخزانة. فليس من المعقول أن تتكلف الحرب ضد العراق وهو في حالة أضعف بما لا يقاس من عقد مضى أربعة أضعاف ما تكلفته حرب عام ١٩٩١. ومعنى ذلك أن اليمين الأمريكي سيكافئ نفسه بإنفاق هذا المبلغ المقدر، ليس على الحرب بذاتها وإنما على أشياء أخرى وإن بمناسبة الحديث عن حرب ضد العراق.

هناك دافع آخر يتمثل في رغبة نسبة لا بأس بها من المعارضين للحرب ضد العراق في مقاومة تضخم سلطة الرئيس. والواقع أننا يجب أن نميز هنا بين هذا الدافع من ناحية وبين فكرة الدفاع عن سلطة الكونجرس في مواجهة الرئاسة عموما وهذه الرئاسة (الإمبراطورية) بالذات من ناحية أخرى.

وإذا كان هناك شخص واحد يجسد فكرة الدفاع عن الديموقراطية وضد الاستبداد الرئاسي فلا شك أنه الشيخ الحكيم والعنيد رو برت بيرد من ولاية غرب فيرجينيا. يذكرنا هذا الشيخ الجليل بشخصية أسطورية أخرى هما الشيخ ويليام فولبرايت الذي وقف نفس الموقف الرافض من

حرب فيتنام والذي دافع باستماتة عن القانون الدولي ومثـل السلام ضد غول الحركة الصهيونية وإسرائيل التـي كـان نفوذها يتصاعد على نحو منذر بالخطر في عقد السـتينيات. وبالفعل نجح الصهاينة في القضاء على السيناتور فولبرايـت رغم أنه كان حبيب الشعب الأمريكي. أما الشيخ بيـرد فقـد وقف وحيدا هذه المرة يدافع عن الدستور الذي يخرقه القرار الخاص بالعراق خرقا فظا. وقف الشيخ يصول ويجول فـي قاعة مجلس الشيوخ يناشد زملاءه المندفعين بتأثير ضـغوط عاتية "دعونا نتوقف وننظر ونستمع..دعونا لا نعطـى هـذا الرئيس أو أي رئيس آخر سلطة غير مقيدة.تذكروا الدستور". واضطر إلى اللجوء للفن المعروف في تقاليـد الكـونجرس ب"الفيليباستر" لتعطيل إصدار القرار وهو ما هـزم عنـدما صوت الشيوخ ب ٧٥ ضد ٢٥ لكسره حتى يتمكنـوا مـن التصويت على مسودة القرار.

نقول "وقف الشيخ وحيدا" لكـي نصـور دوره بصـورة دراماتيكية وهو ما يستحقه هذا الرجـل المشـبع بالحكمـة والمملوء بالشجاعة في وقت فيه الصفات. فبعد التصويت قال الرجل في صوت مترع بالحزن والأسي " وأنا فـي العـام

الخمسين في الكونجرس لم أعتقد أبدا أنى سأصادف مجلسـا للشيوخ يفتقر إلي العمود الفقري الضروري للنهوض ضـد هذا الحمق وضد هذا الاندفاع للحرب". ومع ذلك فالرجل لم يقف وحيدا حقا.فقد نجح في كسب ٢٣ من الشيوخ إلى صفه مقابل ٧٧ من الموافقين على القرار بـالرغم مـن النتيجـة المؤسفة المعروفة سلفا.

ولا شك أن جانبا مهما من الدوافع تمثلت في الدفاع عـن سلطات الكونجرس وعن الديموقراطية. ولكن الدافع الأساسي تمثل في الموقف الفكري والأيديولوجي. وظهر ذلك تماما في المناقشات على الجانبين المتقابلين للقضية. فهـؤلاء الـذين تحمسوا للحرب لم يتوقفوا طويلا أمـام مشـكلة السـلطات الدستورية للكونجرس في مقابل الرئيس. بل أن البعض حتى من الديموقراطيين ولكن الصهاينة مثل السـناتور ليبرمـان والنائب ديلاى من الحـزبين الـديموقراطي والجمهـوري بالتتالي دافعوا عن الدستور في قضايا أخرى وألقوا به جانبا عندما تعلق الأمر بتوجيه الضربات للعرب.

ولكن الدافع الأيديولوجي لم يعمل هذه المـرة بالصـورة المتوقعة. فلم يصوت جميع الليبراليين والعقلاء بـالكونجرس ضد القرار. فالدوافع السياسية تدخلت بشـدة. ونفهـم ذلـك بالنسبة لتصويت الشيوخ والنواب اليهود وهؤلاء الذين يتوقف مستقبلهم السياسي على التصـويت اليهـودي مثـل السـيدة هيللارى كلينتون التي صوتت مع القـرار رغـم الموقـف الرافض المذاع لزوجها الرئيس السابق. والواقع أن أحـداث ١١ سبتمبر والانتخابات المقبلة في نوفمبر تفسر مواقف عدد من الشيوخ والنواب الذين خشوا أن يلحق بهـم العقـاب إذا صوتوا بناء على ما تمليه عليهم ضمائرهم. وهنـاك أمثلـة عديدة على هذا النوع من التصويت. حيث صرح عدد مـن الشيوخ والنواب أن قناعتهم الشخصية كانت تملـى علـيهم رفض القرار ولكنهم صوتوا لصالحه بناء علـى اعتبـارات سياسية أو انتخابية.

حجة السياسات الانتخابية :

ولكن دور الدوافع الانتخابية كانت أقل وضوحا بكثير مما يشاع في دوائر الكونجرس. إن المرء يسـمع مـن خبـراء الكونجرس والموظفين الذين يعلمون للشيوخ والنواب، الكثير عن تلك الاعتبارات. ولا شك أنها لعبـت دورا فـي دفـع الكونجرس لهذا التصويت بأغلبية كبيـرة وغيـر مسـبوقة لصالح الحرب. ولكن يبدو أن هذا الدور كان تقديريا تمامـا وتلون تبعا للقراءة الخاصة بكل عضو. فالإحصاءات المتاحة عن الرأي العام تشير إلى موافقة الرأي العام بنسبة الثلثـين (وهى نسبة مشابهة لنسـبة التصـويت مـع القـرار فـي الكونجرس) على فكرة الحرب. ولكن تلك الإحصاءات نفسها تشير بجلاء نادر إلى أنه حتى الموافقين يرغبون في أن يتقيد الرئيس بقرار مجلس الأمن حول العراق وبالحاجة للتعـاون مع الحلفاء الغربيين والإقليميين. وهذا هو نفسه الخط الدفاعي الذي أنتجه المعارضون في الكـونجرس لقـرار التفـويض بالحرب. فالمعارضون عموما لم يصوغوا موقفهم كمعارضة للحرب من حيث المبدأ أو لأهداف الإدارة فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل المزعومة لدى العراق وإنما صـاغوه علـى ضوء استطلاعات الرأي العام وحاولوا تقييد البيت الأبـيض بالعمل من داخل مجلس الأمن والمجتمع الدولي.

لعبت تلك الفكرة الأخيرة دورا مهما في الصـراع ضـد القرار في الكونجرس. وبوسعنا أن ننظر لفكرة التعاون مـع المجتمع الدولي باعتبارها بؤرة عملية التعلم والتفكير التـي أعقبت أحداث ١١ سبتمبر. فبينما اندفعت الأغلبيـة وراء رد فعل عسكري عنيف للأحداث، أدرك عدد لا بأس بـه مـن العقلاء في هذا البلد أن تلك الأحـداث جـاءت ولا يمكـن تفسيرها إلا على خلفية الكراهية المتزايدة لأمريكا في العـالم العربي وفى الساحة العالمية عموما. وكان لدى العديد مـن هؤلاء ما يكفى من الشجاعة لمناشـدة شـعبهم وزملائهـم بالكونجرس تصحيح صورة بلادهم في العـالم مـن خـلال تعاون حقيقي ومخلص مع المجتمع الدولي لمعالجة مشكلات العالم بما فيه من فقر وعنف وحروب. هذا ما كرره رجـل حكيم آخر هو النائب كوزينيتش من ولاية أوهايو الذي قـاد المعارضة للقرار في مجلس النواب وكرره زملاؤه في كـل المنابر الممكنة.

وصاغ المعارضون عددا مهما من الحجج التي تـنهض على عقيدة مبدئية. ومن بين تلك الحجـج: خـرق القـانون الدولي والطبيعة العدوانية للعقيدة الجديـدة للأمـن القـومي والمسماة بالضربات الاستباقية ومعارضة المجتمـع الـدولي والقيمة المميزة للأمم المتحـدة وتكلفـة الحـرب الكبيـرة والخسائر الإنسانية المتوقعة وصعوبة القبول بالنتائج الحتمية لتسييد العقيدة القائمة على الضـربات الاسـتباقية بالنسـبة للفوضى وإشاعة مناخ العدوان في العلاقـات بـين الـدول ووجود بدائل أخرى مثل الديبلوماسية والعمل من أجل العدالة وغياب أي دليل مقبول على الخطر الذي يمثله نظام صـدام حسين على الأمن الأمريكي وأولوية الإنهاء الناجح للحـرب ضد الإرهاب..الخ

وإضافة لتأثير هؤلاء المباشر والقيادي علـى قطاعـات مهمة من الرأي العام التقدمي في الولايات المتحدة، فسـوف نجد بعض التقديرات التي ترفض تماما القول بأن الرأي العام الأمريكي يريـد الحـرب ولـو بالطريقـة التـي تكشـفها الاستطلاعات طوال الشهور الماضية. فالنواب المعارضـون أكدوا أن مواقفهم جاءت متسقة تماما مـع الميـول العميقـة

لناخبيهم كما تظهر من الخطابـات والفاكسـات والرسـائل الإليكترونية التي تصل إلى مكاتبهم في الكونجرس. ويقدرون أن نسبة المعارضين للحرب في دوائرهم إلـي المـوافقين، تصل إلى ٢٠٠ إلى واحد. ولم تتردد النائبة شيرى جاكسون من فلوريدا في حمل ركام من الخطابات التي وصلتها مـن ناخبيها وتزن عدة كيلوجرامات وعرضها أمام الصحفيين في المؤتمر الصحفي الذي أشرنا إليه في بدايـة هـذا المقـال. واستعرض عدد كبير من هؤلاء النـواب مظـاهر مختلفـة لرفض الناخبين لفكرة تفويض الرئيس بشن حرب لا يعرفون شيئا عن أسبابها.

ومع ذلك، فان هناك تفسيرا آخر لما قدمه هؤلاء النـواب والشيوخ من مظاهر رفض الرأي العام للقرار. فالأرجح هو أن الرأي العام الأمريكي منقسم بشدة علـى نفسـه وبـنفس النسب التي جاء بها التصويت في الكونجرس تقريبا وإن كان هذا الانقسام جاء على خلفيـة عرقيـة وثقافيـة. فالأفارقـة والكاثوليك وبعض المنتمين إلى طوائف دينية تدعو للسـلام العالمي مثل الكيويكرز يرفضون الحـرب. بينمـا يبـدو أن أغلبية من البيض البروتستانت واليهود والمنتمين إلى العقائد

المحافظة الجديدة المنضوية تحت لواء ما يسـمى "التحـالف المسيحي" توافق على الحرب بدرجات مختلفة. وهذا هو مـا دعا عددا من الشيوخ والنواب الديموقراطيين الـذين لـديهم دواع قوية لتقييد سلطة البيت الأبيض والذين يتسمون بالدهاء والنزعة اللامبدئية مثل زعيم الشيوخ توم داشـل أو قيـادة الأقلية الديموقراطية في مجلس النـواب ريـك جيبهـاردت للتصويت مع القرار وخاصة أنهم من المرشـحين لخـوض معركة الرئاسة في عام ٢٠٠٤.

فهناك مزاج يميني يجتاح الرأي العام الأمريكي وخاصـة في الجنوب وولايات الوسط. وهناك ثقـل كبيـر لا يـزال للمحافظين الجدد في بعض الولايات المرتبطـة بـالليبراليين واليسار تقليديا وهو ما تكشف عنه آخر التقديرات الخاصـة بالانتخابات المقبلة للتجديد النصفي للكونجرس في ٥ نوفمبر المقبل. فالمؤشرات الأقوى تشير إلى فوز الجمهوريين علـى الديموقراطيين في المجلسين ونجاحهم لأول مرة منذ فترة في السيطرة على المؤسسات الـثلاث للدولـة الأمريكيـة: أي مجلسي الكونجرس إضافة إلى البيت الأبيض هذا إضافة إلى وجود أغلبية من المحافظين الآن في المحكمة الدستورية.

نزوع كفاحي :

غير أن تلك الخريطة المعقدة للرأي العام تشير إلى سـمة أخرى للمعارضة للحرب: أي النزوع الكفاحي. فلأول مـرة منذ ١١ سبتمبر وربما منذ زمن نجد أن قوى السـلام فـي الكونجرس وفى المجتمع الأمريكـي تتسـم بهـذا الطـابع الكفاحي. فمن خارج الكونجرس نجد أن المعارضين نشطوا للضغط على الكونجرس والبيت الأبيض من خـلال كتابـة الخطابات والرسائل المعارضة بل ومـن خـلال التظـاهر السياسي. وهو ما يشي بما أسميناه من قبل الإحياء البطـيء لقوة السلام. أما من داخل الكونجرس فقد خاض المعارضون معركة شرسة قبل التصويت المفاجئ. كما استمروا في تعبئة المعارضة من خارج الكونجرس رغـم أنهـم لا يتمتعـون بنصيب يذكر من الإعلام التلفازى وهو الأكثر تأثيرا علـى الرأي العام مما اضطرهم للاعتماد على الإنترنت والصحافة المحلية. وبوجه عام نستطيع التنبؤ بأن هيمنـة المحـافظين ستؤدى إلى تعميق هذا الطابع الكفاحي لقوى السلام، هذا إن لم يتدخل "بن لادن" ورفاقه مرة أخرى بالقيام بأعمال إرهابية جديدة في أمريكا وهو ما يمكن أن يسكت قوى السلام لعقدين مقبلين على الأقل.

لأول مرة إذن يتفوق دعاة السلام مـن حيـث النشـاطية والكفاحية على المحافظين والصهاينة واليمنيين الجدد الـذين كانوا يملأون الدنيا ضجيجا. ولكن الأمر اختلـف بعـد ١١ سبتمبر. فقد أصبح الأخيرون هم الأغلبية التي تسيطر على الكونجرس بمجلسيه إضافة إلى الإدارة وعشرات من مراكز البحث ومؤسسات الإعلام الأقوى في البلاد.

وكان من الممكن أن تنجح المعارضة فـي تسـجيل أداء أقوى لـولا خبـث الإدارة ولجوءهـا للتلاعـب السياسـي والبرلماني ولولا هشاشة القيادة الديموقراطيـة واصـطفافها خلف الرئيس بدلا من قواعدها داخل وخارج الكونجرس. ولا شك أن تنظيم القاعدة لعب أيضا لصالح اليمين المتطرف في أمريكا ولا زال حتى الآن.

(٧) المقاومة بين الطوائف الدينية

تجمع مختلف التحليلات على أن اليمين الأصولي المسيحي يتمتع بنفوذ كبير على تكوين وسياسات الإدارة الحالية. هذا النفوذ غير بصورة محسوسة طبيعة اللوحة السياسية في الولايات المتحدة وطبيعة التوجهات نحو الصراع العربي الإسرائيلي والعالم العربي. فاليمين المسيحي الذي يشتهر عندنا باسم الصهيونية المسيحية يقف وراء التحول النوعي في السياسات الأمريكية التي عادة ما تحالفت مع حزب العمل وقوى الوسط الإسرائيلي. وهو يشجع الإدارة على غزو العراق ومواجهة السودان ومعاقبتها ودفع العلاقات العربية الأمريكية نحو الانهيار على نحو ربما يكون أنشط وأعمق مما يقوم به اليمين اليهودى الصهيوني، لأن الأول يركز على الصراع الديني والثقافي مع العالم العربي، بينما يركز الأخير على الجانب السياسى البحت. ولا زالت الساحة السياسية الأمريكية تشعر بالصدمة بعد تصريحات إحدى القيادات البارزة لهذا التيار وهو جيري فالويل في برنامج "ستون دقيقة" التلفازى المشهور والذي

سب فيه رسولنا الكريم وبعد تصريحات قيادة أخـرى وهـو بات روبرتسون والتي سب فيها الإسـلام والمسـلمين فـي برنامج تلفازي آخر في سبتمبر الماضي.

لقد صارت تلك التحليلات أحد ثوابـت فهـم السياسـات الحالية للإدارة وعلى مستوى الخريطة السياسية الأمريكيـة ككل. ولكنها قد تعطى انطباعات خاطئة جوهريا في بلادنـا العربية وفى العالم الإسلامي لسببين. الأول هو أن تسمية هذه القوى على نحو يقبل ضمنا ما تطلقـه علـى نفسـها مـن مصطلحات مسيحية- مثل التحالف المسـيحى أو الأغلبيـة الأخلاقية- قد يخدع القراء البعيدين عن الساحة الأمريكيـة فيظن القراء أن هؤلاء الناس هم أساسا مـن رجـال الـدين المسيحي وهو انطباع خاطئ إلى حد بعيد جدا. والواقـع أن هؤلاء الناس أسسوا شهرتهم ونفوذهم لـيس مـن الخدمـة الطويلة فى كنائس ومؤسسات دينية صرفة وإنما من العمـل السياسى المباشر. ومنظماتهم هى فـى الجـوهر حركـات وتيارات سياسية. وانحدر معظم زعمائها وكوادرها المهمـة من ظواهر لا صله لها بالعمل الديني المألوف في المسـيحية وهو العمل الذي يتم داخل الكنائس بشتى انتماءاتها وطوائفها.

وتعود تلك الظواهر إلى توظيـف الميـل الخرافـي لـدى الجماهير الفقيرة بوجه خاص والخلط الذائع في كل الأديـان بين الرسالة الروحية والأخلاقية من ناحية والطبيعة الخارقة للظاهرة الدينية من ناحية أخرى. فمثلا ينتمي عدد كبير مـن هذه الزعامات الدينية إلى الظاهرة المعروفة باسـم العـلاج الديني حيث يقوم رجال معينون بالادعاء بأن لـديهم قـدرة خارقة على علاج المرضى باستخدام أدعية وطقوس وكتابات ونصائح منسوبة للدين أو مشـتقة مـن بعـض نصوصـه. وسريعا ما يصبحوا أشخاصا مشهورين إلى الدرجـة التـي تغريهم بالاشتغال بالسياسة والتـأثير علـى الانتخابـات أو خوضها بأنفسهم وإشاعة معتقدات سياسـية مـأخوذة مـن تفسيرات عجيبة للنصوص الدينية. وقد شاعت تلك الظواهر في الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر، ولكنها اتخذت شكل الظاهرة السياسية الواسعة النطاق خلال العقود الثلاثـة الأخيرة بتأثير جملة من العوامل والتحولات التي لا مجـال لشرحها هنا.

والواقع أن الثورة البروتستانتية شجعت ضمنا على نمـو تلك الظاهرة. فرغم صرامة التفسيرات التي أشاعتها الثـورة الكالفينية واللوثرية للكتاب المقدس بجزءيه فإنها قامت علـى إزالة المسافة بين رجال الدين وعامة الناس وصار بمقـدور أي شخص أن يفسر العقائد الدينية كما يشاء وأن يخدم فـي كنيسة وأن يكون أتباعا وطوائف وهو ما يفسر الكثرة غيـر المعتادة للطوائف البروتستانتية في الولايات المتحدة بصورة خاصة. ورغم أن بعض هؤلاء الناس أفاد بصورة تامة مـن تلك المرونة بالخدمة في كنيسة أو تأسيس طوائف ثانوية ولو على أساس عقائد تخلط الدين بالدنيا وبين الـنص المقـدس والأفكار الدنيوية البحتة، فأن اليمين المسيحي لم يؤسس نفوذه من داخل الكنائس وإنما باستخدام أدوات الحداثة من إعـلام إذاعي وتلفازي وأجهزة سمعية بصرية وشركات تعمل فـي كافة المجالات إضافة إلى الادعـاءات العلاجيـة باسـتخدام الرموز الدينية..الخ

اليمين المنسوب للمسيحية في الولايات المتحدة هـو إذن ظاهرة سياسية اقتصادية شعبية وصلتها بالدين لا تكاد تصمد لأي نقد من جانب علماء الدين المسيحي والعارفين بنصوصه

وتوجهاته الروحية والفلسفية. ومن الخطأ على الأقل جزئيـا تبنى التسمية التي يطلقها كوادر هذا التيـار علـى أنفسـهم والادعاء بأنهم رجال دين مسيحي أو غير مسيحي. فهم الآن حركة سياسية بكل معنى الكلمة.

السبب الثاني لما قد تغرسه التحليلات الشـائعة للسـاحة السياسية الأمريكية هو أنها تكرس انطباعا خاطئا بأن أغلبية المسيحيين المتدينين في الولايات المتحدة يتبعـون التفسـير الصهيوني للمسيحية وخاصة فيما يتعلق بالسياسة الأمريكيـة في الشرق الأوسط أو فيما يتعلق بقضايا الحـرب والسـلام عموما. صحيح أن نفوذ هذه القوى قد تعزز كثيرا في نحـو عشر ولايات أمريكية أغلبها يقع في الجنوب و في الوسـط. ولكن هذا النفوذ لا ينعكس بالضرورة على المواقف الدينيـة حقا : أي التي تصدر عـن الهيئـات المعتمـدة للطوائـف والمذاهب الدينية الكبرى في الولايات المتحدة.

هذه المسألة على درجه كبيرة جدا من الأهمية ويجب أن يفهمها القارئ العربي جيدا حتى لا يقع في المحظور ويظـن أن أغلب المسيحيين الأمريكيين أو رجال الدين المسيحي من أنصار الصهيونية أو اليمين الصهيوني الذي ينسب نفسه لها.

فالواقع هو عكس ذلك إلى حد كبير. إذ نجد هنـا مـيلا واضحا وأن لم يكن كاملا أو بنسبة مائة بالمائة لتبنى رجال الدين المسيحي في الولايات المتحدة لمواقـف معتدلـة مـن قضايا الشرق الأوسط بما في ذلـك دعـم حقـوق الشـعب الفلسطيني ومناهضة فكرة غزو العراق.

ولكي نطلع على حقائق الأمر لا بد أن نعطى فكرة أولية للغاية عن التركيبة الدينية للولايات المتحدة. لقد سادت لفترة طويلة فكرة مبسطة تصف هذه التركيبة بثلاثية تتـألف مـن نحو ٦٦% بروتستانت و٣٠% كاثوليك ونحـو ٢% يهـود والباقي من أديان مختلفة. هذه الصيغة الثلاثية التي تعود إلى الثمانينات تغيرت بصورة ملموسة حيث أصـبح للمسـلمين وجود محسوس لا يقل بحال عن الحضور اليهـودي إن لـم يزد عنه عدديا. وتتزايد نسبة الأديان السائدة فـي الصـين والهند بسرعة ملحوظة أيضا. ولكن الأهم هـو أن نسـبة لا يستهان بها من الأمريكيين لا يتعلقون كثيرا بالطقوس الدينية إلا باعتبارها تقاليد وأعرافاً اجتماعية محببة. وخلال القـرن التاسع عشر ثار صراع شديد بين الإصلاحيين والمحـافظين من بين البروتستانت. وهناك نسبة كبيرة ولكنها ليست غالبية منهم لا زالت تؤيد المحافظين الذين يطلق عليهم الإنجيليـون

وهم من يحبذ تفسيرا حرفيا للنصوص الإنجيليـة. وينتمـي اليمين المسيحي إلى هذه الفئة الأخيرة وإن لم يكـن يشـكل أغلبية حتى في إطار الإنجيليين. ولدينا من ناحيـة أخـرى إحصاءات حديثة مشتقة من استطلاعات الرأي العام تظهـر أن نحو ٦٠% على الأقل من الأمريكيين يؤيدون إنشاء دولة فلسطينية وهى فكرة ينظر لها اليمين المنسـوب للمسـيحية بعداء. ولابد أن نسبة معتبرة من هؤلاء تنتمي إلى الإنجيليين اسميا. والموقف الرسمى التقليدى للكنائس الانجيلية يؤيد منح الفلسطينيين حقوقهم السياسية وهو ما يدل علـى أن اليمـين الأصولى داخل هذه الطوائف الانجيلية لا يشكل أغلبية بـأى حال. وطوال هذا العام صدرت عشرات من التصريحات من الهيئات الدينية التي تتحدث حول الشئون السياسية والعامـة باسم الكنائس الإنجيلية تدعم حقوق الشعب الفلسطيني وإحلال السلام بين الفلسطينيين وإسرائيل على أسس مقاربة للقرارات الدولية. وتمركزت المقاومة للمواقف التي يعبر عنها اليمـين "المسيحي" والإدارة معا فيما يتعلق بالشأن الفلسطيني حـول مجلس الكنائس الانجليكانية الذي أصدر سلسلة من القرارات المتعاطفة مع الحقوق الفلسطينية والتى تدعو الإدارة لانتهاج سياسة نشطة ومتوازنة لإحلال السلام في المنطقة.

أما الهيئات الكاثوليكية الأمريكية وعلى رأسـها مجلـس الأساقفة الأمريكيين فكانت أكثر تعاطفا بكثير مع الفلسطينيين رغم أن المواقف السياسية تتحدد عادة في رومـا. فمشـاعر الأغلبية من الكاثوليك تميل إلى الجانب الفلسطيني أو علـى الأقل للتوازن بين إسرائيل والشعب الفلسطيني. بل أن عـددا متزايدا من رجال الدين اليهود مـدفوعا بتفسـيرات دينيـة وإنسانية، انخرط بنشاط أوفر للكفاح العلنـي والجمـاهيري وخاصة التظاهر وتوزيع البيانات ضد الاحتلال الإسـرائيلي وسياسات الحكومات الإسرائيلية ضد الشـعب الفلسـطيني. وبالطبع لا يشكل هؤلاء أغلبيـة داخـل الجاليـة اليهوديـة الأمريكية ولكنهم يشكلون نسبة لا يستهان بها بـين رجـال الدين اليهود. ويتسم هؤلاء بقدر كبير من النشاطية وإن كانوا لا يملكون القدرة على التواصـل مـع الأجهـزة السياسـية الأمريكية وخاصة الكونجرس الذى يحتكره "الايباك" المدعوم من المعابد اليهودية التقليدية وخاصة المنتميـة لمـا يسـمى بالاتجاه الاصلاحى.

ولعب مجلس الكنائس العالمي دورا لا يستهان بـه فـي إبراز حتمية الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني بما في ذلك إنشاء دولته المستقلة. ويحسب لمجلس كنائس الشرق الأوسط الذي يتسم بقدر كبير من الكفاحية والتقدمية، الجانب الأكبـر من الفضل في مواقف المجلـس العـالمي خـلال عـامي الانتفاضة. ويتمتع الأساقفة الكاثوليك المتحدون من أصـول فلسطينية بنفوذ ملحوظ داخل مجلس كنائس الشرق الأوسـط وأن كان رجال الدين من أصول عربية من كافة الطوائـف شاركوا فى خوض المناظرات الفكرية والدينية حول الموقف من الصراع العربى الاسرائيلى وحقوق الشعب الفلسطينى.

أما فيما يتعلق بالحرب ضد العراق التى يتبناهـا اليمـين الأصولى المسيحى، فهى تشكل ميدانا لخلافات عميقة بـين مختلف القيادات المسيحية. ويمكن القـول أن هنـاك ثلاثـة مواقف أساسية. الموقف الأول يدافع بقوة وحماس شديد عن مبادىء السلام بشكل عام ويقود اتجاها واسـعا منـذ فتـرة طويلة لمعارضة الحرب وأنهاء العقوبات المفروضـة علـى العراق. ويتمركز هذا الاتجاه حـول عـدد مـن الطوائـف المسيحية الأصغر وبصـفة أخـص "الكـويكرز". وينشـط

الكويكرز بالذات فى حركات السلام وكان لهم باع كبير فـى معارضة النزعات العسكرية للادارات الأمريكيـة المتعاقبـة منذ زمن طويل جدا. فالدعوة للسلام والتـراحم هـو أكثـر المبادىء بروزا لدى الكويكرز، الأمرالذى دفعهـم للتواجـد المبكر فـى الأرض المحتلـة حيـث يقـدمون مسـاعدات للمؤسسات الفلسطينية.

وخلال هذا العام قام الكويكرز بحملات متعاقبة باستخدام الانترنت لشرح النتائج المدمرة لنظام العقوبات والكفاح مـن أجل السلام مع العراق. ولهذا الغرض أنشأوا "ويب سـايت مخصصا لهذه القضية باسم " قسم السلام مع العراق". كمـا أنشأوا ما يسمى ب"شبكة المـواطنين المهمـومين بالشـعب العراقى". وعلى الجانب المقابل نجد الموقـف الـذى يـدفع الادارة لشن الحرب ضد العراق. ويتبنى هذا الموقف اليمين الأصولى المسيحى وبعض رجال الوسـط داخـل الكنـائس البروتستانتية.، وتمركز الموقف المؤيد للإدارة فـي حربهـا المزمعة ضد العراق حول عدد محدود مـن رجـال الـدين وأغلبهم من الجنوب والولايات التى تسـمى فـى الولايـات المتحدة "بالحزام المسيحى" خاصة السيد ريتشارد لاند الـذي

صرح بأن "الحرب ضد العراق عادلـة إذا كانـت الملجـأ الأخير". ومع ذلك لا يمكن القول بأن أغلبيـة البروتسـتانت تؤيد الحرب ضد العراق. فهناك موقف تبلور بوضوح قبـل شهر من قرار الكونجرس بتفويض الرئيس الأمريكى بشـن الحرب يرى أن هذه الحرب لا أخلاقية ولا مسيحية. و فقـد تمركزت المعارضة-داخل الكنـائس البروتسـتانتية حـول شخصية السيد جيم وينكلر الأمين العام للكنيسـة الميثوديـة المتحدة وهى من أبرز الكنائس البروتستانتية فـي الولايـات المتحدة. ونظرا لأهمية الدور الذي لعبه هذا الرجل مـؤخرا، يجمل بنا أن نقتطف استشهادا طويلا من البيان الذي أصدره في نهاية شهر أغسطس الماضي. فجاء في هذا البيان ما يلي " أعلنت إدارة بوش عزمها على شن الحرب ضـد العـراق متجاهلة نصائح حلفائها وخبراء أساسـيين وملايـين مـن الأمريكيين. لقد أعطى الرئيس أوامره بإطلاق النـار بقـدر غير مسبوق من تجاهل المثل الديموقراطيـة وفـى غيـاب مدهش للأدلة التي تثبت الحاجة لهذا الهجوم الاستباقى.. اننى أسأل (المنتمين) للكنيسة الميثودية معارضة هذا الاجراء غير المسئول وأطالب الرئيس بأن يبدأ فورا فى انتهـاج وسـائل

أخرى...لقد دعت الكنيسة الميثودية لتأييد حق تقرير المصير ومبدأ عدم التدخل لكل الأمم (القـرار ٢٧٧ لعـام ٢٠٠٠).. وهى تعارض التدخل من جانب أمم قوية ضد الأمم الضعيفة وتعترف بالواجب الأخلاقى لكل الأمم بحل خلافاتها جميعـا بالطرق السلمية..والرئيس بوش ونائبه تشينى عضوان فـى طائفتنا وصمتنا يمكن أن يفسر بأنه نوع من الموافقة الضمنية على الحرب..وليس من المتصور أن يوافق المسيح على هذا الهجوم المزمع...."

أثار هذا التصريح الشجاع مناظرات حادة داخل الطوائف المعمدانية خلال الشهرين الماضيين.. فتصدى لهذا التصريح نحو ٣٧ من رجال الكنائس المعمدانية. ولكن عددا كبيرا وإن كان غير معروف أيدوا التصريح الذى اذاعه السيد وينكلر.

وأخيرا يمكن الحديث عن موقف وسط، وربما يدخل فـى هذه الفئة مواقف الأساقفة الكاثوليك. جاء الموقـف العلنـى للكنيسة الكاثوليكية الأمريكية متأخرا وبعد صمت طويل بـدا وكأنه نوع من الحياد نحو المنـاظرات التـى ثـارت بـين البروتستانت. وفى يوم ١٧ سبتمبر الماضى صرح الأسـقف ويلتون جريجورى رئيس مؤتمر الأساقفة الأمـريكيين فـى

خطاب رسمى وجه للادارة " بأنه على ضـوء المخـاطرات والسوابق المتضمنة، نجد من الصعب تبرير مد الحرب ضد الارهاب الى العراق فى غياب دليل واضح وكاف حول دور للعراق فى هجوم ١١ سبتمبر أو تهديـد داهـم ذى طـابع خطير". وأشار بيان الأسقف الى أن هناك أسـئلة أخلاقيـة كثيرة حول ما يسمى "بالهجوم الاستباقى" الذى صار المذهب الرسمى للأمن القومى فى ظل ادارة بـوش الابـن. ولكـن الأسقف أمسك العصا من المنتصف بأن أيد الادارة فى العمل من داخل الأمم المتحدة ولتعبئة الرأى العام العالمى والمجتمع الدولى ضد "القمع العراقى والتهديد العراقى للسـلم والأمـن الدوليين".

وجاء بيان مجلس الكنائس العالمي المناهض للحرب ليؤكد أن هناك أغلبية من رجال الـدين المسـيحى مـن مختلـف الطوائف والتجمعات تشعر بأن الحرب ضد العـراق غيـر عادلة ولا يمكن مقارنتها بالحرب ضد الارهاب. فأكد البيان أنه "لا يمكن الزعم بأن لأية أمة (أو طائفة من الأمم) الحـق في القيام بأعمال انتقامية ضد الأخريات أو اتخاذ تدابير مـن شأنها أن تسبب دمارا أو معاناة شاملة".

نلحظ هنا أن الانقسام داخل مجتمع رجال الدين من كـل الطوائف والتجمعات الكنسـية يتفـق مـع الصـراع بـين الإصلاحيين من ناحية والمحافظين من ناحية أخـرى. كمـا يتفق –في حالة أمريكا- مع الصراع بين الشمال الليبرالـي نسبيا والجنوب المحافظ في مجموعه. وبتعبير آخر يبـدو أن المواقف من الصراع العربي الإسرائيلي ومن الحرب ضـد العراق يعكس الفكر السياسي والاجتماعي أكثر بكثيـر ممـا يعكس الفكر الديني باعتباره كذلك. فالمسألة تظل سياسية في جوهرها. وهو ما يعنى أن المواقف السياسـية مـن كافـة القضايا هي المحدد الأكبر للموقف من الشرق الأوسط ومـن قضايا الحرب والسـلام. وحالـة أمريكـا ورجـال الـدين المسيحيين واليهود لا تختلف في الجوهر عن حالة المسلمين والعرب. فالتقدميون في كل الحالات غالبا ما يقتربون مـن المواقف العادلة والأكثر تسامحا مع غيـرهم مـن الأديـان والأيديولوجيات. والمحافظون غالبا ما يتسمون باللاتسـامح وبمواقف متحيزة للأقوياء وضد الضعفاء والفقراء. وهنـاك قبل ذلك وبعده التمايز الحاسم بين رجال العلم الـديني مـن ناحية وزعماء الحركات السياسية التي تنسب نفسها للدين من

ناحية أخرى. وبكل تأكيد هناك كثيرون من رجـال الـدين المسيحيين في أمريكا وغير أمريكا من يقـف مـع السـلام وحقوق الشعب الفلسطيني ومن يقـاوم سياسـات الحـرب والاحتلال والعدوان ممن يستحقون منا كل التقدير والإجلال.

ويتوقف الأمر الى حد كبير أيضا على الـدور العربـى وعلى وجود أو غياب سياسة نشيطة للحـوار مـع مختلـف القوى السياسية والدينية. فالحضور القوى للمسيحيين العرب فى الهيئات الدينية العالمية يؤثر إيجابيا وبصورة ملحوظـة على مواقف هذه الهيئات نحو القضايا العربية. ولا أدل على ذلك من موقف مجلس كنائس الشرق الأوسط.

(٨) فريق تفاوضي من حكماء العرب

اقترحنا في الأسبوع الماضي تشكيل فريق مـن حكمـاء العرب للتفاوض مع العالم حول قضـية العـراق وقضـية فلسطين. وقلنا أن المهمة المطروحة على هذا الفريـق هـي التفاوض مع العالم بلغة الحضارة.

وأن الأوان قد آن لكي نضفي بعضا من التفصـيل علـى هذا الاقتراح. ولدينا هنا خمسة جوانب أساسية.

الجانب الأول يدور حول معنى التفاوض بلغة الحضـارة. فليس هناك مصطلح بهذا المعنى في الأدبيات المتراكمة حول التفاوض. فقد عرف الفكر السياسي مصطلح التفاوض منذ أمد بعيد. والتفاوض في الجوهر مساومة: تعطى شيئا يراه الأخر ضروريا في مقابل شئ تحتاجه. وليس في معنى الحضارة ما يؤخذ أو يمنح وإنما هناك التأثير والتأثر وربما الإقناع بالحجة أو الحق في الدعوة والتي تدخل في القانون الحديث من بـاب حرية التعبير. وترتبط الحضارات بعضها ببعض بطرق شتى مثل التلمذة والتناسل والتعاون وربما الصراع. وليس في ذلك كله معنى المفاوضة إلا على سبيل الكناية.

وعندما تخاطب حضارة ما حضارة أخرى فما يحدث هو حوار وليس تفاوضا. فهدفه هو الفهـم المتبـادل وتسـهيل التواصل وتعزيز التدفق الضـروري للخبـرات والمعـاني والابتكارات..الخ. ونحن لا نقصد شيئا من ذلك عندما نتحدث عن مهمة فريق الحكماء العرب في اللحظة الراهنـة بشـأن العراق وفلسطين. ما نقصده هو في الحقيقة مفاوضة بمعنـى أن نأخذ شيئا ونعطى شيئا بالمقابل. فبأي معنى إذن نقول أن هذا التفاوض يجب أن ينهض على لغة الحضارة؟

ما نقصده هو أن يتحدث هؤلاء الحكماء باسم الحضـارة العربية الإسلامية. ويعنى ذلك أيضا التفاوض باسم هذه الأمة بماضيها ومستقبلها.

سوف يُقفز من يقول أن هذه المصـطلحات تجريـديات وليست فاعلا محدد وملموسا وهذا صحيح. غيـر أن هـذه المصطلحات التي لا سبيل لإنكار تجريديتها وإبهامها هي مع ذلك مصطلحات حقيقية ولها وجود حقيقي من حيـث أنهـا يمكن أن تكون مدخلا لساطة. نقـول مـثلا سـلطة الثقافـة والساطة الثقافية وهى أشياء حقيقية نشعر بها وتختلف اختلافا بينا عن ثقافة الساطة وعن الساطة السياسية في مجال الثقافة.

سلطة الثقافة تمنح أو تمنع الشـرعية والقبـول لأفكـار وأدوات بل ولفاعلين بعينهم لدى المجتمع الذي تمثلـه تلـك السلطة. والشرعية هي حاجـة موضـوعية لكافـة الـنظم. ولنفترض أن لفريق ما من الناس مثل تلك السلطة في تمثيل الثقافة أو الحضارة العربية الإسلامية أو بالأحرى المنطقـة الثقافية العربية الإسلامية (حتى ندخل الشعوب في الحاضـر والمستقبل طرفا أساسيا في عملية التمثيل هذه) فسيكون لديه ما يمنحه للنظام العالمي وما يحجبه عنه: أي الاعتـراف أو عدم الاعتراف بشرعيته من جانب الشـعوب العربيـة فـي الحاضر والمستقبل بغض النظـر عـن موقـف السـلطات الحكومات العربية من هذا النظام.

دفع البلاء :

الجانب الثاني يتعلق بأسباب حاجتنا لمثل هـذا الفريـق. ولدينا هنا أمثلة كثيرة. فالحكومات العربية قـد تمثـل أو لا تمثل شعوبها في اللحظة الراهنة تمثيلا سياسيا شرعيا. وحتى لو كان هناك تمثيل حقيقي بمعنى التفـويض الـديموقراطي الشرعي فهو جزئي للغاية. فلو أن التفويض صـادق غيـر مزور فهو محصور بالحاضر بينمـا موضـوع المفاوضـة

وقالب المساومة يتعلق أيضا بالمستقبل. وقد لا نحتاج للقـول بأنه لا يوجد مثل هذا التفويض الكامل لـدى أيـة حكومـة عربية. وأنها في أفضل الأحوال ممثل شرعي بين ممثلـين آخرين ينتمون للمجتمع ولمجال الحضارة بـالمعنى الواسـع للكلمة ولن يضرها بحال أن يكون هناك من يتحـدث إلـى جانبها باسم الأمة والحضارة والمسـتقبل فـي موضـوعات محددة لم تتمكن هي من التفاوض الناجح حولها.

أما السبب الأهم فهو أن العرب ليس لديهم من القـوة فـي اللحظة الراهنة ما يسعفهم في التفـاوض السياسـي البسـيط. فالتفاوض السياسي يأخذ في الاعتبار القدرة الآنية على مـنح ميزة أو حرمان الآخر من ميزة أو إيقاع الألم به. ومـوازين التفاوض حول القضيتين الفلسطينية والعراقيـة ليسـت فـي مصلحتنا بحال فى اللحظة الراهنة. ولو افترضـنا اسـتمرار المقاومة والنضال الفلسطيني والعراقي ضد نظـام احتلالـي تحرسه وتعززه قوة طاغية في الحالتين وهى قـوة الولايـات المتحدة الأمريكية وربما النظام العالمي بكامل قواه فسـيطول النضال أمدا زمنيا طويلا نكون قد خسرنا فيـه آلاف الأرواح ومعظم الموارد حيث وصلت الأمة العربية في الوقت الراهن

ومن جديد إلي أدنى نقطة في منحنى القوة النسبية أو العجـز والضعف الذي ندينه ونستشعر هوانه كل يوم. فى هذا السياق يكون الهدف من المفاوضة هو دفع البلاء الأكبر ببلاء أصغر.

سبب لا يقل أهمية عن هذا الثمن المهول المتوقـع لنيـل العدالة بوسائل الصراع المكشوف هو أن هـاتين القضـيتين لهما دور حاسم في تقرير مستقبل الأمة بل وربما الحضـارة العربية الإسلامية. ففلسطين قضية مركزية لن يكون للأمـة شأن أو قيمة أو مدخل للكرامة بدون حلها. والتهديـد الـذي تمثله إسرائيل بتشكيلاتها الحالية يتناول معنى البقاء والوجود بالمعنى الرمزي والأخلاقي على الأقل إن لم يكن بـالمعنى المادي أيضا. أما قضية العراق فتتعلق بالدفاع عن القـانون الدولي الراهن والذي يقوم على مبدأ السيادة وحق الأمم فـي تقرير مصيرها وعدم شرعية الاستعمار والغزو والعـدوان. ولو وقع غزو واحتلال العراق وتغيير نظامه بالقوة الأجنبية المسلحة لانتفى وجود هذا النظام بغض النظر عما إذا وقـع الغزو باسم الأمم المتحدة أو بدون الزج باسمها. ولا شك أن نجاح هذا الغزو يهدم استقلال وسيادة جميع الشـعوب علـى أرضها وليس العراق وحده سوى مجرد بداية لما سيقع حتما لبقية الشعوب على اتساع العالم كله.

المساومة التاريخية :

فإذا كان العرب - لأسباب سياسية وهيكلية - عـاجزين الآن وربما في المستقبل القريب عن الـدفاع الفعـال عـن أنفسهم، فهم لن يبقوا دائما بهذا العجز. وحتى في ظل هـذا العجز الذي يعيشه النظام العربي بكاملـه والـنظم العربيـة الحاكمة كل منها على انفراد، فسيظل بيـد بعـض العـرب وسائل شتى لإلحاق الأذى بالقوى الطغيانيـة فـي النظـام العالمي. وأحداث ١١ سبتمبر خير دليل على هذه الحقيقـة. كل ما هنا لك أن دخول هذا الطريق يسبب آلاما لا حصـر لها لنا وللآخرين أيضا.

إن أمامنا اختياراً صعباً. فنحن لـن نسـكت أبـدا علـى استمرار الظلم والإجحاف المروع الذي يقع علينا. ويجب أن يكون هذا المعنى واضحا لا لبس فيه لدى الأخرين. ولكن ما يجب ألا نقع فى لبس بشأنه نحن فهو أن إزالة هـذا الظلـم بالقوة سيبعثر مواردنا القليلة ويحرمنا من عائـد اسـتثمارها لتحقيق النهوض السياسي والاقتصادي والعلمي..الخ لفتـرة طويلة جدا من الزمن. وبالمقابل سيكون بوسع النظام العالمي أن يكسب تأييدنا لمشروعيته واستمراره إذا ما قام بمسئولياته

في رفع الظلم الواقع على العـرب فـي حـالتى فلسـطين والعراق. فإذا استمر هذا الظلم فسيخسر النظام العالمي تأييدنا وسيتم تشجيع كافة صور المقاومة دون تمييز، وهو ما يلحق الأذى بالدول والمجتمعات التي تتمتع بامتيـازات فـي هـذا النظام.

لدينا إذن معطيات أساسية للمساومة التاريخية الحضـارية طويلة المدى. والمقصود بأن يكون هناك فريق من الحكمـاء العرب للقيام بهذه المساومة هو أن يملـك السـلطة الثقافيـة للحديث باسم الشعوب العربية في الحاضر والمسـتقبل وأن يتخذ بعد اجراء المفاوضة قرارا يتعلق بمنح أو منع الشرعية عن النظام العالمى الراهن. وهذا القرار الثقافي ستكون لـه قيمة أعلى من قيمة القرارات الاسـتراتيجية لأنـه سـيتعلق بموقف الشعوب العربية في الحاضر والمستقبل من النظـام العالمي الراهن ومن الآخر عموما. والمسـاومة الحضـارية التي نتحدث عنها تقول أعطونا العدالة ولو النسبية نعطـيكم الشرعية والانفتاح على الآخر وقبوله. فان حجبتم عنا العدالة فلن يوقفنا شئ عن النضال من أجلها بما فـي ذلـك نـزع الشرعية الثقافية والسياسية والقانونية عن النظـام العـالمي

الراهن وعن الحضارة الغربية بشكل خاص وممارسة شـتى صور النضال فى مواجهتها. ولن يكون بمقدور أحد وقـف عجلة الحرب الثقافيـة بكـل أدواتهـا الممكنـة الآن وفـى المستقبل.

جانب ثالث يتعلق بخصوصية قضيتى العراق وفلسـطين. فان بدأنا بقضية العراق لن يكون بوسع مراقب نزيه أو عادل أن يتجاهل القسوة المميزة للنظام العراقي وأخطائه الكبيـرة بحق شعبه وشعوب المنطقة وبخاصة إيران والكويت. والأهم أنه لن يكون بوسع أحد تجاهل حقيقـة أن الوضـع الحـالي للعراق يشتمل على تآكل جسيم للمجتمـع العراقـي بتـأثير الحصار والفشل الممتد في إقامة نظام يحقق لجميـع أقسـام الشعب العراقي الشعور بالعدالة والمساواة أمام القانون. ولولا هذه الصورة الحقيقية للنظام العراقي ما تمكنت أمريكا أبـدا من حشد التأييد لقراراتها في مجلس الأمن. وليس لدى أدنى شك في أن انتقال العراق إلى بناء دولة القانون ينزع من يـد الولايات المتحدة أهم الأوراق التي تستخدمها لتبريـر غـزو العراق وتغيير نظامه بالقوة لمصلحتها (والتي لا صلة لهـا بالديموقراطية وحقوق الإنسان). فإذا أضفنا أن إحداث هـذا

التغيير يخدم مصالح الشعب العراقي بشكل أفضل لوجدنا أن من واجب فريق الحكماء العرب أن يبدأ مهمته بالحديث إلى القادة العراقيين قبل أن ينتقل ليعرض مساومة تاريخية علـى النظام العالمي. المساومة هنا تقوم على تجنيب العراق مغبة الغزو الذي يبدو في ظل الأوضاع الحاليـة حتميـا مقابـل الانتقال إلي وضع دستوري جديد في العراق يشمل مصالحة حقيقية بين جميع أقسام الشعب العراقـي وإيجـاد صـورة موضوعية لتمثيل جميع هذه الأقسام بصورة عادلة في هياكل الدولة الجديدة. قد يقول قائل ولماذا يقبل النظام العراقي بهذه الصيغة. ونرد أنه قد لا يقبلها إذا كان يتفاوض مع الولايات المتحدة أو القوى الكبرى الأخـرى. ولكنـه قـد يقبلهـا إذا عرضها باستفاضة فريق من الحكماء العرب لأنها أفضل من الغزو الذي سيتبعه أشكال قاسية من الانتقام والتفتت والانتقال من وضع الأغلبية الى وضع الأقلية. وبتعبيـر آخـر ثمـة مصلحة للنظام العراقي في قبول فكرة الانتقال والتحول إلـى نظام جديد بطريقة (بيدي لا بيد عمرو) لأن التغيير السـلمي والتطوعي من الداخل يحقق توازن المصالح والعفو المتبادل ويعزز المصالح الجماعية للعراق وللعرب وليس المصـالح الأنانية للولايات المتحدة.

يبقى لدينا جانبان: الأول يتعلق بالجوانب الإجرائية للتمثيل الذي يجب أن نضفيه على فريق الحكماء والثـاني يخـص أدوات الحركة التفاوضية الممكنة أمامه. ولكننـا نفضـل أن نستكمل هذين الجانبين الأسبوع المقبل إن شاء الله.

(٨) المعارضة الفرنسية: ظاهرة مصـلحيه أم نظامية؟ :

مع كل الاحترام للتراث الديجولى لم أتوقع ولا أظـن أن أحدا توقع أن تصمد المعارضة الفرنسية للضغوط الأمريكية الساحقة طوال هذا الوقت. فمنذ منتصـف شـهر سـبتمبر وأمريكا تحاول الحصول على قرار غزو العراق من المجلس دون نجاح حتى اليوم الأخير من أكتوبر.

ويعود الفضل في الفشل الأمريكـي حتـى ذلـك الوقـت لمعارضة فرنسا وروسيا والصين. ولكن المعارضـة النشـطة حقا تأتى أساسا من فرنسا. وربما يعود الفضل لفرنسا أيضا في تقوية المعارضة الروسية واستمرارها. بينما كان من الواضـح أن الصين حلت المشكلة من البداية أولا بالقبول بتصدر فرنسا للمعارضة وربما ثانيا بتفضيل عدم التصويت بحيـث تكسـب الأمريكيين وترضى تاريخها وضميرها في نفس الوقت.

المعارضة الفرنسية في مجلس الأمن تبدو مدهشـة بـل ومفاجئة هذه المرة ليس بسبب تحملها للضـغوط الأمريكيـة لفترة طويلة فحسب. فهي مدهشة أيضـا بحسـابات القـوة. ففرنسا بنهاية المطاف قوة عسكرية وسياسية دولية محـدودة بالمقارنة بالولايات المتحدة. ولا يمل الأمريكيون وخاصة من اليمين المتطرف من تذكير الفرنسيين بهذه الحقيقـة وبـأنهم مدينون بحريتهم من الاحتلال الألماني لأمريكـا. ويصـعب تصور أن تكون فرنسا بذاتها قطبا مقـابلا لأمريكـا علـى المستويين السياسى والاستراتيجى.

وتزداد الدهشة من صلابة المعارضـة الفرنسـية لأنهـا تنطوي على عنصر مخاطرة. وقد تصل المخاطرة إلى حـد انهيار الأمم المتحدة التي يمنح ميثاقها فرنسا مكانـة فريـدة تعود إلى سياق الحرب الثانية ولم تعد بالضرورة متناغمة مع واقع العلاقات الدولية في الوقت الراهن. فلو تجاهلت أمريكا الأمم المتحدة باستمرار قد لا يكون هناك سبيل لانقاذها مـن الانهيار. ولو فرضت عليها الاذعان لـن يكـون مصـيرها مختلفا الا من الناحية الشكلية الصرفة.

ولو أن الولايات المتحدة ذهبت بالتحـدي إلـى منتهـاه وحدثت مواجهة حاسمة بين المشروعين الفرنسي والأمريكي في مجلس الأمن كما يهدد كـولين بـاول، فسـوف تتـرك المواجهة جرحا غائرا في العلاقات الفرنسـية الأمريكيـة، وسوف يصل هذا الجرح إلـى المسـتوى الشـعبي. ومـن المحتمل أيضا أن يفشل المشروعان معا إذا استخدم كل مـن الطرفين حق النقض ضد الأخر وهو ما يدفع الأمم المتحـدة إلى منزلق بالغ الخطورة قد ينتهي إلـى انهيـار المنظمـة الدولية. ولا شك أيضا أن المواجهة الدبلوماسية التي لا زالت حتى الآن محكومة، ستترك بصمات سلبية علـى العلاقـات الفرنسية الأمريكية على مستويات متعددة. ولذلك توقع معظم المراقبين أن ينتهي الأمر إلى صفقة والى مشروع موحـد. ولكن هذه التوقعات كانت رائجة منذ البداية ولم تصدق حتى الآن وهو ما يضاعف الدهشـة مـن صـمود المعارضـة الفرنسية.

يدعونا هذا الاعتبار لمحاولة فهم المعارضة الفرنسية من منظور آخر أو مختلف. وهنا تقفز إلـى الـذهن النظريـة الشائعة في الإعلام العربي. ففي محطـات التلفـاز وعلـى المقاهي تتصدر نظرية المصالح لوحة التفسيرات للمعارضة الفرنسية للولايات المتحدة. ويتم في العادة الإشارة إلى الديون المستحقة لفرنسا وروسيا على العراق. وقد تضاف قائمة من العقود المبرمة بالفعل أو التي كانت في طريقها للإبرام بـين العراق وكل من فرنسا وروسيا.

والواقع أنه لا يمكن معارضة نظرية المصالح من حيـث المبدأ. فالسياسة الدولية تقوم على المصالح. وصار هذا الفهم إحدى بدهيات السياسة حتى على المستوى الشـعبي. ولكـن المشكلة أن الفهم الشعبي- والسائد في الاعلام أيضا لتعبيـر المصالح- عادة ما يحصرها في التفسير الاقتصادي المبتذل لسلوك الدول. ولا يمكن من هذا المنظور فهـم المعارضـة الفرنسية كتعبير عن مصالح فرنسا الاقتصادية في العـراق. ويصدق الأمر على روسيا أيضا.

فيستحيل أن يكون دافع فرنسا لمواجهة دبلوماسية عملاقة مع أمريكا قابلا للاختصار في حفنة بلايين من الـدولارات. فالمصالح الفرنسية مع أمريكا أكثر ضخامة وتشعبا بمـا لا يقاس عنها مع العراق وقـد تتـأثر المصـالح الاقتصـادية الفرنسية سلبا بالمواجهة الدبلوماسية مع أمريكا. وبالمقارنـة فان فرنسا لن تخسر ديونها لو أن أمريكا تمكنت من تغييـر النظام العراقي بالقوة. فأية حكومة مقبلة في العراق ستضطر عاجلا أو آجلا لدفع هذه الديون. بل قد تكـون أي حكومـة ترضى عنها أمريكا أقرب إلى دفع هذه الديون عن الحكومة الحالية لأن نظام العقوبات سوف ينتهي.

بل إننا لا نستطيع أن نكتفي بالتفسير القائم على المصالح حتى لو فهمنا هذا المصطلح بالمعنى الأرقى السائد بين الأكـاديميين مثلا والذي يشمل كل أنواع المصـالح بـدءا مـن المصـالح الاستراتيجية مرورا بالمصالح الاقتصادية وذهابا إلي المصـالح الثقافية والسياسية بالمعنى الضيق (والذي يتعلق بالمكانة الدولية). فعلماء السياسة الذين حصروا تفسيرهم لسياسات الدول في تعبير المصالح لم ينجحوا في تقديم تفسير لتعدد الاختيارات والسياسات التي تتنافس وقد يتم تطبيقها للبلد الواحـد فـي فتـرات زمنيـة

متقاربة. فإن كان من الممكن فهـم المصـالح القوميـة بـنفس الطريقة، فلماذا تختلف بل وتتناقض السياسـات والاختيـارات الحزبية والأيديولوجية لنفس البلد وخاصة إذا كان بلدا ديموقراطيا يتمتع بالتعدد الحزبي والسياسي؟.

لا يمكن إنقاذ نظرية المصالح إلا إذا فهمنـا أن الأفكـار والرؤى والأيديولوجيات وأساليب التفكير تشكل أيضا دوافـع مستقلة لسلوك الدول أو بالأحرى الحكومات. والأفكـار قـد تكون مستقلة عن المصالح الاقتصادية والاستراتيجية بل قـد تكون أهم منها لأن المصالح لا تفسر نفسها ولا تتشكل فـي أدمغة الناس بنفس الطريقة.

يقودنا هذا الفهم إلى أهم فكرة في تاريخ السياسة الفرنسية الحديثة وهى الفكرة الديجولية. ويتمثل جوهر الفكرة فـي أن يكون لفرنسا سياسة خارجية مستقلة عن الولايات المتحـدة. ويتفق هذا التفسير مع المعارضة الفرنسية الراهنـة لفكـرة الإدارة الأمريكية الحالية عن غزو العراق باعتبارها مبنيـة على سابقة معارضة فرنسا الديجولية للحرب الأمريكية فـي فيتنام أو المعارضة الديجولية لغـزو إسـرائيل للأراضـي العربية عام ١٩٦٧.

وكامتداد لتلك النظرية قـد يقـال أيضـا أن المعارضـة الفرنسية هي تعبير بارز وإن مبكرا نسبيا عن مشروع أوربا الموحدة. لقد حلم ديجول بأوربا الموحدة استراتيجيا ولـيس اقتصاديا فقط. وكان يستهدف بذلك في أيامـه قيـام أوربـا الموحدة بدور موازن ومستقل في المعترك الدولي عن كـل من العملاقين السوفيتي والأمريكي.

ويتفق هذا التفسير أيضا مع حقيقة أن المشاعر السائدة في أوربا على المستويين الحكومي والشـعبي تـرفض الغـزو الأمريكي للعراق. ويبدو أن هذه المشـاعر وصـلت إلـى مستويات لم يتنبأ بها أحد من قبل. وموقف فرنسا يتفق هنـا مع ما شهدناه في ألمانيا أثناء الانتخابات الأخيرة التي فـاز فيها شرودر وحزبه الاشتراكي الديموقراطي أساسا بفضـل معارضة أمريكا في هذا الموقف.

ولكن تلك التفسيرات قد لا تكون كافيه بدورها. فالديجولية كانت قد خسرت جانبا مهما من قوتها خلال الأعوام الثلاثين الماضية. وما تم –بمناسبة المعارضـة الفرنسـية الراهنـة لأمريكا- ليس مجرد إحياء مفاجئ للديحولية لأنها تكاد تبنى شرعية مستقلة وجديدة لشيراك الذي كان يستطيع أن يختـار

السياسة العكسية تماما دون أن يخسر شيئا على المستويين الداخلي والخارجي. ومن ناحية ثانية فثمة قدر من المبالغة في عزو الموقف الفرنسي إلى مشروع أوربا الموحدة. فلم تتخذ أوربا موقفا موحدا بالفعل من هذه القضية. والى جانب الموالاة البريطانية لأمريكا فثمة عدة دول أخرى تخشى من استمرار المواجهة الفرنسية الأمريكية حول العراق. كما أن هناك دولا أخرى وخاصة في أوربا الشرقية صارت أعضاء بالاتحاد الأوربي ولكنها تريد أن تكون جزءا من المظلة الاستراتيجية الأمريكية لا الأوربية. فدولة مثل جمهورية التشيك تحرض أمريكا وتتطوع باجتهادات مزورة للزج بأمريكا في حرب ضد العراق رغم أن أحدا لم يسألها ذلك ولا حتى الأمريكيين أنفسهم!

لماذا صمد الفرنسيون وتشددوا في معارضة الموقف الأمريكي في مجلس الأمن حتى الآن إذن؟ أعتقد أن التفسير السليم لهذه المعارضة المدهشة والمفاجئة بقوتها يكمن في دوافع تتعلق بالفكر والرؤية أكثر مما يتعلق بالجمع الحسابى للمصالح المباشرة لفرنسا. ونعنى بذلك أن فرنسا تتعلق برؤية تدافع بقوة عن استمرارية النظام الدولي الحالي والذي تأسس منذ الحرب العالمية الثانية.

هذا الدفاع يقوم شكليا على الأقل على فكرة الدفاع عـن القانون الدولي. ولا أعنى هنا أن الفرنسيين كما اشتهر عنهم مغرمون بالقانون بحد ذاته. فلهم تراث طويـل فـي خـرق القانون الدولي أثناء المرحلة الاستعمارية الطويلـة. وإنمـا أعنى أن النخبة الفرنسية الراهنة تملـك رؤيـة وتصـميما معقولين يقومان على الدفاع عن مبدأ حكم القـانون الـدولي ومن ثم عن الترتيبات التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية وخاصة تلك التي يحكمها ميثاق الأمم المتحدة. والقرار الذي تنشده الإدارة الأمريكية من مجلس الأمـن يخـرق القـانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة من كل النواحي. فمن الناحيـة الاستراتيجية يمنح الأمريكيون أنفسهم حق شن الحرب ضـد أية دولة حتى لو لم تكن تمثل تهديدا للأمن والسلم الدوليين أو لأمن الولايات المتحدة. ومن الناحية السياسية فتمكن الإدارة الأمريكية من الحصول على القرار بالغ التشدد الذي تقترحه على مجلس الأمن يعنى تحويل الأمم المتحـدة إلـى "خـتم مطاطي" وهو ما يهدر الميثاق ويهدد مكانـة الـدول دائمـة العضوية الأخرى في المجلس ويجعلها خاضعة لهذا النـوع من عقود الإذعان.

هنا تلتقي الفكرة مع المصلحة. فهناك مصـلحة مؤكـدة لفرنسا في الدفاع عن ميثاق الأمم المتحدة. فلو تحولت الأمم المتحدة إلى إحدى إدارات وزارة الخارجية أو بالأسوأ إلـى إحدى إدارات وزارة الدفاع الأمريكية ستصبح فرنسا –ومعها الدول الأخرى دائمة العضوية- مسخا دوليا بالمعنى الحرفي. ولو أن الأمم المتحدة باعتبارها وكالـة لـلإدارة التعدديـة للعلاقات الدولية انهارت في النهاية كما هو متوقع لو استمر الاستغلال الانتهازي لها من جانب أمريكا ستخسـر فرنسـا المكانة الفريدة التي حصلت عليها بسـبب الظـروف التـي أحاطت بوضع الميثاق.

والأهم أن النظام الدولي الذي تأسس بعد الحرب الثانيـة والذي يقوم نظريا على الأقل على ميثاق الأمم المتحدة سمح لفرنسا بالتقدم السريع على كافة المستويات. فلم تكن فرنسـا أفضل حالا من النواحي الاقتصادية والتكنولوجية ومن حيث المكانة الدولية عما هي عليه الآن. هذا هو ما تـدافع عنـه فرنسا وليس حفنة بلايين من الدولارات.

ولكن بنهاية المطاف فالرؤية ليست غير جانب واحد مـن الصورة. أما الجانب الآخر فهو القوة. وهنا قد يصـدق مـا يتنبأ به الجميع تقريبا: أى أن فرنسا قد تضطر للتسليم فـى النهاية أمام القوة الأمريكية الطاغية.

(٩) المجتمع المدنى العالمى ومناهضة الحرب

مقدمة:

برز تعبير المجتمع المدنى العـالمى مثلـه مثـل تعبيـر المجتمع المدنى ذاته مجددا فى سياق التحولات التى رافقـت انهيار القطبية الثنائية. وربما يصح ربطه أيضا مع خطـاب العولمة.

ينهض هذا الربط لا بفضل الالتقاء حول مضمون معـين وانما بسبب جملة المشروعات والأفكار التى أطلقها انحسـار التهديدات المرافقة للقطبية الثنائية وسباق التسلح والحـروب الباردة. وقد عكست هذه الخطط والمشروعات روحا تفاؤلية بمستقبل العالم ومحاولة حث الخطى الى طرق جديدة لعلاج مشكلاته وتطوير بنياته.

تمثلت الفكرة العامة فيما يلى: ثمة بشرى بحقبـة سـلام ممتده تحدث قطيعة نسبية مع الـنمط التـاريخى للعلاقـات الدولية كما تأسست فى أوربا منذ القرن السابع عشر. ومـا يسمى بالخطاب المثالى فى العلاقات الدولية صار لأول مرة

ممكنا. ومن المنظور الغربى بدا ممكنا مثلا توسـيع نطـاق الرفاهية والسلام الذى عاشته أوربا منـذ الحـرب العالميـة الثانية الى أرجاء العالم. وتنوعت المـداخل التـى طرحـت لتحقيق هذا التصـور. فـالبعض طـرح خطـاب العولمـة الاقتصادية والتى تعنى مد نطاق السياسات والفعاليات التـى قادت الى الرخاء والسلام فى الغرب أو الشمال الـى العـالم كله عبر طائفة من الاتفاقيات الدولية والتعـديلات الهيكليـة المحلية والتى تطلق قوى السوق وتدفع الى تحسين الانتاجية والافادة الأفضل من الموارد وتشجع المزيـد مـن التطـور التكنولوجى وتحسن من التنظيم الاجتماعى. وطرح آخـرون بالمقابل عولمة مضادة تقوم على ادراك وترجمة المسـئولية المباشرة للعالم المتقدم عن اقتلاع الفقر وذلـك مـن خـلال التوقف عن الاستغلال المالى للعالم الثالث وتعويضـه عـن فترات الاستعمار والاستنزاف الزائـد للثـروات الطبيعيـة وتصفية المديونية والاعتراف بحاجة العالم الثالـث لانتهـاج طرقه الخاصة بالتطور والنمو والتقدم الاقتصادى الاجتماعى ومنحه معاملة تمييزية تتحيز لاطلاق قواه المنتجة وتعفيه من منافسة يستحيل عليه مقابلتها وتوفر لـه المـوارد اللازمـة لانطلاقه الاقتصادى والاجتماعى.

وفى اطار نفس التطلعات طرح آخرون مشـروع بنـاء وتطوير المجتمع المدنى العالمى الذى توفر بالفعل عناصـر حقيقية لنشأته ونموه. وتفاوت بالطبع فهم كنه هذا المجتمـع. اذ نظر اليه البعض كجزء من تجليـات مشـروع العولمـه ومستوى مواكبا للمستوى الاقتصادى للعولمة. ويمكن القـول أن هذا الفهم ينطلق من التبشير الليبرالى بنظام سياسى جديد للبشرية. فالحركة الحرة لـرؤوس الأمـوال والتكنولوجيـا وأنماط التنظيم والانتاج المشترك أو المصنع العالمى يخترق ويتعارض مع البنيـة القوميـة للتنظـيم السياسـى للعـالم والموروث من القرن السابع عشر (بالنسبة لأوربا الغربية). ويحتاج الاقتصاد المعولم الى بنية سياسـية تناسـبه ربمـا تجسدت يوما من الأيام فى حكومة عالمية. وحيث أن التنظيم القومى للعالم نشأ على قاعدة عملية بناء الأمـة، فالحكومـة العالمية يمكن أن تنشأ على قاعدة اجتماعية وبشرية عـابرة للحدود القومية وهى "المجتمع المدنى العالمى".

فهم البعض الأخر مفهوم المجتمع المدنى العالمى كجـزء من عملية أخرى وهى النضال المشترك من أجـل العدالـة الدولية والسلام العالمى. ويقوم المجتمع المدنى بدور القاطرة لعملية التحويل الديموقراطى فـى الـداخل عبـر النضـال الضرورى لاستلهام ووضـع اسـتراتيجيات ورؤى جديـدة للتنمية والتطور. كما يقوم بدور الجسم الحى الذى يخـوض النضال من أجل نشأة بيئة سياسية واقتصادية دولية موالكبـة أو مناسبة للتنمية البشرية وذات الوجه الانسانى فـى العـالم الثالث.

ثمة أشياء وعناصر مشتركة بين كل تلك الرؤى. فجميـع تلك الرؤى تصورت المجتمع المدنى العالمى علـى ضـوء البشارة المتمثلة فى أفق ممتد للسلام العالمى فى عصر مـا بعد الحرب الباردة.

وعلى النقيض فان المنطق كان يدفع للاعتقاد بأن انهيـار المناخ التفاؤلى الذى ساد بعد نهاية الحرب الباردة- بسـبب هجمات ١١ سبتمبر- سوف يقود من جديد الى موجة صعود أخرى للفكر الاستراتيجى التقليدى المرتبط بالقوة والقـدرات العسكرية فى العلاقات الدولية والى إعادة الهيمنة الى خطاب

الأمن القومى على العقول وعلى الاستراتيجيات القومية. وقد وقع هذا الانهيار بالفعل بسبب رد الفعل الأمريكى لأحـداث ١١ سبتمبر. فقد تأسست استراتيجية اليمين الأمريكى الحاكم على فكرة الحروب المفتوحة التى بررت باسم السلام العالمى أو الأمريكى.

ولكن ما وقع فى يوم ١٥ فبراير خفض حدة تلك التوقعات المتشائمة. فقد تجلى المجتمع المدنى العالمى بأعظم معانيـه ودلالالته فى المسيرات الحاشدة والمتزامنة فى نحـو ٦٠٠٠ مدينة وأكثر من سبعين دولة فى العالم لمناهضـة الحـرب الأمريكية المزمعة ضد العراق. وقد فرض هذا اليوم نفسـه حتى على أكثر المتشككين فى مفهوم المجتمع المدنى العالمى باعتباره يوما فريدا فى تاريخ العالم وظـاهرة لا يضـاهيها شىء فى تاريخ البشرية أو واقعها الحديث.

وسوف يسعى كثيرون لفهم ما حـدث فـى هـذا اليـوم واستكشاف طبيعته ودلالاته طويلة المدى.

وتمثل تلك الورقة أحد المحاولات لفهم ما حدث يـوم ١٥ فبراير عام ٢٠٠٣ من خلال البحث فى مفهـوم "المجتمـع المدنى العالمى".

وسوف نبحث أولا فى المصطلح بالارتباط مع مسـيرات العالم فى ذلك اليوم. ونحاول فهم كيف صار هـذا التـدفق البشرى الهائل المناهض للحرب ممكنا من خلال تتبع نضوج بعض العناصر التى تمخضت عن التحولات التـى شـهدها العالم فى العقود الماضية. ثم نبحث فـى نظريـات مختلفـة لتفسير نشوء هذا التدفق المذهل للفعاليات المدنية عبر الفضاء الجغرافى العالمى. وسوف نركز فى هذا الاطار على دلالات ولادة وتبلور مجتمع مدنى عالمى فى حقل العلاقات الدوليـة ونمط الحضارة الحديثة وأخيرا نستكشف احتمالات التبلـور الكامنة فى هذا الظاهرة انطلاقا من العناصر الهيكلية التـى نضجت وتلك التى غابت فى أحداث ١٥ فبرايـر ومواقـف مختلف التشكيلات الايديولوجية والسياسية من الظاهرة.

أولا: عالم الفعالية المدنية أو الفعالية المدنيـة العالمية:

الى أى حد تعكس أحداث ١٥ فبرايـر عـام ٢٠٠٣ مـا نسميه بالمجتمع المدنى العالمى؟ ولماذا تحتاج تلك الأحـداث لفهمها من خلال مصطلح أخر غير ما درجنا على تسـميته بالرأى العام العالمى؟.

فالواقع أن المسيرات الحاشدة وشبه المتزامنة فى عشرات من دول العالم لمعارضـة غطرسـة القـوة والمشـروعات العدوانية للدول الكبرى قد لا تكون جديدة تماما. فقد وقعـت أحداث مشابهة فى مدن كثيرة فى العالم ضد العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦. وكان من الملفت للنظر أن بعضـا من أكبر هذه المظاهرات والمسيرات قـد وقـع فـى لنـدن وباريس والعواصم الكبرى للـدول الأوربيـة الاسـتعمارية السابقة.. كما أن الحركات الطلابية والشـبابية فـى أوربـا وأمريكا ضد الحرب الفيتنامية خلال عقد الستينيات أحـدثت جوا مذهلا وأثرا باقيا على أسلوب الحياة والثقافة والسياسـة فى العالم الغربى كله.

ولا شك أن تعبير أو مصطلح الرأى العام العالمى يصلح لفهم وتصوير جانب مما وقع فى يوم ١٥ فبراير الماضـى. ولكنه – أى هذا المصطلح الأخير- لايبـدو كافيـا للالمـام بعناصر كثيرة من الظاهرة التى تجلت بعنفوانها المفـاجىء فى هذا اليوم.

لربما نبدأ بالجوانب الشكلية. فالمسيرات والمظـاهرات خاصة تلك المناهضة للحروب الاستعمارية هى تجل تقليدى للرأى العام العالمى. ولكن ما حدث فـى يـوم ١٥ فبرايـر يتجاوز هذا التجلى لا فقط من حيث الاتساع الجغرافى والكم وانما أيضا من حيث طبيعة القوى المشاركة والتكوين القومى ودلالالته. فأكثريـة القـوى المشـاركة فـى المظـاهرات والمسيرات العالمية المناهضة للحرب الأمريكية ضد العراق هى طلائع لنشاطية مدنية منظمة لها حضور عالمى. فكـأن تلك القوى لم تتدفق الى شوارع المدن فى جميع أنحاء العالم فجأة للاحتجاج على حدث منفرد أو أكثر وانما هـى قـوى مدربة ذات نشاطية سابقة بمناسبة أحداث سـابقة وعديـدة. وانطلقت تلك الجماهير لا للتعبير عن غضب وانما للتعبيـر عن رؤية وممارسة لكفاحية ممتدة لتطبيق وجهة النظر هذه.

ويرتبط بذلك أن اسلوب التحرك لم يكن يتسـم بمجـرد التزامن والتركيز على حدث خطيـر يهـدد سـلام العـالم ومبادىء العدالة الدولية وانمـا أيضـا بالارتبـاط الفعلـى والحركى الذى توج عملية بالغة الاتسـاع والتعقيـد لبنـاء الشبكات وتبادل الرأى فى منابر ومناسبات شتى.

ويضمر هذا الوصف أيضا اشارة الى الدور المذهل الذى تلعبة الأوعية الحوارية الأكثر حداثة مثل شـبكة الانترنـت والمؤتمرات الكونية والمظـاهرات الحاشـدة ذات التركيبـة متعددة الجنسيات والتى تم تجربتها فى مناسبات شتى وفـى مختلف مدن العالم وعلـى مسـتويات مختلفـة بـدءا مـن المظاهرات المناهضة للعولمة وحتى المـؤتمرات العالميـة للأمم المتحدة مثل مؤتمر فينا لحقوق الانسـان عـام ١٩٩٣ ومؤتمر القاهرة للسكان عام ١٩٩٤ ومؤتمر نيروبى للمـرأة وغيرها.

ومن هذا المنظور مثلت أحداث ١٥ فبراير كتلة مشاعرية ورؤى متحدة على نحو غير مسبوق فى التـاريخ العـالمى لأنها حملت ميراث الفكر السياسى والمدنى الذى تبلور عبـر عقود.

ويلفت النظر أيضا فى هذه الأحداث الطبيعـة الخاصـة لتركيبها القومى. فألأغلبية العددية للمشاركين فى المسـيرات والمظاهرات التى وقعت فى هذا اليـوم والفعاليـة النوعيـة الأعلى لهذه الأنشطة تخص تلك التى وقعت فى مدن أمريكا الشمالية وأوربا وأستراليا: أى فى تلك الـدول التـى تمثـل

"الغرب الثقافى" وهى نفسها المستفيدة من الوضـع الممتـاز للغرب سواء فى ميدان العلاقات السياسية الدولية أو الرخـاء والتقدم الاقتصادى بدا أنهـا هـى ايضـا الـدول الوريثـة للاستعمار الغربى الحديث. ومعنى ذلـك أن هـذا التحـرك العالمى لم يعكس مصلحة قومية أو اجتماعية مباشرة وانمـا رؤية أخلاقية تناضل ضد الامتياز الذى تتمتع به تلك الـبلاد بما فى ذلك امتياز شن الحرب على الأخرين والضعفاء مثلما هو الحال مع العراق. وقد حدث ذلك من قبل فى المظاهرات التى وقعت فى أوربا الغربية بما فيها بريطانيا وفرنسا اثنـاء العدوان الثلاثى على مصر أو الحرب الفرنسية ضد حركـة التحرر الوطنى الجزائرية.

ويلفت النظر أيضا أن السوابق التاريخية للنضال ضـد الاستعمار والحروب الاستعمارية الغربية من داخـل الـدول الأستعمارية لم تكن بالضرورة ممثلة للرأى العـام بـالمعنى الاحصائى للرأى العام فى بلادها وإنما طلائع صغيرة مـن قوى التقدم فى البلاد الغربية الكبرى. فقد ظـل الفرنسـيون يؤسدون الحرب الاستعمارية التى تشنها بلادهم فى الجزائـر بأغلبية واضحة حتى أقنعهم ديجول بغير ذلـك. كمـا ظـل

الأمريكيون يؤيدون بنسب عالية الحرب الفيتنامية بالرغم من تدفق النضال ضدها فى الجامعات والشوارع. بينمـا مثلـت التدفقات البشرية العملاقة يوم ١٥ فبراير مشاعر الأغلبيـات الساحقة من سكان المجتمعات المتقدمة على الأقل فيما يتصل بالعدوان الأمريكى المرتقب ضد العراق. ولنلاحظ أن تلـك المظاهرات قد تحركت لمنع وقوع تلك الحرب أو "المشاركة فى صنع القرار العالمى المرتبط بالحرب والسـلام" ولـيس للاحتجاج على حرب وقعت بالفعل.

وباختصار فإن ظاهرة ١٥ فبراير ليست مجـرد تجسـيد للمعنى التقليدى للرأى العام العالمى، وانما هى تجسيد لقـيم مدنية وسياسية أو مصالح عالمية أو فوق قوميـة وعـابرة للحدود بين القوميات. وقد نشأت تلك الظاهرة – من حيـث المضمون- على أرضية الشعور والايمـان بقـيم مشـتركة للبشرية، وتم زرع هذا الشعور وهذا الايمان بفضل نشـاطية مدنية عالية وهو ما يميزها عن الرأى العام العالمى التقليدى الذى توزع بين الأوعية السياسية والحزبية التقدمية واليسارية القديمة مثلما حدث مثلا فى عام ١٩٥٦. فالنشاطية العالميـة الحديثة تنبع من أوعية مدنية واتصالية مستجدة الى حد كبير.

ما هو إذن المجتمع المدنى العالمى؟ :

اننا نعرف المصطلح كفضاء أو حقل للنشاطية أو الكفاحية المنطلقة من الايمان بقيم عالمية وبوحدة المصـير البشـرى على الأقل بالنسبة لموضوعات أو قضايا حاسمة مثل السلام والعدالة والتنمية والبيئة وحقوق الانسان. ويمكن النظر إليـه أيضا باعتبار هذا النسيج من الروابط الكفاحية التى تنشأ على قاعدة الايمان بالمساواة والمسئولية المشتركة والحاجة الـى علاقات عالمية لا تقوم على التسلط أو القوة والامتياز. وقـد نركز على تعريف يتمحور حول الفاعلين فى المجتمع المدنى العالمى، وهم هؤلاء الذين يمدون نشاطهم فى الدفاع عن قيم مدنية الى الساحة العالمية ويشـملون الجمعيـات والـروابط والنقابات والهيئات المهنية والمجالس النيابيـة والمنتـديات الفكرية والشبكات الاتصالية والهيئات الدينية بغـض النظـر عما اذا كانت صلاحياتها قومية ذات امتداد عالمى أو عالمية بالأصل، هذا فضلا عن الجمهور العام المؤمن بهـذه القـيم والمرتبط بتلك التجمعات. وقد ولد مفهوم المجتمـع المـدنى العالمى إما من رحم النشاطية والثقافة المدنية القومية ثم أخذ يمد هذه النشاطية على مستوى عالمى أو كمستوى نضـالى

عالمى يشتق طاقته وعناصره البشرية من مختلف القوميـات وينظم عمله عبر روابـط واتحـادات عالميـة أو متعـددة الجنسيات أو هبر تقنيات الحركة الاجتماعية.

ثانيا: نضوج الحالة المدنية العالمية :

تبلورت ثلاثة عناصر أساسـية لتجعـل ولادة المجتمـع المدنى العالمى ممكنة وهى: الثقافة المدنية العالمية والأطـر والأوعية التنظيمية الجديدة والنسـق الاتصـالى المناسـب وهوامش الاقتصاد والتمويل الضرورية لتفعيل مختلف صور النشاط الذى يميز ممارسة الروابط والهيئـات والاتحـادات والشبكات المدنية العالمية لنشاطائها عبر الحدود.

وقد نمت هذه العناصر جزئيا بصورة عفويـة وجزئيـا بصورة مقصودة وإن كان هذا النمو غير متوازن حتى الآن فيما بين مناطق العالم وفيمـا بـين الشـرائح الاجتماعيـة المختلفة، وكذلك فيما بين المراحل المختلفة للتطور لمختلـف داخل نفس الدول والأقاليم.

فالثقافة المدنية العالمية بدأت تتبلور منذ الحرب العالميـة الثانية بفضل نخبة مدولة تكونت فـى طيـف واسـع مـن المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية. لعبت المنظمات المتخصصة للأمم المتحـدة الـدور الريـادى فـى إرسـاء الإحداثيات الكبرى للثقافة المدنية الحديثة. ففى مجال الثقافـة الرفيعة والعلاقات الثقافية الدولية لعبت منظمة اليونسكو دورا رائدا وخاصة فيما يتعلق بالحقوق الثقافية للشعوب، وهو مـا أخذ طريقه الى الرواج العالمى عبر عـدد مـن الاعلانـات الدولية. وفى مجال مكافحة الجوع والمجاعات والأوبئة لعبت مظمات مثل الأغذية والزراعـة والصـحة العالميـة أدوارا مهمة. وفى مجال التنمية والتجارة لعبت منظمات مثل الأمم المتحدة للتنمية الفنية والأونكتاد دورا مبدعا علـى الصـعيد الفكرى. وفى مجال حقوق الانسان والبيئة والمرأة والأقليات، نشأت منظومة كاملة داخل الأمم المتحدة، بدءا من المجلـس الاقتصادى والاجتماعى، واللجنة العامة وصولا الى اللجـان التعاهدية وهكذا. ورغم الطابع البيروقراطى للأمم المتحـدة فقد التف حولها وحول منظماتها المتخصصة عدد هائل مـن المفكرين والنشطاء فى مختلف المجالات وخاصة من أوربـا

الغربية والعالم الثالث الذين اجتهدوا عبر موجات من التراكم والطفرات الفكرية فى وضع أهداف وتصورات ومعايير أداء وآليات عمل وجدت قبولا عالميا متزايدا. غير أن دور الأمم المتحدة كان بالضرورة مقيدا بطابعها الحكـومى. كمـا أن النخب الفكرية ذات الأفق العالمى بعض النظر عن أصـلها القومى لم تكن ذات قدرات تواصلية كبيرة مع شعوبها ذاتها وهو ما حرمها من بناء نفوذ واسع فـى بلادهـا أو علـى المستوى العالمى. ولذلك تدفقت أفكارها عبر قنوات حكومية دولية أو محلية. وبسبب تلك القيود وأوجه النقص نشـأت أو نشطت أعداد مدهشة من المنظمات غير الحكومية العالمية أو متعددة الجنسية، بدءا من منظمات العلماء واتحادات المهنيين مرورا بجمعيات الدفاع مثل العفو الدولية وصولا الى المنابر الفكرية متعددة الجنسيات فى محاولة للقيام بدور جمـاهيرى أو يخاطب جماهير العالم وحكوماتـه. والواقـع أن الجهـد الأساسى الذى قامت به هذه المنظمات غير الحكوميـة لـم يتعلق بانشاء أهداف أو قيم مدنية، وإنما بترويجها بين أوساط شعبية مختلفة والتعبئة المنظمة لها وتحسين التشريع وإحكـام آليات العمل.

وجاءت مرحلة ثالثة نمت فيها أدوار المثقفين والنشـطاء من العالم الثالث على هامش المنظمات غير الحكومية الدولية فى البداية ثم عبر منظماتهم القومية أو الاقليمية الخاصة بهم.

وحملت تلك الموجة الأخيرة قدرا كبيـرا مـن التجديـد الفكرى والقدرات التنظيمية ربما بحكم أصولها ونشأتها فـى صفوف حركات وأحزاب اليسار التى كانت تتعرض لتفكـك واسع فى مختلف بلاد العالم الثالث وهو ما أتاحها للنضـال المدنى.

كما أن أعدادا كبيرة من القيادات الجديـدة العاملـة فـى المنظمات الدولية غير الحكومية جاءت من صفوف المنفيين السياسيين الذين كانت لديهم خبـرات محبطـة فـى العمـل السياسى فى بلاد مختلفة من العـالم الثالـث مثـل أثيوبيـا والسودان وباكستان والهند والبلاد العربيـة فـى المشـرق، وأعيد تثقيفهم بثقافة ديموقراطية فى بلاد المنفى فـى أوربـا الغربية وأمريكا الشمالية.

كان ثمة جيل جديد من الأوربيين الذين لم يتربوا فى - أو يعرفوا شيئا عن – تنظيمات المعارضة اليسارية التقليدية ولم يتعرضوا لنفس المخاوف والضغوط الاستراتيجية الدولية المرافقة للقطبية الثنائية والحرب الباردة. وصل هذا الجيل الى المجال العام فى أوربا وأمريكا فى عقد التسعينات أو فى بداية القرن الواحد والعشرين. هذا الجيل شعر بخطورة انحراف السياسة الأوربية والأمريكية الى اليمين واحتكار الساسة المحترفين للساحة السياسية. هذا الجيل ورث جانبا من الثقافة المضادة التى تمخضت عنها الحركات الطلابية واليسارية الجديدة وحركة الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة. وتأثر هذا الجيل بمصادر فكرية غاية فى التباين بدءا من الكنيسة حتى ما بعد الحداثة. هذا الجيل لم يظهر انشغالا بقضية الدولة ورفض الاستقطاب الحاد المعروف فى السياسة الأوربية بين اليمين واليسار وكان يهفو الى طريق ثالث بين اليمين واليسار التقليديين ويتوق بالذات الى نمط أو مفهوم جديد للسياسة وللديموقراطية يقوم أساسا على مطلب نشر السلطة وتقريبها لعموم الناس والمشاركة الشعبية المباشرة. وشكلت الأجندة المدنية أفضل مدخل لهذا المفهوم

لأنها أكثر استجابية لطبيعة المشكلات الجديدة فى المجتمعات المتقدمة مثل مشكلات الهجرة والتعليم والمـدن والجريمـة. وكان من الطبيعى أن يمنح هذا الجيل عمقا جماهيريا غيـر مألوف للثقافة المدنية التى تراكمت وتطورت فـى الأوعيـة الدولية الحكومية وغير الحكومية.

أما فى العالم الثالث فان تحلل وانهيار السياسة التقليديـة المرافقة لحركات التحرر الـوطنى والسياسـات التسـلطية والتصدعات الحزبية قاد قطاعات جماهيرية واسعة إما الـى النضال عبر حركات اجتماعية أو سياسـات تحالفيـة أقـل استغراقا فى الايديولوجيات الكبرى التقليدية أو الى النضـال المدنى الذى أهمل فى النصف الثانى من القـرن العشـرين. والمهم هنا هو أن الخبرة المباشرة بالشأن الاجتمـاعى مثـل قضايا الفقر والجريمة وتحلل البنية الأساسـية فـى المـدن وقضايا المرأة والأسرة والأطفال والتعليم والصحة والبيئـة وغيرها، قاد العقول الحية الى البحث عن أطر بريئـة مـن الاحتراف السياسى ونحو العمل المباشر وخاصة فى الهياكل الجمعياتية، وهو ما منح بدوره زخما كبيرا للأجندة المدنيـة وأظهر الحاجة الى الكفاحية المدنية.

ورغم أن السياسة بمعناها الأيديولوجى التقليدى غابت عن أفق الأجيال الشابة الراهنة فى أوربا وأمريكا الشمالية الـى حد كبير، فان أهم وأكثر قطاعاتها تقدما كانت تتلمس وتبحث عن أسس لحضارة عالمية أو سياسات قومية جديدة، وهو ما قادها الى الدفاع عن السلام العالمى أو على الأقـل إظهـار التبرم والرفض لتلك السياسات والتوجهات التى تعود بالعالم الى عصر الحروب والإنفاق العسكرى الكبير المستقطع مـن موازنات التعليم واحياء المدن والصحة وغيـر ذلـك مـن القضايا الانسانية والمدنية الكبرى والملحة. ومثلت السياسـة الأمريكية نحو العراق المناسبة الأكثر تفجـرا لتـدفق هـذا الرفض.

لقد تزامن وصول تلك الأجيال والخبـرات والتطلعـات الجديدة فى أوربا وأمريكا الشمالية الى المجال العام مع أزمة طاحنة للفضاء السياسى التقليدى والذى احتلت فيه الأحـزاب السياسية الحيز الأكبر طوال القرن العشـرين. وفـى نفـس الوقت أتاحت تكنولوجيا المواصلات والاتصـال العصـرية فرصة تطوير قنوات وأوعية أخرى لتحـل جزئيـا محـل الأحزاب التقليدية فى الفضاء العـام. فـالأطر الجمعياتيـة

ومجالس المدن والمقاطعات والأحياء والشـبكات الاتصـالية المكونة فى الفضاء الالكترونى وروابط الأصدقاء متعـددى الجنسيات والاتحادات المهنية والمـؤتمرات والمعسـكرات الشبابية والعالمية والمنتديات الثقافية والفكريـة والحركـات الاجتماعية صارت أكثر أهمية ليس فقـط مـن الأحـزاب السياسية بل ومن النقابات والحركات العمالية التقليدية.

لقد صارت تلك الأوعية أكثر قدرة على استيعاب طاقات الأجيال الجديدة فى أوربا وأمريكا الشمالية وبدرجة أقل فـى العالم الثالث لأسباب عديدة. فهى أنسب لأجيال أقل اهتمامـا بالأيديولوجيات وبالثقافة السياسية عن أبائها وأكثـر تمتعـا بالانجازات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية. ثـم أن تلـك الأوعية أكثر قربا وتلامسا مع الواقع المعاش. وهى أيضـا أكثر ديموقراطية وأقل هيراركية ولا تسـتلزم انضـباطا أو تدريبا حزبيا من النمط التقليدى للعمل فى الفضاء العام. وهى فوق ذلك أكثر قابلية للإشباع النفسى بحكـم سـرعة إثمـار العمل المدنى المباشر. وهى أيضا أكثر انفتاحا على البهجـة وأقل كآبة من الممارسات الحزبية التقليدية. فحتى المظهـر المباشر للمسيرات والمظاهرات صار يندمج مـع طقـوس

الغناء والموسـيقى والتجمـع والسـوق وربمـا الـرقص واستعراض الفنون والمعارف وأنماط الاسـتهلاك الشـعبى. وبهذه المعانى فقد صـارت أقـرب للأسـلوب الأمريكـى والأوربى فى ممارسة الحياة العادية والاحتفالات الشعبية.

ولا بد من الاشارة المركزة من جديد الى أثـر الفضـاء الاليكترونى فى التعارف وبناء الشبكات الثابتة والمتحركـة والاتصال ونشر وترويج الشعارات والمواقف.

أما العامل الثالث والذى أسرع بانضاج المجتمع المـدنى العالمى فهو العامل الاقتصادى. ويشمل هذا العامل جوانـب مختلفة. فالتطور العام فى التكوين الاقتصادى الحديث صـار يتحيز كثيرا لصالح الأنشطة الخدمية ذات الـدخل المرتفـع ووقت العمل الأقل. وتسمح ميادين كثيـرة مـن الخـدمات بالتمتع بالحياة وبوقت فراغ أطول مما كان متاحـا فـى أى وقت سابق من التاريخ. بل أن أنشطة العمل نفسها صـارت مصدرا للمتعة والتعارف الشخصى والاحتكاك الاجتمـاعى واستعادة التكامل والنظرة الكلية بالمقارنة بتقسـيم ورتابـة العمل فى الصناعة أو الزراعة التقليدية. وقـد مكـن هـذا التحول ملايين الناس من السفر والاحتكاك بثقافـات أخـرى

وكذلك بتخصيص وقت للفضاء العام دون الشـعور بالملـل ودون حاجة لهذا المستوى من الحماسة التعصبية التى كانت تميز العمل السياسى فى الماضى وربما لا زالت تستلزمه فى كثرة من بلاد العالم الثالث.

والواقع أن نفس التطور فى طبيعة العمل فى المجتمعـات المتقدمة وفى طبيعة أنشطة العمل صار يتحيز للسـلام بـين الشعوب. فلدينا بطبيعة الحال حالة الهجـرة الدوليـة (١٣٠ مليون مواطن فى أوربا الغربية وحدها). وبينما تثيـر تلـك القضية مشكلات لا حد لها فهو يفرض أيضا قدرا من حتمية التعايش بما فى ذلك الزواج والأسر متعـددة الجنسـيات أو الخلفيات الثقافية. ومن ناحية أخرى فان التطور المذهل فـى أنشطة السياحة الدولية وما يسمى بقطاع الكرم (ويضم خدمة النقل بالطيران والقطارات السـريعة والفنـادق والمطـاعم والمتاحف والصناعات الثقافية الأحدث) يقـوم علـى فكـرة السلام الممتد ويتطلب قدرا عاليا من الاستقرار فـى البيئـة الدولية وينشر بذاته رواجا للثقافة المدنية.

أما الجانب الأخير والذى يهمنا هنا بوجـه خـاص فهـو التوسع المدهش فى الوقفيات المفوضة ذاتيا بالانفـاق علـى الأنشطة غير الربحية والتى تكاد تتحد مع الأجنـدة المدنيـة والثقافة المدنية. فالى جانب الوقفيات الكبيرة ذات الأصـول العائلية مثل روكفلر وفورد وفولبرايت إلخ. فكـل النقابـات والاتحادات الصناعية والمهنية الكبرى تخصـص وقفيـات لنفس الغرض. كما أن كثيرا من شركات الأعمـال الكبيـرة تقوم بنفس العمل. وهناك كثرة من الحركات الاجتماعية مثل حركـة المـرأة والهياكـل الأكاديميـة ووقفيـات العلمـاء والاعلاميين الكبار والنجوم..الخ. وأخيرا فـان كثيـرا مـن الكنائس الغربية تقوم بتمويل كثير من الأنشطة الخيريـة أو التنموية أو الاجتماعية فى عشرات من دول العالم.

لقد قدمت تلك الوقفيات خدمـة لا غنـى عنهـا لتطـور المجتمع المدنى. فالمنح المقدمة للمنظمات والأنشطة المدنيـة وخاصة فى البلاد الأم وفى العالم الثالث تعد حيوية لمزاولـة الأنشطة المدنية غير الربحية على الأقل فى مراحل النشـأة. ولم يكن من الممكن لكثير من المؤتمرات والتقارير والأنشطة ذات الصلة – بما فى ذلك تلك التى تديرها الأمم المتحدة أن

تنشأ أصلا بدون الإنفاق على الطباعة والسـفر والحاجـات الأخرى للعمل المدنى عبر منح من مختلف الوقفيات. وبينما لا تخلو تلك الظاهرة من عيوب ومثالب وخاصة إذا قارناها بالحركات الاجتماعية التى لا تكاد تحتاج الى تمويل فلم يكن من الممكن مجرد تصور قيام عشرات من المنظمات ومئات من المؤتمرات والتقارير الدولية واللقاءات المهنية والفكريـة والحركات الدفاعية بدونها.

ثالثاً: الرؤى النظرية :

اذا كانت هذه هى بعض العوامل المباشـرة وراء نشـوء المجتمع المدنى العالمى فكيف نفهمه فى السـياق العـريض للعلاقات السياسية والاجتماعية على المستوى العالمى.

لقد تعلقت الأنظار لفترة طويلة بنظرية الاعتماد المتبـادل كشرح مقبول لنشوء المجتمع المدنى العالمى. وتنبثق نظرية الاعتماد المتبادل عن البارادايم (النموذج ألأساسى) الـوظيفى كبديل لشرح العلاقات الدوليـة فـى النظريـة الكلاسـيكية للعلاقات الدولية باعتبارها علاقات قوة. من هـذا المنظـور فالعالم يتطور تبعا لنبوءة المدرسة الوظيفية التـى تـرى أن الاقتصاد والروابط العالمية الجديدة تحـتم تحـرك النظـام

العالمى كنظام وظيفى فى اتجاه بناء السلام بـين الشـعوب وتقليص أو الغاء الحاجة الى الحروب حيث تتعلق مصـالح الدول والشعوب بالتعاون والاعتماد المتبادل وتصير رفاهيـة كل شعب معتمدة على الشعوب الأخرى.

ولكن تلك النظرة المتفائلة للعلاقات الدولية لا تشـرح أو تفسر مظاهر استعراض القوة والحروب الصغيرة والكبيـرة مثل الحرب ضد العراق. ولذلك حاول الوظيفيون الجـدد أن يعدلوا هذا الاطار النظرى لإدخال علاقات القوة الى صـلب النظرية فأكدوا أن الاعتماد المتبادل نفسـه لـيس رفاهيـة وسلاما بحتا وانما هو أيضا علاقة قوة. اذ تختلـف درجـة حساسية كل اقتصاد نحو الآخر أو نحو الاقتصاد العـالمى. فالعملات مثلا ليست بالقوة ذاتها. وتتأثر عملات معينة بأكثر من عملات أخرى بالهزات فى الاقتصاد العالمى. والأهم هو أن تعرض أو انكشاف اقتصـاد مـا للهـزات أو لسـلوك اقتصادات أخرى ليس على الدرجة نفسـها. وتسـتطيع دول معينة إحداث ضرر أكبر بالأخرين نظرا لانكشافهم بدرجـة أكبر أمامها. وبهذا المعنى فهناك تبعيـة متبادلـة ومصـالح متشابكة بين الجماعات والشعوب ولكن هناك أيضا فجـوات وعلاقات قوة.

ومن هذا المنظور أيضا فالعولمة ليست غير تعبير خاص عن تمدد واتساع الاعتماد المتبادل وتطـور العـالم كنظـام وظيفى جديد أو مختلف. والمجتمع المدنى العالمى فى هـذا الشرح هو الجانب الاجتماعى من العولمة التى تتجلى بأشكال أخرى.

ويصطدم هذا الشرح مع إحدى أهم صـور النضـال أو دوافع أو "مهام" المجتمع المدنى العـالمى وهـو مناهضـة العولمة. فأقوى مظاهر تحرك المجتمع المدنى العالمى قبـل مظاهرات ومسيرات السلام الحالية تجسدت فى المظـاهرات الصاخبة ضد العولمة الرأسمالية بدءا من سياتل ونجـازاكى وروما حتى واشنطن خلال عـام ٢٠٠٢. وتبـدو حركـة مناهضة العولمة كنموذج مثالى للحركات الاجتماعية العالمية التى تأخذ بألباب الأجيال الشابة فى العالم. وهى فـى نفـس الوقت مظهر مميز لكفاحية المجتمع المدنى العالمى.

ولا شك أن هذا النضال ضد العولمة ثـم ضـد التهديـد بالحرب يفضح حقيقة أن العلاقات الدولية الرسمية لا تـزال تقوم على القوة وعلى عدم التكافؤ فى القوة.

ويشرح الماركسيون الجدد واليسار الجديد بصورة عامـة منطق النضال ضد العولمة باعتباره شكلا خاصا من النضال الطبقى ضد الرأسمالية المعولمة. وبهذا المعنـى فـالمجتمع المدنى العالمى هو نوع من التحالف الأممى ضد الرأسـمالية المدولة فى طورها الوحشى أو الليبرالى الجديد. ويؤكد هـذا الشرح أن القوى المدنية الجديدة التى تناضل ضـد العولمـة الاقتصادية تتخذ المنظمـات والرمـوز الكبـرى للعولمـة الاقتصادية هدفا كبيرا لنضالها. وتدرك تلك القوى أن تصفية استغلال أو اهمال العالم الثالث هو بنفس الوقت كفـاح مـن أجل مصالحها فى الحصول على تعلـيم وخـدمات صـحية ورفاهية أفضل. وأن النضال ضد الحرب هو أيضا كفاح من أجل تحررها من الاستغلال الأشد المصاحب لصـعود مـا يسمى بالليبرالية الجديدة.

ولكن هذا الشرح لا يفسر لماذا لم تشارك الطبقات العاملة بصورة جادة فى النضال المدنى العالمى رغم أنها صـاحبة مصلحة مؤكدة فى هذا النضال. بـل ان الطبقـات العاملـة والنقابات التقليدية فضلت النضال مـن المنظـور القـومى وتركت صيحة ماركس "يا عمال العالم اتحدوا" دون استجابة بل فضلت اللجوء لمقاومة العولمة مـن خـلال التشـريعات القومية والايديولوجيات الوطنية والسياسات الحكومية.

ومن ناحية أخرى يؤكد كثيرون أن النضال ضد العولمـة فى سياتل وروما ونجازاكى وغيرها من مواقـع مـؤتمرات مجموعة الدول السبع أو الثمانى الصناعية الكبرى هو نفسه تعبير عن العولمة. فلم يكن من الممكن أن تقوم المسـيرات والمظاهرات والحركات المطلبية بالنضال ضد العولمـة إلا بفضل العولمة. ولكن هذا التفسير يخلط بدوره بـين الشـكل والمضمون. فلا شك أن النضال ضد العولمة يتحقق بفضـل العوامل التى تجعل من الممكن تعبئة أشـخاص ومنظمـات وقوى مدنية من جميع أنحاء العالم. ولكن هناك فارقا بين تلك العوامل من ناحية ومضمون النضال مـن ناحيـة أخـرى. فالنضال ضد العولمة لا يمكن أن يكون مجرد جزء أو تعبير عن نفس العولمة. ولذلك أطلق الكثيرون على هذا النضـال عولمة مضادة استلهاما لتعبير الثقافة المضادة التـى ألهمـت حركة الشباب والحقوق المدنية فى عقد الستينيات.

ويشير البعض الى السياق الذى انبثقت فيه عملية النضال ضد العولمة كثورة كونية ذات ابعاد متعددة وخاصـة البعـد المعرفى والتكنولوجى الاتصالى.

فى هذا الاطار قد يمكننا فهم نشوء والتبلور أو النضـوج النسبى للمجتمع المدنى العـالمى كأحـد تجليـات الثـورة التكنولوجية الراهنة بما صاحبها مـن فـورة ثقافيـة علـى المستوى الكونى. ويبدو أن العامل المحرك من وجهة النظر هذه، هو سقوط "النماذج الأساسية الكبرى" وظهور حساسيات انسانية جديدة من ناحية وبروز أخلاق واهتمامـات عالميـة جديدة من ناحية ثانية.

وبوسعنا أن نرى فى هذه النظرية صياغة مستحدثة لفكرة "القرية الكونية". وتعبر تلك الفكرة أساسا عـن الضـمير أو الوعى الليبرالى الذى بشر مبكرا بالنتائج الايجابيـة للثـورة الاتصالية من خلال يوتوبيا القرية الكونية. فالفكرة لا تقـول بسقوط القوميات أو نهاية المرحلة القومية ولكنها ترى وعيا جديدا يخرج من شرنقة الدولة القومية، ويهفو لأنمـاط مـن التواصل والانتماء عابر للحـدود القوميـة بـل وللحـدود المرسومة بين الثقافات. فكأن القرية الكونية تتجاوز المفهوم الاتصالى الذى يلغى المسافات ويعكس بروز مواطنية جديدة عالمية أو كونية.

وهذا الوعى بالمواطنية العالمية أو الشـعور بالمسـئولية المباشرة عن مصير العالم وادراك أن البشر صاروا يتعلقون بهذا المصير المشترك هو ما يميز المجتمع المدنى العـالمى باعتباره مواطنية جماعية للعالم أو للانسانية.

وقد نجد تعبيرا خاصا عن تلك الظاهرة نفسها فى نظرية أخرى تتفرع عن نبوءة ما بعد الحداثة. فثورة الوعى ضـد "النماذج الأساسية" أو البارادیمز الكبـرى قـد تنتهـى الـى اضمحلال أو على الأقل خفـوت الدولـة القوميـة كاطـار للفعاليات والنشاطات الاجتماعية..ومن هنا تبرز الفكرة مـا بعد الحداثية القائلة بما بعد الدولة القومية. وتعكس تلك الفكرة أيضا الثورة على النمط الكلاسيكى للسياسة أو ظهور منظور ما بعد السياسة. فالسياسة التقليدية كما قلنـا ركـزت علـى "التدافع" والتنافس والتحزب وخاصة فى النسق الديموقراطى الغربى. بينما الممارسة التى تميز الأجيال الحالية تركز على الحاجة للتكافل والعمل المشترك والتحالفات الكبيرة العـابرة للحدود بين الايديولوجيات والأحزاب الايديولوجية التقليديـة. وقد رأينا نماذج فذة لهذه الظاهرة فى المسيرات والمظاهرات التى انبثقت ضد التلويح بالحرب ضد العـراق فـى أوربـا

الغربية وأمريكا الشمالية حيث تزاملت فى نفس المظـاهرات قوى تأثرت بشدة بشعارات الاسلام السياسى مع التروتسكيين والفوضـويين وأنصـار الراديكاليـة السـوداء وحركـات المهاجرين مع اليهـود التقـدميين والأرثـوذكس المعـادين للصهيونية والمتأثرين بالفكر المسيحى الحديث الخ.

وكانت أزمة نمط السياسة التقليدى الذى ساد العالم الغربى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين قد بدأت تطفـو علـى السطح وذلك من خلال ظـواهر وتعبيـرات مثـل "أزمـة المحكومية" وعدم الاكتراث الظاهر فى النسب المنخفضة من التصويت فى الانتخابات العامة فى المجتمعات الديموقراطية مثل الولايات المتحدة وأوربا الغربية. هذه الظواهر تكشـف عن فهم شائع للسياسة التقليدية باعتبارها ممارسة يحتكرهـا الأقوياء ويستبعد منها الضعفاء. وبالمقابل تتجـه الممارسـة السياسية للأجيال الراهنة الى التعاطى مع الشروط والظروف المباشرة للحياة وهو ما يعطى أولوية للأجندة المدنية. ولكـن تلك النظرية قد تشرح بروز أنماط من السياسة المحليـة ولا تفسر بالضرورة نشوء وتطور المجتمع المدنى العالمى.

وإضافة لتلك الشروحات النمطية، فكل منها قـد يضـيف عناصر أو زوايا اضافية تحاول الالمام بالظواهر المخالفـة. فمثلا يستبشر عديد مـن الماركسـيين المحـدثين بتجليـات المجتمع المدنى باعتباره "أممية جديدة" وهو ما ينقل التركيز من الطبقات العاملة التقليدية الى النشطاء المدنيين وخاصـة فى الحركات الحقوقية وحركة المرأة والبيئة. بينما لا يمـانع الليبراليون التقدميون من تنشيط حركـة مناهضـة العولمـة والحرب على اعتبار أنها تتجه لتصفية "الجوانب الاقطاعية" من الرأسمالية المعاصرة وتفرض مسئولية اجتماعية عالمية على رأس المال المدول أو المعولم.

ويمكننا أن نشرح نشوء وتطور المجتمع المدنى العـالمى باعتباره "تمددا عالميا" لحركات اجتماعية أو سياسية غربيـة المنشأ أكثر منها "تحالفا" حقيقيا بـين قطاعـات وحركـات اجتماعية متعددة الجنسيات. فالعناصر الأساسـية اللازمـة لنضوج المجتمع المدنى العالمى تحققـت فـى المجتمعـات الغربية أو الصناعية المتقدمة أكثر مما تحققت فـى الأفـق الكونى بذاته. ولكن هذا الشرح لا ينطلق من مفهوم المصلحة فحسب بل من مفهوم الرؤية بصورة أكبر.

لقد ثارت نضالات تاريخية كبرى انطلاقـا مـن " رؤى" أكثر كثيرا من دافع المصـلحة وخاصـة اذا فهمنـا هـذا المصطلح الأخير من زاوية الطبقات وأنماط الانتاج. فحركة مناهضة التجارة فى العبيد فى القرنين الثامن والتاسع عشـر لم يشارك فيها هؤلاء الذين تتأثر مصالحهم الطبقيـة وانمـا هؤلاء الذين جرحتهم وأهانتهم بشدة فكرة التجارة فى البشـر وحركت لديهم حساسيات نضالية عالميـة وانسـانية حقـا. وحركة السلام لم تكن تعبيرا عن مصالح طبقية أو اقتصادية بل كانت تعبيرا عن رؤية مناهضة للحرب بذاتها ولما تسببه من آلام بشرية عميقة وواسعة النطـاق. وحركـة حقـوق الانسان لم تكن تعبيرا عن دوافع طبقية أو سياسية مباشرة بل كانت انعكاسا لالتزام فكرى أو رؤية انسـانية وانسـانوية. وتقودنا دراسة شخصيات الأجيال المؤسسـة بالـذات لهـذه الحركة الأخيرة الى هذه النتيجة بكل وضوح. فهؤلاء الناس لم تكن لديهم أية دوافع مصلحية. إذ جاء أغلبهم من خلفيـات مهنية مزدهرة واشتمل نضالهم على تضحية بعائد مـادى أو مكانة مهنية رفيعة كان يمكن لهم تحقيقها لو أنهـم صـرفوا جهدهم فيما يخصهم من مصالح.

ولكن المصلحة قد تكون ذات أهمية فـى تفسـير انتقـال حركات اجتماعية ومؤسسات دفاعية أو وقفية الى العمل على مستوى العالم. ففى مرحلة معينة من نضـال أو ممارسـات حركة المرأة مثلا اشتد الوعى بأن انتصار تلك القضية صار رهنا بايقاظ النساء ونضالهن على المستوى العـالمى. وفـى نفس السياق برزت نظرية قوية تقـول أن انتصـار قضـية المرأة حتى فى الغرب هو أمر يتطلب النضال ضد سياسات القوة العسكرية التى تعكس أو تؤيد ايديولوجيا تفوق الرجل. ومن هنا فان النضال من أجل السلام والعدل وحـق تقريـر المصير للأمم والشعوب المضطهدة هو انتصار أيضا لقضية المرأة. وربما هذا هو ما يفسر الدور الكبيـر الـذى لعبتـه حركات ومنظمات المرأة فى الولايات المتحدة فى الضـغط لوقف التطهير العرقى فى البوسنة والهرسك وفى كوسوفا.

رابعاً: انعكاسات النشاطية المدنيـة العالميـة على العلاقات الدولية :

وقد يكون بوسعنا التعمق قليلا فى فهم دلالات ومنطلقات نشوء المجتمع المدنى العالمى ببحـث أثرهـا فـى سـاحة العلاقات الدولية. فنشوء المجتمع المدنى العالمى لم يصاحبه بالضرورة اضمحلال دور الدولـة التقليـدى فـى السـاحة السياسية العالمية.

ويمكن النظر للموضوع من زوايا متعددة.

فالمجتمع المدنى العالمى ينتمى الى تلك المفاهيم "الناعمة" فى مجال السياسة بالمقارنة بالمفاهيم "الصلبة" مثـل مفهـوم القوة ويقف جزئيا على طرف نقيض منها. وهنا يبرز سؤال أساسى وهو هل تستطيع مفاهيم مثل الأفكار والرؤى التأثير على العلاقات الدولية بالمقارنة بمفاهيم القوة. وبالتالى هـل يمكن لمفهوم "ناعم" مثل المجتمع المدنى العالمى وخاصة فى طور نمو أولى أو مبدئى للغاية أن يكون له تأثير على سلوك وأداء وعلاقات الدول؟ والى أى حد نسـتطيع أن نتوقـع أن يصل هذا التأثير؟.

ريما يمكننا أن نختبـر مختلـف الفـروض والتوقعـات المتصلة بهذه القضية من خلال رصد الآثار الممكنة لحركـة مناهضة الحرب الأمريكية ضد العراق.

وهنا قد تبرز حجتان :

الحجة الأولى ترى أن النشاطية المدهشة والتوحد العالمى والالتزام الخارق بمناهضة الحرب الأمريكية ضد العراق قد فشلت فى وقف هذه الحرب. ويعنى ذلك أن المفاهيم "الناعمة " مثل المجتمع المدنى العالمى ليس لها دور يذكر فى السياسة العالمية الحالية أو المستقبلية. ويمكن للقائلين بهذه الحجـة أن يضيفوا أدلة قوية من مسارات الصراعات الحالية أو الأحدث عندما تصطدم الولاءات أو الالتزامات المختلفة. فـلا شـك مطلقا تقريبا أنه عندما تصطدم الولاءات القومية أو العرقيـة أو الدينية بالالتزامات الأخلاقية أو المدنية المحلية أو العالمية فان الأولى هى التى تنتصر بالنسبة للكتل الكبيرة من الناس. وعلى سبيل المثال فان حركة حقوق الانسان فى يوغوسلافيا السابقة قد انفضت أو انكسرت عندما انفجرت الحرب الأهلية وعاد النشطاء الحقوقيون الى روابطهم وولاءاتهم القومية أو العرقية والدينية. بل أن العاملين فى منظمة تاريخية وقويـة

تعد هى الأقوى بين منظمات المجتمع المدنى العالمى وهـى "الصليب الأحمر" الدولية فى البوسنة والهرسك قد انفضـوا عنها وعادوا للتحيز الى ولاءاتهم القومية والدينية.

وبالنسبة لحركة مناهضة الحرب يرى هؤلاء أن الطغمـة الحاكمة فى أمريكا اسـتطاعت المضـى فـى مشـروعها الاجرامى لشن حرب ضد العراق ضد ارادة المجتمع المدنى العالمى بل وضد الشرعية الدولية ومعارضـة العديـد مـن القوى الكبرى الأخرى مثل ألمانيا وفرنسا وروسيا والصين. ويستنتج البعض من ذلك أن التأثير الحقيقى لحركة مناهضة الحرب قد يكون محدودا للغاية.

وقد يبالغ أخرون فى تاثير المجتمـع المـدنى العـالمى وخاصة حركة مناهضة الحرب الأمريكيـة ضـد العـراق. فيمكن القول أن تلك الحركة سيكون لهـا ثلاثـة أنـواع أو مستويات من التأثير.

المستوى الأول هو تقييد ارادة الآلة الحربية الأمريكية فى صياغة "أسلوب الحرب ضد العراق". فمثلا تعهـدت الادارة الأمريكية بأن تلك الحرب لن تكون على مسـتوى التجميـر المروع الذى ميز حرب عام ١٩٩١. فهـى لـن تسـتهدف بالقصف المنشآت المدنية والبنية الأساسية أو المدنيين.

أما المستوى الثانى فيتمثل فى التعامل بقـدر أكبـر مـن المسئولية كدولة احتلال مع العراق كدولة أو مـع الشـعب العراقى. فتعهدت الادارة الأمريكية بأنها لن تبقى فى العراق بأكثر من الفترة الضرورية لتأمين النظام العـام وأنهـا لـن تسمح بتفتيت العراق الى دويلات أو بأعمال انتقام متبادل بين فرقاء السياسة العراقية. كما قالت بأنها ستسعى لجعل العراق "معرضا" للديموقراطية والازدهار الاقتصادى. ومـن حقنـا بالطبع أن نتشكك فى هذه التعهدات. غير أن مجرد الالتـزام بها يعكس الرقابة والرفض المدنى والسياسى العالمى لفكـرة الغزو وكأن الولايات المتحدة ستحاول أن تقـول للمجتمـع الدولى المدنى والسياسى: ألم أقل لكم أن العـراق سـيكون أفضل حالا!

أما المستوى الثالث فهو اجبار الادارة الأمريكية الحاليـة على التفكير ألف مرة قبل اللجوء الى أعمال عدوان مماثلة. وبهذا المعنى يحقق المجتمع الدولى المدنى والسياسى معا من خلال النضال ضد المشروع العسكرى الأمريكى فى العراق ما لم يمكن تحقيقه من خلال الردع العسكرى الذى لا يملـك وسائله أى من الدول الكبرى أو الصغرى.

ولكن الاختبار الحقيقى لصحة هذه الافتراضات هـو مـا سيحدث على الأرض سواء داخل العراق أو داخل الولايـات المتحدة نفسها.

وبالنسبة لهذا الجانب الأخير ثمة ما يبرر الاعتقـاد بـأن الهزيمة الأخلاقية والدبلوماسية التى حاقت بالولايات المتحدة فى الأمم المتحدة وفى شوارع ومدن العالم سـوف تـنعكس سلبا على شعبية تلك الادارة فـى الـداخل الأمريكـى فـى المستقبل غير البعيد وربما تطيح بالتحالف السياسـى الـذى تتأسس عليه بين اليمين التقليدى والذى ينتمى الـى "التيـار الأساسى" للحياة السياسية الأمريكية مـن ناحيـة واليمـين الأصولى والمتطرف الذى ضغط لدفع الادارة الحاليـة الـى هذه المغامرة الشريرة والخطرة. ولا يمكن التنبـؤ بنتيجـة الصراع. فقد يسقط ممثلو اليمـين التقليـدى مثـل وزيـر الخارجية باول. وقد يسقط ممثلو اليمـين المتطـرف مثـل وولفيتز أو رامسفلد أو حتى ديك تشينى. وسوف تكون هناك آثار ونتائج سياسية بعيدة المدى بالنسبة للمشروع العـدوانى الأمريكى فى الشرق الأوسط وعلى المستوى العالمى. وقـد رأينا بعض مقدمات النقاش العام حول المسئولية عن الكارثة

المعنوية التى تمخض عنها هذا المشروع العدوانى على الأقل بالنسبة للدور الخاص لليمـين الصـهيونى المتطـرف فـى الولايات المتحدة فى الدفع نحو هذا المشروع حيـث ينـاقش الأمريكيون الآن بقدر غير معتاد من الجرأة دور "اليهود" فى الدفع نحو هذا المشروع العدوانى الكـارثى حتـى بالنسـبة للولايات المتحدة وبغض النظـر عـن تحقيـق الانتصـار العسكرى من عدمه.

(١٠) الحرب ضد العراق:
بعذر أو بدون عذر..سيفعلونها

تنتظر الدوائر العلمية والثقافية على أحر من الجمر اختتام مشروع جبار لتوثيق اللغة السومرية فـي قـاموس يسـتعد متحف الآثار وعلم الإنسان بجامعة بنسلفانيا لإصـداره بعـد ثلاثين عاما من البحوث. ويعتقد العلماء المشاركون في هـذا المشروع أن السومريين هم من شـيدوا أول المـدن وأقـدم اللغات المكتوبـة وربمـا أول الحضـارات فـي المنطقـة المحصورة بين دجلة والفرات والمعروفة في اللغة الإنجليزية باسم ميزوبوتيميا أو ما بين النهرين باللغة العربية.

على أحر من الجمر أيضا تنتظـر القـوى الصـهيونية واليمينية الأمريكية قرار (الرئيس) بوش بشن الحرب علـى العراق- وريث تلك الحضارة التليدة- لتحقيق هـدف معلـن وهو إزاحة (الرئيس) صدام حسين من السلطة في العراق أو قتله. ويود الإعلام الأمريكي المتعاون مع الإدارة فـي هـذه المسألة تعاونا تاما-في تقديري- أن يزرع فكرة أن الحـرب حتمية رغم كـل العوائـق. يشـير أعضـاء الكـونجرس

والمتخصصون إلي عوائق كثيرة. فهناك بالطبع المعارضـة العربية والأوربية. وهناك مشكلة من يتحمل تكلفة الحرب إذا استمرت الدول العربية التي حملت العبء الأكبـر لتمويـل حرب عام ١٩٩٠ في معارضتها. وهنـاك مشـكلة التعبئـة الهائلة والتي تتراوح بين ٧٠-٢٥٠ ألف جنـدي. وهنـاك أخيرا مشكلة تردد الرأي العام الأمريكي حتى الآن في قبول فكرة حرب جديدة أثناء أزمة اقتصادية خانقة. ولكن العـائق الأكبر والحقيقي حتى الآن هو التشوش الكامل تقريبـا فيمـا يتعلق بالأهداف الاستراتيجية الحقيقية للحرب وإمكانية تحقيق هذه الأهداف بتكلفة معقولة بالنسبة للأمريكيين.

هذا العائق ينجم بدوره عن أسباب كثيـرة نتناولهـا فـي فقرات تالية. فالمهم الآن هو الإشارة إلي طائفة من الحقـائق المركزية المحيطة بالقضية.

أولى هذه الحقائق هي أن هناك ما يشبه الإجمـاع داخـل الساحة السياسية الأمريكية حول شن الحرب على العـراق. ورغم أن هذا الإجماع السياسي لا يمر بدون مناقشة حـادة أحيانا من جانب عديد من الخبراء والمثقفـين والمناضـلين، فهناك نوع من التسليم الجماعي بأن قرار الحرب صـادر لا

محالة. وما يقال عن خلافات ومناظرات سواء داخل الإدارة أو في الكونجرس يتعلـق فـي الحقيقـة بـالأمور العمليـة والسياسية المحلية، ولا علاقة له بمناقشة المبدأ نفسه.

ثاني هذه الحقائق يتفرع عن هذا الإجماع العجيب. لمـاذا يبدو قرار الحرب مؤكدا تقريبا؟ السـبب المباشـر هـو أن الإدارة أكدت على عزمها على شن الحرب بغض النظر عن أي اعتبار آخر بما في ذلك معارضة حلفاء أمريكا الـدوليين والإقليميين، وبغض النظر أيضا عن سلوك الرئيس العراقي أو استجابته وعدم استجابته لمطالب الأمم المتحدة التي هـي مطالب الولايات المتحدة. فبعد أن ظلت الإدارة تقول بوجوب أن يقوم العراق بإعادة لجنة التفتيش صرح باول مـؤخرا أن استجابة العراق جزئيا لهذا المطلب لن تمنع الحرب ضـده. وبتعبير آخر فان ما تقوله الإدارة حرفيا هو أنه ليس هناك ما يمكن للعراق أن يفعله من أجل تجنب الحرب والغزو.

حقيقة ثالثة لا يمكن إغفالها وهى تتعلق بالإجابـة علـى السؤال لماذا؟ عندما تسأل عن السبب المباشـر وراء قـرار الحرب والغزو لا تجد إجابه عقلانية مطلقا. ويحتار المحللون الاستراتيجيون كيف يجيبون على هذا السؤال. فلم تصـادف

محاولات الربط التعسفى بين العـراق وتنظـيم القاعـدة أو أحداث ١١ سبتمبر أي نجاح. فأجهزة المخابرات الأمريكيـة شهدت مرارا وتكرارا بأن تلك النظرية بالغة الضـعف ولا تنهض على أساس. ورغم أن تلك النظرية يتم إحياؤهـا الآن وبصورة دورية باستماتة عجيبة فان الجميع يعرف أن تلـك المحاولات لا تزيد عن اختلاق سبب أو عذر أو تبرير مثلها في ذلك مثل مؤامرة خليج تونكين التـي بـررت للـرئيس الأمريكي جونسون توسيع نطاق حرب فيتنام.

وبينما امتنع البيت الأبيض عن احتضان نظرية الربط بين ١١ سبتمبر ونظام (الرئيس) صدام حسين فانه يكـرر دون ملل جملة وحيدة تمثل التبرير الأساسي إن لم يكـن الوحيـد للحرب ضد العراق. بدت هذه الجملة عارضة فـي خطـاب "حالة الاتحاد" وتقول "إن الولايات المتحـدة لا تسـتطيع أن تسمح لأسوأ الزعماء في العالم بتطوير أسوأ أسلحة العـالم" في إشارة محددة لأسلحة الدمار الشامل. ولكن هذه الجملـة أعجبت فيما يبدو الرئيس بوش، فلم يمل من تكرارها في كل خطبه اللاحقة.تبدو هذه الحجة هي التبرير الوحيد الذي قـد "يشتريه" الرأي العام الأمريكي للحرب ضد العراق. ولكـن

تأملها يكشف عن جانب أخر تماما من دوافع تلك الحـرب. والواقع أن تلك الحجة أو النظريـة "طـارت بالفعـل" فـي الكونجرس أثناء جلسة الاستماع التي خصصها لهذه المسألة في بداية هذا الشهر. فإذا كان العراق قادرا فيما تشهد أجهزة المخابرات الأمريكية على تطوير قنابل ذرية بتكنولوجيا غير تقليدية خلال السنوات الخمس المقبلة فان الولايات المتحـدة نفسها فيما يقول السناتور دينجل مـثلا سـتواجه مشـكلة أو تهديدا. وبالتالي فان الهدف الإستراتيجي من الحـرب وفقـا لأنصارها في المؤسسة الحاكمة للولايات المتحدة هـو منـع العراق من تطوير أسلحة ذرية. ولكن عند هذا الحد تصـبح المناقشة أكثر إثارة. فلنفترض أن العراق يطور بالفعل أسلحة ذرية. انه لن يكون الوحيد من بين دول "محور الشر" بتعبير الرئيس بوش الذي يملك هذه الأسلحة. فـأجهزة المخـابرات الأمريكية تعرف أن كوريا الشمالية تملك بالفعل التكنولوجيـا التقليدية الضرورية لصنع أسلحة ذرية ونووية. وتعرف أيضا أن إيران أقرب في الوصول إلي هذه الأسلحة من العـراق، فلماذا يهدد بوش العراق وحده ولم ينطق كلمـة الحـرب أو الغزو فيما يتعلق بكوريا وإيران؟ الدافع لـيس فقـط خدمـة

اسرائيل. فنحن نعرف أن إسرائيل أكثر خوفا من إيران عنها من العراق. هناك دافع آخر واضح بذاته وهـو أن الـرئيس بوش يريد حربا رخيصة يضـمن فيهـا الانتصـار دون أن يعانى من خسائر بشرية كبيرة. كوريا ليست مجالا لحـرب رخيصة، فأمريكا عانت معاناة مريرة أثناء حربها ضد كوريا عام ١٩٥٠. وإيران ليست أيضا حربا رخيصة فهو بلد قادر على الصمود لسنوات كما فعل وهو في قمة الضـعف ضـد العراق بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٨٨.

أمريكا تبدو من وجهة نظر اليمين تحتـاج "سـيكولوجيا" لحرب تضمن فيها النصر. هذا الدافع السيكولوجي دال بذاته ويكشف عن الجانب الأكثر قبحـا فـي الثقافـة السياسـية الأمريكية. إذ نجد في هذه الثقافة نزعة قوية للتضـامن مـع الضعيف. ولكن هناك نزعة لا تقل قوة للافتراء الذي يرضى الغرور وخاصة عندما لا يكلف شيئا.

ولكن فكرة الحرب الرخيصة تتأسس على تجربة حـرب ١٩٩٠. وقد تغيرت الظروف وربما لم يعـد مـن الممكـن ضمان أن تكون الحرب ضد العراق عـام ٢٠٠٢ أو ٢٠٠٣ مثلما كانت رخيصة عام ١٩٩٠. هنـاك سـبب لصـعوبة

الحساب. فوفقا للمصادر الأمريكية لا يمكن التأكـد مـن أن العراق يملك أو لا يملـك بالفعـل والآن أسـلحة كيماويـة وبيولوجية. فكيف يمكن أن تضمن أمريكا أن يمتنع الـرئيس العراقي عن استخدام تلك الأسلحة دفاعا عن الـنفس مثلمـا امتنع عام ١٩٩٠ وكان يملك بالفعل تلك الأسلحة. إن مجرد الشك يجب أن يكون له أثر رادع ضد فكرة الغزو والحرب.

ولكن بدلا من أن يردع هذا السبب اليمـين الحـاكم بمـا يجعله يقلع عن فكرة الغـزو، فقـد اكتفـى بالبحـث عـن "استراتيجيات حربية" فيها "خيال" كما يقول مسـئولون فـي البنتاجون للصحف الأمريكية. ومن هذه الاستراتيجيات مـا أسمته صحيفة النيويورك تايمز "بغـداد أولا". لقـد نشـرت الصحيفة أن المسئولين في البنتاجون يفكـرون فـي غـزو العراق بطريقة مختلفة عما حدث في عام ١٩٩٠. فبدلا مـن التقدم من الحدود أو الأطراف إلى المركز "بغداد" هناك فكرة البدء بالسيطرة على بغداد أولا لقطع الاتصال بين القيادة في المركز والقوات العراقية. ويفترض هذا السيناريو أن الضباط المتوسطين في الجيش العراقي ما أن تنقطع عنهم الأوامـر من المركز سيترددون في استخدام أسلحة الدمار الشامل التي

قد تكون بحوزتهم. كما أن هذا السيناريو يفترض أيضـا أن الجيش العراقي سوف ينهار ما أن تنقطع عنه الأوامر بعـد ضرب مراكز القيادة والاتصال والسيطرة.

الفكرة في أفضل الأحوال سخيفة وليس فيها سوى خيـال مريض ولا أساس لها في علم التخطيط العسكري ولا تصلح لأمريكا تحديدا من بين كافة دول العالم. فإذا كـان الهـدف الأمريكي هو تجنب خسائر بشرية كبيرة كيف يمكن ضـمان ألا يستخدم ضابط واحد أسلحة بيولوجية أو كيماوية حتى بعد انقطاع الأوامر وفقا لهذا الخيال المريض؟. وهل يمكن عقلا افتراض أن تتمكن القوات الأمريكية مـن اغتيـال الـرئيس العراقي أو قطع اتصالاته بقواته مثل البرق؟ ألن يكون لديـه على الأقل بضع ساعات يمكنه فيها إصدار أوامر بإلقاء قنابل بيولوجية أو كيمائية ضد قوات أمريكية وان لم يكن فصد بلدا عربيا ممن قد يعتبرهم حلفاء أمريكا أو علـى الأقـل ضـد إسرائيل؟ ومن قال أن الرئيس العراقي المشهود له بالبراعـة والدقة المذهلة في الاختفاء والتمويه سيكون في بغداد أثنـاء شن الحرب عليه بهدف اغتياله وخلعه؟

مثل هذه الأسئلة التي ترد في عقل حتى الأطفال تؤكد أن ما تنشره الصحف الأمريكية هذه الأيام ليس سوى تسريبات عمدية تحقق هدفين أساسيين من وراء النشر المكثف عن تلك السيناريوهات وهما:

١- إجبار الأوربيين والعرب بل وحتـى الأمـريكيين المعارضين للغزو والحرب على التسليم بحتميتهـا ومن ثم الامتثال لها حتى يمكن الحصـول علـى بعض التأثير على القرار الأمريكـي أثنـاء وبعـد الغزو.

٢- تشتيت الفكر السياسي والعسكري للعـراق وحفـز قيادته على التفكير بصورة تسهل مهمـة القـوات الغازية أي الإيحاء للعراقيين بالتصرف على نحـو يرغبه الأمريكيون. من الناحية السياسية مثلا قـد يستنتج العراقيون أنه طالما أن الغزو قادم لمـاذا لا يهاجمون بدلا من انتظار الدفاع وهو ما يوفر عذرا للهجوم الأمريكي. ومن الناحية العسكرية قد يكون الهدف من تسريب خطة "بغداد أولا" المزعومة هو الإيحاء للعراقيين بتركيز قواتهم حول بغداد وهو ما

يسهل التقدم من الأطراف. وفى الحد الأدنى تؤدى هذه التسـريبات الصـحفية إلـى تشـتيت الفكـر الإستراتيجي العراقي.

وفيما هو أبعد من هذا التفكير الطفولى وغير العقلانـي، هناك هدف أعمق وأوسع نطاقا تدفع له القـوى الصـهيونية التي تقوم بحملة محمومة ومتناسقة لدفع أمريكا إلى تجاهـل كل الاعتراضات العالمية والإقليمية والمضى في خطط غزو العراق. العراق لن يكون فريسة سهلة هذه المرة. والـرئيس العراقي لن يحجم هذه المرة عن استخدام ما بحوزتـه مـن أسلحة كيماوية وبيولوجية وسوف يوقع ذلك بالتأكيد خسـائر بشرية كبيرة بين القوات الأمريكية الغازية وربمـا بعـض الدول العربية. وهذا هو ما يعارضه العسكريون المحترفون في البنتاجون، والذي أساء كثيرا للعلاقات بينهم وبين الإدارة السياسية. فهم يعرفون أن الحرب ضد العـراق لـن تكـون نظيفة، وأنهم سيتحملون اللوم عندما يموت أمريكيون في هذه الحرب.

ولكن هذا هو المطلوب بالضبط إسرائيليا. فلو أن الولايات المتحدة عانت من خسائر بشرية ومن تهديد جدي لمصالحها في المنطقة بسبب فكرة الغزو الجنونية فإنها سوف تمعن في العداء للعراق والمنطقة وسوف تتورط على نحو أكبر وأعمق في حرب لا تنتهي ضد العرب. هذا الهدف قد يبرر تحمل إسرائيل لبعض الخسائر. ولكنه يلحق بالعرب خسائر أكبر من حيث أنه يجعل العداء بين العرب وأمريكا مطلقا ونهائيا وغير قابل للحل السلمي. وهذا هو ما تتمناه إسرائيل.

وباختصار فإنه بدلا من أن تحارب إسرائيل معارك أمريكا نجدها تستميت لتوريط أمريكا في حروبها هي التي لا تنتهي ضد العرب وضد الإنسانية.

(١١) مصر والأزمة العراقية-الأمريكية

مقدمة:

منذ بداية الأزمة أدركـت القيـادة السياسـية أن رقعـة الاختيارات المصرية ضيقة للغاية وأنها قد تقع بـين شـقى الرحى: أى بين المبادىء والمصالح المباشرة. فمن الطبيعى أن تعارض مصر عملية غزو العراق واحتلالـه وخاصـة بدون قرار من مجلس الأمن. ولكن تصعيد المعارضة بعـد مدى معين يؤدى الى صدام شديد مع الولايات المتحدة وهـو ما يعصف بأحد أهم توجهات الاستراتيجية القومية المصرية وبمصالح مصرية استراتيجية واقتصادية مهمة أو جوهرية.

وسعت مصر الى الجمع بـين المقصـدين: أى التمسـك بالمبادىء والمحافظة على الحد الأدنى من العلاقات المصرية الأمريكية على نحو لا يمنح تبريرا لخصوم العلاقة المصرية الأمريكية لتمزيقها بما يؤدى الى استعداء الادارة الحالية ضد مصر. فأصرت المواقف المصرية منذ بداية الأزمـة علـى ابراز تمسك مصر بمبادىء القانون الدولى وطـرح رؤيـة متكاملة نحو مصير العراق (معارضـة الحـرب وضـمان

استقلال وسيادة العراق ووحدته الاقليمية) فى مقابل تعـاون العراق فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشـامل. بـل إن مصـر رفضت مجرد المشاركة فى تبنى مبادرات اقليميـة ودوليـة تتضمن تنحى الرئيس العراقى مقابل توقف الولايات المتحدة عن تهديد العراق بالغزو.

ورغم أن تلك الرؤية اتسمت بالتوازن فانهـا قامـت مـن الناحية السياسية على منظور تقليل الخسـائر الناجمـة عـن الأزمة. ومن أجل تقليل الخسائر منحت مصر كل طرف مـن أطراف الأزمة المباشرين وغير المباشرين شيئا ما ولكنه يقل كثيرا عما هو مطلوب من وجهة نظرهم. فتحقق فى الجـوهر شىء من التوازن فى لعبة ليست فيها مكاسب. فمنحت الـرأى العام العربى (الذى ينتظر من مصر موقفا أقوى بكثيـر فـى إدانة العدوان الأمريكى وإجهاضه) موقفا اعلاميـا وسياسـيا يتفق مع المبادىء. وبالتالى فهى لم تكسب الرأى العام العربى الذى يغلى ضد أمريكا ولكنها لم تخسره كلية أو على الأقل لم تخسره بأكثر مما خسرته الحكومات والدول العربية الأخـرى ربما باستثناء سوريا التى راهنت خطابيا على الـرأى العـام العربى. وبالمقابل كانت أمريكا تنتظر (وان لم تضغط بشـدة) من مصر موقفا أقـوى لصـالحها فمنحتهـا مصـر بعـض

التسهيلات وبعض "التفهم" العملى وبعض التصـريحات الـى تناسبها وهى أشياء تضمن شعرة معاوية مع الأمريكيين ولكنها لا تكفى لكسب ودهم أو تعاطفهم بصـورة أقـوى. ومقابـل التوافق المنطقى بين الموقفين المصرى والأوربى المعـارض للحرب ضد العراق حرصت مصر على ألا يبدو ذلك تحيـزا لأوربا على حساب الولايات المتحدة. ومن الناحيتين تمكنـت مصر من "تهدئة خواطر" أمريكا دون الوصول بـذلك الـى مستوى التعاون الايجابى معها. كما تمكنت من المحافظة على المظاهر التاريخية للتوافق الدبلوماسى مع أوربا ولكن دون أن يصل ذلك الى "وحدة الصف" مع الدول الأوربية المعارضـة وخاصة فرنسا وألمانيا. أما على الصعيد العربى فقـد وقفـت مصر موقفا متوازنا بين سوريا واليمن والعراق التى اتخـذت خطا اعلاميا متشددا بغض النظر عـن مصـداقيته العمليـة والكويت والسعودية وقطر والبحرين والامارات التى اتخـذت موقفا أشد اعتدالا وأميل للجانب الأمريكى بغض النظر عـن تكلفته الشعبية. وبذلك تمكنت من تحقيـق وفـاق دبلوماسـى وسياسى عربى. ولكن هذا التوافق جاء على حساب المضمون وأقل كثيرا من الرأى العام بل وأقل من المـدى الضـرورى لتوكيد قيادة ومكانة مصر الاقليمية.

وبينما كان التوازن هو المبدأ العام الحاكم لادارة مصـر للأزمة يكاد يستحيل السير على حبل رفيـع ودقيـق وبـالغ الهشاشة بسبب الاستقطاب الحاد علـى المسـتويين الـدولى والاقليمى. ومن ثم فالتوازن نفسه لم يرض سوى القليلين. فلم يرض الرأى العام المحلى والعربى ولم يرض أكثرية الدول والحكومات المعارضة لأمريكا فى العالم. بل ولم يكن مـن الممكن المحافظة عليه بدقة كاملة بـالنظر الـى الضـغوط المتباينة والمتقاطعة والمتغيرة كثافـة ونوعـا بـين لحظـة وأخرى. وبوجه عام بدا أن الموقف المصرى يفهـم اقليميـا وعالميا وكأنه يميل أكثر من الناحية العملية لصالح الولايات المتحدة.

والواقع أن هذا الميل يعكس حسابات محددة تتعلق بالجانب السلبى من المعادلة. فاذا كان المبدأ الحاكم هو تقليل الخسـارة فان الحسابات العملية تقود الى الميـل للتضـحية بالمصـالح المعنوية والتى تبدو خسارتها محتمة كالقدر أو تلك التى يمكن تعويضها ولو جزئيا فى المستقبل وليس بالمصـالح الماديـة والتى لا يمكن تعويضها فى المستقبل. مـن هـذا المنظـور فالتضحية بالعلاقات الخاصة مع الولايات المتحدة هى خسارة

لمصالح مادية كبيرة (استراتيجية واقتصادية وسياسية). ومـا أن تقع هذه الخسارة حتى تصبح دائمـة. فمجـرد اسـتمرار المعونات الأمريكية لمصـر وخاصـة أثنـاء ولايـة الادارة الأمريكية الحالية قد ترتب على قوة الدفع التاريخية لها والتـى ما أن تنقطع قد لا يمكن استعادتها بسهولة وهو مـا شـهدناه بالفعل فيما يسمى عملية السلام. أما المكانة المعنوية لمصـر بين الشعوب العربية أو المجتمع المدنى العربى والعالمى فقـد بدت أقل أهمية بالمقارنة بالحاح المصالح المادية. كما أنه قـد يسهل نسبيا استعادتها فى المستقبل.

ورغم ما فى هذه المعادلات من حساب موضوعى فانهـا تطرح سؤالا هاما يتعلق بالذات ببعد المكانة. والسؤال هـو كيف والى أى حد يمكن تحسين المكانة الدوليـة والاقليميـة لمصر فى سياق ادارة الأزمة الراهنة.

وتحاول هذه الورقة الموجزة الاجابة على هـذا السـؤال بالتعرض أولا للقيود الواردة على تحقيق هذا الهدف. وبعـد ذلك تعرض الورقة لأفكار تتعلق بتحسـين المكانـة علـى المستوى الدولى ثم المستوى العربى مـن خـلال عـرض النموذج الراهن لادارة الأزمة ثم عـرض مزايـا وعيـوب نماذج بديلة ممكنة نظريا.

أولا: النموذج الأساسى:

تتعدد القيود الواردة على هدف تحسين المكانة المصـرية أثناء أو فى سياق ادارة الأزمة الراهنة. ومن أهم هذه القيود أن العوامل الأساسية لادارة هذه الأزمة ليست بيـد مصـر. فمصر تديرها باعتبارها مجـرد أحـد الأطـراف والقـوى الأقليمية ودون أن تكون متلامسة مباشرة أو بصورة قويـة وفورية معها من الناحية الجيوستراتيجية أو حتى من الناحية الدبلوماسية الدولية (فمصر ليست حاليا عضوا بمجلس الأمن ولا تعد بالطبع قوة كبرى عالمية).

ومن ناحية أخرى فالطرفان المباشران للأزمـة يتسـمان بالعناد الشديد ويتضمن الصراع بينهما بصورة متزايدة قضية المصير أو البقاء. فادارة بـوش لا تسـتطيع الانسـحاب أو التفاهم الآن وخاصة بعد أن قامت ببدء الحرب فعلا دون أن تخاطر بهيبة الولايات المتحدة وبمستقبلها هـى وخاصـة أن الإعداد للانتخابات الرئاسية سيبدأ فى غضون شهور قليلـة من الآن. ومن ناحية ثالثة فانه لا يمكن التنبؤ بالمسار المحدد للصراع. فحتى لو انتهى لمصلحة الولايـات المتحـدة فقـد تكلفها الحرب تكلفة عالية. وقد يستخدم العراقيـون أسـلحة

دمار شامل وهو ما يغير من المعطيات الدولية. وقد تتواصل المقاومة العراقية بصورة سياسية وعسكرية حتى بعد حسـم معركة بغداد. وعلى سبيل المثال فقد يرفع العراقيون العرب (أى باستثناء الأكراد) فى الداخل شعار المقاطعة الشاملة لأى نظام يسفر عنه الاحتلال. وقد تصعد أمريكا ذاتها مسـتوى الصراع فتستخدم أسلحة إبادة شاملة وهو ما لا يتـرك أمـام مصر اختيارا سوى الادانة ومن ثم القطيعة وإلا تكـون قـد خاطرت بكل مكانتها الدولية وبالاستقرار السياسى القـومى. وفضلا عن ذلك فقد تكون مصر قد أحرقت مراكبها بالفعـل مع نظام صدام حسين على أساس التوقعـات الشـائعة بـأن سقوطه محتم وهزيمته مؤكدة وهو ما لا يجعلهـا الطـرف المؤهل للوساطة اذا ما تعثر مشـروع الغـزو الأمريكـى عسكريا أو بالأهم: سياسيا.

ثمة إذن متغيرات كثيرة لا يمكن التنبؤ الصحيح بها.

ولكن بقدر ما تنطوى هذه المتغيرات على قيـود شـديدة على حيز الاختيارات بالنسبة لمصر بل ولجميع دول العـالم فانها تمنح مصر أيضا (وربما بعض الدول الأخرى غيرها) فرصا بعضها قد يمكن اغتنامه.

ثمة بالطبع فرص افتراضية مثل احتمال تعثـر مشـروع الغزو الأمريكى عند نقطة معينة قبل السيطرة على بغداد أو فشل الأمريكيين فى اقتحام بغداد خشية من خسـائر كبيـرة. عندئذ قد تكون الظروف ملائمة لحلول وسط قابلـة للنجـاح على نحو أو آخر ويمكن لمصر اقتراحها أو التحرك السريع لطرحها وتطبيقها اذا كان ذلك ممكنا وهو ما يعـزز مكانـة مصر بدرجة كبيرة. وثمة ايضا فرص افتراضية لـو وقـع انتصار عسكرى أمريكى ولكن يفشل الأمريكيون فى الافادة منه سياسيا اذا ما أجمع الداخل العراقى مثلا علـى مقاطعـة الأمريكيين أو على مواصلة المقاومـة بأسـاليب سياسـية. وعندئذ قد يضطر الأمريكيون للمرونة وفـتح البـاب أمـام وساطات أو حل سياسى.

وتتوقف امكانية اغتنام هذه الفرص على عوامـل كثيـرة أكثرها قد لا يكون بيد مصر. ولكن بعضها قد يجب التأهـل له من خلال آلية للمتابعة الدقيقة لتطورات الحرب الراهنـة والاتصالات المستمرة على نحو يومى بالفـاعلين وخاصـة الولايات المتحدة والدول الكبرى الأخرى والقدرة العالية على انتاج أفكار وتعديلها أو أقلمتها مع الظروف المتغيرة.

أما الفرص التى يمكن توقعها سلفا فقد تكون محصـورة فى بعض مستويات التحرك وبعض مراحل تطور الصراع. ولن يمكن اغتنام هذه الفرص بالطبع الا اذا تمتعـت مصـر بجاهزية عالية للغاية من الآن بالأفكار وسيناريوهات الأزمة ومخارجها المحتملة (وهى حتى الآن تبدو قليلة ولكنهـا قـد تتسع مع الوقت ومع تطور الصراع نحو الأفق السياسى أيـا كان).

وقبل أن نتحدث عن هذه الفرص يهمنا أن نبحث امكانيـة تعديل النموذج أو المعادلـة الأساسـية لـلادارة المصـرية للأزمة: أى تقليل الخسارة.

هل يمكن حقا أن نعمل بمعادلة "تعظيم المكاسب المحتملة" أو خلقها خلقا؟

من منظور ما قد تقود تلك الأزمة بنهاية المطـاف الـى مكاسب لمصر على المدى القصير حتى لو لم تفعـل شـيئا. فاذا فشل الأمريكيون فى حسم المعركة السياسية أو العسكرية لمصلحتهم أو اذا ورطوا أمريكا فى سلسلة مـن الحـروب المتعثرة والمكلفة يرجح أن يطاح بالرئيس بـوش وسـقوط اليمين المتطرف الحاكم الآن والذى يعادى مصر الـى حـد

بعيد. أما اذا نجح الأمريكيون بصورة جزئية وبقدر ما مـن الخسائر المعنوية فسوف يطاح بالرئيس صـدام. والاطاحـة بصدام قد تكون نتيجة مناسبة لمصر مـن زوايـا معينـة. فالاطاحة بصدام تجبر العالم العربى على النظر الى مصـر باعتبارها المركز القيادى الذى لا ينازع والمنـاط الوحيـد لآماله فى التقدم السياسى واسترداد الكرامة القومية. كمـا أن ملف العراق ينتهى وتنتهى معه حدى القضايا الشائكة والتى تمثل مصدرا مهما للحرج والصراع الدولى فى المنطقة. أما من الناحية الاقتصادية فالمرجح أن يبدأ العراق فى الازدهار الاقتصادى ويبدأ الطلب على العمالة المصرية فى الارتفـاع وهو ما يوفر فرص عمالة كبيرة ودخلا اضافيا.

ولكن تلك النتائج لا تحقق لمصر مكانة أفضـل. وهنـاك أيضا نتائج مرجحة قد تكون أسوأ. فالأزمة ايا كانت نتيجتها تقود العالم العربى الى الانفراط التام. وهو ما نعجز معه عن أن نبنى مجالا للنفوذ الاقليمى. وكذلك اذا انتصرت أمريكـا عسكريا وسياسيا وهو أمر مرجح فانها لـن تكـون مدينـة بالكثير لمصر وقد تتجنبها كحليف اقليمى. وفضلا عن ذلـك فالأزمات قد لا تنتهى عند هذا الحد. فكمـا هـو معـروف

تستهدف الادارة الأمريكية إحداث تغييـرات جوهريـة فـى سياسات المنطقة وهو ما يفضى الى أزمات مستقبلية كثيـرة وجميعها يتضمن ضغوطا شديدة على الحكومة المصرية وقد يقود الى الطعن فى شرعية النظـام شـعبيا اذا لـم يتصـد للأمريكيين بطريقة مقنعة للرأى العام.

ونستنتج من ذلك أن تعظيم المكاسب المحتملـة يتطلـب تحركات مصرية قوية.

ومن الناحية المنطقية قد تتخذ معادلة تعظيم المصالح أحد نماذج ثلاثة للتحرك المصري حيال الأزمة الحالية. النموذج الأول يقوم على المخاطرة بحسم الموقـف المصـرى ضـد أمريكا. والنموذج الثانى يقوم على حسم الموقف المصـرى مع أمريكا. أما الثالث فيقوم على استمرار "سياسة التـوازن" ولكنه يسعى لتوازن ايجابى وديناميكى يغتنم الفرص الممكنة فى الأزمة الحالية من أجل تعظيم المكانة المصرية عالميـا. وسوف نتناول محتوى والنتائج الافتراضية لكل مـن هـذه النماذج الثلاثة.

١- الحسم ضد السياسة الأمريكية هو نموذج يـنهض على تبنى موقف قوى ضد العدوان الأمريكى على العراق وضد سياسات الادارة الحالية عموما فـى المنطقة ويقترب بمصر مـن سياسـات خارجيـة "ناصرية معدلة".

ونعنى هنا بالناصرية المعدلـة أن تتغيـر الاسـتراتيجية القومية لتضع مصر فى موقع قيادة اقليمية وعالمية لحركـة كاملة تطالب بنظام عـالمى جديـد يؤكـد علـى التعدديـة والديموقراطية والعدالة الدولية ويعزز سلطات الأمم المتحدة ويدخل اصلاحات كبرى بها لتمكينها من لعب الدور الأساسى فى القرار وفى السياسة الدوليـة. وفـى القلـب مـن هـذه الاستراتيجية يصبح تحقيق وحدة جادة بين الدول العربية هدفا ملحا ومسعى حثيثا.

من الناحية الاستراتيجية تقودنا هذه الاسـتراتيجية الـى مناهضة السياسة الأمريكية فى المنطقة وفى العالم وتحسـم موقف مصر من الأزمة الحالية لمصلحة العراق بطرق أكثر جذرية وقوة وهو ما ينقل العلاقة المصرية الأمريكية بصورة فورية الى مرحلة تأزم وربما خصومة.

ولا شك أن مثل هذه الاستراتجية تتضمن خسائر جسيمة. فمصر لن تخسر فقط المعونة الأمريكية ولكنها ستعود الـى علاقة صراعية مباشرة مع اسرائيل. وستبدأ مرحلة جديـدة من الصراعات الضارية بين "الأمة العربية" من ناحية وكـل من اسرائيل والولايات المتحدة من ناحية ثانية بما قد يتضمنه ذلك من حروب اقليمية جديدة تكون مصر طرفا مباشرا فيها والقيادة العربية لها.

بل ان تلك الاستراتيجية تقود الى تغيـرات كبـرى فـى السياسة العالمية والاقليميـة. فالهـدف الاسـتراتيجى لتلـك الاستراتجية هو ضرب القطبية الواحديـة وايقـاظ الـدول الكبرى الأخرى للتصدى للقطبية الواحدية والـتأكيد علـى ضرورة التعددية وعلى المبادىء الجديدة للعدالـة والسـلام الدوليين. أى أن الهدف هو "عالم جديد". أما على المسـتوى الاقليمى فالهدف هو استعادة مكانة مصـر القياديـة غيـر المنازعة فى العالم العربى وتوحيد قواه وصـفوفه واجبـار اسرائيل على الانسحاب من الأراضـى العربيـة المحتلـة وتغييرها من الداخل وتهميشـها فـى السياسـة الاقليميـة والعالمية.

هناك عدة عوامل تساعد على نجاح هـذه الاسـتراتيجية والحصول على عائد فورى.

فمقابل خسارة العلاقة الخاصة مع الولايـات المتحـدة أو الانتقال بها الى مرحلة خصومة هناك امكانية تظهـر لأول مرة للتحالف مع دول كبرى مهمة والحصول منها مجتمعـة على مستوى مشابه من المعونة العسكرية على الأقل وهـى فرنسا وروسيا وربما ألمانيا والصين.

بل أن العالم كله يتوق الى من يتحدى أمريكا ويعمل على الحد من احتكارها وغطرستها واذلالها للشـعوب الأخـرى. وقيام مصر بدور أساسى فى تعبئة الرأى العام العالمى وبناء تحالفات عالمية موازنة يمنح مصر مكانـة عالميـة كبـرى وبصورة فورية.

والأهم أن هذا التوجه يعزز شرعية النظام السياسى فـى الداخل بصورة فورية. كما أنه يمثل فرصة مثالية لاسـتعادة الانسجام الاجتماعى والتحرك لاعادة تعبئة الموارد من أجل تنمية أقوى وخاصة فى مجالات التكنولوجيا الحديثة. وهـذا النموذج يمنح مصر القدرة على تحريك العالم العربى كيفمـا تشاء تقريبا. فلن يكون بوسع أية دولة عربية أن تقول لا لأى

اقتراح معقول تنادى به مصر وإلا سقطت حكوماتها. فالرأى العام العربى متعطش لمن يقود العالم العربى والاسلامى للحد من التغول الأمريكى ومنح العالم العربى الشعور بالكرامـة والاحساس بالاتجاه والهدف وربما تحقيق شكل ما من أشكال الوحدة السياسية بل وربما العسكرية أيضا.

غير أن هذا النموذج ينطوى على مخـاطر ومخـاطرات مهولة. فاستعداء الأمريكيين فى هذه اللحظة قد يقـود الـى اسقاط الرئيس بوش وقد يقود على العكـس الـى مرحلـة عسكرة شاملة للولايات المتحدة بل قد يـدفعها الـى حـرب شاملة ضد المنطقة. والولايات المتحدة فـى هـذه اللحظـة جاهزه لهذا الاحتمال وذاك.

وليس من المستبعد أن تدفع المنطقة لسلسلة من الحـروب الدولية والاقليمية الجديدة تشارك فيها أمريكـا الـى جانـب اسرائيل. وبذلك قد لا تتمتع مصر بالمزايا التى تتيحها هـذه الاستراتيجية قبل أن تكون قد دفعت ثمنا كبيرا.

ومع ذلك فلا ينبغى أن نبالغ كثيرا فى مدى التكلفة أو الثمن المدفوع فى هذه الاستراتجية. فأولا قد تضطر البلاد لدفع هذا الثمن حتى لو لم تفعل شيئا. فالادارة الأمريكية الحالية تنـوى الضغط على مصر بأساليب شتى فى كل الأحوال وخاصة اذا انتصرت فى العراق بسهولة. وفى لحظة معينة قد تدفع أمريكا اسرائيل لحروب اقليمية تجر مصر جرا الى الحـرب دون أن تكون مستعدة أو راغبة. واذا لم تحسم مصر موقفها لمصلحة أمريكا بصورة قوية فى الأزمة الحاليـة والأزمـات المقبلـة فمصر ستخسر المعونة الأمريكية فى نهاية المطاف حتى لـو لم تناهض المواقف الأمريكية.

مصر معرضة لخسائر مهمة علـى مسـتوى علاقتهـا بأمريكا الحالية اذن. ولكنها مع ذلك قد لا تخسر أمريكا كلية اذا ما تمكنت من تصوير مواقفها فى اطـار تحـالف ضـد "سياسات محددة" تتبعها الادارة الحالية وعلى نحو يشمل قوى أمريكية. وبتعبير آخر تناهض مصر السياسات وليس الدولة الأمريكية. بل أنها تستطيع أن تبنى تحالفات من داخل أمريكا أيضا. وهذا هو ما نعنيه بالتعديل على الناصرية فى السياسة الخارجية. وهو أمر ممكن من خلال انتاج خطـاب عـالمى حازم ولكنه معتدل.

والواقع أنه مهما كان اعتدال الخطاب وذكـاء السياسـة الخارجية الذى يعكس هذه الناصرية المعدلة فانه يعنى فـى الجوهر الدخول فى مرحلة طويلة مـن الصـراع الأقليمـى والدولى وخاصة فيما يتعلق باسرائيل. واذا أخذت البلاد بهذا النموذج بما يتضمنه من مخاطرة فانهـا يجـب أن تسـعى لتحقيق هدف استراتيجى جوهرى وهو إلحاق هزيمة سياسية باسرائيل تعيدها الى الانكماش وتجبرها علـى التغيـر مـن الداخل والخارج وتحولها الى دولة "لكل مواطنيها" وتـواتى العمل على حل الصراع من خلال فكرة "دولة ثنائية القومية".

وقد لا تكون هذه المخاطرة أمرا سيئا حتى لو لم تتحقـق هذه الأهداف وذلك لسببين. الأول هو أن اسرائيل قد تفرض علينا هذا الاختيار فيما لو واصلت سياستها العدوانية الراهنة او أصرت على مواصلة مشروعها للتوسع بمـا فـى ذلـك فرض الحل الشارونى الذى يقول بدولة فلسطينية على ٤٢% من الأراضى الفلسطينية مع الاحتفاظ بالقدس وفرض فكـرة اتفاق مرحلى طويل المدى زمنيا. ولا يمكن لاسرائيل فرض هذا الحل الا اذا حسمت توازن القوى الاقليمى بالحرب ضد سوريا ولبنان وإهانة مصر وهو أمر يجرها الى حرب مـن

حيث لا تحتسب. فاذا كانت الحرب الاقليميـة حتميـة واذا كانت أمريكا ستقف بالضرورة مع اسرائيل فى هذه الحرب، فضلا عما تبتغيه لنفسها من مكاسب استراتيجية وثقافية فـى الأقليم العربى من خلال طائفة من الضغوط ستشمل مصـر بالضرورة فلماذا لا نمسك نحن بزمـام المبـادرة منتهـزين فرصة الادانة العالمية للسياسة الأمريكية نحو العراق.

ومن ناحية ثانية، فاذا كانت تلك هى الأوضاع الاقليميـة والدولية المحتملة فسوف تتكلف مصر كثيرا حتى لو لم تقـع حروب اقليمية. فربما يكون فرض موقف ممتد يقـوم علـى اللاسلم واللاحرب أسوأ فى نتائجه بعيدة المدى من حرب قد تصل الى حسم القضية الفلسطينية والصراع ضد اسـرائيل على المدى الوسيط وخاصة أن اسرائيل وأمريكـا الآن فـى أسوأ أحوالهما من الناحية السياسية والدبلوماسية الدولية.

وينعكس الأخذ بهذا النموذج على – بل قد يبـدأ بدايتـه السليمة من – الأزمة الحالية فيما يتعلق بالعراق. ويتطلـب ذلك تحركات مصرية معينة تشمل:

- تصعيد الخطاب السياسى على نحو واضح لطلب الانسحاب الفورى للقوات الأمريكية من العراق وتأييد حقه فى الدفاع عن نفسه ضد العدوان.
- تشكيل شىء مثل غرفة طوارىء عربية ودولية لمتابعة الموقف أولا بأول فيما يتعلق بالحرب ونتائجها العسكرية والسياسية.
- تقديم مساعدات للعراق ماليا وأقتصاديا.
- واذا هزم العراق تدعو مصر الشعب العراقى علنا لعدم الاعتراف بأى نتائج سياسية للحرب ومقاطعة أى نتائج تفرضها الولايات المتحدة وحجب الشرعية العربية والدولية عن أية حكومة عراقية تتشكل فى ظل الاحتلال الأمريكى.
- تشكيل تحالف عربى يقوم بالدعوة لحكومة منفى جديدة تعكس تشكيلة الشعب العراقى وأمانيه وتكون الحكومة الشرعية للعراق بعد انسحاب القوات الأمريكية.

٢- حسم الموقف المصرى لمصلحة أمريكا و"المعتدلين العرب".

وهو النموذج المناقض. وينهض هـذا النمـوذج علـى الوقوف بشدة ضد النظام العراقى الراهن وعقد "تحالف" مـع أمريكا فيما يخص ملف العراق وبوجه عام. ويسـتند هـذا النموذج على تحليل لاتجاه تطور العلاقات الدولية يقول بـأن أمريكا ستحسم لصالحها لا المعركة حول العراق وحده وانما معركة السيطرة على العالم لعقود مقبلة وأن مصر التـى لا تملك كثيرا من الأوراق لتغيير هذه التوازنـات يحسـن أن تكون الى جانب المنتصر. فالمعارضة الأوربية والروسـية والصينية ليست صلبه. وأوربا نفسها غير متحدة ولا تشـكل بالنسبة لمصر بديلا عن الولايات المتحدة فى أمور كثيـرة. واذا لم يكن من الممكن كسب العـراق أو العـالم العربـى فليحسن بنا أن نكسب أمريكا على الأقل. واذا كسبنا أمريكـا فقد نستطيع "تحييدها" تجاه الصراع العربـى الأسـرائيلى أو الكشف عن حقيقة أن مصر أهم لها استراتيجيا من اسـرائيل مرة أو مرات أخرى اضافية. وعندئذ قد تتمكن مصر مـن الحصول من أمريكا علـى التـزام قـوى بحـل للصـراع الفلسطينى الاسرائيلى يمكن أن يعيد لمصر شيئا من المكانـة المفقودة. كما قد تستطيع مصر أن تحصل من أمريكا علـى

التزام قوى باحداث ثورة اقتصادية بما يعوضها – فى المدى الطويل- عن فقدانها الشعبية والشرعية القيادية فـى العـالم العربى. وفضلا عن ذلك فمصر تستطيع مـن خـلال هـذا النموذج تمتين علاقاتها بالمعتدلين العرب وخاصة فى منطقة الخليج. كما قد تحصل على شىء من النفوذ فى عراق ما بعد صدام بما لذلك من ترجمة سياسية واقتصادية ايجابية.

وما يمكن اتخاذه من اجراءات لترجمة هذا النموذج هـو اتخاذ موقف اعلامى مضاد للنظام العراقى الراهن والـدعوة لسقوطة ومساعدة أمريكا بصورة ملموسـة فـى المحافـل السياسية الدولية وربما تقديم أشكال أقوى من الدعم السياسى والدبلوماسى أثناء مرحلة بناء عراق ما بعـد صـدام. وقـد يساعد على هذا الهدف أن تنشـر مصـر أو تـذيع علنـا محاولاتها للتوصل الى حلول مع العراق خلال الفتـرة ٨٦-٢٠٠٣ وهى الحلول التى أحبطها الرئيس صدام حسين.

هناك اذن حسابات مناسبة تواتى هذا النموذج. ولكن الواقع أن هذه الحسابات ليست كلها صحيحة. فأولا مصر تفقد نتيجة هذا الموقف أو النموذج ما بقى لها من هيبة أو مكانة سياسـية واستراتيجية لأن الرأى العم المصرى والعربى والعالمى ليس مستعدا وقد تصدمه أى سياسة مصرية تبدو متحيزة لأمريكـا فى الصراع الراهن. وقد يخسر النظام السياسى شرعيته فـى عيون الجماهير المصرية ذاتها. كما أنه لا قد يمكـن أن يـتم تحييد الموقف الأمريكى من اسرائيل لأنها شأن داخلى أمريكى أكثر منها حليفا إستراتيجيا. ومن ناحية أخـرى قـد لا تـأتى النتائج الاقتصادية بسرعة كافية – لو جاءت أصلا- لتعويض الخسارة فى الهيبة الاقليمية والمكانـة الأخلاقيـة والشـرعية الداخلية. وثانيا فان موقفا قويا لمصلحة أمريكـا و"المعتـدلين العرب" فى الأزمة الراهنة قد لا يمكـن اتخـاذه. فالمعركـة العسكرية فى طريقها للحسم ولا يبقى لمصر ما تفعله لترجمة هذا النموذج سوى التسويق السياسى للسياسة الأمريكية وهـو أمر ميئوس منه كلية تقريبا لا فى العالم العربى فحسـب بـل وفى العالم كله تقريبا. وفضلا عن ذلك فاذا تم حسم المعركـة حول العراق لصالح أمريكا فلن يكون لمصر سوى الفتات لأن العراق نفسه سيبتعد كثيرا عن العالم العربى بل قد تهيمن عليه من الداخل والخارج قوى غير عربية.

ويجب أن نتذكر أن الوضع الداخلى فى مصـر سـيكون سيئا جدا لمرحلة طويلة مقبلة وخاصة بعد أن أثبت العراقيون قدرتهم على الصمود العسكرى، وهو الأمر الذى اثار حماسة كبيرة لخوض معركة ضد الأمريكيين فى العالم العربى. ومن ناحية أخرى فان السياسة الأمريكية قد لا تسـتطيع ترجمـة انتصار عسكرى فيما لو نجح العراقيون فى مقاطعة نتـائج الحرب ورفضوا التعاون مع الاحتلال الأمريكى بأى شـكل وهو ما يؤدى الى مضاعفة الثقل النفسى للأزمـة بالنسـبة للأمريكيين.

ولهذه الأسباب لا يعد هذا النموذج اختيارا جادا أو منافسا للنموذج السابق أو للنموذج الذى يتم الأخذ به فعـلا ويمكـن التحسين عليه.

وبناء عليه ليس من الحكمة الأخذ بهذا النموذج فعلا رغم ما قد يترتب عليه من مكاسب على المدى الطويل. وقد يمكن ادماج بعض الأفكار المرتبطه بهذا النموذج فى اطار النموذج الذى تنتهجه مصر فعلا حتى الآن.

٣- التحسين على النموذج الراهن لتعظـيم المكاسـب المحتملة:

كما أشرنا، يقوم النموذج الراهن للإدارة المصرية للأزمة العراقية على "التوازن" أو الإمساك بالعصا مـن المنتصـف بهدف تقليل الخسائر المحتملة. وبتعبير أخر فجوهر السياسة الحالية هو التمسك بحد أدنى من المبادىء والتوجهات القومية المصرية دون الوصول الى قطيعة مع أمريكا أو الصـراع معها. ومن البديهى أن يتحرك هذا التوازن تبعا للظـروف. ففى مرحلة معينه بدت مصر وكأنها اقـرب الـى الموقـف الأمريكى أو السماح "بتمرير السياسة" الأمريكية دون مقاومة اقليمية أو عالمية كبرى. وفى مرحلة أخـرى تقـوم مصـر بالتشديد على جانب المبادىء العالمية والقومية الـى أقـرب نقطة ممكنة قبل الوصول الى قطيعة مع الولايـات المتحـدة معتمدة على أن الحرب ستكون قصيرة بما لا يقصر الأمـد الزمنى لمرحلة المجابهة وبما يسمح بالعودة الى المهادنة مع أمريكا أو الى نقطة أقرب اليها ومن ثم تقليل الخسائر.

ولكن كثرة المراوحة واحتمال تطويل أمد الأزمة اذا مـا قاوم العراقيون بشدة وحسم قد يقود الى انفلات التوازن الـى هذا الجانب أو ذاك وخاصة الى تزايد التوتر أو المجابهة مع أمريكا. وعندئذ تكون مصر قـد خسـرت أمريكـا دون أن تكسب شيئا فى العالم العربى أو فى العالم ككل.

ومع ذلك فانه من الممكن نظريا أن تحسن مصر كثيـرا على النموذج الراهن لادارة الأزمة بما يعظم المكاسب بدون اهدار الفكرة الأساسية فى هذا النموذج وهى فكرة "التوازن".

ويتوقف هذا التحسين على ادارة الأزمة بصورة يرى فيها الفرقاء المباشرون وغير المباشرين للصراع منفعة أو تحقيقا لمصلحة تبادلية فلا تخسر مصر أيهما وقد تكسب من أيهمـا أو من كليهما معا. ويمكن تحقيق ذلك كلما كان من الممكـن أن تقوم مصر بدور "الوسـاطة" الاقليميـة والعالميـة فـى التوصل الى حل وسط.

والحل الوسط الذى نعنيه هنا ليس شيئا ثابتا وانما متحركا مع تطور الأزمة عبر مراحلها المختلفة.

أ- ففى المرحلة الأولى للأزمة التى مرت فعلا وانتهت بالقيام بغزو العراق كان من الممكن لمصر أن تقوم مبكرا باتخاذ موقف دبلوماسـى وسياسـى أقـوى للوصول الى حل تفاوضى بين العراق من ناحيـة والولايات المتحدة من ناحية أخرى. كمـا أن هـذا التوجه أو التحرك السياسى كان من الممكن تفعيله فيما بين الولايات المتحدة والقوى الكبرى الأخرى وخاصة فرنسا وألمانيا وروسيا والصين.

والواقع أن مبادرة وساطة مبكرة وقبل أن تأخـذ الأزمـة مجراها العلنى كان يمكن أن تكون مفيدة حتى لـو فشـلت. وكان لابد من التحرك المبكر للتفاوض حول "صفقة شـاملة" بين الطرفين من خلال مفاوضات تبدأ مع أوربا والفـاعلين الاقليميين وخاصة السعودية والعراق للوصول الى حزمة من التنازلات العراقية ترضى الأمريكيين وتمنـع الحـرب ثـم اعلان جوانب من تلك الحزمـة قبـل الـذهاب بهـا الـى الأمريكيين الذين يصعب عليهم رفضـها علنـا أو الـذهاب للحرب بالرغم منها. فيكون العالم قد شهد لمصـر بمحاولـة قوية وجادة وتحصل مصر على عائد لمجرد قيامهـا بهـذه المحاولة الجادة من حيث المكانة الدولية والاقليمية ومن حيث تبرير أى تحول فى السياسة لو أن تلك المحاولة فشلت.

ب- أما أثناء المرحلة الراهنة والتى تقوم على الحسـم العسكرى فيمكن القيام بمحاولة سريعة للوساطة قبل الحسم الكامل. ورغم أن مصر صـارت ملتزمـة بقرارات مؤتمر القمة العربى فـى شـرم الشـيخ وقرارات الدورة التاسعة عشرة الاعتيادية الأخيرة والتى تملى الذهاب لمجلس الأمن ثم الجمعية العامة لمعالجة الأزمة العراقية، فان مصر يمكنها أن تبدأ مهمة وساطة سريعة قبل أن تتدهور الأمور سياسيا ودبلوماسيا وعسكريا.

ولكى تقوم مصر بتلك المبادرة للوساطة يجـب أن تبـدأ باستطلاع رأى القوى الكبرى الأخرى والأطراف الأضـعف فى التحالف الذى تقوده أمريكا وخاصة بريطانيا ثم تعلن عن هذه المبادرة قبل أن تذهب بهـا الـى الولايـات المتحـدة لمفاوضات سريعة ثم تذهب بها الى العراقيين فيما لو قبلـت أمريكيا من حيث المبدأ.

وتقوم هذه الوساطة أيضا على حزمـة متكاملـة تشـمل مكاسب لأمريكا سواء فى مجال أسلحة الـدمار الشـامل أو البترول العراقى أو التغيرات فى النظام السياسى فى العراق فى مقابل الانسحاب الأمريكى وعقد اتفاق دولى حول المسألة العراقية بجميع عناصرها.

ومن الواضح أن فرصة تحقيق "اختـراق" فـى الأزمـة بمبادرة مصرية قوية ليست كبيرة أثناء المرحلة الحالية التى تقوم على الحسم العسكرى. ومع ذلك فليس ذلك مسـتحيلا. فقد أظهرت النتائج العسكرية أن أمام أمريكا صعوبات كبيرة فى الحسم العسكرى المبكر بتكلفة سياسية وعسكرية معقولة. واذا سمحت طبيعة الصفقة أن تحتفظ أمريكا بمـاء وجههـا وتستطيع تصوير قبولها لتلك الصفقة كانتصار سياسى يمكن لتلك المبادرة أن تنجح. وسيكون من الممكن على الأرجح أن يصورها العراقيون كانتصار سياسى بدورهم علـى أسـاس أنهم سجلوا لأنفسهم أداء لا بأس به من الناحيـة العسـكرية وأنهم أفلتوا من الأحتلال.

وحتى إن لم تنجح تلك المبادرة فان التفاوض مع أطراف دولية مهمة بما فيها الولايا ت المتحدة سيكون له عائد ما من حيث المكانة والشرعية الداخلية والعربية. وفى الحد الأدنـى قد يبرر لمصر "تحريك التوازن" فى هذا الاتجاه أو ذاك دون أية خسارة لأنها تستطيع عندئذ أن تلوم الطرف الذى يرفض المبادرة.

والواقع أن نجاح مثل تلـك المبـادرة بالوسـاطة لـيس مستحيلا. فالعراق يكسب استقلاله وقد ينهـى مشـكلته مـع النظام الدولى. والولايات المتحدة ستقلل التكلفـة السياسـية والعسكرية للحرب وتحصل على مكاسب سياسية واقتصادية أقل مما تبتغيه من الحرب ولكنه قد يكون كافيا.

ج- أما فى المرحلة الثالثة من الأزمة وهى الوصـول الى الحسم العسكرى فقـد تنشـأ فـرص أخـرى للوساطة والتحركات الدبلوامسية المصرية. وثمـة نوعان من الفرص التى تتيح تحركات دبلوماسـية وسياسية فعالة لمصر: عالمى وعراقى.

فعلى المستوى العالمى قد تظهر فرصة معينة لقيام مصر باقتراح استعادة الوفاق الدولى والاقليمى حول قضية العراق.

فمن المتوقع أن تتمكن الولايات المتحدة والتحالف الـدول التابع لها أن تحقق انتصارا عسكريا رغم العثرات الحاليـة. ولكن الولايات المتحدة لن تكسب الحرب دون تكلفة سياسـية كبيرة. بل قد تتعمق المخاوف الدولية من السياسة الأمريكية الانفرادية والعدواني التى لا تحترم القانون الدولى أو حتـى حلفاءها الدوليين. ومن المحتم أن تحاول الولايات المتحدة أن تقلل من هذا الانطباع أو من الانطباع بأنهـا فـى طريقهـا لاحتكار النفوذ على العراق على حساب حلفائهـا الـدوليين ولاقليميين. وسيكون لها مصلحة مؤكدة فى أن تقلـل تلـك التكلفة وخاصة بعد الأداء العسـكرى والسياسـى الأفضـل للعراقيين أثناء مرحلة الحرب. والمجتمع السياسى العراقـى سيخرج من الحرب مكلوما ومقسما ومتصدعا الى حـد مـا وسيقبل أى يد تساعده على التماسك مـن خـارج الاطـار الاحتلالى الأمريكى.

ومع ذلك، فالمبادرة الممكنة للسياسة المصرية اثناء هـذه المرحلة يجب ألا تمر على الأمريكيين أولا. بل يجب اعلانها بحيث يضطر الأمريكيون لقبولها أو يصعب عليهم رفضـها وتكون فى نفس الوقت مفيدة لهم من حيـث تقليـل التكلفـة السياسية التى سيدفعونها لقاء حربهم ضد العراق خارج اطار الشرعية الدولية.

والمبادرة السياسية والبلوماسية التى يقترح أن تقـوم بهـا مصر فور أن يتم انتصار عسكرى أمريكى تتمثل فى "الدعوة لمؤتمر دولى لحل المسألة العراقية". ويضم هذا المؤتمر القوى العالمية الكبرى الى جانب القوى الاقليمية الكبرى أو ممثلـين للاقليم العربى وممثلين أخرين لمختلف مناطق العـالم. ويـتم عقد هذا المؤتمر الدولى فى القاهرة بقدر الامكان على أسـاس أنها عاصمة الاقليم العربى مسيس الصلة بالمسألة العراقيـة. ويضطلع هذا المؤتمر ببحث المستقبل السياسى للعراق وأسس تكوين حكومة شرعية يتم بعد تكوينها سحب القوات الأمريكية من الأراضى العراقية وايجاد نظام سياسـى وأمنـى اقليمـى يضمن استقرار العراق وعدم تكرار الحروب والأزمات فـى منطقة الخليج المهمة للاقتصاد العالمى ويحقق توازن المصالح بين جميع القوى ذات الصلة فى الساحة العالمية.

وحتى لو لم تقبل هذه المبادرة فان طرحها واعلانها –بعد اتخاذ التدابير المناسبة دبوماسيا وسياسيا يضمن لمصر مكانة اقليمية سامية ويحقق لها عائدا سياسيا كبيرا. ولكن الشـرط الأساسى لهذا المكسب هو الإعـداد الفكـرى والدبلوماسـى والسياسى الجيد له حتى لا تظهر تلـك المبـادرة كتحـرك بهلوانى أو عديم المصداقية.

أما على المستوى العراقى فسيخرج العـراق مـن تلـك الحرب اذا وقعت هزيمته فى حال بالغ الخصوصـية. فلـن يكون من الممكن حرمانه من الشعور بالفخر القومى لادائـه المتميز فى تلك الحرب (حتى لو عانى مـن هزيمـة فـى النهاية). وقد يدفعه هذا الأداء وحصوله على تعاطف عالمى الى استمرار المقاومة بأساليب سياسـية أو عسـكرية ضـد التواجد الأمريكى فى العراق. ومن ناحية ثانية فـان دخـول المعارضة العراقية فى المنفى الى العـراق سـيمثل عـاملا جديدا فى السياسة العراقية وهو عامل لا يمكن تجاهله وإن لم يكن من الممكن قبوله تماما فى نفس الوقـت. فعديـد مـن العراقيين فى المنفى لهم نفوذ بين قبائلهم وطوائفهم السياسية. غير أن تحالفهم مع الولايات المتحدة فى الحرب ضد بلادهم ليس مقبولا وخاصة بالنسبة للسنة العراقيين الذين سـيكونون

الخاسر الأكبر من أية تسويات سياسية بعد الحرب الأمريكية. وحتى بين الشيعة العراقيين الذين يبدو أنهم فضلوا التعـاطى مع الحرب من خلال موقف وطنى وليس طائفيـا وسـاهموا بقوة فى المقاومة الباسلة للغزو الأمريكى لن يكون الموقـف المتواطىء مع الاحتلال أمرا مقبولا. ولكن الفرص الماثلـة لتمثيل أفضل لهم فى الصيغة السياسية الجديـدة لـن يمكـن رفضه حتى لو جاء نتيجة للغزو. بل أن الحسابات الكرديـة قد لا تخلو أيضا من تعقيدات كبيرة. فمـن المسـتحيل لهـم الحصول على دولة مستقلة فى الصيغة السياسـية الجديـدة سواء بسبب المعارضة التركية والايرانية أو بسبب حـرص الولايات المتحدة على عدم دفع العراق الى الانهيار كدولـة موحدة وهو ما يحملها مسئولية سياسية وأخلاقية أكبر عـن تدمير المجتمع والدولة العراقيـة. واذا بـالغ الأكـراد فـى مطالبهم الكلاسيكية وخاصة فيما يتعلق بكركوك فسـيدفعون العرب – شيعة وسنة- الى موقف عدائى منهم قـد تكـون تكلفته عالية على المدى الطويل. ويصح نفس الأمر بالنسـبة للمبالغة فى الظهور كحلفاء للأمريكيين فى مواجهة أخـوانهم العرب وخاصة اذا قرر الأخيرون تبنـى شـعار المقاومـة المستمرة سياسيا أو عسكريا.

وباختصار يقع المجتمع السياسى العراقى أسيرا لـ دوافع متعارضة. فإما أن يتصدع أو يجد من يساعده على التـأقلم السريع بما يحقق له الحد الأدنى من أمانية ويحفظ له وحدته من خلال صيغة سياسية ونفسية جديدة.

والواقع أن مصر يمكن أن تقوم بهذا الدور سواء وحـدها او بالتعاون مع أطراف أخرى دولية واقليميـة. صـحيح أن مصر لم يكن لها اتصال قوى مباشر بأية قوى محليـة فـى العراق سواء من الداخل أو الخارج مثلما سعت دول عربية أخرى وخاصة السعودية وسوريا. إلا أن ذلـك قـد ينفعهـا كوسيط محتمل بين العراقيين أنفسهم. فمن الواضح أنها ليس لها أطماع فى العراق. ومن الواضح أيضا أنها ليسـت مـع طرف ضد طرف سـواء بـالمعنى الطـائفى أو المـذهبى والسياسى مثل حالتى السعودية وسوريا. وهى بـالرغم مـن كونها القوة العربية الأكبر. فهى لا تستفز الشـعب العراقـى بأية صورة من الصور وخاصة بعد مرحلة صدام حسـين. ومن المعروف أن العراقيين يشعرون بالتفوق نحو السعودية ولن يشعروا بالراحة تجاه قيامهـا بهـذا الـدور. كمـا أن السعودية ستسبب خوفا وقلقا بين الشيعة. وهى مكروهة بين

غالبية المعارضين فى الخارج. أما سوريا فهى مقبولة بدرجة أكبر فى العراق ولكنها قد لا تكون متوازنة مذهبيا وطائفيـا وقد لا تكون كذلك مقبولة أمريكيا. ولهذا كله فان قيام مصر بمبادرة قوية للمصالحة العراقية قد يجد قبولا أقوى مما لـو قامت قوى أخرى بهذه المبادرة.

وفى نفس الوقت فلو أن الأمريكيين وجدوا مصاعب كبيرة فى ترتيب الوضع السياسى فـى العـراق بعـد انتصـارهم العسكرى فسوف يحتاجون إلى قوة اقليمية كبيرة تسـاعدهم على الأقل فى تأمين شكل مقبول لتجنـب الانجـرار الـى "مستنقع عراقى" سواء كان ذلك بمعنى المقاومة السياسية بما فيها من تكلفة كبيرة أو بمعنى السياسات المذهبية والطائفيـة والتى لا يخلو منها الوضع العراقى وبصفة أخص فى مرحلة ما بعد صدام حسين. وبهذا المعنى قد يقبلون مبادرة مصرية للوساطة بين العراقيين تطرح عليهم حـلا مقبـولا بالنسـبة للتسوية السياسية بعد الحرب.

والمبادرة التى نقترحها هنا قد تأخذ شكل الدعوة لمـؤتمر سياسى لأطراف المجتمع العراقى لبحث المستقبل السياسـى بعد نهاية الحرب الأمريكية. ونعنى بذلك بحث قضايا كثيـرة مثل الشكل الدستورى والسياسى للدولـة العراقيـة وقضـية انسحاب القوات الأمريكية وطبيعة الاتفاق أو الصـفقة التـى تؤمن هذا الانسحاب.

والواقع انه رغم مقبولية مصر بالنسبة لفرقاء (أو شركاء) الوضع الداخلى العراقى فانها قد لا تملك أوراقا كافية لجعـل هذه الدعوة ممكنة أو فعالة سياسيا. وقـد تضـطر مصـر لإشراك قوى أخرى فى مثل تلك المبادرة. فعلى المسـتوى الاقليمى قد يتحتم اشراك السعودية وسوريا وايران. وعلـى المستوى الدولى يتحتم اشراك الفرنسيين والألمان والـروس والصينيين، وجميعهم لهم تراث تقليـدى (أو شـرعية) مـع العراق والعراقيين. وقد تتعامل مصر مع الولايات المتحـدة إما كطرف مباشر فى المسألة أو تبقيها خارجهـا وبمسـافة محسوبة نظرا لعنصر الاستفزاز من وضعها كدولة احتلال. ومن المحتم فى كل الأحوال أن تكون الصفقة الممكنة مقبولة أمريكيا.

ولابد أن تتم مشاورات مبكرة وسرية حـول مثـل هـذه المبادرة مع بعض الأطراف ذات المصلحة وخاصة ألمانيـا وفرنسا اللتين يمكن الوثوق بهما فى هذه الظروف قبـل أن نخرج بها الى الأطراف العراقية والى الادارة الأمريكية.

كلمات ختامية:

١- لا شك أن على مصر أن تتحرك بسرعة وأن تقوم "بالواجب المنزلى" فيما يتعلـق بآفـاق تحركاتهـا المقبلة أيا كانت الاختيارات التى ستأخذ بها. ويعنى ذلك القيام بدراسات معمقة وسريعة لكل من هـذه الاختيارات والتحركات المناسبة لكل اختيار. ويحتم ذلك أن الأوراق المصرية محدودة موضوعيا فـى كل الحالات بينما المصالح القومية سـواء كانـت خسائر أو مكاسب محتملة كبيرة جدا فيمـا يتعلـق بهذا الملـف الشـائك أو بالاسـتقطابات الدوليـة والاقليمية. ولابد من اجراء حسـابات أدق كثيـرا واعداد تحركات أكثر دقة بكثير مما ورد فى هـذه الورقة المختصرة.

٢- يجب أيضا أن ندرك أنه لا توجد سياسة أو اختيار استراتيجى لا يتضمن عنصر المخـاطرة. فحتـى الدول الكبرى تخاطر بالرغم مما تملكه مـن قـوة وموارد. وبهذا المعنى لا توجد سياسة تؤمن مصر تماما من الخسارة فى عالم متغير ومتحول بصورة دائمة. والاختيار الأسوأ دائما هو عدم القيام بشىء ظنا أن ذلك هو الأمان من المخاطر أو المخاطرة.

٣- يبقى مـع ذلـك حقيقـة أن الأوضـاع الداخليـة والخارجية وطبيعة الظروف القوميـة المصـرية اقتصاديا وعسـكريا صـعبة للغايـة وأن تكلفـة المخاطرة بالنسبة لها أعلى كثيرا ممـن يملكـون أوضاعا أو ظروفا أفضل. ولهذا السـبب يفضـل الأخذ بالنموذج الأخير لادارة الأزمة الحاليـة: أى استمرار حد أدنى من التوازن مع محاولة تعظـيم المكاسب من خلال اداء سياسى ودبلوماسى غايـة فى الدقة والنشاط وحسن الاعداد.

٤- ومع ذلك فان الدراسة الدقيقة للأوضـاع الأفليميـة والدولية تنبهنا الى وجود احتمالات قوية لتعـرض مصر داخليا وخارجيا لضغوط من شأنها أن تجعل الأخذ أو الانتقال الى نموذج "ناصرى معدل" أمـرا محتما ويجب الاستعداد له ولو ذهنيا.

(١٢)
الأمل الباقى لانقاذ العراق

تتفق جميع التقديرات على أن قرار الحرب الأمريكية ضد العراق قد أتخذ بالفعل. وتتفق جميع التقديرات أيضا على أن النظام العربى فشل فى انقاذ العراق من حرب مدمرة.

ويبقى الأمل الوحيد فى حل دبلوماسى أو سياسى دولـى بيد الأعضاء الدائمين الآخرين بمجلس الأمن الذين يستندون على رأى عام قوى ببلادهم يـرفض العـدوان الأمريكـى المرتقب ضد العراق.

ولكن التقديرات هنا أيضا غير متفائلة.

فالولايات المتحدة أعلنت عن عزمها على شـن الحـرب سواء صدر أو لم يصدر قرار من مجلس الأمـن. وليسـت هناك شكوك تذكر فى أنها تقصد ما تقوله.

ويشكل هذا الاعلام ضغطا شديدا علـى الـدول الدائمـة العضوية فى مجلس الأمن التى لا زالت تـرفض العـدوان الأمريكى على العراق. فهى أن واصلت معارضـتها حتـى اللحظة الأخيرة والتى تقترب بسرعة قد تخسر شيئين. أولهما هو المخاطرة بمستقبل الأمم المتحدة وعضويتها الدائمة فـى هذه المنظمة الدولية. فاذا ذهبت الادارة الأمريكية الحالية الى الحرب بدون قرار من مجلس الأمن ستكون الأمم المتحـدة بحكم الملغاة وقد لا تعيش طويلا بعد هذا القرار. بل الأرجح أن تنكمش مع الوقت وتموت وهو مصير مختلف قليلا عـن مصير عصبة الأمم التى انهارت بسبب الخلافات بين القوى الاستعمارية التى كانت تقترب بسرعة من الحرب العالميـة الثانية.

أما الشىء الثانى، فهو تلقـى هزيمـة سياسـية مقابـل انتصارها الدبلوماسى فيما لو أعاقت صدور قرار جديد مـن المجلس وقامت الولايات المتحدة مع ذلك بشن الحرب علـى العراق. فتحدى الولايات المتحدة للفيتو الذى قـد تسـتعمله فرنسا وربما روسيا والصين بالذهاب الى الحرب يعنى أنهـا لم تعد تعترف بأهمية فرنسا والدول الدائمة العضوية الأخرى

باعتبارها قوى كبرى. وسوف يتعين على فرنسـا وألمانيـا والصين وروسيا النظر فى مستقبلها السياسى والاسـتراتيجى على ضوء هذه النتيجة. ومن المستبعد أن تبدأ هـذه الـدول عملية بناء قطب جديد مواجه للولايات المتحدة لأنهـا مـن ناحية لا تملك قوة عسكرية كافية ولأنها من ناحية أخرى لن تكون على استعداد لدفع ثمن باهظ للغاية للوصول الى توازن فردى أو جماعى مع الولايات المتحدة بما يعنيه ذلـك مـن إحداث تعديلات شاملة فى سياساتها الخارجية والداخلية.

ولا يعنى ذلك أن الموقف المناقض سيكون اختيارا سهلا. فهى إن وافقت بنهاية المطاف على قرار الحرب الذى ترغب فيه أمريكا ستكون قد خضعت للابتزاز السياسى مرة تتلوهـا مرات وهو ما يعنى قبول وضع مهين وهامشى لهذه الـدول وللأمم المتحدة ذاتها فى المعترك الدولى.

وقد لا تقبل النخبة السياسية الفرنسـية أيـاً مـن هـاتين النتيجتين. ولذلك من المتوقع أن تزداد المفاوضات فى مجلس الأمن تعقيدا. وربما يقبل الجانبان فى اللحظات الأخيرة حلا وسطا يمنح أمريكا نوعا ما من التغطية الدولية دون أن يصل الى تفويضها بالحرب. وعلى سبيل المثال قد يكتفى هذا الحل

الوسط بادانة العراق لعدم تعاونه بما يكفى مع لجنة التفتيش. وقد يطور القرار الأمر قليلا بالحديث عن خرق مادى مـن جانب العراق للقرار ١٤٤١. فهذا الحل الوسط قـد تحتاجـه الادارة الأمريكية الراهنة حتى لا تتحمل مسـئولية توجيـه ضربة قاصمة للأمم المتحده فيما لو ذهبـت الـى الحـرب بدونه. ولا شك أنها ستستخدمه على الأقل لإقناع الرأى العام بها بأنها حصلت على تفويض ما من جانب الأمم المتحـدة. ومن المعروف أن الرأى العام الأمريكى يؤيد الحرب بشرط أن يصدر قرار من المنظمة الدولية وأن يعكس تعاونا ما مع الحلفاء الدوليين والاقليميين.

وهذا الحل الوسط قد يرضـى أيضـا فرنسـا وروسـيا والصين لأنه يجنبها مواجهة الولايـات المتحـدة مسـتقبلا بصورة مكشوفة وخارج الأمم المتحدة وهو ما ينقـذها مـن تكلفة إحداث تغيير جذرى فى توجهاتها الداخلية والخارجية. ويضاعف من إغراء هذا الحل الوسط أن الدول المعارضة لا تملك تأييد جميع أو حتى أغلبية الدول الأوربية وهو ما يعنى أن هذا الحل الوسط ضرورى لانقاذ مشروع الوحدة الأوربية أيضا. ولا شك أن هذا الحل الوسط يعنـى ابـتلاع إهانـة

حقيقية لأنه سيكون خضوعا لابتزاز أمريكـى ولكـن هـذا السيناريو ليس هو الوضع الأسوأ. فعلى الأقل تستطيع فرنسا وروسيا والصين أن تحافظ على قدر من احترام الرأى العام العالمى المعارض للحرب الأمريكية لأنهـا حاولـت منـع الحرب حتى لو أنها فشلت.

وباختصار، فان العراق لا يستطيع الاعتماد على الـدول الكبرى المعارضة للحرب ولا على مجلس الأمن. وهـو لا يستطيع الاعتماد كذلك على الرأى العام العالمى. فـالموقف الرائع الذى تبناه المجتمع المدنى العالمى يـوم ١٥ فبرايـر الحالى سيدخل التاريخ السياسى للبشرية من أعظـم أبوابـه. ولكنه ليس كافيا لمنع الادارة الأمريكية الحاليـة مـن شـن الحرب. بل ونذهب الى القول بأن معارضة غالبية من الرأى العام الأمريكى نفسه لم تكن لتكفـى للحيلولـة دون وقـوع الحرب فما بالنا وقد أظهرت سلسلة الاستطلاعات الأخيـرة للرأى العام الأمريكى أن مستوى التأييد للحـرب يزيـد ولا يقل.

الحل الدبلوماسى العالمى الرسمى وغير الرسمى لن ينقذ العراق من الحرب. وإن كان من الممكن أن يخفف ويلاتها. فالأرجح أن العسكرية الأمريكية لن تستخدم اسلوب القصف المطول للبنية الأساسية العراقية كما فعلت فى حـرب عـام ١٩٩١. وقد تضطر الادارة الأمريكية –بتـأثير المعارضـة الواسعة والعميقة للرأى العام العالمى ولجزء ليس هينا مـن الرأى العام الأمريكى للحرب- الى التعامل مع العراق بعـد الحرب بطريقة أفضل مما تعاملت مع أفغانستان مثلا.

إذا لم يكن من الممكن الاعتماد علـى حـل دبلوماسـى وسياسى عالمى أو اقليمى رسمى أو غير رسمى فمـا هـى اختيارات العراق.؟

هناك أربعة سيناريوهات أساسية، واحد منها قد يأتى من خارج النظام. ويتوقف الأمر على قرار الرئيس العراقى فينا يتعلق بالاختيارات الثلاثة الباقية.

من خارج النظام قد يأخذ الجيش العراقى الأمر بيده فيقوم بانقلاب عسكرى يطيح بالرئيس العراقى مـن أجـل إنقـاذ العراق وانقاذ نفسه من حرب غير متكافئة قد تؤدى لانهياره وتدمير العراق فى الوقت نفسه. ولقد تمنـت قـوى أقليميـة

ودولية عديدة منذ عام ١٩٩١ أن ينبثق هذا الحل لأنه يحافظ على الدولة العراقية بدون تغيير النظام السياسـى باعتبـاره أفضل بديل بالنسبه لها. ولكن من المشكوك فيـه للغايـة أن يكون هذا الحل ممكنا وأن يكـون فـى مصـلحة الشـعب العراقى.

فإحداث تغيير بسيط فى القمة لن يرضى تطلعات ومطالب الأكراد والشيعة العراقيين وقد لا يفضى الى تأسـيس نظـام ديموقراطى بل قد ينتهى الى حرب أهلية.

أما بالنسبة لاختيارات النظام العراقى فيأتى علـى قمتهـا حتى الآن الاستعداد العسكرى والسياسى للدفاع عـن الـبلاد والنظام فى حرب طويلة. المزية الأساسية لهذا الاختيار هـو الجانب المعنوى البحت. فليس من المستبعد أن يكون يتركـز فكر الرئيس العراقى على كيفية دخول التاريخ باعتباره أحـد الذين واجهوا القوة العظمى الوحيدة التى تخشاها أكبر القوى فى العالم. وقد يسجل العراق كبلد لنفسه أيضا شرف الـدفاع بكرامة وبسالة عن بنفسه فى وجه الة الحـرب الأمريكيـة القاتلة اذا حارب الجيش العراقى بما يسجل له فعلا الفخـار القومى وبما يمليه الشرف المهنى. ولو وقع ذلـك سـتكون الولايات المتحدة قد هزمت اخلاقيا هزيمة كاملة.

غير أن قليلين جدا من الخبراء هـم مـن يتوقعـون أن يحارب الجيش العراقى وقادته هذا النوع من الحرب المشرفة التى تدخل قادته الى التاريخ والى قلوب قطـاع كبيـر مـن الشعوب المغلوبة على أمرها فـى العـالم العربـى وأسـيا وأفريقيا. وفى تقديرى أن من المشـروع تمامـا أن تتعلـق الشعوب بهذا الأمل فى أن يسجل العراقيون هذا الفخار بـأن يخوضوا فعلا حربا مشرفة عسكريا وسياسيا بعد أن فرضت عليهم بعمل من أشد أعمال العدوان قسـوة وغطرسـة فـى التاريخ. ومع ذلك فإن من واجب أى خبير يحترم نفسه مـن أن يحذر من أن الأداء فى عام ١٩٩١ عندما كـان العـراق أفضل حالا لم يكن مشرفا بحال وهو ما ضاعف من خيبـة أمل الذين راهنوا على هذا الاختيار. كما أن من ينصـحون العراق بهذا الاختيار يخاطرون بتدمير العراق والحصول فى نفس الوقت على إهانه أخرى قد تكـون أشـد وطـأة مـن الاختيارات الأخرى.

ثمة اختيار آخر وهو أن يقوم الرئيس العراقـى بارادتـه بتسليم الحكم لواحد أو مجموعة من القادة العسكريين الـذين يعرضون على الولايات المتحدة الحصول على كل ما ترغبه سواء فيما يتعلق بقضية أسـلحة الـدمار أو بالاصـلاحات السياسية. ويتفق هذا الاختيار مع ما أعلنته الولايات المتحدة من قبول استقالة الرئيس صدام حسين وذهابه مع عـدد لـم تحدده من مساعديه الكبار الى المنفى. وهو يمتاز أيضا بأنه قد يرضى القوى الاقليمية المهمة لأنه قد يحافظ علـى قـدر كبير من المعادلة السياسية والسكانية السائدة.. وبينما سيكون من المحتم على الحكام الجدد أن يفاوضوا المعارضة حـول إصلاحات جوهرية فقد يضمن على الأقل عملية انتقال سلمية وتدرجية. هذا الاختيار قد لا يضمن تماما انقاذ العراق مـن الحرب لأن الولايات المتحدة قد تعتبر هذا التغيير السياسـى غير كاف، إلا اذا ضمن لها هيمنة شبه كاملة على العـراق ولكنه يجعل اتخاذ قرار بالحرب أمـرا محفوفـا بمشـكلات سياسية لا حد لها سواء فى المستوى العالمى أو على الصعيد الداخلى.

ثمة اختيار أخير قد يتخذه الرئيس العراقى وهو فتح عملية سياسية واسعة النطاق تطلق دينامية سياسية جديدة من شأنها قطع الطريق على الحرب. هذا الاختيار يشمل أيضا استقالة طوعية من جانب الرئيس العراقى وعدد كبير من مساعديه، ولكنه لا يسلم الحكم لعسكريين وانما لحكومة مدنية انتقاليـة تدعو جميعة تأسيسية لوضع دستور جديـد للـبلاد يعقبهـا انتخابات حرة وباشراف دولى على أسس تعددية حزبية. بل قد تذهب هذه الحكومة الانتقالية بنفسها الى الأمـم المتحـدة طالبة اشرافها على تلك العملية بما يضمن وقف آلة الحـرب الأمريكية ودعوة المعارضة للمشاركة فى ادارة شئون البلاد بصورة منضبطة سياسيا ودستوريا بالعمل بصـورة سـلمية كأحزاب سياسية تخوض انتخابات حرة. ويمتاز هذا الاختيار بأنه الأكثر قدرة على ضمان انتقـال سـلمى مـن الـداخل والخارج. كما أنه الطريـق الأقصـر للمصـالحة الوطنيـة وللديموقراطية. ولكن يعيب هذا الحل أنه أقل أرجحيـة مـن الاختيار السابق. فالرئيس العراقى لن يـذهب الـى البـديل الديموقراطى قبل أن يجرب الاختيار الذى يتفق أكثـر مـع ذهنيته.

الاختياران الأخيران يشملان تنـازل الـرئيس العراقـى طوعيا عن السلطة وايجاد صيغة لتأمين حياته مـع عائلتـه وعدد من مساعديه. وهذا هو ما يجعـل احتمالهـا ضـئيلا للغاية. فكما يعرف الجميع ليس فى شخصية الرئيس العراقى ما ينبىء بامكانية تنازله عن السلطة طوعيا لانقاذ العراق من الدمار الشامل. يقول البعض أن تنازله الارادى قـد يحمـى حياته. ولكنهم يتجاهلون بقية عناصر الحسـاب السياسـى. فالرئيس العراقى يدرك تماما أن الأمريكيين سوف يلاحقونه حيثما يذهب. والى جانب ذلك لا يمكـن اسـتبعاد العنصـر المعنوى فى هذا الحساب. فرجل عاش حياته بذهنية "قاتل أو مقتول" وساعدته هذه العقليـة علـى الافـلات مـن أكثـر الصراعات ضراوة يفضل ألف مرة أن يخوض المعركة ولو كانت لديه فرصة واحد من الألف للافلات، عـن أن يعـيش مطاردا فى المنافى دون أى قوة أو ضمان.

ولا يكفى أن نقول أن هذا الاحتيار هو الأمل الأخير. بل يجب أن نعمل بسرعة من أجله. فهو الأمل الوحيد فى انقـاذ العراق من الدمار وربما يكون الانقاذ الأخير مـن الاهانـه أيضا. فهو فى نهاية المطاف انتصار للبشرية وللأمم المتحدة وللعرب أيضا سواء ضد حزب الحرب والامبراطورية فـى أمريكا أو ضد تراث طويل من الاستبداد واللاعقلانية.

(١٤)

هل المبادرة الإماراتية أمريكية الهوى؟

يردد البعض أن المبادرات التي أطلقها عدد من المثقفـين والمنظمات المدنية العربيـة لتفـادى العـدوان والاحـتلال الأمريكي للعراق وتلك التي أطلقتهـا الإمـارات، أمريكيـة المنشأ والهوى.

تقول تلك المبادرات أن إنقاذ العـراق أصـبح مرهونـا بخطوة أخيرة هي تنحى الرئيس العراقي عن السلطة ووضع العراق على طريق الانتقال السلمي إلى الديموقراطية تحـت إشراف الأمم المتحدة والجامعة العربية.

ركزت بعض الانتقادات على تعبير التنحي منتقدة اكتفـاء بعض المبادرات الأولى بهذا التعبير. والواقـع أن أحـدا لا يتصور إمكانية اختزال حل النزاع حول العراق أو تسـوية القضية العراقية في الجانب السلبي مـن الموضـوع وهـو التنحي. فالبديهي هو أولا أن يكون التنحـي بدايـة لعمليـة سياسية سريعة لانتقال العراق إلى الديموقراطية عبر فتـرة انتقالية تضمن استقرار النظام العام وتؤمن عملية الانتقـال.

وخلال الفترة الانتقالية يتم تسليم وظائف وسلطات الحكم إلى حكومة انتقالية قادرة على ضمان النظام العام وخاصـة لـو شكلت من عسكريين كبار غير حزبيين. وتقوم هذه الحكومة بطائفة من التدابير الانتقالية الحتمية والضرورية للانتقال إلى نظام ديموقراطي جديد مثل إعلان العفو العام ودعوة كافـة قوى المعارضة للعودة إلى البلاد وتشكيل أحزاب سياسـية، وربما ضم بعض رموزها إلى حكومة انتقالية موسعة ووضع جدول زمني للانتقال الديموقراطي. ويشـمل هـذا الجـدول مواعيد محددة وقريبة زمنيا لانتخاب جمعية تأسيسية تضـع دستورا ديموقراطيا للبلاد واستفتاء الشعب عليه ثم انتخـاب حكومة جديدة تستلم مقاليد السلطة من الحكومة الانتقالية فـي انتخابات عامة حرة نزيهة بإشراف الأمم المتحـدة وجامعـة الدول العربية ومنظمات مدنية دولية ذات سمعة طيبة.

ومن البديهي ثانيا أن تتم تلك العملية في إطار تفاهم دولي وعربي يضمن علنا التزام الولايات المتحدة بالامتنـاع عـن انتهاز فرصة تنحى الرئيس العراقي للعدوان على العراق ثم إبعاد وسحب القوات الأمريكية من المنطقة.

أما الانتقاد الأهم، فهو أن هذه المبادرة تمثـل إذعانـا أو تراجعا وخضوعا للتهديدات الأمريكية. ويذهب بعضهم بهذا النقد إلى حد القول بأن تلك المبادرة هي إملاء أمريكي يشيعه بعض المثقفين أو الحكام الموالون لأمريكا.

والواقع أن هذا النقد يجب أن يقال وأن يردد. فلا غبـار في ذلك. فنحن نعيش لحظة من تاريخنا تحتـاج إلـى كـل وجهات النظر والى كل الآراء وكل التقـديرات والأفكـار. فليس هناك مناعة حقيقية من الخطأ الجماعي فـي التقـدير سوى التعددية الفكرية والسياسية والتـدافع بـين المـدارس والمداخل المطروحة لحل أى من قضايانا الصعبة.

ومع ذلك فالنقد الذي يتهم تلك المبـادرة بأنهـا أمريكيـة المنشأ والهوى لا يصمد أمام المناقشة والتحليل والمعلومات. فقد ناضل عشرات بل ومئات من المفكرين العرب من أجـل التوصل إلى حل ديموقراطي للمسألة العراقية منذ نهاية أزمة الخليج الثانية. وهنا قد أطلب شهادة عدد كبير من المثقفـين العرب الذين حضروا مؤتمرا فكريا نظمه مركـز دراسـات الوحدة العربية الذي يديره المفكر العربي القدير الدكتور خير الدين حسيب (عراقي الجنسية وناصري التوجه) بعـد نحـو

شهرين من هزيمة العراق عام ١٩٩١. ففي هـذا المـؤتمر تقدمت ببحث يوصى بمبادرة عربيـة تعفـى العـراق مـن تعويضات الحرب وتعيده إلـى الحيـاة السياسـية العربيـة والدولية وتوقف تطبيق العرب للعقوبات الدولية المفروضـة على العراق وفقا لقرارات مجلس الأمن مقابل تنحى الرئيس العراقي والانتقال إلى نظام ديموقراطي وعقد اتفاق دائم بين العراق والكويت. والأمر المهم في هذه الدعوة كان يتمثل في الحاجة الملحة لإعادة استلام زمام المبادرة عربيا فيما يتعلق بالمسألة العراقية وإلا تصبح احتكارا أمريكيا وهو ما يهـدد بحرب جديدة لأن جميع العناصر الأساسية لالتهاب الأزمة لا تزال قائمة. ولم يقبل سوى قليلين هذا المنطق في ذلك الوقت من عام ١٩٩١. وكانت هناك أفكار مماثلة من جانب عـدد آخر من المثقفين والمفكرين العرب.

أما فيما يتصل بالأزمة الحالية فقـد اعتبـرت الولايـات المتحدة أن "تغيير النظام العراقي" يشكل هدفا لموقفهـا مـن الأزمة منذ يناير من العام الماضي. واكتسب هـذا الهـدف أولوية في الخطاب الرسمي الأمريكي خلال شهور الصيف. وقد دفع هذا القول عددا كبيرا من أبرز الساسة الأمـريكيين

لتحذير الإدارة من إبراز هذا الهدف ودعوتها إلى التركيـز على ما يتفق مع الشرعية الدولية: أي إجبار العـراق علـى التطبيق الكامل للقرار ٦٨٧.

صحيح إذن أن الإدارة الأمريكية وضعت "تغيير النظـام العراقي" كأحد أهم أهداف سياستها نحو الأزمة المستجدة التي أثارتها منذ عام تقريبا مع العراق. ومن ذلك قد يبدو شـكليا أن النقد الموجه إلى المبادرة الإماراتيـة أو المبـادرة التـي أطلقها مركز القاهرة لحقوق الإنسان بنفس المحتوى تقريبـا وكأنه صحيح من حيث الوقائع التاريخية. ولكن حقيقة الأمر غير ذلك تماما. فالأمريكيون لم يتصوروا تحقيق هذا الهدف إلا من خلال العدوان على العراق أو باستخدام القـوة. أمـا فكرة التنحي الطوعي كما طرحت في إطار مسـاعي حـل الأزمة الراهنة فقد صدرت بصورة غير رسمية عن مفكرين روس وسريعا ما تلقاها رئيس الوزراء التركي الذي يبدو أنه طرحها على عدد من الحكومات العربية التي لم توافق على الاقتراح. والهدف من المبادرة هو إيجـاد طريقـة لتجنـب الحرب- وهو ما يبعد بها تماما عـن الهـوى الأمريكـي- وتكون في نفس الوقت لصالح الشعب العراقي سياسيا.

أما رد الفعل الأمريكي للفكرة فكان مرتبكا فـي البدايـة. فالفكرة تقتضي في التنفيذ أن تقدم الولايات المتحدة ضمانات بعدم ملاحقة الرئيس العراقي ورفاقه القـريبين سياسـيا أو قضائيا. وحول هذه القضية اختلف المسئولون الأمريكيـون كما أنهم أكدوا جميعا عدم واقعيتها وهو ما أعفاهم من بحثها كاحتمال جدي ربما حتى أيام قليلة خلت.

معنى ذلك أن الفكرة ليست أمريكية المنشـأ. فهل هي أمريكية الهوى؟ :

دعنا من النوايا، فالله وحده أعلم بها. ولنناقش الموضـوع من زاوية المصالح التي تخدمها تلك المبادرة والسؤال هـو: هل المبادرة تخدم أكثر المصالح الأمريكية بالمقارنة بسيناريو الحرب.

يقول المنطق ما هو عكس ذلك تماما. فالمبـادرة تخـدم المصالح العربية دون أن تقدم لأمريكا تنـازلات مبدئيـة أو هيكلية.

إذ تتجنب المبادرة الإماراتية غزو واحتلال العراق وبقاء القوات الأمريكية هناك لفترة لا يعلمها إلا الله. وفـى حالـة الغزو والاحتلال قد يذهب الأمريكيون يوما ما ولكن بشـرط توقيع الحكومة المقبلة على اتفاق استراتيجي يعطـيهم حـق العودة وقتما شاءوا كما فعلوا مع دول الخليج الصغيرة فـي أعقاب حرب عام ١٩٩١. فكأنهم لن يذهبوا أبدا فيما لو قاموا باحتلال العراق بالقوة.

وتتجنب المبادرة الإماراتية ما تتضمنه الهزيمة العسكرية من إذلال ومهانة قومية للعراقيين وللعرب وخاصة فيما لـو كان الأداء العسكري العراقي في الحرب المقبلة على درجـة السوء نفسها التي ميزته في حرب عام ١٩٩١، وهـو أمـر مرجح بشهادة معظم العسكريين المحترفين.

وبحرمان الولايات المتحدة من إمكانية التواجد العسـكري المباشر في العراق يتم أيضا تفادى إمكانيـة اسـتخدام هـذا التواجد لتوسيع نطاق الضربة العسكرية لتشمل بلادا عربيـة أو غير عربية أخرى وابتزاز معظم دول المنطقة.

كما تتجنب المبادرة الإماراتية إحداث انقلاب كامل في موازين القوى الداخلية على المستويين السياسي والطائفي. فسيناريو الغزو يفضي بالضرورة إلى انهيار دور السنة في النظام السياسي العراقي التالي مقابل صعود نفوذ الشيعة والأكراد. فالانتقال الطوعي والسلمي إلى الديموقراطية بمبادرة من حكومة تستند أساسا على الدور الغالب للسنة سوف يمنح الأكراد دورا أكبر في الحكومة المركزية وربما حكما ذاتيا موسعا. كما سيمنح الشيعة تمثيلا أقوى بالمقارنة بالوضع القائم. ولكنه سيحافظ للسنة على دور كبير في الحكومة الديموقراطية المقبلة. وهو بذلك يضمن انتقالا تدرجيا من عصر احتكار السلطة إلى توزيع أفضل لها دون انقلابات أو تصدعات حادة على الأقل بالمقارنة بسيناريو الحرب.

وعلى المستوى السياسي، فالتحول الذاتي إلى نظام ديموقراطي يضمن فرصا متساوية لكافة التشكيلات والأحزاب السياسية العراقية بما فيها حزب البعث. بينما يرجح أن يتم تفكيك هذا الحزب في حالة قيام أمريكا بغزو العراق مقابل توسع الأحزاب المعارضة وخاصة تلك التي تنتمي إلى الأغلبية الشيعية.

والمبادرة الإماراتية تضمن أيضا بقاء العراق في المحيط العربي. وبالمقابل سوف تميل حكومة جاءت بفضل الغـزو إلى مملأه أمريكا والانصراف عن العالم العربي على النحو الذي شهدناه بالنسبة لحالة أفغانستان.

هل تخلو المبادرة الإماراتية أو مبادرات بعض المثقفـين العرب التي تحمل نفس المضمون تقريبـا مـن مشـكلات وعيوب؟ ليس هناك اختيار خال مـن العيـوب. فالانتقـال السلمي والإرادي للسلطة في ظل تهديدات أمريكية بـالغزو سوف يعطى الأمريكيين أشياء معينة لا يمكن تجنبها أيا كان السيناريو أو شكل التطور المستقبلي للعراق. فـلا شـك أن عملية نزع سلاح العراق ستتم بدرجة أكبـر مـن الفعاليـة لمصلحة الأمريكيين. كما أنه سيكون لأمريكا قدر أكبر مـن النفوذ السياسي المباشر وغير المباشر داخل العـراق علـى المدى القصير على الأقل. ولكن هناك فارقا كبيرا بين مـنح الأمريكيين قدرا معينا من النفوذ داخل العراق- أساسا مـن خلال دور قوى المعارضة المتحالفة معهم- وبين تمكينهم من الحصول على العراق كله في حالة الغزو والاحتلال. ويقلـل من أهمية هذا التنازل على المـدى البعيـد أن التشـكيلات

السياسية الكبرى في العراق لها رؤى ومصالح قد تتنـاقض مع الأمريكيين على المدى البعيد. ويصـدق ذلـك بالنسـبة للشيعة المتأثرين بالإيديولوجيا الخومينية مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وبالنسبة للشيوعيين المعادين تقليديا للهيمنة الأمريكية. بل ويصدق أيضا بالنسبة للأكراد الذين يتحسبون للتحالف الأمريكي التركي كما يتضح من الآن.

هناك أيضا عيب جوهري في النظام الديموقراطي نفسـه وهو أنه يحتاج إلى فترة طويلة من التعلم المباشر من خـلال تجربة الحرية. كما أن هذا النظام قد يقود في مرحلة أولـى إلى حالة عدم استقرار حكومي. بل وقد ينطـوي أيضـا - وخاصة في الحالة العراقية- على انفلات قوى تفكيكية. ولكن هذه العيوب المعروفة للديموقراطية في مجتمع مجزأ لا يحلها سوى تطور وانغراس الديموقراطية. وبتعبيـر آخـر فـان استمرار نظام تسلطي وبالغ العنف في العراق طيلـة هـذا المدى الزمني الطويل هو الذي قاد إلـى اسـتمرار تجـزؤ المجتمع العراقي وتكريس عوامل التفكـك الداخليـة فيـه. ونستطيع تقليل تلك العيوب من خـلال الضـمانات الدوليـة الماثلة في إشراف الأمم المتحدة والجامعة العربية.

قارن بنفسك أيها القارئ بين نتائج سيناريو الغزو الأمريكي من ناحية وسيناريو الانتقال الإرادي العراقي إلى الديموقراطية تحت إشراف الجامعة العربية والأمم المتحدة لتحكم بنفسك ما هو السيناريو الذي يحقق مصالح الأمريكيين، وما هو السيناريو الذي يحقق على نحو أفضل المصالح العربية.

وقد تعترض على المقارنة قائلا لماذا لا نركز على اختيار وحيد وهو النضال والعمل على مناهضة وإسقاط سيناريو الحرب من الأصل، فلا يضطر النظام العراقي إلى التنازل أمام التهديد الأمريكي بالحرب. وهذا الاعتراض وجيه. وبالمقابل نسأل القراء أن يفكروا بأنفسهم في الإجابة على السؤال التالي: هل يكفى أن يتحدث الأمريكيون عن الديموقراطية في العراق أو غير العراق لجعلها سيئة بالنسبة لنا ولتطورنا القومي بحيث نقوم برد فعل عكسي على كل ما يقوله الأمريكيون. ألم تحق بنا كل هذه الكوارث بسبب فقداننا الطويل للديموقراطية؟

ومن ناحية أخرى لماذا يعتقد أو يشيع البعض أن طلب الديموقراطية يقلل من نضالنا ضد الهيمنة الأمريكية؟ أليس الأقرب إلى المنطق هو العكس. فالنضال العالمي ضد الحرب ينشد في نفس الوقت نضالا عالميا ضد الاستبداد. لقد طرح حزب الله مبادرة مشابهة. فهل يقول المنطق أنه يشيع أفكارا أمريكية أم العكس؟

والمبادرات التي طرحتها مجموعات من المثقفين العرب لا تكتفي بالتوجه إلى الرئيس العراقي برجاء إنقاذ شعبه وبلاده من النتائج المدمرة للحرب بل تناضل أيضا ضد التهديد الأمريكي بالحرب ضد العراق. والموقف الذي يواجهنا يطرح في الواقع اختيارين فقط هما الحرب أو الانتقال السلمي التطوعي إلى الديموقراطية بالرغم من الرفض العالمي للحرب. فأي الاختيارين يحقق المصالح الأمريكية وأيهما يخدم أكثر المصالح العربية؟

اعتراض ثالث يقول أن هذا السـيناريو مسـتحيل لأنـه مرفوض من جانب الرئيس العراقي. وهذا الاعتراض أقرب إلى الصحة. ولكننا نناضل مثلا ضد الحرب رغـم أن هـذا النضال يائس في الوقت الحالي. والأهـم أن هنـاك أمثلـة تاريخية لهذا الاختيار. فقد تنازل نظام الأبارتهيد في جنـوب أفريقيا عن احتكار السلطة وتحول طوعيا إلى الديموقراطيـة لأن هذا الاختيار أفضل للبيض والأفارقة على السواء.

فقط هؤلاء الذين يكرهون الحرية للشـعوب هـم الـذين يشيعون أن المبادرة الإماراتية جاءت لخدمة أمريكـا لأنهـم يرغبون في استغلال المشاعر الشعبية المشروعة ضد الهيمنة والتحيز الأمريكي لإسرائيل وتحويل هذه المشاعر المشروعة إلى أسوأ اختيار ممكـن: أي نحـو العـداء للديموقراطيـة والحريات العامة في العراق وفى كل بلد عربي آخر.

(١٥)

أربعة سيناريوهات للحرب ضد العراق

التوحد القومى الواسع من أجل المقاومـة ضـد الغـزو الأنجلو أمريكى للعراق أطاح بفكرة نهاية أحاديـة للمسـار السياسى للحرب .

فلامناص من الاعتراف بأن الفكر السياسى العالمى حصر نفسه بتأثير القياس على حرب عام ١٩٩١ فى مسار واحـد: وهو انتصار عسكرى للتحالف الأنجلو أمريكـى. الآن ثمـة أربعة مسارات محتملة.

وربما نبدأ بالمسار الذى توقعته الغالبيـة السـاحقة مـن المراقبين. وفقا لهذا المسار يحقـق الأمريكيـون انتصـارا عسكريا سهلا ويتمكنون من تتويجه سياسيا من خلال صيغة حكم مواتية لهم. فتقوم حكومة مؤقتـة قـد يرأسـها أحـد العسكريين الذين يتمتعون ببعض الشعبية ويقبلون بالتعـاون مع الاحتلال ولو من زاوية انقاذ ما يمكن انقاذه. وتقوم هـذه الحكومة بالاعداد لدستور دائم ومن ثم تشكيل نظـام حكـم جديد.

تبدو الصورة الآن مختلفة حتـى اذا حقـق الأمريكيـون انتصارا عسكريا. فثمة مسار (أو سـيناريو) آخـر تمامـا. فالمقاومة الباسلة التى أبداها الشعب العراقـى لا يمكـن أن تخمد حتى لو تمكن الأمريكيون من كسب الحرب عسكريا- بعد خوض معارك جبـارة- بسـبب تفـوقهم التكنولـوجى والتسليحى. فقد يتمكن الشعب العراقى من الاسـتمرار فـى المقاومة إما بأشكال عسكرية أو بأشكال سياسية. فسوف تظل حرب العصابات أو حرب الأنصار ممكنة فى مناطق عديدة من العراق. والأهم أنه يمكن حرمان الأمريكيين من الآثـار السياسية لأى انتصار عسكرى قـد يحققونـه مـن خـلال المقاطعة الشعبية شبه الكاملـة للنتـائج السياسـية للحـرب والاحتلال حتى يدرك الأمريكيون أنه لا مستقبل لهـم فـى العراق فيرحلون غير مأسوف عليهم. وقد يجمـع الشـعب العراقى بين المقاومة العسكرية والمقاطعة السياسية. فيسـقط مشروع الغزو والاحتلال وكل مـا أراده الأمريكيـون مـن ورائهما فى الوحل. وقد يكفى ذلك تمامـا لإسـقاط اليمـين الأمريكى من الحكم وإحداث تغيرات كبرى فى التركيبة وفى الفكر السياسيين للولايات المتحدة وخاصة لو كان الانتصـار العسكرى مكلفا بشريا ومعنويا بدرجة كبيرة.

ثمة مسار ثالث وهو أن يحقق العراق انتصارا عسـكريا. ولا شك أن هذا السيناريو سوف يغير العـالم وقـد يسـقط حكومة بوش بسرعة خارقة وينهى تماما أسـطورة انفـراد أمريكا بالقوة. فرغم أن أمريكا تملك أكبر ترسانة عسـكرية وأكبر اقتصاد وأعظم قاعدة تكنولوجية فى العالم وفى تاريخ البشرية فقد لا يضمن لها هذا كله الانفـراد بـالقوة وقـد لا يضمن لها أى قوة اذا ما وجدت مقاومة حقيقيـة عسـكرية وسياسية وأخلاقية ومعنوية وثقافية بأكبر قليلا ممـا يحـدث الآن سواء فى الساحة العراقية أو فى الحيز الكونى .

غير أنه يجب ادراك أن مثل هذا السيناريو ليس محـتملا إلا عبر معجزة. فالمجتمع الأمريكى ليس جاهزا فى الحقبـة الراهنة لتلقى هزيمة عسكرية وسياسية كاملة مثلما حدث فى فيتنام مثلا. وحتى لو تصورنا أن تتم هزيمة الحملة العسكرية الحالية فالولايات المتحدة لن تسلم بهذه النتيجة. فالعسـكرية الأمريكية لن تقبل بتلك النتيجة حتـى لـو تمـت الضـحية بالديموقراطية الأمريكية فى انقلاب عسكرى. بل ولن يقبـل بها أغلبية الشعب الأمريكى حتى لو اسـتيقظ علـى حقيقـة الخداع المنظم الذى تعرض له طوال عام من الدعاية الفجـة

والحمقاء التى تولى الصهاينة واليمين المتطرف بأسره فـى هذه الادارة نشرها والترويج لها. وقد يسقط الرئيس الحـالى ولكن أى رئيس جديد سوف يواصل المعركة العسكرية حتى آخر مدى ممكن له عسكريا أو من ناحية السياسة الداخلية.

أما المسار الرابع والأخيـر فهـو أن يصـل الموقـف العسكرى الى نوع من التوازن أو "الحارة السد" لكـل مـن الطرفين. فلا تستطيع القوات الأمريكية اقتحام بغداد واسقاط نظام الحكم فى العراق ولكن لا يستطيع العراق أن يخلـص نفسه من الاحتلال عن طريق تصفية القوات الأمريكية التـى قد تحيط بعاصمته. هذا التوازن العسـكرى يسـمح للقـوى الدولية والاقليمية بالتدخل من خلال الوسـاطة مـن أجـل التوصل الى تسوية سلمية يمكن لكل من الطرفين تسـويقها محليا ودوليا كانتصار سياسى .

ولا يمكن معرفة طبيعة مثل هذه التسوية وخاصة أن تلك الادارة الأمريكية الحمقاء شنت عدوانها على العراق بالرغم من أنه كان لديها بالفعل تسوية سلمية للنزاع حول مزاعمهـا بامتلاك العراق لأسلحة دمار شامل. بل وكان العراق قد قبل تسوية سلمية مهينة وقاسية وهى تلك التى جسـدها القـرار ١٤٤١.

وقد لا يتوفر فاعل دولى راغب فى القيام بهذه الوسـاطة عندما تتوفر شروطها الموضوعية عسكريا وسياسيا. وحتـى لو توافر هذا الوسيط الدولى فقد لا يرغب الطرفان المباشران فى انتهاز الفرصة .

فلنأمل مع ذلك فى تحقق هذا التوازن العسـكرى علـى الأقل. فسوف يكفى تماما- اذا أحسن توظيفه واسـتخدامه- للانتقال الى وضع عالمى جديد تماما: وضع يوفر الفرصـة للديموقراطية والعدالة الدولية.

(١٦)

اختيارات العراق في الحرب المقبلة

بوسعنا تصور الملامـح العامـة لاسـتراتيجية الهجـوم الأمريكي على العراق. فعلى الأرجح لن تكون مـن نمـط الحرب الجوية الأرضية التي شهدناها فـي حـرب الخلـيج الثانية وإنما ستكون حربا برية أساسا وستشهد جميع فنـون القتال المعروفة في التاريخ العسكري. ومن الأرجح كذلك أن بغداد ستكون المحطة الأخيرة لا الأولى كما روجت الصحافة الأمريكية خلال خريف العام الماضي.

وبالمقابل ما هي اختيارات العراق؟ :

إذا اكتفينا بالتصريحات الصحفية الصـادرة مـن بغـداد وواشنطن نجد ترويجا ملحوظا لاختيارين متضادين.

الخيار الأول هو الهجوم الاستباقى: أي القيام بهجوم ثقيـل وسريع على موقع الحشد الإستراتيجي الرئيسي من الجنـوب الشرقي قبل أن تكمل القوات الأمريكية اسـتعداداتها للهجـوم ويقول الأمريكيون أنهم مسـتعدون لهـذا الاحتمـال وأنهـم سيفوزون في النهاية. غير أنهم لا ينكرون أن هذا الخيار يمثل أفضل فرصة وأعلـى ميـزة عسـكرية للعـراق. فـالهجوم الاستباقى له مزايا عديدة أولهـا هـو الإفـادة مـن نقـص الاستعدادات والتغيير الإجباري الفجائي للخطـط. فـرغم أن القوات الأمريكية تضع في الحسـبان هـذا الاحتمـال إلا أن المستوى الأول والذي تبنى عليه الاستعدادات هـو الهجـوم وليس الدفاع. وإجبار القوات الأمريكية علـى الـدفاع قبـل استكمال الاستعدادات للهجوم يجعل هذه الاستراتيجية أفضـل اختيار من حيث أنه يتعامل مع قوات الخصم وهى في أضعف حلقاتها. ثم أن القوات العراقية تستطيع أن تستفيد إلى أقصـى حد من قلة العمق الدفاعي للقوات الأمريكية المتمركـزة فـي الجنوب الشرقي. ويقلل الالتحام وسرعة الحركة العراقية مـن تأثير التفوق الجوى الكاسح للقوات الأمريكية. وحتى لو تمكن الأمريكيون من كسر الهجوم فسوف يكون لدى العراق وقـت وعمق وفرصة أطول في الدفاع أو معاودة الهجـوم قبـل أن تلتقط القوات الأمريكية أنفاسها وتستعيد ثقتها بالنفس.

المشكلة أو العقبة الحقيقية أمام هذا الاختيار سياسية أكثر منها عسكرية. ولهذا لا يبدو الأخذ بهذا الخيار أمرا مرجحـا أو حتى محتملا بدرجة ملموسة. وهنا قد نناقش فـي ميـدان الاستراتيجية العلاقة المعقدة بين الاعتبارات السياسية وتلـك العسكرية. فإذا بدأ العراق الهجوم سيكون قـد وفـر بنفسـه العذر الكافي الذي تنتظره أمريكا وتحاول الحصول عليه من مجلس الأمن. وسيخسر العراق الفرصـة الضـئيلة لتجنـب الحرب وهى الفرصة الماثلة نظريا في المعارضـة الدوليـة الجبارة والمتنامية لقرار الحرب من داخل وخـارج مجلـس الأمن.

هنا مسألة تقديرية غاية في الدقة. فهناك دروس تاريخيـة متكررة ودالة في حالة تغليب الاعتبارات السياسية على تلك العسكرية ربما يكون أقربها جغرافيا لمنطقتنا حالـة الغـزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ حيث يقال أن إسـرائيل نقلـت إلى سوريا عبر الولايات المتحدة تطمينات بأنها لن تشـتبك مع القوات السورية في لبنان إذا بقت سوريا خارج الحرب. وقبلت الحسابات السورية بهذه التطمينات ربما بسبب ظروف ما بعد توقيع اتفاق كامب ديفيد بين مصر وإسـرائيل التـي

أضعفت سوريا استراتيجيا في الميزان مع إسرائيل. ولكن ما أن انتهت القوات الإسرائيلية من المهام الأساسية لهجومها الخاطف في الجنوب حتى بادرت بضرب القوات الجوية السورية. هذا الدرس وغيره لا ينسى. غير أنه ليس من السهل اتخاذ الموقف العكسي عندما تكون موازين القوى على درجة الخلل التي نعرفها فيما بين الولايات المتحدة والعراق.

الاختيار الثاني الذي أشارت له التصريحات السياسية هو انتظار القوات الأمريكية عند بغداد وخوض حرب مدن ضدها. وهذا هو ما تتوقعه دوائر البنتاجون التي تضيف أن العراق يعتمد على تفريق قواته تجنبا لخسائر كبيرة للقصف الجوى الممهد للهجوم البرى الأمريكي فضلا عن توظيف استراتيجية الأرض المحروقة لإعاقة الهجوم وخلق أوضاع إنسانية كارثية قد تسهم في تهييج الرأي العام العالمي ضد العدوان الأمريكي. ومع ذلك لا أظن أن أي محلل إستراتيجي محترم يقبل بهذا الاختيار إلا ربما كنوع من الهذر. فتجربة القتال الدفاعي من المدن ضد قوات ثقيلة ومجهزة على أعلى مستوى تفيدنا بأنها اقرب إلى العبث العسكري والسياسي معا. وهو أمر مختلف عن شن حرب أنصار قد تتوغل في

المدن في عمليات هجوم انتحاري خـاطف وسـريع سـواء لإهانة الخصم والتأثير على معنوياته أو لاستنزاف قواته بعد نجاحه في الاستيلاء على العواصم والمـدن الكبـرى. أمـا مراكز النشر الإستراتيجي لقوات حرب أنصار فهي الأماكن المأمونة نسبيا التي تبعد عن متناول القوات النظامية الثقيلـة وهو ما لا يتوفر للعراق إلا في المواقع التي يسيطر عليهـا الأكراد في الشمال.

ولم يحدث أن خسرت قوات كبيرة وثقيلة حرب الحصار على المدن مهما كانت حصينة ويكفـى أن تقـوم القـوات الأمريكية بمحاصرة بغداد وتفتح ممرا آمنا للسكان حتى يـتم سقوط المدينة دون خسائر تذكر على الجانـب الأمريكـي. فحالة الخضوع للحصار أمام قوات لا تعيقهـا الاعتبـارات السياسية هي حالة يائسة بكـل المقـاييس نفسـيا وسياسـيا وعسكريا وهى حالة مهينة على نحو قاتـل. وفـى الحالـة العراقية بالذات يؤدى التصدع النفسي إلى تسليم سريع للمدينة قد لا يستغرق أكثر مما هو ضروري لقيام القوات الأمريكية بتأمين بقية العراق. وما أن تسقط المدينة حتى يسهل القضاء على جيوب المقاومة في الوسط وهو ما ستتكفل بـه علـى الأرجح قوات من المعارضة العراقية أو من قوات الجـيش الرسمي التي قد تخلع الولاء للنظام الحاكم.

هنا ننتقل إلى اختيار ثالث طرح في تصريحات منسـوبة للقيادات العليا وهو اختيار غامض يقوم على فكرة الحـرب طويلة المدى كاستراتيجية في مواجهة الاستراتيجية الأمريكية التي تقوم على الحرب الخاطفة. ويقترب هذا الكلام بـدوره من مستوى العبث العسكري والسياسي فيما لو أن معناه هـو القيام بحرب استنزاف أو حرب أنصار أو ببسـاطة حـرب عصابات. ويبدو أن هذه الفكرة كانت أيضا وراء قرار حركة طالبان بالانسحاب الطوعي من كابول. المنطق هنـا كـان حرمان القوات الأمريكية من التمتع بميزة التفـوق الجـوى وتوفير الطاقة والكوادر البشرية لإعادة توظيفها في حـرب عصابات طويلة ترهق الأمريكيين مثلما أرهقت السـوفييت قبلهم. وبينما لا تنبئ العمليات القليلة التي تمت ضد القـوات الأمريكية في أفغانستان بنجاح كبير لهذه الاستراتيجية حتـى في حالة أفغانستان فان شروطها الطبوغرافية والإيديولوجية والاجتماعية غائبة تماما في حالة العراق. والقيادة العراقيـة كونت خبراتها في الحكم وليس كحركة أنصار أو في الجبال والغابات وليست معدة مطلقا لهذا الأسلوب في الحرب.

وإذا كانت الفكرة في الدفاع بآليات عسكرية هي تسـجيل موقف سياسي ومعنوي يبقى مع الزمن مصـدرا للاعتـزاز والشرف. فهذه الاستراتيجيات لا تحقـق المطلـوب. فهـي تضمن هزيمة سريعة وأداء عسكريا بائسا وإهانة إضافية لا حد لها.

وسوء من الناحية السياسية أو من الناحية العسكرية جدير بالعراق إذا اختار التصدي العسكري أن يقوم بذلك من خلال دفاع ثقيل ومتحرك يضع فيه كل قوته ومنذ بدايـة الغـزو. يعنى ذلك القيام بهجوم مضاد مبكر وسـريع تسـتخدم فيـه الفنون المتكاملة للحرب كما سيفعل الأمريكيون أنفسهم على الأرجح. فالدفاعات الثابتة وتقنيات تأخير الهجوم بالأسـاليب المعروفة في حروب القرون الوسطى ليسـت ذات فعاليـة. والدفاع بقوات خفيفة أمام هجوم ثقيل عند البصرة هو أيضـا عبث عسكري.

هدف هذه الاستراتيجية الدفاعية المتحركـة هـو بعثـرة موجة الهجوم الأول والقضاء عليه بقدر الإمكان. ولا شك أن هذه الاستراتيجية ستواجه بمشكلات عديدة أهمها الانكشـاف أمام القصف الجوى. ولكن علاج تلـك المشـكلة بالحركـة السريعة والإفادة من الوقت الباقي لتدبير الصيغ اللوجسـتية الملائمة أفضل من دفن الدبابات في الرمال واحتمـال عـدم استخدامها أصلا في دفاع ثابت عقيم.

(١٧)
يتنحى أو ليحارب بشرف؟

لا يحتاج الحديث عن اختيارات العرب أو غيـر العـرب حيال الأزمة العراقية الأمريكية إلى خبـراء فـي السياسـة الدولية إلا في التفاصيل. من يحتاجهم هذا الحديث هم خبراء في الدراما الإنسانية بوجه عام. ويخيل لي أن أفضـل مـن بوسعه المساعدة على بناء موقف الاختيار واتخاذه فعلا هـم المؤلفون المسرحيون العظام. ليت لدينا عدد كاف منهم.

فالاختيارات المطروحة على العـراق قاسـية ومريعـة. وكذلك فاختيارات المناهضين للحرب هي بـدورها قاسـية ومريعة لا من ناحية السياسة الدولية والإقليمية فحسب بـل ومن الناحية الأخلاقية أيضا.

ما هي مشكلة الاختيار بالنسبة للعـراق فـي الوقت الحالي؟ :

إنها كما يلي: كلما تعاون العراق مع لجنة التفتيش يكـون قد سهل على الولايات المتحدة غزوه لأنه سيكون قـد دمـر أسلحته بيديه. ولكنه لو رفض التعاون حتى يحتفظ بأكبر قدر ممكن من قوة الردع أو الدفاع سيكون قـد خـاطر بجعـل الحرب مؤكدة. فلن يبقى في مجلس الأمـن مـن يقـول أن الحرب غير ضرورية وأن لجنة التفتيش تقوم بالمهمة.

الآن نأتي إلي مشكلة الاختيار بالنسبة للقـوى المناهضـة للحرب. إنها تطلب من العراق مساعدتها على إبعـاد شـبح الحرب. وبتعبير آخر فهي تطلب من العراق تدمير الأسلحة التي تمثل قوة ردع أو دفاعا دون أن تضمن حماية العـراق من العدوان. وكلما اقترب موعد الهجـوم المرتقـب زادت قسوة الاختيار وعذابا ته. وهذا هو ما يحدث الآن وخاصـة بالنسبة لصاروخ الصمود. فالنزاع مع لجنة التفتـيش حـول مدى انطباق قرارات مجلس الأمن على هذا الصاروخ له ما يبرره. ولو أن هناك مدى زمنيا معقولاً أو طريقة ما للتحكيم

لكان من المحتم أن يحتفظ العراق بهذا الصـاروخ ويبقيـه ضمن قدراته الدفاعية المشروعة والتي لا صلة لها بقرارات الأمم المتحدة.

الأمريكيون من ناحيتهم صمموا تلك السياسة بحيث يوضع (الرئيس) صدام في المصيدة بحيث تتعاقب مراحل تضـييق هامش الحركة مع إجباره على أن يضعف نفسه بنفسه فـي كل مرحلة بدرجة أكبر مما سبقها على أمل الخـروج مـن المصيدة حتى إذا ضعف تماما صار الهجوم أسـهل وأقـل تكلفة. العراق ينفذ على الأقل شكليا هذه النصائح والمطالـب من جانب القوى المناهضة للحرب الأمريكية.

فماذا لو قام الأمريكيون بالهجوم بعد أن قام العراق بتدمير أكبر قدر ممكن من أسلحته؟ كيف سيكون شعور الدول التي طالبته مرارا وتكرارا بنزع سلاحه حتى يمكن إنقـاذه مـن العدوان. أظن أنها يجب أن تشعر بشيء من الخزى وربمـا العار لأنها تكون قد سهلت العدوان على العراق وبمعنى مـا خانت العراق أو ساهمت في خداعه ظنا منها أنهـا تحـاول إنقاذه.

من السهل فهم هذه الحالة. فلنفترض أن الناس سألوك أن تتوسط لصلح بين غريمين متواجهين يمسك أحدهما بمـدفع والآخر ببندقية. لا يوجد توازن ولكن لدى من يمسك البندقية ولو فرصة ضئيلة في إصابة غريمه مقابل التأكد من إصابته هو. هذا الاحتمال الضئيل للإصابة هو العامل الوحيد الذي قد يمنع من يمسك بالمدفع من إطلاق النار.

عندما تذهب للتوسط فما تفكر فيه هو أن تطلب من كـل طرف أن يعطيك سلاحه. وأنت تطلب من صاحب البندقيـة أن يسلمك سلاحه أولا وخلال هذه العملية يفترض أن تكون مطمئنا أن من يمسك بالمدفع لن يطلقه. فماذا سيكون عليـه شعورك لو أن صاحب البندقية سلمك إياها طواعيـة ولكـن صاحب المدفع انتهز الفرصة وقام بإطلاق النار؟ المؤكد أنك ستشعر بغصة وستعتبر أنك قمت بعمل من أعمال الخيانـة. فلولا أن صاحب البندقية سلمك إياها لكان من المحتمـل أن ينقذ نفسه مهما كانت ضآلة هذا الاحتمال.

هذا الموقف العام له تطبيقان. الأول هو أن تتم الوساطة بعد أن تتفق معهما معا على قاعدة شرف محددة وهى أن يتوقف الطرفان عن محاولة إطلاق النار أثناء عملية تسليم سلاحيهما. فإذا قام طرف بالإخلال بالقاعدة سيكون قد أخطأ في حقك وسيتعين عليك أن تقوم باتخاذ إجراء ضده. ولكن ماذا إذا كنت أنت أضعف من أن تفعل ذلك؟ الأفضل في هذه الحالة إلا تقبل الوساطة من الأصل!

ثم ماذا إذا قمت بالوساطة وعندما بدأت التفاوض أصر طرف ما –وهو صاحب المدفع- على أن يسلم صاحب البندقية سلاحه دون أن يلتزم هو بقاعدة الشرف بألا يقوم بالهجوم بعد أن يكون صاحب البندقية قد سلم سلاحه؟ الصفقة هنا تعنى أن يقبل صاحب البندقية بأن يصبح تماما تحت رحمة صاحب المدفع. ماذا سيكون موقفك؟ قد يدخل في حسابك أن ثمة فرصة ما لإنقاذ صاحب البندقية وهى فرصة لا تقوم على أنه يخشاك وإنما على أن ثمة احتمال أن يشعر صاحب المدفع بأن الهجوم ليس عملا شريفا- بعد أن يكون أصبح صاحب البندقية تحت رحمته- فيمتنع عنه طوعا.

تتدخل هنا مسألة دقة الحساب والخبـرة بهـذه المواقـف والمعرفة بطبيعة الغريمين. وفى الغالبية الساحقة من الحالات يستنتج الناس أنه ليس من الحكمة القيام بتلك الوساطة.

والواقع أن الأزمة العراقية الأمريكية تختلف عـن هـذا الموقف في جوانب معينه. فنحن نعلم أن لدى أمريكا مدفعاً. وهى تقول أن لدى العراق بندقية (أسلحة دمار شامل وأخرى ممنوعة من الأمم المتحدة). ولكن أحدا لا يرى هذه البندقية. والوساطة هنا تعنى أن تطلب من العراق تسـليم بندقيـة لا تراها حتى لا تستخدم أمريكا المدفع. وأنت تقول للعـراق أن تسلم البندقية التي ينكر وجودها وهو ما يعنـى أن أمريكـا ستطلق المدفع في كل الأحوال.

ولنترك الآن هذا المثل الدرامي ونعود إلى الموقف بـين العراق والولايات المتحدة. الدول المناهضة للحرب تطلـب من العراق التعاون بصورة إيجابية مع لجنة التفتـيش حتـى تفلت من الحرب. لقد أوضحنا أن هذا الطلب في الظـروف المحددة التي يقع فيها ليس مقنعا وأن الأفضل أن تتوقف هذه الدول عن محاولة إنقاذ العراق بهذه الطريقة. ولنتصـور أن العراق لديه أسلحة دمار شامل وأنه ظل يخفيهـا حتـى الآن

(لاعتقاده مثلا بأنها تمثل فرصته الوحيدة في ردع العـدوان والدفاع عن نفسه). فماذا يحدث لو أنه أتى بهذه الأسلحة فجأة في الوقت المتبقي وقام في احتفال عام بتدميرها علنـا أمـام شاشات التلفزيون. هل يكفى ذلك لإقناع الولايـات المتحـدة بالتوقف عن تهديد العراق؟

لو قام العراق بذلك لمحاولة إنقاذ نفسه في اللحظة الأخيرة ستكون هناك ثغرتان توفران لأمريكا مبررا أقوى للعـدوان على العراق. الثغرة الأولى هي أن قيام العراق باتخاذ تلـك الخطوة يعنى أنه كان يكذب طيلة هذا الوقت وهو ما يعـزز وجهة النظر الأمريكية التي تقول أن صدام كان يخدع العالم. ويعد قيام العراق باتخاذ هذه الخطوة اعترافـا بـالإثم. أمـا الثغرة الثانية فهي أن قيام العراق بتقديم قائمـة معينـة مـن الأسلحة المحرمة وتدميرها بالفعل أمام أنظار العالم لن يعنى منطقيا أنه قام بتدمير "كل ما عنده" ومن ثم تستمر المشـكلة. فبإمكان الولايات المتحدة أن تصيح بأعلى صوتها ألم أقل لكم أنه كان يكذب. و هوما يعنى أيضا أنه إذا كان يخـادع فـي الماضي فلماذا لا يكون مخادعا الآن. هذا فضلا عن أن ذلك يثبت حجتها القائلة بأن لجنة التفتيش لا تسـتطيع أن تنـزع سلاحه فيكون الحل لديها هو غزو العراق.

ما أدعيه هنا هو أن الذين كانوا يحاولون إنقاذ العراق من الغزو الأمريكي وخاصة فرنسا وألمانيا وروسيا والصين عن طريق إقناعه بالتعاون مع لجنة الأمم المتحدة للتفتيش ونـزع أسلحة الدمار الشامل لم يفكروا جيدا في الأمر برمتـه ولـم يطبقوا نموذجا مقنعا للتحرك.

وينطبق هذا التحليل بدرجة أكبر علـى الـدول العربيـة الراغبة في إنقاذ العراق من الحرب. فالصيغة التي تبنتها تلك الدول فرادى ومن خلال قرارات مجلس وزراء الخارجيـة العرب وأخيرا مؤتمر قمة شرم الشيخ تقوم على رفض شـن الحرب مقابل الطلب الموجه للعراق بالتعاون الإيجابي مـع لجنة التفتيش. وقد رأينا أن هذا النموذج للتحـرك لا يكـاد يصنع فرقا بل انه قد يسبب حرجا شديدا لهذه الدول عنـدما تقوم الولايات المتحدة بشن الحرب ضد العراق.

ماذا يمكن للعراق أن يفعل؟ :

من الواضح هو أن أمريكا تركت احتمالا وحيدا للامتناع عن شن الحرب وغزو العراق هو تخلـى الـرئيس صـدام حسين وأعوانه عن السلطة. ومن البديهي أن يتم ذلـك فـي إطار "صفقة" سياسية مباشرة أو غير مباشرة مع الولايـات المتحدة. ومن الممكن أن يتم نقل السـلطة بإشـراف الأمـم المتحدة منذ البداية أو أن يدخل تلك المنظمة الدولية في إحدى مراحل عملية الانتقال السلمي للسلطة والمصـالحة الوطنيـة وإجراء انتخابات حرة ووضع دستور جديد...الخ

فإذا لم تتحقق هذه المعجزة فسوف تأخذ الطبيعة مجراهـا كما يقال في الثقافة الغربية. وعندئذ لن يغفر أحـد لصـدام حسين إن لم يقاتل بشرف وبسـالة حقيقيـة: أعنـى بسـالة بالمعايير العالمية. فليس من البسالة انتظار الأمريكيين فـي بغداد أملا في ضغط عالمي يوقف هجومهم علـى المدينـة وربما إنقاذ النظام أو رأسه في آخر لحظة. فالقتال بشـرف يعنى مواجهة الأمريكيين منذ اللحظة الأولى وباستخدام جميع فنون القتال بما يجعل من الممكن هز غطرسـة العسـكرية الأمريكية وانتزاع احترامها إن لم يكن كسب المعركة معها. وسوف تكون المأساة العربية كاملة إذا لـم يقبـل الـرئيس العراقي التنحي وفى نفس الوقت لم يقاتل بشرف.

(١٨)

الحل التفاوضى هو أفضل بديل

اذا صح ما صرح به دونالـد رامسـفلد وزيـر الـدفاع الأمريكى بأن "الحرب الآن هى أقرب الى بداية البداية منهـا الى النهاية". فانها ستكون متوازنة لفترة مقبلة قد لا تقل عن أسابيع.

وهذا التوازن النسبى والمتحرك يصـف أيضـا الحالـة السياسية الدولية والاقليمية. ففى الساحة الدولية اتسم الصراع بالتوازن النسبى. فالأمريكيون فشلوا فى الحصول على قرار من مجلس الأمن يفوضهم بشنها ولكنهم صمموا على المضى الى الحرب. ومقابل الموقف الصلب الـذى صـمدت عليـه فرنسا وألمانيا نجح الأمريكيون فى اختراق النسيج الأوربـى وضموا الى صفوفهم نحو تسع من الـدول الأعضـاء فـى الاتحاد الأوربى. وفى أفريقيا وأسيا نجـد ايضـا أنقسـاما واضحا بين التأييد والمعارضة للحرب الأمريكية أو الحيـاد وانتظار النتائج. وفى الشرق الأوسط نجد شيئا من التـوازن أيضا. فمقابل المعارضة الشاملة للحرب من جانـب الـرأى

العام العربى تميل الحكومات الآن فى الواقع الـى "التسـليم" بعجزها عن وقف الحرب. كما نجد نوعا من التـوازن فـى المستوى الرسمى بين موقفين. الأول يرى مخاطر المشروع العدوانى الأمريكى على المنطقة ولكنه غيـر راغـب فـى "تحدى" أمريكا أو المخاطرة بالقطيعة معها. أما الثانى فيبـدو مستعدا للمخاطرة ولكن عن طريق دفع الأخرين للقيام بتلـك المهمة عن طريق ضغوط الرأى العام العربـى والمحلـى. ويبدو أن " التسوية " السياسية بين الفريقين قد تمـت علـى النحو الآتى. لقد ترك "المعتـدلون" مهمـة كتابـة البيانـات الصادرة عن الجامعة العربية قمة ومجلسـا "للراديكـاليين" وذلك بعد التأكد من أنها لن تحتوى علـى شـىء لا يمكـن تحمله. وبعد أن برزت حقيقة أن الحرب لن تكون سريعة أو قصيرة تزداد مرونة "المعتدلين" أو يـزداد تسـليمهم بحـق الراديكاليين فى كتابة بيانات أو اتخاذ مواقف أقوى.

كان أقوى بيان رسمى عربى هو ما صـدر عـن مجلـس الجامعة فى دورته ١١٩. فالبيان أو القرارات تقوم على مجابهة الولايات المتحدة فى الجمعية العامة للأمـم المتحـدة. فعـرض القضية على مجلس الأمن لا يحمل بذاتـه جديـدا حيـث مـن المعروف أن المجلس منقسم على الحرب. والآن يختلف ما هـو مطلوب من مجلس الأمن. فبينما رفض المجلس اصدار قـرار تطلبه أمريكا بسبب التلويح بفيتو فرنسى فسوف يفشل فى اصدار قرار قد تؤيده فرنسا وروسيا بسبب حتمية التلويح بـالفيتو مـن جانب أمريكا. أما فى الجمعية العامة فهناك تصـوران. فطلـب الانعقاد تحت راية "الاتحاد من أجل السـلام" الـذى اسـتخدمته أمريكا ذاتها ضد كوريا الشمالية عام ١٩٥٠ يعنى فى الجـوهر أن تقوم الجمعية بالدعوة الى تكوين جيش دولى لقمع ما يمثلـه العدوان الأنجلو أمريكى ضد العراق من تهديد للأمـن والسـلم الدوليين. ولو تصورنا امكانية تأمين أغلبية الثلثين فلن يرسل أحد جيوشه لمحاربة أمريكا فى العراق. هذا ناهيك عن أن الولايـات المتحدة ستقوم فورا بالانسحاب من الأمم المتحدة اذا مـا تمكـن العرب من الحصول على الأغلبية اللازمه لاصداره وهـو مـا يعنى انهيار الأمم المتحدة. بل انها قد تنسحب من الأمم المتحـدة حتى لو صدر قرار من الجمعية العامة فى شكل قرار اعتيـادى ليست له قوة التنفيذ ويعد مجرد توصية.

ومع ذلك ورغم ما تتضمنه من مخاطرة مهولة فـالخطوة التى دعا لها مجلس الجامعة مفيدة ومهمة للغايـة. فمجـرد تأكيد معنى أن غالبية دول العالم – حتى لو كانـت أغلبيـة بسيطة- ترغب فى ادانة العدوان وتأييد طلب السحب الفورى للقوات الأمريكية المعتدية هو تحد خطير وعظـيم لـلادارة الأمريكية ويسبب احراجا خارقا لها فى الساحة الدبلوماسـية والسياسية الدولية. والواجب هو أن نذهب الى أبعـد مـدى ممكن لدعم العراق فى تلك الحرب الظالمة والعدوانية ولـو فى مجال الدبلوماسية الدولية وهو أضعف الايمان كما يقال.

ولكن المهم هو كيف نضمن أن يكون ما نفعله هو دعـم حقيقى لأخوتنا فى العراق: أى ضمان ألا يتم احتلال العراق أو استكمال تدميره. والخطوة التى نستهدفها من الذهاب الـى الجمعية العامة قد تحقق أو لا تحقق الهدف.

فاذا صدر قرار من الجمعية العامة كتوصية عاديـة قـد تتجاهله الادارة الأمريكية العادية وتمضى فى شـن حربهـا على العراق. والأخطر هو أنه لو صدر قرار تحـت لافتـة "الاتحاد من أجل السلام" فان معنـى القـرار مـن الناحيـة النظرية على الأقل هو أن تصبح الولايات المتحـدة "عـدوا"

للأمم المتحدة وهو ما يعنى أكثر من مجرد انسحاب الولايات المتحدة. فالأرجح هو أن تقوم الولايات المتحدة بطرد الأمـم المتحدة من أراضيها والاجهاز عليها وهو ما يبدو أن اليمين الأمريكى المتطرف الحاكم مستعد غريزيا له. وقد تتضاعف رغبة الولايات المتحدة فى المضى فى مشروعها العـدوانى العسكرى ضد العراق. وبذلك قد نعـزل ونفضـح الفاشـية الأمريكية الجديدة ولكننا لا ننقذ العراق.

النتيجة التى نخلص اليها من هذا التحليل هى أن لدينا آلية عمل دبلوماسية وسياسية غاية فى الأهمية والقوة وهى دعوة الجمعية العامة للانعقاد فى جلسة خاصة لاتخاذ قرار حـول الحرب الأمريكية على العراق باعتبارها خرقا لميثاق الأمـم المتحدة وذلك بعد فشل مجلس الأمن فى الوصول الى قرار. ولكن سوء توظيف هذه الأداة قد يؤدى الى كارثـة عالميـة دون أن يحمى العراق من الاحتلال أو يحقق الغرض منه.

فاذا شئنا أن نوظف هذه الأداة توظيفا سليما فى تلك الحالة تحديدا فانها يجب أن تستخدم لتهديد الولايات المتحـدة فـى الوقت الذى نقدم لها فيه "استراتيجية خروج" من المأزق الذى وضعت نفسها ووضعت العالم فيه بشن الحرب على العراق.

واستراتيجية الخروج الممكنـة يجـب أن تـوفر لـلادارة الأمريكية فرصة الخروج بشىء من الكرامة مـن العـراق. فالدولة العظمى الوحيدة لا يمكن أن تخرج مهزومة عسكريا من العراق حتى لو دمرته بالكامل. وهى أيضا لـن تخـرج مهزومة سياسيا حتى لو دمرت النظام العالمى ولـيس فقـط العراق.

" استراتيجية الخروج" الممكنة هى "حل تفاوضى" يقدم لها شيئا يمكنها أن تصوره لنفسها كانتصار سياسى يسهل خروج قواتها من العراق على وجه السرعة.

هذا الحل التفاوضى لن يكون بيد الدول العربية وانما بيد الرئيس صدام حسين. ويجب القول بـأن مـن الصـعب أن نتكهن بطبيعة هذا الحل. بل يكاد يستحيل استنباطه بصـورة نظرية. ومع ذلك يجب ايجاده بأى شكل.

لا يبدو أن هذه الفكرة بديل عملى. ولكن لا يوجد بـديل عملى آخر.

فالعراق قد يصمد عسكريا لمدة طويلة. وحتى لو نجح فى تدمير القوات الأمريكية الغازية وهو أمر يصـعب تصـوره فالولايات المتحدة لن تسلم بالهزيمة أبدا. وبوسعها أن تواصل الحرب وترسل قوات جديدة. وفى أكثر السيناريوهات تطرفا وهو تمكن الرأى العام الأمريكى المعـارض مـن إسـقاط الرئيس بوش فلن يقبل أى رئيس أمريكى مقبـل أن تخـرج أمريكا من هذه الحرب مهزومة. وهذه إحدى أهم أبجـديات الحالة السياسية الراهنة فى الولايات المتحدة.

فاذا كان من المستحيل أن يتمكن العراق من تحقيق نصر عسكرى. فقد يكفيه كدولة نصر سياسى بعد أن سجل لنفسـه أداء عسكريا مشرفا. ولكن هذا النصر السياسى والمتمثل فى انسحاب القوات الأمريكية لابد أن يتم عبر تقديم "استراتيجية خروج" مناسبة للادارة الأمريكية الراهنة. وحيث أنه لا يوجد تفاوض بين العراق والولايات المتحدة فالدول العربيـة هـى المفاوض المناسب.

ويمكننا أن نتصور الأمر كما يلى. يهدد العرب بـاللجوء الى الجمعية العامة. واذا صمد العراق بالذات فى بغداد فترة كافية ولتكن بضعة أسابيع وكبدوا القوات الأمريكية خسـائر كبيرة تمنعهم من الأمل فى اجتياح بغداد فقد يتكون دافع كاف لأمريكا فى قبول "حل تفاوضى" يوفر عليها خسائر كبيرة فى أرواح جنودها أو ثورة عالمية اذا اقتحمت قواتها بغداد بعـد أن يكونوا قد أحدثوا مذبحة مهولة لأهاليها. اذ ستخسر أمريكا كثيرا على المستويين السياسى والعسكرى.

وحتى يمكن تجنب مواجهة كبرى فى الجمعية العامة قـد يقبل الأمريكيون "حلا تفاوضيا" يقومون فيه بالانسحاب مـن العراق مقابل شيء ما يمكنهم تصويره كأنه انتصار سياسـى ولو جزئى.

ومن ثم قد لا يجب أن نذهب الى الجمعية العامـة فعـلا ونتوقف عند توظيف هذا التهديد لإقنـاع الأمـريكيين بـأن استمرار حربهم ضد العراق جانب انهيار النظـام العـالمى ممثلا فى الأمم المتحدة اضافة الى الخسـائر البشـرية فـى ميدان القتال هذا الى أن مستقبلهم فـى العـراق حتـى لـو انتصروا سيكون مشوبا بالغموض فى أفضل الحالات.

الحل التفاوضى بهذا المعنى هو تعبير عـن التوازنـات العالمية الراهنة. فليس من مصلحة العالم "تمرير" مشـروع الغزو الأمريكى للعراق. وليس من مصـلحة العـالم أيضـا انهيار الأمم المتحدة. وأمريكا لن تستطيع اضفاء شرعية على احتلالها للعراق حتى لو تمكنت من تحقيق انتصار عسكرى. ولكن ليس بوسع أحد ايضا منعها من احتلال العراق حتى لو تم ذلك بتدميره كلية. وأمريكا صارت مكروهة فـى العـالم أجمع. ولكنها ستظل حقيقة أساسية وقادرة على تدمير هـذا العالم فى نفس الوقت.

وبتعبير آخر لا يسمح التوازن العالمى الـراهن بهزيمـة أمريكا تماما. وربما تكون أمريكا قد أدركـت الآن أنهـا لا تستطيع أن تفرض ما تشاء وقتما تشاء وبأى طريقة تشاء.

ثمة طريقتين لادارة هذا التوازن: إما الذهاب به الـى أى مصير يحدده استمرار الصراع وخاصة فى شكله العسـكرى الراهن فى العراق أو الوصول الى "حل وسط تفاوضياً". ولا شك أن من مصلحة العالم والعرب والعـراق أن نصـل - بطريقة ما- الى هذا الحل التفاوضى.

الباب الثاني

المعاناة والأمل

(١٩)

بغداد فى القلب

أمريكا لا تقصف أو تقذف الموت الى مدينه فى صحراء النسيان أو بلاد على أطراف الجغرافيا العالمية أو شعب على هامش التاريخ. هى ترسل الموت والخراب الى مدينـة فـى القلب والى بلاد فى القلب والى شعب فى القلب..حتى لو كان القلب موجعاً وحافلا بالأحزان.

بغداد فى القلب لأنها فى التاريخ والحياة مدينة الموسـيقى والرياضيات والتصوف والفلسـفة والعمـارة والأسـطورة والحكايات المجدولة بأقدار الانسان. ولـذلك لـم يقصـفها بالموت والخراب فى تاريخها المديد غير المجرمين البطالين والباطشين والأغبياء. فقد أحبها من يحتـرم القـانون منـذ حامورابى والبناة منذ البابليين والنبلاء منذ صاحت أسطورة جلجامش والأذكياء منذ فجر التاريخ.

وبغداد فى القلب لأنه لن تستقيم حضارة لا تبدأ تاريخهـا من شاطىء دجلة والفرات ولا يقوم سلام بـدون أغنياتهـا وقيثاراتها وأشعارها ورسالتها فى صهر الشعوب ومؤاخـاة الملل والأعراق والأديان والناس جميعا مـن كـل الألـوان والأحلام. ولن يقوم سلام أو يعيش إلا بحياتهـا وتاريخهـا المنعش وذكرياتها العطرة ومياهها التى تشفى الأحقاد وتلهـم النساك.

وبغداد فى القلب لأنها مدينة اليوتوبيـا والمعرفـة. فـلا مثاليات إنسانية راقية لا تمتد فى شرايينها ولا أخلاق سامية لم تنتسب الى مدارسها وأفكارها العتيقة ولا رواية نبيلة لـم تنسل من دفوفها وألواحها الطينية الخالدة ولا معرفة بالفلـك والرياضيات والميكانيكا ولا بالدين والتأمل والشعر لم تتناسل من رموزها وأبراجها ومراصدها وحروف لغتهـا وفكرهـا الجسور.

وبغداد فى القلب لأنها مدينة الحكمة المعصومة بالرسائل الغامضة الملهمة وبالضلوع التى لم تنكسر أمـام السـيوف والمجانق والمحارق والجهل المحدق من المخارق ولغة النار والبنادق.

وبغداد فى القلب لأنها عاصمة الاسلام والالهام المقدس.. وعاصمة كل نفس عربى وكل حلم كبير وكل أمـل ممطـر وكل ألم مزهر.

وبغداد فى القلب لأنها موقع المعركة ضد مذهب الغـزو والقوة والارهاب والضياع والضباع الذى لا ينصاع لقـانون أو محبة أو فكر أو عقل أو حضارة أو ثقافة أو تهذيب.

والمعركة التى تعيشها بغداد هى أيضا معركة كل قلب..كل من يؤمن بالتسامح والسلام والثقافة والمدنية والقانون.

سوف يحمل بوش وعصابته الـى بغـداد كثيـراً مـن النيران..وسوف يداهمونها بكثير من الدخان الأسود والموت اللامجدى والصواعق التى لا تضىء الا للقتل..وسوف يحمل بوش الى بغداد نهرا من الدماء والبلاء وطوابير طويلة مـن الأكفان والنيران.

ولكن ذلك كله لن يضمن لهم النصر. فقد هزموا بالفعـل حتى قبل أن يبدأوا جريمتهم الشنعاء. هزمـوا لأن اليمـين الحاكم فى أمريكا لا يحمل للعالم وعدا ولا يصـرح سـوى بالوعيد. وهزموا لأنهم لا يحملون للدنيا غير صوت صـمت الجهل والقسوة وغير صخب النحيب والفراق.

فالحقيقة الأساسية التى لا تغيب عن ذهن أحد فى العـالم هى أن أمريكا قد هزمت سياسيا حتى لو انتصرت عسكريا.

هذه الحقيقة قد تعبر عن نفسها سـريعا لـو بـادر الشـعب الأمريكى بمحاسبة ادارته ورئيسه وصهاينته ومسانديه ومساعديه الذين لوثوا سمعته ومرغوها بالدم. ولا يمكـن اسـتبعاد هـذا الاحتمال.

فقد هزمت أمريكا دبلوماسيا فى مجلس الأمن واضطرت أن تحمل مشروعها العدوانى الذى يقوض القـانون الـدولى على بوارجها وحاملات طائراتها لتقصف بغـداد والقـانون الدولى والعالم كله ومعنى الحضارة والأخلاق وكل المعـانى والمبادىء الخالدة فى تاريخ الانسانية.

وهزمت أمريكا أخلاقيا فى مدن العالم كله عندما خـرج الى ميادينها ومراكزها كل من يحمل فى ضميره حلما وفـى رأسه عقلا وفى ضلوعه قلبا يهفو للسلام والمحبة والتسـامح بين الشعوب ليناهض الحرب الأمريكية ضد بغداد.

وهزمت أمريكا سياسيا فى النظام العالمى لأنها لا تستطيع أن تفرض قطبيتها أو قوتها على عالم لا يقبل القيادة المنفردة أو الغاصبة حتى على أقرب حلفائها التـاريخيين. فـالجميع تقريبا يعارض تلك الحرب القذرة ضد بلـد حمـل البـذور الأولى للحضارة الانسانية. فلم يحمل معه بوش الى عربـة تحالف الحرب والعدوان غير الأفاقين والخلاسيين من زعماء لم يتركوا بصمة أو نبتّة فى بلادهم ذاتها.

وهزمت أمريكا سياسيا لأنها أنعشت مكانة بغداد فى كـل قلب وعقل عربى. فبغداد التى فى القلب أوقظت كل عربـى على مصاب أمته وضياعها بين الأمم وذلهـا بـين النـاس والأوباش.

وبغداد التى فى القلب ليست ذكرى أو مـاض أو يبـاب وانما هى نبض كل ما هو آت من الأحلام. بغداد فى القلـب مشروع أو شتلة لحدائق الأحلام والأيام. وحلمنا العربى كبير لم يعد أحد يستودعه لدى الصغار والفارين والغادرين والقساة والذين ملأوا عقولهم بالمال وقلوبهم بالأوحال.

بغداد هى حلم استعادة وإحياء لمجد غابر وقلـب متـرع بالمشاعر. بغداد هى مدينة الوعد العربى الذى يشرئب بعنقه الطويل الى أبناء أذكياء مقبلين والى حكام نـبلاء وحـالمين والى أوطان للكرامة والدين والـى دنيـا غسـلت عارهـا وتجهزت للمبدعين والخالدين.

(٢٠)

مراجعة تكوين الجيوش العربية

شهدت الحرب ضد العراق بطولات حقيقية. كما شـهدت بعض المناورات التكتيكية المتميـزة. ولكـن الأداء العـام للعسكرية العراقية فى هذه الحرب وفى الحرب التى سـبقتها عام ١٩٩١ يعد سيئا ومحبطا.

ومع ذلك فلا يمكن اعتبار هذا الأداء مقياسـا للقـدرات العسكرية العراقية الحقيقية. فلم يكن هنـاك أى قـدر مـن التوازن بين القوات الأنجلو أمريكية الغازية والجيش العراقى على المستويين التسليحى والهيكلى. ولم تتوفر فرصة لإمداد الجيش العراقى بأنظمة تسليح متقدمة أو حتى بقطع الغيـار وأعمال الصيانة الضرورية لما توفر لديه من أنظمة لفتـرة ثلاثة عشر عاما متصلة، وهى فترة شهدت طفرات مهمة فى التقنية العسكرية. ومن ناحية ثانية لا يمكن تحميل العسكريين العراقيين مسئولية الهزيمة والانهيار المفاجىء وسـوء الأداء العام. فالقيادة السياسية التى لا تعرف شيئا عن فنون الحرب كانت تتدخل فى كل صغيرة وكبيرة. وقامـت هـذه القيـادة

بالتخاص الدورى من الضباط المعروفين بالمهنية والمهـارة فى التخطيط الاستراتيجى والتكتيكى للحرب وخاصـة بعـد نهاية الحرب العراقية الايرانية حتى لا يمثلون خطرا علـى النظام والقيادة.

وترجع خسارة العرب للحروب الكثيرة التى خاضوها منذ الاستقلال الى العوامل السياسية قبل أى اعتبار آخر.

فالميول الانقلابية أدت الى أضـرار جسـيمة بـالتكوين المهنى للجيوش العربية. وتراوح الصـراع حـول العقيـدة العسكرية بين تثبيت مهمة الدفاع عن نظـم الحكـم والقيـام بانقلابات ضد هذه النظم. ولم ينفضح سـوء الأداء وتـردى التكوين التنظيمى وضعف الاسـتعداد طالمـا أن المعـارك المحتملة فى الفضاء الاقليمى انحصرت بين جيوش من نفس النوعية والتركيب ومن نفس الخلفية الاجتماعيـة ومسـتوى التطور. ولكن هذه الجيوش وقعت فى الفخ عندما اضـطرت لخوض معارك مع بلاد أكثر تقدما من النواحى الاقتصـادية والتكنولوجية والتنظيمية.

هذا النوع الأخير من الحروب لم يعد الاستثناء بالنسبة لعدد من الدول العربية. فعلى خط المواجهة التاريخى مع اسرائيل وقعت أهم الحروب فى تاريخ العرب الحديث. ولم تكن الولايات المتحدة والدول الكبرى الأخرى غائبة عن هذه الحروب. وبفضل تواتر الحروب العربية الاسرائيلية حدث تطور ملموس فى الأداء المهنى لجيوش دول المواجهة وهو ما بدا واضحا فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣. ومع ذلك لا يمكن القول بأن العرب قد أعادوا تكوين جيوشهم عقيديا وتنظيميا وفنيا على ضوء نسق التهديدات التى يمثلها جيش من نوع الجيش الاسرائيلى أو الجيوش المتقدمة عموما.

ويضاف الى ذلك أن نسق المواجهات العسكرية فى المنطقة يتغير جذريا وخاصة بعد الحرب الأخيرة ضد العراق. ولا يمكن تجنب استنتاج أننا دخلنا عصرا جديدا. فلم يعد من الممكن ضمان الاستقلال الوطنى بالاحتماء بالقانون الدولى. فالولايات المتحدة لن تتقيد بهذا القانون. وهى فيما يبدو مصممة على المضى فى الإخضاع المباشر للمنطقة العربية عبر التهديد بالحرب وشنها فعلا. ويتيح لها التواجد العسكرى المباشر فى العراق شن حروب جديدة فى المنطقة وضد من تشاء من البلاد العربية.

لا يمكن إذن تجنب استنتاج أن علينا القيـام بمراجعـة جذرية للجيوش العربية على ضوء هذا النسق الجديـد مـن التهديدات. ولا يبدو أن الحكومات العربية قد فهمت أو أنهـا تستجيب لهذه الحاجة الوجودية حتى الآن رغم أنها بـرزت منذ فترة طويلة.

وبكل أسف فان استمرار التراث الشمولى حرم العرب من فرصة الافادة من امكانية بروز فكر استراتيجى وعسـكرى عربى يستحق هذا الاسم. فالشئون العسكرية لا زالت ملفوفة بالسرية رغم أن أهم ملامحها ذائعة وتناقش علنا فـى كـل الدول المتقدمة. ويقوم المدنيون هناك بدور جـوهرى لـيس فيما يتعلق بأشد الأمور تخصصا مثل الاختيار بـين أنظمـة وبدائل تسليحية مختلفة فحسب بل وأيضا ما يتعلق بمسـاءلة ومراجعة السياسات العسكرية والدفاعية عموما.

ولا شك أن التقاليد الشمولية التى أخذت بها معظم الـدول العربية بغض النظر عن طبيعة نظامها السياسى هى العامل الحاسم فى تأخر التكيف الخلاق مع الظـروف والتهديـدات العسكرية الجديدة. ولكن يجب أيضا أن نشير الى الصعوبات الأصيلة التى تكتنف حل المعضلات الكبرى التـى تواجـه العسكرية العربية.

فمنذ البداية كانت أهم المعضلات كما يلى. كيـف يمكـن لبلاد عربية ذات اقتصادات هشة ومتخلفة تقنيا وقدرات مهنية ومالية محدودة أن تقيم جيوشـا تسـتطيع مواجهـة الـدول المتقدمة التى تتمتع بقدرات ماليـة واقتصـادية وصـناعية جبارة، وهى أيضا تلك الدول ذات التراث العسكرى الحديث والتى تكاد تحتكر القدرة على تجديد التكنولوجيا العسـكرية والفكر الاستراتيجى. لم يكن هذا السؤال تجريديا لأن الجيش الاسرائيلى ينتمى فى الحقيقة لنسق جيوش الـدول المتقدمـة ويتمتع بمقترب غير محدود لقدرات هذه الجيوش.

وفرت المنافسة الاستراتيجية والايديولوجية بين العملاقين السوفيتى والأمريكى فى سياق الحرب الباردة جزءا مهما من الاجابة. بل ويرجع مجرد حصول الـدول العربيـة علـى استقلالها من الاستعمار الغربى جزئيا الـى اشـتعال هـذه المنافسة. اذ جعلت من الممكن الحصول من مصدر منـافس على أنظمة تسليح متقاربة تكنولوجيا. ولكن العقائد السياسـية والعسكرية الكامنة خلف التطور الخاص لأنظمـة التسـليح المتقدمة فى أمريكا والاتحاد السوفيتى بعيدة عـن ظـروف العالم الثالث عموما وعن العالم العربى بشكل خاص.

والواقع أن إمكانية الحصول على أنظمة تسـليح متقدمـة نسبيا من المصدر السوفيتى لم يكن خيرا محضا. اذ أدى الى حصر قضية التأقلم الخلاق مع ظروف الحداثة العسكرية فى بعد أو جانب وحيد وهو الجانب التسليحى. ورغم أهمية هذا الجانب فهو لم يشكل العامل الحاسم وراء الانتصارات التـى حققتها بلاد مماثلة من حيث تطورها الاقتصـادى والتقنـى لأوضاع بلادنا العربية ضد جيوش دول متقدمة مثل الحالتين الكورية والفيتنامية.

ويكمن الاهتمـام الفـائق بهـذا البعـد التسـليحى وراء المناظرات القليلة والتى لم تحسم إلا قليلا فيما يتعلق بتطـور الجيوش العربية مثل مناظرة الكم والكيف والمناظرة حـول أسلحة الدمار الشامل. ورغم أهمية هذه المنـاظرات فانهـا غطت على قضايا وأبعاد أكثر أهمية مثل الفكـر والعقيـدة العسكرية (وهى ترتبط بصورة حميمـة بالعقيـدة السياسـية والتراث الثقافى) وتشكيلة القوة العسـكرية وفنـون القتـال والتدريب المتواصل ومحتواه وأسلوب نشر القوات فى ميدان القتال وإعداد الدولة للحرب والتنظيم العسكرى من الناحيتين الاجتماعية والفنية وتكييف العلاقة بـين البنـاء العسـكرى والأهداف الأخرى للدولة العربيـة وعلـى رأسـها التقـدم الاقتصادى والاجتماعى.

ومع اختفاء الاتحاد السوفيتى وبروز الولايـات المتحـدة كمصدر مباشر للتهديد تكتمل سلسلة المعضلات التى تواجـه الجيوش العربية، ويثبت فشل الاجابات القليلة التى حتمتهـا الظروف فى ميدان القتال كما تشير الحرب الأخيـرة. وقـد يكون من المبكر الوصول لاستنتاجات جوهرية قبـل القيـام بدراسة كاملة لهذه الحرب. وعلى سبيل المثال، فان محاولـة التأقلم مع الهيمنة الجوية الكاملة والأسـبقية التـى تعطيهـا العقيدة العسكرية الأمريكية لتدمير هياكل الاتصال والقيـادة والسيطرة تمثلت فى اعادة هيكلة التنظيم العسكرى العراقـى بتقسيم العراق الى خمس مناطق عسكرية ومنح قياداتها حق اتخاذ القرار الميدانى ربما كانت ايجابيـة. ولكـن حـدوثها متأخرا جدا ربما قلل كثيـرا مـن المنفعـة المتمثلـة فـى اللامركزية. ومن هنا يجـب أن نـدرس قضـية التنظـيم العسكرى فى مختلف ظروف القتال على ضـوء الظـروف الجديدة. ومن ناحية أخرى أسس الجيش العراقـى تنظيمـه الدفاعى وتشكيلة قواته على ضوء الاعتقـاد بـأن الحـرب المقبلة ستكون قصفا جويا أكثر منها غزوا بريا. ومـن هنـا وقع التركيز على تطوير بعض نظم التسليح المناسـبة لهـذا التوقع وأهملت أنظمة أخرى أكثر أهمية لمواجهـة هجـوم سريع بالمدرعات والمروحيات.

وتشتمل جميع هذه الأبعاد على معضلات حقيقية لا يسهل حلها فى اطار التكوين السياسى والثقافى الراهن لمعظم ان لم يكن كل الدول العربية. ولكن التهديد الأمريكى وما يأتى بـه من ظروف جديدة يحتم علينا أن نجيب على تلك المعضلات والأسئلة وإلا خسرنا استقلالنا ووجودنا وهويتنا القومية.

(٢٢)

التحدى والمسئولية

لا يعجب المرء من تصرفات الادارة الأمريكية الراهنـة. فهى لا تقيم وزنا للقانون أو الأعراف الدولية. وتصـرفاتها تنسجم تماما مع طبيعة أية قوة باطشة. والنظرية التى تسـير السياسة الأمريكية اليوم تقول ببساطة أن السياسة الدولية تقوم على القوة وأن الولايات المتحدة تنفرد بالقوة ومن ثم يجب أن تنفرد بالسلطة فى السياسة الدولية. ولذلك قامت بغزو العراق تأكيدا لهذه النظرية وستقوم بمزيد من أعمال الغزو والبطش لتؤسس واقعا دوليا جديدا أكثر تبعية لها بالقدر الذى تسـمح لها به قوتها. وهى فى ذلك مثلها مثل أى طاغيـة فـى أى مكان وأى عصر.

ولا يعجب المرء من تصرفات كثيـر مـن الحكومـات والقيادات التى خضعت للارادة الأمريكية فى مختلف بـلاد العالم أو تحالفت معها قولا أو فعلا فى العدوان على العراق. فالخضوع للغة القوة والخوف من البطش واتقاء شر الطغـاة هو سلوك معروف وشائع فى كل العصور وفى كل الـبلاد.

وحتى البحث عن الفتات الذى يعافه ويتركه الذئاب بعـد أن تصرع فريستها هو سلوك منطقى لأنواع معينة من سـكان الغابة الدولية. فلا غرابة فيه ولا وجه للعجب.

أما ما يثير أشد العجب فهو أن تقـوم بعـض القيـادات العراقية السابقة بتسليم نفسـها طواعيـة لقـوات الاحـتلال الأمريكية. فربما يغفر الناس لهذه القيادات فيما يأتى من أيام أنها أصرت على البقاء فى السلطة رغم أنها كان يمكـن أن تجنب بلادها الدمار والاحتلال اذا ما كانت قد تنحـت فـى الوقت المناسب. وربما يغفر الناس لهذه القيادات فيما يـأتى من أيام أنها فشلت فى الدفاع بشرف عن بلادها بعد أن قبلت التحدى ورفضت نصح الناصحين لها بالتنحى. فأمور الحرب قد لا تكون بيد أى شخص مهما كان موقعه وخاصـة فـى وضع لا يقوم فيه أى تناسب بين القوى. ولكن كيف يمكن لنا أن نغفر لهذه القيادات أنها تتصرف الآن بنذالة وجبن مريـع بأن تسلم نفسها لجيش الاحتلال؟ هل وصلت الأمور الى حد أن "يناضلوا " للبقاء أحياء ولو فى ذل الأسر أو المحاكمة من جانب جيش احتلال بعد أن أعلنوا تحديهم لـه طـوال هـذا الوقت بل وظلوا يهددونه بالويل والثبور طوال هذا الوقـت؟

ألم يرتدوا جميعا الزى العسكرى لشهور أو سنوات علامـة على هذا التحدى؟ ألم تبق لديهم بقية من الشـجاعة لمجـرد الاختفاء عن الأنظار لفترة من الزمن ولا نقول للقيام بمقاومة سياسية أو عسكرية مهما كانت ضئيلة؟ وإن لم يكن قد بقـى لديهم أية شجاعة لاستئناف المقاومة أو لمجرد الاختفاء عـن الأنظار ألم يكن قد بقى لديهم أى احساس بالشرف بما يكفـى للانتحار مثلما يفعل العسكريون المحترمون. أم أنهم استهلكوا كل شجاعتهم فى اعتقال وتعذيب وقتل مـواطنيهم الأبريـاء طوال عقود من الزمن عندما كانوا يملكون كل شىء؟

ليس ما يهمنا هنا هو انقاذ الشرف السياسى أو العسـكرى لهؤلاء الطغاة المنحطين. ما يهم الأمة والعالم هو الاستمرار فى تأكيد انعدام شرعية الغزو الأمريكى للعـراق ورفـض اضفاء أى نوع من الشرعية عليه. وتسليم هـؤلاء الطغـاة أنفسهم لجيش الاحتلال الأمريكى يعنى ما هو أكثر كثيرا من النذالة والجبن لأنه نوع من التسليم بشرعية الاحتلال. فأقـل القليل الذى كان بوسعهم عمله طالما أنهم حريصون كل هذا الحرص على الحياة ولو فى الذل والمهانة كان هـو تسـليم أنفسهم لمكتب أى منظمة دولية فى بغداد أو أى مدينة أخرى.

وما يهم الأمة والعالم هو معنى المسئولية عن التحـدى. فمن شاء أن يتحدى طاغية يجب أن يكـون مسـتعدا لـدفع الثمن. ومن شاء تحدى أمريكا، يجب أن يكون مستعدا لتحمل مسئولية هذا الاختيار. فالبطولات الكلامية التى تنتهى الـى أفعال جبانة ونذلة تهين شرف الشـعوب وتـذل كبرياءهـا الوطنية بأكثر كثيرا من الصمت بل وبأكثر كثيرا من التواطؤ مع الطغاة والمعتدين. ولا يصدق ذلك على الأشخاص والقادة وحدهم بل وعلى الحكومات والدول أيضـا. فقـد تصـرفت فرنسا وألمانيا حتى الآن بكرامة وشرف. فهى لا تبحث عن شجار مع الولايات المتحدة. وهى لا تريد مزيدا من التدهور فى علاقاتها مع الأمريكيين وخاصة بعد انتصارهم العسكرى المجانى فى العراق. ولكن فرنسا وألمانيا لم يعلنا الندم ولـم يتراجعا عن مواقفهما المبدئية بأن تلك الحرب غير شـرعية وأنها ترمى لتحقيق أهداف عالمية غير مقبولـة. ويبـدو أن الدولتين والحكومتين تدركان ما لوح بـه الأمريكيـون مـن عقوبات لقاء مواقفهم الرافضة لإضفاء الشرعية على العدوان أو الاحتلال. ولكن المحافظة على روح التحـدى الفرنسـى والألمانى يحتاج بشدة الى قوى اقليميـة وعالميـة أخـرى تتضامن معه. وقد ينهار التحـدى الفرنسـى والألمـانى اذا استمرت منطقتنا فى الخضوع لأمريكا.

يحتاج العالم للوقوف بصلابة وشجاعة ضد الشخصـيات الخطرة فى واشنطن التى تريد السيطرة على العـالم بشـن حروب متواصلة. ولكن من الأفضل للعالم أن ينتظر حتـى تظهر قوى شجاعة وشريفة تتمتع بصلابة حقيقية وشـجاعة غير زائفة أو مجانية عن أن يسرع باعلان التحدى بواسـطة هذا الطراز من الناس الذى يسـرع أيضـا بتسـليم نفسـه للسلطات التى تحتل بلاده.

(٢٣)

ماذا تفعل الحرب بالعرب؟

المقاومة العراقية هى أهم ظواهر تلك الحـرب الجـائرة التى يشنها تحالف اليمين الأمريكى المتطرف على العـراق وهى أهم نتائجها الثقافية الأولية. فقد حررتنا تلك الحرب من صورة المؤسسة الأمريكية الحاكمة عنا الى حد بعيد. وربما نستطيع أن نفسر المقاومة الباسلة للشعب والجيش العراقـى بأنها ثورة أخلاقية على تلك الصورة اللاأنسانية عن العـرب التى أشاعتها المؤسسة الأمريكية عندما تصورت أن الشعب العراقى سوف يستقبل الغزاة بالورود والأحضان وأن الجيش العراقى سيستقبلهم بالتسابق على الاستسلام.

ولكن المقاومة العراقية تحرر بقية الشعوب العربية أيضا من صورتها عن نفسها. فلا شك أن صورة العربى عن ذاته الثقافية والقومية بل عن وجوده ذاته قد انحطت كثيرا خـلال ربع القرن الماضى الحافل بالهزائم العسـكرية والفوضـى الأخلاقية والعبثية السياسية والانكمـاش الثقـافى والتـردى الواضح فى الاداء الاقتصادى والاجتماعى. فالعربى لم يعـد

هو ذلك الذى يعلن فى الاذاعات تحديه للجميع وينهار ما أن يبدأ القتال. استنبطت المقاومة عربيا آخر قـادرا علـى أن يحقق معجزة عسكرية بأسلحة بدائية حتى وهـو محاصـر ومعزول وحتى عندما يخوض معركة الكرامة والذود عـن الوطن ضد أعتى قوة عسكرية واقتصادية فى العالم.

لم يكن هذا العربى قد اختفى من التاريخ. فقد فعلها مـن قبل فى كل لحظة من لحظات التاريخ القديم والحديث. لـدينا ثورة عام ١٩٣٦ فى فلسطين ولدينا حرب أكتوبر والانتفاضة الفلسطينية التى صنعت شعبا من الاستشهاديين. والآن لـدينا المقاومة الباسلة فى العراق ضد تحالف الغـزاة المجـرمين. وتتحد هذه اللحظات بشريان من الدم العربـى الـذى بـذل رخيصا من أجل الوطن والكرامة والعدالة لتصـنع صـورة عربى آخر غير ذلك الذى طغـى علـى حياتنـا السياسـية والاجتماعية خلال ربع القرن الماضى.

هذا العربى لم يكن قد مات. بل هو قادر على أن يولـد من جديد فى كل الأوقات. ولكن ربع القرن الماضى أخفـاه من الصورة لمصلحة الذين يتصدرون الساحة والذين أغرقوا أنفسهم فى المال واللذات وشهوات الحكم والمناصب وأغرقوا

شعوبهم بالقمع والمشكلات والاعتقالات والقرار العشـوائى وأغرقوا طغاة العالم بالابتهالات والرجـاءات والتوسـلات والتنازلات والمجاملات المجانيـة علـى حسـاب المعنـى والحقوق والوطن والمصير.

وتبقى المعضلة! فالمقاومة تستطيع أن تحررنا من صورة الغازى عنا بل ومن صورتنا عن أنفسنا. ولكن القدر الحقيقى للمقاومة يجب أن يقاس بمدى قدرتنا على تحرير أنفسنا مـن الضعف البنائى والتخلف الاجتمـاعى والسياسـى والقهـر التسلطى الذى هو السبب المباشر والأعمق فى كل مظـاهر الخلل الحضارى والاختلال فى المـوازين العسـكرية مـع خصومنا التاريخيين.

بل إن القيمة الحقيقية للمقاومة لا يجب أن تقاس بالقـدرة على الانتصار النهائى فى المعركـة العسـكرية الراهنـة. فالموازين العسكرية المادية لها أيضا سلطان وأثر فى تحديد مسار العمليات العسكرية. وبوسعنا أن ننظر لتلك المعركـة كأنها الفصل الافتتاحى فى حرب طويلة لتحرير أنفسنا بـل والعالم من الجور والاستبداد والقهر العالمى. والخطوة التالية هى الاستعداد لاستئناف تلك المعركة بكل الوسائل السياسـية

والعسكرية الممكنة حتى لو أنكسر الجيش العراقـى بسـبب تفوق العدو التكنولوجى. فبوسع الشعب العراقى أن يحجـب النتائج السياسية والمعنوية عن الغـزاة حتـى لـو مكنـتهم تكنولوجياتهم الأرقى من تحقيق نصر غير شريف أمام دولة صغيرة حوصرت وعزلت وحرمت من كل دعم. فالشـعب والجيش العراقى لا يدافع عن نظام صـدام بحيـث تنتهـى المقاومة لو انكسر هذا النظام. بل يدافع عن الـوطن وعـن الكرامة والحق فى الحرية. ويمكن أن تكون المقاومـة أشـد وأفعل عندما يتولاها الشعب بنفسه ولو بالوسـائل السياسـية عن طريق المقاطعة التامة لأى حكومة استعمارية: عسكرية كانت أو مدنية.

ولو أن مقاومة الشعب العراقى قد حررتنا كعـرب مـن الخوف ومن الهوان فلا بد من الاسراع بمد يد العـون لهـا لتحقق انتصارها السياسى حتى لو أن الظروف قد منعت بقية العرب من مد يد العون العسـكرى للعـراق فـى اللحظـة المناسبة. فمسار الحرب الطويلة ضـد الطغيـان العـالمى والصهيونى سيتحدد بمدى قدرتنا على بناء اتحـاد سياسـى حقيقى عبر الحدود بين الـدول وبـين التيـارات السياسـية والفكرية العربية.

وعلى نفس القدر من الأهمية يجب أن يعيد هذا الاتحـاد تشييد الجسور مع شعوب العالم الأخـرى. فالنضـال ضـد الحرب الاجرامية التى يشنها اليمين الأمريكى والصـهيونى المتطرف ضد العراق وفلسطين بدأ من داخـل أمريكـا ثـم انبسط فى الساحة العالمية وأخيرا فقط تمـدد فـى السـاحة العربية. وحركة مناهضـة الحـرب والطغيـان الأمريكـى والصهيونى أسقطت نظريات الصراع الدينى والثقافى. أفاقت الشعوب فى كافة أقليم العالم ومن كافة الثقافات والأديان ومن كافة المذاهب الديموقراطية والانسانية على حقيقة أن تـدمير العراق والسيطرة بالعنف على العالم العربى هو بداية تدمير القانون وأسس الحضارة بما فيها الحضارة الغربية الحديثـة بل وتدمير حريات وحقوق الشعوب جميعا. وبهذا المعنى فقد تسببت حماقة اليمين الأمريكى والصهيونى المتطـرف فـى استعادة وبناء أخوة أو حركة عالمية جديـدة لانقـاذ العـالم والسلام بين الشعوب. ولا بد أن نستجيب وأن نتشابك فـورا مع تلك الحركة العالمية وأن ننتصر لها وبها.

ومهما كانت نشاطية المناضلين العرب الذين بادروا بمـد الجسور مع تلك الحركة العالمية لم يكن من الممكن لنـا أن نقدم أوراق اعتماد حقيقية وذات مصـداقية لتلـك الحركـة العالمية بدون المقاومة العراقية الباسلة. وبدون استمرار هذه المقاومة بكل الأساليب الممكنة والالتحام والتبنـى العربـى الواسع لها ودعمها بكل الصور لن يكون من الممكن لتلـك الحركة العالمية للعدالة والسلام أن تنظـر لنـا الا كمجـرد ضحية.

المقاومة على المستوى الشعبى العربى يجب أن تصـوغ نظريتها السياسية الخاصة وأن تسقط النظريات السائدة حتى الآن فى حقل السياسة العربية. لقد سقطت بالفعـل نظريـة صراع الثقافات والأديان التى تبناها تيار مهم فـى السياسـة العربية وأدت الى اعتماد استراتيجية العنف الارهابى أو الى اعتماد نظرية الانكفاء على الذات الثقافية والدينية. وصـار من الضرورى أن نعيد بناء نسيج من التحالفات العميقة مـع كل الشعوب والقوى المضطهدة والمتطلعة لحضارة إنسـانية جديدة وأن تبنى هذه التحالفات علـى الأرض ضـد اليمـين الفاشى والصهيونى الأمريكى والاسرائيلى.

لقد أبدعت شعوبنا استراتيجية النضـال المـدنى وهـى النظرية التى استنبطها الشعب الفلسـطينى فـى انتفاضـته الأولى. وبينما لا تستبعد تلك النظرية أشكالا معينة من الكفاح المسلح المشروع فانها لا تنسى أن كسب المعركـة لا يـتم بالضرورة بالبنادق والمتفجرات حتى لو حتمتها الضرورات. فالحرب تكسب فى أذهان الناس لأنها تبدأ أيضا فى أذهـان الناس.

ولكن هذا النضال المدنى كاستراتيجية عامـة وعالميـة للنضال من أجل اسقاط اليمين الفاشى والصهيونى الأمريكى والاسرائيلى والدفاع عن القانون والسلام والعدالة الدوليـة لا يتساوى أو يتساوق مع النظرية البليدة التى حكمت السياسـة الرسمية العربية، وهى تلك التـى لا تـنهض سـوى علـى التوسلات والرجاءات والاسـتغاثات. فالنضـال السياسـى والمدنى والمقاومة المسلحة عندما تكون ضرورية وممكنـة مثلما هو الحال الآن فى العراق وفلسطين هو الأساس الوحيد لانتزاع الحقوق التاريخية والسياسية. والتفاوض لا يمكن أن يجلب لنا حقا الا اذا كان تعبيرا عن نضال حقيقى وتوازنات تفرضها المقاومة بكل أشكالها وعلى جميع الأصعدة.

لقد سقطت فى الواقع النظريات السياسية الرسمية. ولكـن المقاومة لم تنتج نظريتها السياسية الخاصة بعد. فاستمرارها هو وحده الضمان لإبداع هذه النظرية. ولأن المقاومـة لـم تخط سوى أولى خطواتها فسوف تكون قادرة على اسـتنباط نظريتها الخاصة فى سياق تطورها. فابداع نظريـة خاصـة للنضال العسكرى ضد قوة غاشمة يرتهن بانتصار صـورة العربى المقاوم على صورة العربى الخـانع أو المسـاوم أو المهادن. وابداع فكرة عربية عن الحرية والحقوق الدستورية سيكون ممكنا أيضا من خلال التحرر من الاستعباد والقهـر الداخلى ولو بـالقوة (الأخلاقيـة - المدنيـة- التنظيميـة- السياسية- المعنوية وفى حالات معينة ولحظات خاصة: القوة المميزة للفعل الجماهيرى الثورى).

(٢٥) ما بعد الألم والمرارة
أسئلة سياسية أم تاريخية أم وجودية؟

ستار من الحزن واللوعة أنزل على فاصل مـن مسـرح العبث والمأساة في تاريخنا العربي المعذب. فعنـدما تسـقط بغداد تسقط معها كل المعاني وكافة الأيديولوجيات ولا يرتفع غير صوت الصمت الحائر. سيول من الألـم تنهـال علـى قلوبنا فتنبت مرارة وتنبت أيضا أسئلة كفيفة. لماذا لم يتـنح صدام وهو يدرك جيدا انه لم يكن يتقن غير قمـع الضـعفاء والحروب العقيمة ضد الأشقاء ولم يكن يستطيع أن ينتصـر في هذه المعركة؟ لماذا لم يتصرف رجل ما آخر في بغـداد في الوقت المناسب لكي يعفى شـعبه وأمتـه مـن الإهانـة والدمار؟ وإذا كان هذا الاختيار الملحمي قـد أتخـذ بقبـول التحدي اليائس، لماذا انهارت المقاومة فجأة على هذا النحـو المهين؟ لماذا لم يفيدوا ويتعلموا من تراث الهزائم العربيـة؟ وطالما أن الغزاة كانوا يطرقون الباب ويندفعون نحو بغداد، لماذا لم تتخذ حتى أكثر التدابير بديهية مثل تدمير الجسور أو تلغيم الطرق؟ ولماذا اتخذت أكثر القرارات التكتيكية بلاهـة وحمقا في تلك الحرب العجيبة؟.

ولكن تلك الأسئلة بائسة بدورها لأنها "فنية". فمـاذا عـن الأسئلة السياسية؟ ماذا عن تواطؤ وصمت وخذلان الأشـقاء العرب؟ ماذا عن جحود ونكران جميل بغداد والعراق علـى تاريخنا وثقافتنا العربية؟ وماذا عن المفارقة بين المعارضـة العظيمة للإمبرياليين وتجار الحروب في الغرب في الوقـت الذي صمت فيه ملوكنا وسلاطيننا في الممالك والجمهوريات العربية؟ وماذا عن هذا التسليم الغريب بالقدر وهم يعرفـون أنهم أيضا مستهدفون؟.

هذه الأسئلة بائسة لأنها سياسية في بلاد لا تعرف شـيئا عن السياسة. فسقوط بغداد هو انهيار لنظام المعاني. وقد وقع هذا الانهيار عندما سلمنا أرواحنا لطغاة من أسـوأ الأنـواع فقادوا بلادنا العربية إلى فجيعة بعد أخرى. وأي طفل يعرف أن التسليم لطغيان الحكام هو بداية التسليم لطغيان الأعـداء. فلماذا سلمنا أرواحنا لهؤلاء الطغاة الذين لا يعرفون للبطولة طريقا إلا عند اعتقال أو تعذيب مثقف أو مواطن بسـيط لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه.

ولكن هل يمكن أن يفسر هـذا السـجل البشـع لحكـام متغطرسين هذا الاستقبال الجنوني لقوات الغزو في بغـداد؟ يعرف أي طفل أن هناك فارقا بين الفرح لنضال شعبي توج رأس الأمة عندما يسقط نظام طاغوتى والفرح لسقوط بغـداد على يد جحافل الغزاة الذين لا يقلون إجراما وبشـاعة عـن النظام الذي أسقطوه.

ما رأيناه على شاشات التليفزيون ليس سـوى اسـتكمال للعبث. صحيح أنه استكمال مرير ولكنه بالتأكيد غير حقيقي. فمن جاء إلى وطني بالجيوش ليس غير عدو. ومـن دمـر بيوت اليتامى والبسطاء وحشد المشافى بـالقتلى والجرحـى ليس غير عدو. ومن أذل أبنائي في البصـرة وكـر بـلاء والموصل وبغداد ليس غير عدو. ولا يمكن استقبال العدو إلا بالرفض والمقاومة.

تهدر كل المعاني إلا هذا المعنى لأنه الإجابة الكلية علـى أسئلة الوجود. فمعنى وجود العربي هو الدفاع عـن بـلاده وحراسة دينه وثقافته وحريته. وما رأيناه من استقبال الغزاة في بغداد ليس أكثر من خديعة بصرية. فالكاميرات لا تلـتقط إلا من يستعرض أمامها. لا تلتقط المقاوم الذي يزود روحـه

بوقود جديد بعد أن غدر به قادته ورؤساءه. لا تلـتقط تلـك المرأة صاحبة الوجه المجعد الحزين التي فقدت ابنها تحـت ركام منزل طيني بسيط فأوقدت القذائف في قلبها نارا تبغـي العدالة ممن قتلوه. والكاميرات لا تلتقط هذا الجندي البـائس الذي لا زال في خندقه وصدره يعج بمشاعر الرفض علـى من داسوا على كرامة وروح بلاده. ولا تلتقط الحزن الـذي ينساب في قلوب ملايين الناس الذين عذبهم زبانيـة صـدام ولكنهم يرفضون اليأس ويرجفون غضبا عندما يـرون أيـة علامة استسلام.

هل كانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيهـا الغـزاة فيرقصون طربا لنصر رخيص ضد قادة وزعماء ورؤسـاء جهلة وسفهاء؟ لا ليست هي الأولى وقد لا تكون الأخيـرة. فتاريخنا العربي هو غيطان المآسي والملاحم التعسة والنبيلة أيضا. وفى كل مرة كان المعذبون هم مـن يـدافعون عـن شرف الوطن ومعنى العدالة. بل إن المقاومة الحقيقية قـد لا تكون قد بدأت حقا في العراق. فهي تبدأ مع سقوط المجرمين الذين عذبوا شعوبهم ونفوها وغربوهـا ومزقـوا أجسـادها وبددوا عقولها ومرغوا كرامتها في التراب.

لقد سقط المجرمون المحليون وبدأت المهمـة الأصـعب لإسقاط المجرمين الدوليين الذين لا يعيشون إلا على الحروب وبيع النفط والأسلحة والسرقات النظيفة فـي المسـافة بـين الأرقام والجثث؟..الذين لا يعرفون سوى مشـاعر الانتقـام الخسيس والأموال الكبيرة والأمجاد المزورة الوضيعة علـى حساب فقراء العالم ومساكين بلادهم أيضا.

لقد سقطت بغداد ولكن لم تسقط ضمائر وسواعد من بنوها ولن يسقط أبدا نبلهم وشهامتهم والوجد بسوامق حضـارتهم ومعاني تاريخهم المجيد.

سقوط بغداد هو على العكس، سقوط للأوهام والأكاذيـب والدعايات المبتذلة التي تملأ فراغ الأثير وشاشـات التلفـاز والتي لا تكاد تستر العنف والقسوة والجبـروت والافتـراء الاستعماري. وهو أيضا سقوط لأسقف الخوف والرعب الذي أمطرتنا به آلاف الطائرات والدبابات وشتى أنواع القـذائف والأسلحة. سقط الخوف لأننا تدربنا يوميا على هذا كله ففقـد مفعوله. فنحن نعيش الموت كل يوم حتى أنسناه.

(٢٦)

المستقبل السياسى للعراق بعد الغزو

مقدمة :

يكتنف الحديث النقاش حول المستقبل السياسى للعراق بعد الغزو الأمريكى صعوبات عدة. وسوف أركـز هنـا علـى صعوبة واحدة وهى العامل النفسى الذى يحيط بهذه المناقشة.

فلا شك أن الحديث عن الغزو والاحتلال لبلد عربى عظيم مثل العراق هو بحد ذاته ألم عظيم. وقد تعودنا ثقافيـا أن لا نناقش تفاصيل شىء نستنكره ونكن له كل هذه النفور والمقت المشروع. ونحن فى مصر خاصة قد اعتدنا أن ننظـر إلـى الأحداث التى نكرهها نظرتنا إلى الكوارث العظمى. فننفـر من الحديث عن تفاصيلها أو مجـرد اسـتكناه طبيعتهـا لأن مناقشة التفاصيل أو إعمال الذهن فيها يفترض حـدوث مـا نكرهه والأخطر هو أن الانطباع السائد هو أن مناقشة تلـك الأشياء ينطوى فى أذاننا على نوع مـن اضـفاء الشـرعية السياسية أو القانونية عليه. ولا أدرى شخصيا من أين جاءت

تلك السمة الثقافية. فالأصل فى الثقافة المصرية بل والعربية بصفة عامة هو أنها ذات طبيعة عملية. ولقد تعاملنا تاريخيـا مع سلاسل لا تنتهى من الكوارث. بل وفاجأنا انفسنا بـالقفز من أشد المواقف رفضا لاحتمال معين ومقاومته بأشـد مـا تكون المقاومة الى التعاطى مع ما كنا نراه نهايـة للتـاريخ القومى كقدر لا يرد لفترة من الفترات. فلم يتصور أحد مثلا فى وقته وقوع الهزيمة للثورة العرابية. ومع وقوع الهزيمـة أخذ جيل كامل من المصريين يتنصل من الثورة التى شارك فيها الجميع وكأنها مس شيطانى. لقد منعتنـا هـذه السـمة الثقافية التى أقول أنها مستجدة على ثقافتنا من التعرف علـى اسرائيل مثلا قبل عام ١٩٦٧. وظـل مـن غيـر المفهـوم للكثيرين مجرد أن ننتج دراسات عن المجتمـع الاسـرائيلى وكأن هذه الدراسات تسلم أو تضفى الشرعية علـى وجـود اسرائيل أو تمنعنا من النضال ضدها أو لتغييرهـا بصـورة جوهرية كدولة عنصرية.

هذه السمة ليسـت مجـرد معاديـة لثقافـة وذات أفـق أسطورى. فالمشكلة الأكبر هى أنها تشل تفكيرنا فى التعامل مع النتائج الكبرى للكوارث السياسية الكبـرى فـى عالمنـا العربي. ولا يقل عن ذلك أهمية أنها تمنعنـا مـن التفكيـر بصورة خلاقة وغير مألوفة مع مشكلاتنا. اذ تميل الذهنيـة السائدة الى التعامل مع الكوارث وكأنها إما نتـاج الطبيعـة بمعنى أنها لم تنتج عن تناقضات حياتنا السياسية وأختياراتنا الاجتماعية أو هى نتيجة مؤامرات خارجية صرفة، وهو مـا يدفعنا الى نبذ مجرد الحديث عنها وعن آفاقها المستقبلية.

ولا يمكن تناول المأساة العراقية بهذه الطريقـة. فالتـأمر الأمريكى ظاهر بكل تأكيد ويتم الحديث عنه بمنتهى الوضوح والصراحة سواء فى أحاديث المسئولين الأمريكيين أنفسهم أو فى الاعلام الأمريكى. لم يخف الأمريكيون أبدا رغبتهم فـى غزو العراق! والحال – من هذه الزاوية- أننا أمام مـؤامرة معلنه وواضحة المعالم وتحاك فى وضح النهار..أى أننا أمام سياسة رسمية!.

ومع ذلك لا يمكن التعامل أيضا مـع المأسـاة العراقيـة وكأنها تبدأ بهذه المؤامرة. فهى تبدأ من أوضاع وسياسات تم اختيارها من جانب النظام العراقى الحالى بكل عناية وبعـد تفكير طويل لأنها تعبير منطقى للغايـة عـن أيديولوجيتـه وسماته الأساسية وصفة خاصة التمركز بالغ التطرف للسلطة بيد ديكتاتور واحد يتسم ببساطة ذهنية بالغة، وتعتمد مدرسته السياسية على المبادرة لممارسة أقصـى درجـات العنـف الاستئصالى وهو الأمر الذى أدى الـى تـدهور الأوضـاع الداخلية فى مجتمع يعيش استقطابات طائفية وقومية ومذهبية عميقة الجذور.

وكامتداد منطقى للتفكير فى الشئون السياسـية بطريقـة المؤامرة الخارجية التى لا مسئولية لنا ولأخطائنا عنها ينطبع تفكيرنا عن الطرف أو الأطراف الأخرى فـى المعـادلات والصراعات السياسية –مثل أمريكا أو المعارضة العراقيـة- فى هذه الحالة بالكناية الشيطانية. فأعداؤنا شياطين يريد بنـا أقصى درجات الدمار. فنحن هنا لا نفكـر تفكيـرا سياسـيا والصراعات الدولية وخاصة التى نحن أو نظمنـا السياسـية طرف فيها لبست صـراعات سياسـية توجههـا المصـالح

والأيديولوجيات وغيرها من العوامـل السياسـية بـل هـى التجسيد الأبدى ذاته بين الخير والشر أو بين الله والشـيطان. ويتلبس العدو صورة الشيطان الذى يتصرف بما يمليه عليـه قدره: أى الإيذاء بكل الصور الممكنة. وما هى أشد صـور الأيذاء بالنسبة لدول وبلاد مستقلة حديثا؟ انه تفتيت الـدول. ومن ثم فالأمريكيون سيقومون بتفتيت العراق الى دويلات قد تكون ثلاثة أو أكثر. وهنا نقف عند أقصى طـرف ممكـن لخيالنا السياسى أو لقدرة هذا الطـراز مـن التفكيـر علـى استكشاف المستقبل بعد نهاية الصـراع أو الغـزو. ألـيس الشيطان نفسه هو من نحاربه أو من يقوم بالغزو؟

وكامتداد لهذه السمة الأسطورية اللاسياسية ذاتها ثمة ميل عميق للتفكير بدافع غريزة الخوف. حيث التطير هو ما يحكم مواقفنا من كافة الأطروحات المثارة علـى السـاحة حـول موضوع ما. فالأطروحة الشـعبية فـى ثقافتنـا السياسـية المعاصرة هى أن الامبريالية الأمريكية والصهيونية تتـآمر لتقسيم البلاد العربية كل الى دويلات. وقد وسم هذا التطيـر ردود الفعل تجاه التطلعات المشروعة لدى فئات أو جماعات قومية معينة فى بلادنا العربية مثل الأكراد فـى العـراق أو

قبائل جنوب السودان نحو الاستقلال الذاتى فرفضـنا هـذه التطلعات وأخذنا فى شن الحرب ضدها وهو ما قاد بعضـنا الى التطرف فى رد الفعل والمطالبة بالاستقلال وليس فقـط بالاستقلال الذاتى فى صيغة فدرالية. وبـذلك بـدأنا بتفكيـر أسطورى يثبت الوضع القائم دون أدنى مرونة فى التأمل معه من منطلق مبدئى أو سياسى لكى ننتهى إلى كارثة لم تكن فى الحقيقة تحتاج الى مؤامرات خارجية لكى تتبلور.

ونخشى أن تتضاعف اللآثار السلبية لتلك السـمات فـى طريقة التفكير فى ثقافتنا السياسية المعاصرة فى التعامل مـع ما بعد الغزو الأمريكى للعراق.

والواقع أنه لن يكون ممكنا أن نفكر فى المستقبل السياسى للعراق بعد الغزو إلا إذا تحررنا بصورة حاسمة مـن هـذا القفص الأسطورى الذى حبسنا تفكيرنا فيه وخاصة أننا يجب أن نشارك فى صنع مستقبل العراق مـن الآن أو بأقصـى سرعة ممكنة والا فلن يلتفت الينا أحد.

وحيث أن الولايات المتحدة هـى التـى تقـوم بـالغزو وستصبح بالتالى القوة المهيمنة على العراق بعـد اسـتكمال الغزو فلا مناص من التطلع الى ما نفكر فيه من سيناريوهات رئيسية. وهو ما سنعرض له فى إطار سيناريوهات المستقبل العراقى. والواقع أننا سنعرض لعناصر هذه السـيناريوهات من حيث أرجحية كل عنصر لنرى ما هى أفضل الاختيارات العربية نحوها.

أولا : سيناريوهات ما بعد الغزو:

لا مناص –من الناحية السياسـية- مـن مناقشـة هـذه السيناريوهات إذن على ضوء النقاش الذى ثار لدى الطـرف المهيمن هنا: أى الولايات المتحدة.

وقد بدأ هذا النقاش بتقديرات متفاوتة حول قدرة العـراق: نظاما أو شعبا على مقاومة الغزو والاحتلال الأمريكى.

١ - المقاومة للغزو والاحتلال الأمريكى:

وبدا هذا النقاش حبيسا للأمد القصير: أى المقاومة لفعـل الغزو ذاته. وحصرت معظم الأراء نفسها فى تقـدير قـدرة النظام الحاكم فى بغداد على المقاومة. فالبعض أكد أنه رغم الوهن الشديد الذى ألم بالقدرت العسكرية للنظام بعـد ثلاثـة عشر عاما من الحصار والعقوبات فانه قـادر علـى القيـام بمقاومة جدية وخاصة فى منطقة الوسط الذى تهـيمن عليـه القبائل السنية. أما البعض الآخر فأكد بصـورة قطعيـة أن النظام عاجز تماما عن المقاومـة وأن الحـرب الأمريكيـة ستكون مجرد نزهه حيث ينهار النظام والجـيش العراقـى انهيارا مفاجئا وكليا بعد الهجوم الصاعق الذى يرجح أن تقوم به القوات الأمريكية.

وسادت نفس التوقعات المتطرفة بالنسبة لموقف الشـعب العراقى. فالبعض أكد أن الشعب سيستقبل القوات الأمريكيـة بالغار والورود. إذ سيروا فى أمريكا قوة تحرير مـن شـبح نظام شرير بالغ القسوة. والبعض الاخر اشار الـى الشـعب العراقى الغيور على استقلاله القومى وكرامته الوطنية.

والواقع أن الاتجاهين معا يشتملان على أغلاط جسـيمة. فالشعب العراقى ليس متجانسا أو موحدا تجاه الموقـف مـن الغزو الأمريكى. فمن البديهى أن الأكراد مثلا هم جـزء لا يتجزأ من الشعب العراقى. وهـم أعلنـوا عبـر أحـزابهم وميليشياتهم أنهم متحالفون مع الولايات المتحـدة فـى هـذه الحرب. وهم أيضا يشكلون الجزء الأكبر والأكثر تماسكا من المعارضة العراقية. وثمة جزء من الأكراد تحـالف طـويلا بحكم تواجده تحت السلطة العراقية فى محافظـة الموصـل بالذات مع النظام العراقى. ومن المرجح أن ينقل هذا الجزء ولاءاته بسرعة خارقة الى الجانب المعـاكس مـا أن يـرى الرياح تتحرك ضد مصلحة النظام فى الحرب المقبلة.

وثمة جزء آخر لا يمكن الحديث عنه بصورة منسجمة أو موحدة وهم الشيعة العراقيون. فـنحن نعـرف أن المجلـس الأعلى للثورة الاسلامية لديه قوات عسكرية وأنها قد تشارك أو لا تشارك فى الحرب الى جانب الأمريكيين. ولكن المؤكد أنها لن تقف الى جانب النظام العراقى. وعلينـا أن نناقش مواقفها على المدى الأطول. فهى قد تقاوم التواجد الأمريكى اذا لم تحصل على جانب من الكعكة بعد الغزو وإذا طال هذا التواجد بأبعد مما هو مقرر. وثمة قسم هـام مـن الشـيعة

العراقيين تحالفوا تاريخيا مع النظام الصدامى وقد يشاركون فى المقاومة- بقدر ما هى ممكنة- مـع الجـيش العراقـى باعتبارهم جزءاً من هذا الجيش أو الميليشيات التـى كونهـا للمقاومة. ومن المؤكد أن الجانب الأكبر من الشيعة سـيقفون موقفا معاديا للنظام الصدامى. ولكن من المـرجح أيضـا أن تنقلب مشاعرهم ومصالحهم اذا لم يتعامل معهم النظام الجديد بصورة مقبولة أو لو امتد التواجد الأمريكى بأكثر مما هـو محتمل لدى العراقيين.

والقوات العراقية ذاتها والتى تسـودها الأغلبيـة السـنية والمذهبية البعثية قد تقاوم أو لا تقاوم على المـدى المباشـر بقدر ما تسمح لها ظروف السيطرة وتماسك القيادة وتـوازن القوى العسكرى. ففى الجنوب لا يتوقع المرء مقاومة تـذكر لأن القوات العراقية فى الجنوب بالغة الخفة بالمعنى الفنـى العسكرى ولأن إمكانية السيطرة عليها محدودة للغاية مـا أن تقتحم القوات الأمريكية الجنوب فى اتجاهها الى بغداد. بينما ثمة فرصة أكبر كثيرا للمقاومة حول بغـداد وفـى منطقـة الوسط حيث تتركز أفضل القوات العراقية وتتكثف السيطرة وتتماسك القيادة. ولا شك أيضا أن توازن القوى قد يفضـى الى انهيار سريع للمقاومة النظامية وهو ما يفتح الحديث عن امكانية المقاومة غير أو شبه النظامية.

والواقع أن الذهنية السائدة لدى القيادات العراقية من جميع المستويات قد تكونت أو تأثرت بالطابع التسلطى البالغ لنظام الحكم. فلم يأت هذا النظام عبر حروب أنصار أو فـدائيين. وليست له أدنى خبرة بحروب التحرير اللانظاميـة. وربمـا يكون من الصعب حتى استعادة الخبرة المحـدودة بأعمـال الأرهاب الفردى التى ميزت الفتـرة الأولـى مـن المهنـة السياسية للرئيس صدام حسين شخصيا.

غير أنه لن يكون من الصعب على بعض القبائل السـنية فى الوسط أن تقوم أوتساند بعض أعمال المقاومة المسـلحة للتواجد الأمريكى فى العراق. وقد تتعزز هذه القـدرة مـع استعادة الخبرات العسكرية السنية الكامنة حاليا فى الجـيش العراقى وخاصة قوات الحرس الجمهورى فى الاطار القبلى.

ومن الضرورى هنا مناقشة امكانية قيام حـزب البعـث باستيعاب تلك القوات بعد انهيارها النظامى وتنظيمها بصورة تتفق مع البنية الخاصة لحروب التحريـر اللانظاميـة ضـد جيش احتلال ثقيل للغايـة وفـائق الحداثـة مثـل القـوات الأمريكية. ولا شك أن هناك عاملاً محدداً قد يساعد حـزب البعث اذا قرر المقاومة المتواصلة طويلة المدى. فهو حزب

عقائدى تجمع أصلا حول ايديولوجيا القومية العربية ولكنـه أيضا تكون بتأثير صعود الوطنية العراقيـة التـى تشـربت عناصر من الفخر القومى المستمد من الحضارات العراقيـة التاريخية وخاصة الحضارة الاسلامية فى طورها العباسى.

ولكن المضمون العقائدى للجوب أصيب بتشوه بالغ بسبب توحده تقريبا مع منظومة الأمن الجبارة التى طورها النظـام العراقى خلال خمسة وثلاثين عاما من الهيمنـة البوليسـية المطلقة. كما أن الحزب فقد أفضـل كـوادره الايديولوجيـة بسبب التصفية الدموية التى قامت بها القيادة بصورة دورية. وأنشقت عناصر كثيرة من الحزب ويتعاون بعضها حاليا مع الأمريكيين مباشرة أو فى إطار تحالف المعارضة والمسـمى بالمؤتمر الوطنى العراقى.

ومن ناحية ثانية، فالحزب لم يكون قدرة حقيقية أو خبرات تذكر بحروب الأنصار أو الحروب الثوريـة لأنـه ضـمن السلطة بوسائل الانقلاب والقمـع البوليسـى. وتثـور بـين عناصره شكوك عميقة لأنه تطور فى مناخ من انعدام الثقـة المتبادلة وأصابه نفس التدهور البيروقراطى الذى عادة مـا يصيب الأحزاب الحاكمة. غير أن كـوادر الحـزب تملـك مهارات قد تكون قابلة للتطوير فى اتجاه أعمـال الارهـاب وهو ما قد يقودها الى نوع ما من المقاومة.

ولكن المقاومة تحتاج الى أكثر من الأطر التنظيميـة: أى الى الثقة المتبادلة والانضباط الطوعى وهو ما لـن يـتمكن البعثيون الحاليون من ضمانه. فالبقية الباقيـة مـن القيـادة الحزبية الراهنة وبالذات هياكلها الوسيطة هـى مـن أشـد عناصر الحزب والسياسة العراقية جهلا وغوغائية وسـوءا فى السمعة.

ولكن الهياكل القبلية قد توفر بديلا لابأس بـه مـن حيـث الصلابة وعنصر الثقة والقدرة التنظيمية. ويتوقف تمكن البنية القبلية فى الوسط على المقاومة على استرداد المعنويات وهـو ما قد يستغرق بعض الوقت حتى تظهر حرب الانصار كبديل جائز له مصداقية. ومن ناحية أخرى فان الرغبة فـى الأخـذ بهذا البديل قد تتوقف على السياسة الأمريكية وبالـذات مـدى حرصها على كسب ود السنة والعشائر السنية. وهنا يجب أن نذكر ايضا أن البنية القبلية لا تماثـل البنيـة البيروقراطيـة الحزبية فى شىء. فأيا كان تكون البني البيروقراطية الحزبيـة الحديثة فانها تظل أسيرة ايديولوجيا مغلقة. أما رجال وشـيوخ القبائل فهم فى العادة عمليون وراغبون فى القيـام بحسـابات براجماتية مصلحية وأثبتوا تاريخيا رغبتهم فى المساومة بـل وفى التغيير السريع للولاءات.

وقد تندفع هذه البنية القبلية الى تبنـى المقاومـة بتـأثير عاملين. الأول هو بروز معادلـة سياسـية جديـدة بسـبب الاحتلال الأمريكى يكون مضادا للمكانة الخاصة للسنة فـى النظام السياسى العراقى أو يهمشها كلية. فالدافع الطائفى فى توزيع القوة والمكانة مثل العنصر الأكثر صلابة فى دوافـع البنية القبلية. ومع ذلك فان الطابع العملى قد يقود هذه القبلية السياسية للارتباط الايجابى مع الوضع الجديـد بحثـا عـن أفضل صفقة سياسية. ومن ناحية ثانية فان استمرار التواجد العسكرى الأمريكى بأطول مما تحتملـه الكرامـة الوطنيـة العراقية قد يمثل دافعا قويا وخاصة لـدى الأجيـال الشـابة والفئات الأوفر تعليما ومن أبناء الطبقة الوسـطى المدينيـة. وليس من الصعب تصور أن يقود هذا العامل الى تبنى صور مختلفة من المقاومة سواء للوجود الأمريكى أو بدرجة أكبـر للصيغ السياسية التى قد تمنح مكانة أعلى للطوائف الأخـرى على حساب السنة وخاصة بعد مغادرة الأمريكيين للأراضى العراقية.

وبوسعنا التنبؤ بأن المدى القصير وبعـد اتمـام الغـزو مباشرة سوف يكون من الصعب تصور وقوع مقاومة كبيرة. فالمناخ سوف يكون متأثرا بشدة بعامل الصدمة والاحباط بعد الهزيمة والانخلاع عن السلطة المطلقة. وأقصى مـا يمكـن تصوره هو أعمال عنف ومقاومة فى شتى الاتجاهات يقـوم بها أفراد ومجموعات سنية صغيرة ومشتتة تسعى لاسـتعادة زمام المبادرة بسرعة.

أما على المدى البعيد فالأرجح أن تتغير المعادلة السياسية تماما بل وأن يتغير تماما توزيع القوى. فما أن ينهار النظام الصدامى الراهن حتى يعاد تماما فرز المواقـف والتيـارات السياسية. فالعامل التاريخى الأقوى يعود الى استيعاب القوى السياسية فى أطر جديدة قد لا يمكن التنبـؤ بهـا. فانبعـاث الطائفية والنزعة الوطنية سيكون أمرا ممكنا أو مؤكدا. ولكن الأمر يتوقف على البيئة السياسية الجديـدة وخاصـة مـدى الذكاء الأمريكى فى وضع الصيغ السياسية الجديدة. فاذا طال التواجد الأمريكى وتزامل مع ذلك صيغة سياسية غير مواتية للسنة فقد تنشأ تعبئة قبلية أو وطنية سنية تعيد الـى الحيـاة الايديولوجيا القومية العربية بمحتوى مختلف. ويتوقف الأمر

أيضا على حيوية النخب الجديدة واستلهامها لدروس السياسة العراقية بما فيها مرحلة الأزمة الدولية والانهيار العسـكرى. وتعود المعارضة السنية الحالية للانضمام الى أطر سياسـية سنية الطابع بعد تفكك تحالف المعارضة الراهن. وغالبا مـا سيتم ذلك بعناوين جديدة غير حزب البعث الذى تصمه سوء السمعة. ومن المحتمل بقوة أيضا أن تنشأ تحالفات جديدة ضد الوجود الأمريكى تحديدا فيما لو أفلتت الصيغة السياسية مـن أيدى الأمريكيين. ولا شك أن تحالفا وطنيا جديدا قـد ينشـأ على قاعدة المقاومة للوجود الأمريكـى وخاصـة اذا طـال طويلا. ومن المرجح أن يقع تحالف جديد – فى هذه الحالة- بين القوى الأساسية للوطنية العراقية: أى السنة والشيعة. بل لا يمكن استبعاد أن تنشأ حركة وطنية تضم القوى الكبـرى للوطنية العراقية الحديثة بما فيها المسيحيون (الأشـوريون) والتركمان بل والأكراد أيضـا. وعندئـذ تتمتـع المقاومـة السياسية والعسكرية السياسية بفاعليـة لا يمكـن مواجهتهـا أمريكيا. ولا شك أن الحروب الثورية أو حروب الأنصـار ستكون فى هذه الحالة أمرا متوقعا للغاية.

ومن هنا فان المقاومة على المدى البعيد ستتوقف على احتمالات نجاح أو فشل الصيغة السياسية الجديدة التى سيكون للأمريكيين دور كبير فى وضعها أو على الأقل توفير الضمانات العسكرية والسياسية لنجاعتها فى الأمد الوسيط.

٢- الصيغة السياسية:

لا شك أن أهم أبعاد الصيغة السياسية الجديدة فى العراق هو طبيعة التواجد الأمريكى وطبيعته فى العراق.

أمام الأمريكيين اختياران: اما التصرف كقوة احتلال غاشمة أو كقوة هيمنة. الأختيار الأخير يعنى فى الجوهر انتاج أوضاع جديدة فى العراق تضمن استقرارا طويل المدى يكون مواتيا من النواحى الاستراتيجية والاقتصادية لأمريكا دون التورط فى الحكم المباشر أو الحضور السياسى الكثيف واليومى وهو ما يعنى أيضا الانسحاب عسكريا بأقصى سرعة ممكنة وقبل تبلور حركة معارضة أو تحرر وطنى على أسس جديدة أو دفع أقسام كاملة من السكان لتبنى خيار المقاومة على نطاق واسع أو قابل للنمو السريع.

والواقع أن الأمريكيين لم يوضحوا هذه المسـألة بصـفة قطعية. فقد تحدثوا عن أنفسهم كثيرا باعتبارهم بعيدين عـن ممارسة الاستعمار التقليدى. ويفخر الأمريكيون علنا بـأنهم أمة لم يكن لها تراث استعمارى. ويلتزم أكثرهم بـأن ينـأوا بأنفسهم عن استعمار العراق أو الرغبة فى القيام بالممارسات التى ميزت الاستعمار الغربى الحـديث. وأكـد مسـئولون أمريكيون عدة مرات بأنهم لا ينوون الاستمرار فى العـراق يوماً واحداً بأطول مما ينبغى. ويشكل ذلك التزاما بالانسحاب على المدى الطويل على الأقل.

ولكن نفس المسئولين الأمريكيين حذروا أيضا من التوقعات بأن يتم انسحاب فورى أو بعد فترة قصيرة. وأكد أخرون بأنهم قد يمكثون فى العراق فترة طويلة أو غير محددة.

والواقع أنه من المستبعد أن يخضع الأمريكيون العـراق لنظام احتلال طويل المدى حتى لو تبعثرت مـنهم الصـيغة السياسية. فلا شك أنهم سيفضلون تطبيق ما طبقوه من قبـل بالنسبة للكويت وبقية دول الخليج وهو توقيع اتفاقيات أمنيـة غير محددة المدة وهو ما يضمن لهم العودة عندما يشـاءون من الناحية القانونية. كما يضمن لهم الهيمنة السياسية علـى المدى الطويل.

ومع ذلك فان الاحتلال الأمريكى للعراق قد استمر لفتـرة ما من الوقت. ومن المستبعد أن يقوموا بالانسحاب سريعا أى فى غضون بضعة أشهر، أما المدة المحددة التى قـد يبقـون فيها فتتوقف على عاملين: الأول هو السرعة التى يتمكنـون فيها من استعادة الوضع الأمنى وانهاء كل صور المقاومـة الابتدائية وقبل أن تنشأ حركة معارضة وطنية واسعة النطاق سياسية أو عسكرية. ومن المؤكد أن مثل تلك الحركة ستنشأ فيما لو مكثوا فى العراق وقتا طويلا. أما العامل الثانى فهـو المدة التى يحتاجونها لاعادة ترتيب الوضع السياسـى الـذى يضمن لهم موقعا ممتازا أو مهيمنا فى الصـيغة السياسـية الجديدة التى يرغبونها فى العراق.

غير أن هناك عاملا أخر قد يقـود الـى بقـاء القـوات الأمريكية فترة أطول حتى مما هو ضرورى لهـم لاعـادة ترتيب أوضاع العراق.

إن احتمالات انسحاب القوات الأمريكية بنهاية المطـاف تعتمد على مناقشة أهداف الولايات المتحدة من الغزو أصلا. وهنا طرحت نظريات شتى. ان أحـدا لا يصـدق الموقـف الرسمى الأمريكى الذى يبرر غزو واحتلال العراق بإصرار

الولايات المتحدة على "نزع سلاح العراق". وحتى لو صدقت تلك المزاعم فليس من المنطقى أن تستغرق تلك العملية وقتا طويلا. فتلك العملية لا تستغرق أكثر من ثلاثة اشهر علـى أقصى تقدير وخاصة إذا تم فرض عقد إذعـان (أو اتفـاق) أمنى على العراق.

أما النظريات الجادة فتبدأ بالوازع الاقتصادى وبالتحديـد العامل النفطى. تقول تلك النظرية أن الهدف الأمريكى الأول من غزو العراق هو السيطرة على النفط العراقى. فـالعراق تحتوى وفقا لمعظم التقديرات ثانى أكبر احتيـاطى عـالمى للنفط.

وليس من المعروف كيـف سـيتمكن الأمريكيـون مـن السيطرة على نفط العراق وشكل هذه السيطرة. فمن المستبعد أن يتم ذلك من خلال الحكم المباشر للعراق. ولابـد بنهايـة المطاف من إيجاد صيغة تعاقدية وهو ما يمكن ضمانه فقـط من خلال ضمان استقرار حكومة قانونية. وبتعبير آخر فـان توقيع اتفاقيات نفطية يتوقف ويتلو ايجـاد صـيغة سياسـية مستقرة ومشكلة وفقا لدستور دائم. وحيـث أن هـذه هـى الخطوة الحاسمة بعد نهاية ترتيبات المرحلة الانتقالية التى قد

تستغرق فترة تتراوح بين ثلاثة وستة أشهر. فمـن الممكـن نظريا أن يتم وضع صيغة دائمة ومرتبطة باتفاقيات أمنية فى فترة لا تتجاوز سنة واحدة. وبعدها سيكون مـن المحـتم أن تبدأ حركة وطنية للنضال من اجل انهاء الوجود العسـكرى الأمريكى أو حصره عدديا وقانونيا فى اتفاق ما وفى حـدود أعداد وهيكلية محدودة. وأيا كانـت تكتيكـات إطالـة أمـد الاحتلال بهدف إجبار العراق على توقيع اتفاقيات نفطية فقد لا تستغرق أكثر من عام أو عاماً ونصف العام.

غير أن هناك نظرية أخرى تماما تتجاوز كثيرا كـل مـا سبق. فالهدف الأساسى والأول من الغزو الأمريكى للعـراق هو إحداث تغييرات عميقة فى الخريطة السياسـية للمنطقـة برمتها وتحديدا منطقة المشرق العربى. وحتى لو تصورنا أن هذا هذا الهدف سيتم تحقيقه بوسائل سياسية فلابد أن يسـتند على الابتزاز العسكرى أى الحضور العسكرى المباشر فـى المنطقة أو بالقرب منها: أى فى العراق. ولا يمكـن التنبـؤ بالمدى الزمنى الذى قد يستغرقه اتمام هذا الهدف الأمريكى. فقد يتم انجازه فى غضون عامين أو خمسة أعوام. ويتوقـف الأمر الى حد بعيد على تداعيات وردود أفعال دول المنطقـة والرأى العام العالمى والأمريكى والدول الكبرى الأخرى.

ان الانبثاق المدهش للرأى العام العالمى لمناهضة الحرب الأمريكية ضد العراق وخاصة فى ١٥ فبراير الماضى قـد يشكل قيدا مهما على أية مغامرات عسـكرية أخـرى فـى المنطقة. غير أنه ان لم تقفز المعارضة الشـعبية والرسـمية العالمية الى مستوى أعلى كثيرا وتتعثر فـى نفـس الوقـت مشروع الهيمنة العسكرية أو السياسية الأمريكية على العراق فقد لا يمكن اجبار الأمريكيين على التوقف عند حـد غـزو العراق. ومن المحتم فى هذا الحالة أن يمضوا الى اسـتكمال عملية السيطرة على المنطقة وخاصة سوريا ولبنان. ويبقيهم هذا الاعتبار فى العراق فترة طويلة نسبيا من الـزمن ولـو بهيكلية قوة عسكرية مختلفة وأقل من حيث الحجم. وقـد لا تقل هذا الفترة عن عامين بأى حال. ومن المرجح أن يوازن الأمريكيون بين حاجتهم للبقاء فى العراق لفترة طويلة مقبلـة من أجل استكمال مشروعهم الجيواستراتيجى والثقـافى فـى المشرق من ناحية وتوقعات انبثاق حركات وطنية معارضـة لوجودهم فى العراق نفسه وفى بقية المنطقة.

وفى أفضل الحالات قد لا تقل تلك الفترة عن ثلاثة أعوام.

٣- الصيغة الدستورية:

لقد خضعت الصيغة الدستورية لمناقشات ممتدة داخل الولايات المتحدة. وانقسم الأمريكيون الى اتجاهين رئيسيين: الأول يقول بضرورة تحويل العراق –بعد الغزو- الى نظام ديموقراطى تكون له تأثيرات بعيدة المدى على المنطقة ككل. فلو تحول العراق الى نظام ديموقراطى ستنتقل حمى الديموقراطية الى البلاد العربية الأخرى وخاصة سوريا ومصر.

أما الاتجاه الأخر، فأنكر إمكانية الأمرين معا. ويؤكد هذا الاتجاه أن المجتمعات العربية-الاسلامية غير جاهزة لتحول ديموقراطى مستقر. وأن من الصعب أن تنمو جذور حقيقية للديموقراطية فى البلاد العربية وبالذات العراق. ويستخدم بعض القائلين بهذه الفكرة حججا ثقافية مثل "استحالة التوفيق بين الإسلام والديموقراطية" أو أن "الثقافة العربية لا تعرف سوى الخضوع لحاكم مستبد" ويستخدم البعض الآخر حججا تركز على مستويات التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى. أما البعض الآخر فيؤكد على الاعتبارات السياسية والاثنية. ومن وجهة النظر هذه فالعراق لم يحكم أبدا بصورة ديموقراطية. ولا تتجذر فيه الأفكار الديموقراطية بين أية أقسام كبيرة من السكان.

ويركز البراجماتيون وخاصة من الكـوادر الدبلوماسـية الأمريكية ذات الخبرة بالمنطقة العربية على الأضرار الناشئة على المصالح الأمريكية فيما لو نشأ نظام سياسى ودستورى ديموقراطى فى العراق. فالديموقراطية تمنح للأغلبية الشيعية سيطرة أوتوماتيكية فى العراق. وحيث أن القـوة السياسـية الأكبر والأكثر تأثيرا بين الشيعة العراقيين فى الوقت الحالى هى الأصولية الشيعية المرتبطة على نحو أو آخر بـإيران، فان الديموقراكية تمنح إيران نفوذا كبيرا داخل العراق وتنشئ ما هو فى الواقع دولتين شـيعيتين فـى العـالم الاسـلامى وبالقرب أو فوق أهم احتياطى نفطى فى العالم.

ويؤكد هذا الاتجاه أيضا على أن هذا الاحتمال: أى انشاء ديمقراطية فى العراق ينزع الاسـتقرار مـن دول الخلـيج الحليفة والتى تحتفظ بأغلبيات شيعية تأثرت بدرجات مختلفة بالمذهب الخومينى.

ولكن ما تهمله تلك الحجج الأخيرة هو أن هذه الاحتمالات ليست مضادة للمصالح الأمريكية وخاصة عندما يتعلق الأمر باطالة أمد التواجد العسكرى والسياسى الأمريكى فى العراق وفى المنطقة كلها. فايجاد صيغة ديموقراطية تعطى الشـيعة

غلبة شكلية على الأقل فى النظام السياسى. ولكنها قد تضغط على المجتمع السنى لإظهار الاعتـدال تجـاه الأمـريكيين باعتبارهم الضامنين للاستقرار السياسى بنهاية المطاف لفترة قادمة. ومن ناحية أخرى فان إخافة دول الخليج سـواء مـن إيران أو من القوة الشيعية البازغة فى العراق ليسـت شـيئا سيئا للأمريكيين. اذ تجعل حاجتها لهم أكبر وأشد من الناحية الأمنية والسياسية معا.

ومن ناحية ثانية فانه يمكن معالجة المخاوف السنية فـى إطار صيغة ديموقراطية بطرق مختلفة. فلو قامت الصـيغة الدستورية على فكرة مجلسين: واحد للنـواب يقـوم علـى الأغلبية العددية وواحد للشيوخ يقوم علـى ضـمان تمثيـل متوازن للطوائف والقوميات اللغوية فقد تهدأ مخاوف السنة. ومن ناحية ثالثة فان العودة الى حالة طبيعية قـد تسـتجيب لرغبة الجميع فى حالة اسـتقرار ممتـد. وعندئـذ سـيكون للجماعة السنية إمكانية ترجمة الامتياز التقليدى مـن حيـث مستويات التعليم والانجاز المهنى والاقتصـادى والتجـارى فيسترد نوعاً من التوازن. ومن المنظور السياسى البحت قـد "يكتشف" الجميع الحاجة لقوة استقرار نسبى ممثلة فى التواجد

الأمريكى ذاته! كما أن التفوق العددى الشيعى قد يباع لـدى القطاع الرافض للامبريالية من الأمريكيين أنفسهم الحاجة الى تواجد طويل الأمد عبر اتفاقيات (استعمارية) طويلة لضمان الاستقرار.

ومن ناحية رابعة فان الأمريكيين قد يفكروا فى نوع مـن توازن الضعف بين جميع القوى الطائفية والقومية المهمة فى العراق من أجل تأمين تواجد وحضور سياسـى وعسـكرى طويل فى العراق. وبالنسبة للشيعة قد يـتم فـرض تـوازن الضعف عن طريق منحهم –عبر صيغة ديموقراطية- امتياز العدد وتخفيض توقعاتهم فى نفس الوقت عن طريق سياسـة "أكثر خشونة" فى الحد الأدنى نحو ايران. أما بالنسبة للأكراد فستكون لديهم مزايا متعددة. فهم القوة الأكثر عسـكرة فـى النظام الجديد. كما سيتم منحهم درجة ما أقل أو أكبـر ممـا يتمتعون به فعليا الآن من استقلال ذاتى. كما سـيكون لهـم لأول مرة ميزة المشاركة المباشرة فى الحكـم المركـزى. وبالمقابل يتم فرض إضعاف منهجى عليهم من خلال السياسة المعادية للأكراد من جانب تركيا. ويضمن التلاعـب بهـذا الشرط بصورة دورية ولو بالامتناع عـن تـوفير الحمايـة اعتدال وولاء الأكراد فى النظام الجديد.

ولكن هذا كله يفترض نجاح الأمـريكيين فـى التـأمين الابتدائى للاستقرار السياسى فى العراق ككل والأهـم هـو ايجاد صيغة دستورية تضمن التوازن القومى والطائفى فـى عراق ما بعد صدام وهو ما يثير مسألة الصيغة الفدرالية.

٥- الصيغة الفدرالية :

وعلى هامش النقاش حول الصيغة السياسية والدسـتورية للحكم الجديد فى العراق أثيرت قضية الفدرالية. وبرزت هذه الصيغة كأحد أبعاد الحل السياسى للمسألة العراقية فى برنامج "المؤتمر الوطنى العراقى" المعارض وخاصة فـى مـؤتمر السليمانية الأخير. كما أن تلك الصيغة مثلت مطلبا تاريخيـا للأكراد بالذات.

ومع ذلك فثمة مخاوف عميقة لدى جميع الأطراف وعلى رأسهم بالطبع الدول العربية من احتمال أن يتم تفتيت وتقسيم العراق الى دويلات. وتتعمق هذه المخاوف فـى الخطـاب الرسمى والاعلامى العربى لأسباب عديدة. وعلى رأس هذه الأسباب أن كثيراً من المشروعات الصهيونية قد نشرت فـى بصور مختلفة بما فى ذلك المجلات وثيقة الارتباط بالحركة الصهيونية الأمريكية. وتخشى الأدبيات العربية من "تعمـيم"

نمط التقسيم ما أن يتم فرضه فى العراق بمجرد تأمين الغزو الأمريكى للعراق على بقية الدول العربية وخاصة الدول التى تتواجد بها أقليات قومية أو طائفية مثل السعودية والبحـرين ولبنان وسوريا والسودان..الخ

والواقع أن المخاوف من التفتيت قد ثارت أيضـا داخـل الولايات المتحدة. فأثارت المعارضـة المعارضـة للحـرب الخوف من أن تتمكن الولايات المتحدة من تحقيـق انتصـار عسكرى يقوض نظام صدام حسين ومعه الدولة العراقية كلها دون أن تتمكن الإدارة الأمريكية من إعـادة بنـاء النظـام السياسى فيقع العراق ضحية الفوضى وينقسم المجتمع علـى أسس عرقية وقومية.

والواقع أن المناقشات حول تلك الصيغة تجاهلت حقـائق كثيرة.

فالمستوى الفعلى لعملية بناء الأمة فى العراق يعد عاليـا ومن المبالغة الشديدة الحديث عن الفوضى والتفتت أو الانتقام المتبادل والحروب الأهلية فى العراق. فالاندماج بين السـنة والشيعة العراقيين كان قد مضى شوطا طويلا خلال القـرن العشرين. ولم يعد هذا التركز المكانى للشيعة فـى الجنـوب

أمرا مسلما به. فالحراك السكانى نشط كثيرا سـواء بسـبب الفرص الاقتصادية أو الحروب. ولا شك أن الرابطة الوطنية العربية صارت بروزا من أية فترة فى التـاريخ العراقـى. وهى بالتأكيد أعلى من حيث القوة والنوعية عنها فى المملكة السعودية أو لبنان مثلا. ومن نافل القول أن الشيعة العراقيين قد أظهروا بالفعل تفضـيلا للوطنيـة العراقيـة بالمقارنـة بالمشاعر الطائفية اثناء الحرب العراقيـة الايرانيـة وذلـك بالرغم من وجود تيار ليس صـغيرا مرتبطـا بالسياسـات الايرانية.

بل وبلغ الانصهار المتبادل بين الأكـراد والعـرب فـى العراق تحديدا مستوى بالغ الارتفاع بالمقارنة بما تحقق فـى أى بلد أخر يتواجد فيه الأكراد مثل تركيا وايـران. فغالبيـة الأكراد العراقيين يتحدثون اللغة العربية الى جانـب لغـتهم القومية ولم يتردد كثيرون منهم حتى فى الخدمة فى الجـيش العراقى وأجهزة الأمن الباطشة وبعد القمع الذى تعرض لـه ابناء جلدتهم على يد نظام صدام حسين.

وبينما طالبت الأحـزاب الكرديـة الرئيسـية بالصـيغة الفدرالية فلم تطرح القيادات الشـيعية مطلـب الفدراليـة أو الاستقلال الذاتى. وتراوحت المطالب بين الغاء التمييز فـى المستويات السياسية للدولة وتحسين نصـيب الجنـوب فـى توزيع الموارد التنموية هذا فضلا عـن الاطروحـات ذات الصلة بالشأن الدينى.

ومن ناحية ثالثة فقد أدت الحروب التى خاضها العـراق حديثا وبغض النظر عن أسبابها والمسئولية عنها الى انتـاج "حالة وطنية" أقوى بكثير من أية فترة سابقة بين العـراقيين من جميع المناطق والانتماءات الطائفية والقومية والدينيـة. فرغم مظاهر مختلفة للتصـدع النفسـى والسياسـى تحقـق مستوى عالياً من الانصهار الوجدانى بتأثير التجربة القاسـية والفريدة التى تعرض لها العراقيون بكل أقسامهم.

والواقع أن ثمة ايضا درجة عالية للغايـة مـن التكامـل الترابى فى العراق. فلا يكاد يكون من الممكن أن تكتفى أية منطقة بذاتها بعيدا عن التكامل مع المناطق الأخرى. ويضغط هذا العامل بحد ذاته لضرورة تأكيد عوامل الاندماج القـومى بالمقارنة بالعوامل المواتية للاستقلال الـذاتى فـى وضـع الصيغة الفدرالية فيما لو تم الأخذ بهذه الصيغة.

وبينما من الممكن نظريا التوسع فى منح الاستقلال الذاتى للأكراد العراقيين فالتفكير فى صيغة فدراليـة علـى أسـس جغرافية بين الجنوب والشمال لا يعنى فى الحقيقـة فدراليـة بين الشيعة والسنة حيث أن نسبة متزايدة من السكان الشـيعة يستوطنون الآن منطقة الوسط والعاصمة بغداد.

ومن ناحية أخرى فبينما وقع شطط تاريخى كبيـر فـى تركيز السلطة فى العاصمة بغداد وخاصة على يد الـرئيس صدام حسين فان العراقيين من مختلف المناطق والجماعـات الطائفية والدينية يقبلون بفكرة دولة قوية تجسد شعورهم الحاد بالفخر القومى.

ولا يمكن التنبؤ بمستقبل فكرة الفدرالية فى العراق بعـد الاحتلال الأمريكى للعراق. فكما قلنا تبدو الشعارات الحاليـة التى رفعتها المعارضة فى الخارج قابلة للتبخر مـا أن يـتم سقوط النظام العراقى الراهن. فمن المتوقع كما أكدنا أن يقع فرز جديد ومختلف تماما بعد نهاية الحرب الأمريكية وما أن يسترد المجتمع العراقى أنفاسه.

ومن المحتم أن يعكس الانصهار والتكامل القومى نفسـه فى البحث عن صيغة سياسية جديدة. فالوطنية العراقية ليست شيئا قابلا للتجاهل بغـض النظـر عـن درجـة التلاعـب الأمريكى.

وبينما لا يمكن استبعاد أهمية نوايا الانتقام بدوافع مذهبية وسياسية من المستبعد تماما تقريبا أن تثور صراعات طائفية وقومية. ويبدو التفتت تهديدا مستبعدا.

بل ولا يبدو أن نوايا الأمريكيين تتجه الى تفتيت العـراق أو تدمير تكامله الوطنى. فلا تبدو لهم مصلحة حقيقيـة فـى ذلك. ففضلا عن أنهم أعلنوا اهتمامهم بالحفاظ على الدولـة العراقية غير مقسمه فان مصالحهم سواء كدولة احـتلال أو دولة طامعة فى علاقات نفطية غير نفطية مستقرة تدفعهم الى ضمان أقصى قدر من الاستقرار السياسى الذى لا يتحقق الا بالحفاظ على سلطة مركزية على درجة معقولة مـن القـوة. ولا شك أيضا أن الولايات المتحدة تفهم أيضا أن توجهـات السياسة الاقليمية التى تملى التوازن النسـبى بـين العـراق وإيران ومجلس التعاون الخليجى. كما أن الموقـف التركـى المعارض لمنح الأكراد العراقيين قدرا كبيرا سياسيا مسـتقلا

وقويا فى العراق أمر لا يمكن تجاهله عند اعـداد الصـيغة الدستورية الجديدة. وبينما تبدو لديها مصـلحة معينـة فـى التلاعب من خلال العراق بظروف أمن الخليج ككل فهى لا تستطيع المبالغة فى إضعاف السـلطة المركزيـة وخاصـة بالنظر الى العداء الهائل لها سواء داخـل العـراق أو بـين الشيعة العرب والإيرانيين أو بين الشعوب العربية عمومـا. كما أن المبالغة فى إضعاف السلطة المركزية فى العراق قـد يقود إلى انفلات سيطرتها هى كدولة احتلال أو دولة هيمنـة ذات مصلحة مؤكدة فى الاستقرار السياسى فى هـذا البلـد بالذات.

ورغم غطرسة القوة التى ميـزت أداء الادارة اليمينيـة الحلية والولايات المتحدة بشكل عام فهى خاضعة لرقابة قوية للغاية من جانب المجتمع الدولى بشقية الرسمى واللارسـمى بل ومن داخل الولايات المتحدة ذاتها. وتعد الادارة نجاحهـا فى المحافظة على الاستقرار السياسى بعد نهاية الحرب أحد المؤشرات التى تقيس "مشـروعية" قيامهـا بـالحرب ضـد العراق.

ومع ذلك كله فان مجرد سقوط النظام السياسـى الحـالى يبرر قدرا كبيرا من المخاوف باصابة الدولة العراقية بقـدر كبير من الوهن الخارجى والداخلى.

وعلى السمتوى الداخلى من المتوقع أن يصـاب التيـار القومى العربى – وهو التيار الرئيسى فى السياسة العراقيـة للعقود الأربعة الماضية- بنكسة سياسية هائلة. ومن المتوقع بالتالى أن تنتعش مختلف المذاهب السياسية فى محاولة وراثة الهيمنة الايديولوجية وهو ما يضعف المركز الى حد كبيـر. ومن ناحية ثانية فان العراق سيتعرض لعمليات شد وجـذب بين فرقاء العنلية السياسية وهو ما يضعف قاعدة التراضـى الوطنى. وقد يعود قسم كبير من السكان الى قواعدهم القبلية أو يطورون مثل غيرهم من سكان المنطقة بديلا أصوليا. ولا شك أيضا أن تفاوت الخبرة السياسية بـين العـراقيين فـى الخارج والمقيمين سيكون له بعـض الأثـر فـى المجـال السياسى.

وباختصار فان الأطروحة الفدرالية قد تأخذ طريقها الـى المفاوضات حول دستور جديد للعراق. ولكن هذه الأطروحة قد لا تمتد الى جميع مناطق العراق. والأرجـح أن تقتصـر على المنطقة الشمالية. ومن ناحية أخرى يـرجح أن يتـوق العراقيون بجميع أقسامهم الى فترة ممتـدة مـن الاسـتقرار السياسى الداخلى والاقليمى يبعد عنهم الـذكريات المؤلمـة لثلاثة عقود من الحروب والـدمار.وباختصـار لا شـك أن الضغوط الأمريكية والتوجهات الداخلية المرجحة ستقود الى قدر محدد من انتشار السلطة أو توزيعها على المناطق والى درجة محددة وحتمية من إضعاف السلطة المركزية. غير أن هذه الدوافع نفسها ستقود الجميع إلـى عـدم المبالغـة فـى إضعاف السلطة المركزية وإلا تعرض العراق الى انهيار لا يرغب فيه أحد. وقد يتمثل الحل الدستورى المقبول فى مزيج من الإدارة المحلية القوية بالنسبة لمختلف منـاطق العـراق والفدرالية بالنسبة للعلاقة بين الأكراد وبقية العراق.

٦- الترتيبات السياسية المؤقته :

يؤدى سقوط النظام العراقى الى ظهور فـراغ سياسـى يتحتم ملؤه على الفور. وكان لابد للأمريكيين من التفكير فى هذا الجانب. وطرحت مختلف الأفكار إما بصورة دعائية أو بالارتباط بالحرب النفسية أو ردا متسرعا ومتخبطا على النقد الواسع لمشروع الحرب والغزو داخـل وخـارج الولايـات المتحدة. وتمتد هذه الأفكار الى ثلاثة مستويات.

المستوى الأول هو الحاجة الى ادارة مدنية فعالة وعلـى وجه السرعة. وبدا الفكر الأمريكى أكثر واقعيـة وانسـجاما على هذا المستوى. اذ حسموا بصورة مبكرة اختيارهم وهـو الاحياء السريع للادارة المدنية الموجودة بالفعل وخاصة فـى مجال المرافق الأساسية والخدمات العامـة الضـرورية لأى مجتمع عصرى ربما بعد "تطهيرها" من الشخصيات وثيقـة الصلة بالنظام السياسى الراهن أو نخبته العليا.

ويفترض ذلك بالطبع أن الحرب الأمريكية ضد العـراق ستتجنب تدمير البنية الأساسية والمرافق الكبـرى. وبينمـا تعهدت الادارة بأن تأتى الحرب المرتقبة مختلفة تماما –فـى هذا الجانب- عن حرب عام ١٩٩١ التى أسفرت عن دمـار غير مسبوق فى الحروب للمرافـق العراقيـة فـلا يمكـن الأطمئنان إلى هذا التعهد وخاصة أن الحروب ليست نوايـا بقدر ما هى أفعال وردود أفعال أكثرها قد لا يكون عقلانيا أو مخططا.

أما الجانب الثانى فيتعلـق بالترتيبـات الخاصـة بـالأمن العراقى. ولم تتضح خطط الأمريكيين فى هذا المجـال. فقـد أوضحوا نيتهم فى تفكيك أجهزة الأمن الاستخباراتية العراقيـة وربما محاكمة قياداتها العليا. ولا يمكن التنبؤ بمستوى وطبيعة هذا التفكيك وان كان من المنطقى أن العناصر الاسـتخباراتية العليا والوسيطة قد تشكل البؤر الأساسية لاستمرار المقاومـة بالنظر الى أنها الأكثر تضررا من سـقوط النظـام والأكثـر تعرضا لكافة صور الانتقام المنظم وغير المنظم على الأقـل من جانب الضحايا وعائلاتهم. وقد تبدأ المقاومة بهروب واسع الى مناطق القبائل ثم تبلور أشكال تنظيمية ما.

أما العمل البوليسى الاعتيادى فقد ينطبق عليـه مفهـوم الادارة المدنية وبالتالى قد يتم المحافظة على كوادره الرئيسية والفنية بالذات. والواقع أن للأمريكيين مصلحة مؤكـدة فـى حصر نطاق المستهدفين بالفصل مـن الخدمـة أو الانتقـام الشخصى والسياسى أو المحاكمة والاعتقال. فلو نجحوا فـى تأمين تعاون واستمرار أكبر عدد ممكن من تلـك الكـوادر الأمنية الفنية والسياسية يمكـنهم تفلـيص حجـم المقاومـة المستقبلية من ناحية وإضعاف الأساس الاجتمـاعى للنظـام السابق من ناحية أخرى. ومع ذلك فان هذا الجانب بالـذات سيكون أقل المجالات خضوعا للسيطرة نظرا للثارات العميقة والواسعة النطاق جدا بين قمم الجهاز الأمنى الحـالى مـن ناحية وضحاياه من جميع الطوائف والقوميات. ولا شـك أن القوات الأمريكية ستلجأ الى اتباع سياسية متوازية بحيث يتم استعادة أكبر عدد ممكن العناصر الفنية الأمنية بينمـا يـتم اعتقال ومحاكمة أكبر عدد ممكن مـن العناصـر الأمنيـة السياسية. فبينما يخدم الخط الأول مصلحتهم فـى اسـتعادة الحياة العادية بأقصى سرعة ممكنة لاثبات تعاون العـراقيين مع الاحتلال فان الخط الثانى يخدم مصلحتهم فـى "إثبـات شـرعية" الغـزو والاحـتلال ضـد المعارضـة العالميـة والديموقراطية المحلية عن طريق التوسع فى الكشف وترويج ما ينسب الى النظام العراقى من جرائم سياسية وإنسانية.

الجانب الثالث يتعلق بإعادة الإعمار. وتعد هذه من المهام طويلة المدى. فالأضرار التـى لحقـت بـالمجتمع والبنيـة الأساسية للعراق بعد ثلاثة حروب عملاقة وتطبيـق أقسـى نظام للعقوبات فى التاريخ هائلة بأى مقياس. ومع ذلك يبـدو من المحتم أن تبدأ الولايات المتحدة بحملة لتعبئـة التمويـل اللازم لإعادة الإعمار بصورة فورية وما أن تتم العمليـات الأولى لتأمين الوضع المدنى الداخلى.

وتعطى الإدارة الأمريكية أولوية واضحة وقطعية للمرافق النفطية وخاصة لو لحق بها دمار شـديد أثنـاء الحـرب أو استخدم أسلوب حرق الآبار سواء من جانب النظام أو مـن جانب القوات المتحالفة أو بسبب قصف متبادل غير مقصود.

ويواجه العراق على المدى الطويـل مشـكلة المديونيـة وتعويضات الحرب السابقة التى تأكل الجانب الأساسى مـن عائدات النفط العراقى. وحيث أن هذه العائدات ستكون هـى مصدر التمويل الأساسى لعمليـة إعـادة الإعمـار فستنشـأ مصلحة أمريكية مؤكدة فى تخفيض أو إلغـاء التعويضـات الرسمية وإعادة التفاوض حول ديون العراق. اذ يصل حجم التعويضات والديون إلى ما يتجاوز ١٦٠ مليار دولار وهـو

حجم يستحيل على العراق سداده أو مجرد تحمل أعبائـه إلا إذا رهن موارده لعشرات السنين. وبدون ألغاء الجانب الأكبر من الديون الرسمية لن تكون هناك أدنـى فرصـة لتعبئـة التمويل اللازم لاعادة اعمار العراق ومن ثم إنجاح السياسـة الاستعمارية الأمريكية فى هذا البلـد المنكـوب. ولكـن أى اجراء فى هذا المجال سيتوقف بالطبع على مـدى اسـتقرار الهمينة الأمريكية فى العراق. فالمفتـاح الأساسـى لنجـاح الضغوط الرامية لإلغاء التعويضـات أو جـدولتها وإعـادة التفاوض حول الديون العراقية. وتشكل هذه المسألة إحـدى أهم آليات الهيمنة الأمريكية بعد الغزو.

وبالمقابل فان الغاء العقوبات قد لا يستغرق وقتا طـويلا بعد سقوط النظام الحالى. فالأمال الأمريكية باستقرار سـريع للأوضاع السياسية والأمنية فى العراق بعد الاحتلال تتوقـف الى حد بعيد للغاية على انعاش الحالة الاقتصادية فى العراق. وتشكل هذه المسألة –فى تقـديرى- صـلب الاسـتراتيجية الأمريكية فى العراق بعد الاحتلال وبغرض تثبيـت أسـس الهيمنة.

وبينما يتمتع الاقتصاد العراقى بأهلية كبـرى للانتعـاش والتنوع فان الآمال فى انعاش سريع ستتوقف بالطبع علـى حجم الصادرات النفطية ذات العائد المالى السريع. ومن هنا قد يبدأ ضخ النفط بالحجم والكميات التى تسمح بهـا الطاقـة الفنية للحقول النفطية العراقية.

(٢٧)

مستقبل الحالة القومية

عندما تسأل أعداد كبيرة من الناس يصبح السؤال نفسه أحد العوامل التى تدخل الى معادلات المستقبل. وعندما تسأل أعداد كبيرة من الناس بقلق عن مستقبل العلاقات العربية العربية فى المرحلة التاريخية الجديدة التى بدأت بالغزو الأنجلو أمريكى للعراق يكون السؤال دالا على استمرارية التوق لوعاء ما للكيان العربى. ولا شك أن هذه الاستمرارية هى أحد العوامل والاعتبارات التى تسهم فى تقرير مستقبل "الحالة العربية".

غير أن هذا التوق هو اعتبار واحد من بين اعتبار واحد من اعتبارات متعددة ومتعاكسة تقرر مصير "الحالة العربية" فى المرحلة الجديدة. وبوسعنا القيام باستكشاف أولى لما قد يصير اليه المستقبل السياسى للعالم العربى باستخدام المنطق الصورى البسيط. وهذا الاستخدام هو أول عتبات التنبؤ العلمى أو أبسط أشكاله.

يجد المرء نفسه مضطرا لاستخدام هذا التعبير المائع الذى ابتكرته الدبلوماسية العربية ووظفته للدلالة على أشياء أخرى مثل الصراع العراقى الكويتى. وبوسعنا الافـادة مـن هـذا الابتكار اللغوى فى سياق استكشاف المستقبل السياسى للعالم العربى لأن المرجح هو أن يتسم هذا المستقبل بالميوعة.

فالتوق لأشكال أقوى مـن العلاقـات العربيـة العربيـة والخوف من الهيمنة أو العودة الى عصر الاسـتعمار همـا المتغيران الوحيدان اللذان يدفعان نحو علاقات أقوى. ولكـن هناك متغيرات أخرى أقوى تأثيرا تعمل فى الاتجاه المعاكس.

أول هذه المتغيرات هى دخول العالم العربى كله الى حقبة جديدة فى الهيمنة الأمريكية تقوم على الرقابة المباشرة علـى تطور الدول والمجتمعات العربية والتدخل بصور وأشـكال متفاوته قد تبدأ بأبسط الضغوط حتى الجراحـات العسـكرية التى تستهدف تغيير نظم الحكم.

يقع التركيز فى الفترة القصيرة المقبلة على تركيع المشرق العربى وتأكيد الهيمنة السياسية والاقتصادية على منطقة الخليج وربما تسكين القضية الفلسطينية عند مستوى معين. ولكن المغرب العربى سيشهد بدوره جهودا أمريكية أقوى بكثير لإجلاء النفوذ الفرنسى ووراثته جزئيا لمعاقبة فرنسا وجزئيا لضمان حدا أدنى من تثبيت استقراره وإبعاد شبح التمرد السياسى داخله.

عصر الرقابة الأمريكية المباشرة على العالم العربى سيعنى أيضا بمحاربة أى تقدم حقيقى نحو صيغة ذات معنى للتوحد أو التنسيق السياسى أو الدفاعى فيما بين الدول والأقطار العربية. وشكل هذا التوجه أحد أبعاد السياسة الأمريكية فى المنطقة ولكنه سيقوى بشدة بعد غزو العراق. فالتصور الأمريكى لمستقبل العراق نفسه يشمل "تحريره من العروبة" سواء من الناحية الدستورية أو من الناحية السياسية الفعلية. وما يصدق على العراق سيطبق أيضا على بقية الدول العربية فى المشرق والمغرب على السواء.

العامل الآخر هو المستقبل السياسى للدول العربية الكبرى ذات التأثير الأقوى على الاتجاه العام للمنطقة وخاصة مصر والسعودية. ونقول هنا بكل أسف أن التوقعات المتفائلة بمسار ديموقراطى للتطور السياسى فى هذه الـدول لـيس لهـا أى أساس. فلا الجماهير تناضل مـن أجـل الديموقراطيـة ولا النخب السياسية والثقافية حريصة عليها بالمقارنة بخوفها من الفوضى أو من الشعب. وليس من العقل أن نتوقـع تنـازل القيـادات الراهنـة سـواء كانـت عائليـة- عشـائرية أو بيروقراطية- أمنية عن احتكار السـلطة والثـروة طوعـا. وطالما أن افاق التغيير الديموقراطى ليست مفتوحة أو واعدة فلا أمل فى انعاش الطموح القومى.

ولكن ذلك لا يعنى أن الدول العربية الراهنة سترغب فى التخلى عن مسعى ايجاد وعاء ما للتعبير عن "الحالة القومية" سواء باسم القومية أو بأسماء أخرى. والواقع أن التواصـل الثقافى سوف يستمر لأن ذلك لن يكون أمرا قـابلا للـتحكم الحكومى أو الامبريالى. وحيث أن الحكومات العربيـة فـى ظل الهيمنة الأمريكية المباشرة لن يكون لـديها الرغبـة أو الاستطاعة فى تكوين أى نسق دفاعى يقـوم علـى الفكـرة

العربية فالمتوقع أن تركز جهودها فى المجال العربى علـى ايجاد شكل أقوى للتعاون الاقتصادى. وسوف نشهد دعايـة مكثفة لتقديم النموذج الأوربى باعتباره الشـكل والأسـلوب الأمثل للتقدم نحو الوحدة السياسية علـى المـدى الطويـل. وبتعبير آخر لن تتخلى أغلب الحكومات العربية عن "اللغـة القومية" وان تخلت عن أهم مضامين الالتزام القومى العربى. فاللغة القومية مفيدة على أى حـال للمصـالح الاقتصـادية للحكومات وبعض نخب الأعمال وللولايات المتحدة نفسـها. ويمكننا توقع أن تسير عدة حكومات عربية حثيثا على طريق اقامة علاقات اقتصادية أقوى بين بعضها الـبعض بصـورة انتقائية وان كانت قابلة للتوسع فى العضـوية. ولكـن هـذه العلاقات الاقتصادية لن تكتسب صلابة مؤسسية فـى الأمـد المنظور مثل أن تكون منطقة تجارة حرة حقيقية أو اتحـادا جمركيا جادا حتى لو استخدمت هذه التعبيرات فالانتقائية لن تتوقف عند مستوى العضوية وانما سـتطبق أيضـا علـى التركيب السلعى والأداتية الاقتصادية (تجارة -استثمار- نقل أو تعاون تكنولوجى..الخ).

وبذلك يمكن تحديد السمات الأساسية "للحالة القومية" فـى عصر الهيمنة الأمريكية المباشرة فيما يلى:

أولا : تسود حالة مائعة للعلاقات العربية العربية تركز على العلاقات الاقتصادية وتستبعد الأبعاد الدفاعية أو السياسية الصلبة. وتبـرر الأشـكال المفضـلة للروابط الانتقائية بلغة براجماتية ووظيفية تتفق مع الطابع البيروقراطـى واللاديمـوقراطى لسـلطات الحكم العربية.

ثانيا : تتفكك الروابط السياسية الشاملة بـين الأقطـار العربية لفترة طويلة مقبلة ويتراجع الخطاب القومى بصورة أشد حتى لو تم اسـتخدام مفـردات مـن القاموس القومى أو استمرت صيغة الجامعة العربية وهو أمر مرجح. أما الصورة على مستوى الكتـل الاقليمية الفرعية فسوف تكون مضـطربة لفتـرة طويلة مقبلة. اذ قد تتم محاولات لاستعادة الروابط الاقليمية وخاصة فى وادى النيل والمغرب العربى فى بعض الحالات دون نجاح كبير بينما تتعـرض روابط أخرى وخاصة مجلس التعـاون الخليجـى لامتحان صعب.

ثالثا : قد تنتعش محاولات ايجاد ترتيبات اقليمية متعددة القوميات فى المنطقة. وقـد تتفـاوت قـوة هـذه الترتيبات من حيث الصـلابة والمرونـة. ومـن المتوقع أن تتألف رابطة إقليمية بين العراق وإيران وتركيا. وهذه العلاقة قد تكون الأقوى مـن بـين مختلف الترتيبات المحتملة. وقد ينشأ الى جوارهـا روابط أشمل ذات طبيعة شورية وتنسـيقية مثـل مجموعة الدول التى اجتمعت فى الرياض مـؤخرا لإصدار موقف موحد فيما يتعلق بالعراق وتشـمل السعودية ومصر وإيران وتركيا وسوريا.

رابعا : ستتم لا محالة إعادة ترتيب منطقة سوريا الكبرى أولا من خلال تركيـع سـوريا وإجبارهـا علـى الانسحاب من لبنان وإضعاف حـزب الله وتحويلـه إلى حزب سياسى. وقد يكون ذلـك فـى مقابـل أو تمهيدا لإيجاد رابطة إقليمية ما تشمل سوريا ولبنـان والأردن وفلسطين. وقد تدخل تركيا وربمـا إيـران أيضا طرفا مستقبليا فى مثل هذه الرابطة. بل وقـد تدخل إسرائيل أيضا على المدى الأطول وهـو مـا يتوقف على مسار التسوية السياسية مع الفلسطينيين.

هذا التكوين العام "للحالة العربيـة" فـى حقبـة الهيمنـة الأمريكية يطرح تحدياً مستقبلياً جوهرياً وطويل المدى وهـو "اعادة اختراع القوميـة العربيـة" فـى ظـروف لا هـى ديموقراطية ولا هى شمولية بالمعنى الكلاسيكى.

(٢٨)

الفكر الفضائى والفكر التاريخى

فى تلك اللحظات المفجعة من تاريخ أمتنا لم يعـد هنـاك مجال للابتذال الفكرى والسياسى فيكفـى مـا جـره علينـا المحرضون والبكاءون والتفهاء وعـديمو الأهليـة وفاقـدو الاحساس بالزمان والمكان والذين يسبحون فـى الفـراغ أو يستبيحون فضاء المعرفة والمدعون ومن احتكروا لأنفسـهم زورا الحديث باسم الأوطان الذين دفعوا بلادنا واحـدا بعـد الآخر إلى الهاوية. ولا أتحدث هنا فقط عن زعمـاء أفـاقين عبدوا أنفسهم وأجبروا الجميع على عبادتهم حتـى اذا جـاء الأعداء هربوا بحياتهم تاركين جنودهم فى العـراء. وانمـا أتحدث أيضا عن اصحاب الأبواق أو ممثلو الفكر الفضـائى الذين ملأوا العرب بالأوهام وألغوا عقولهم فاستكملوا ما قـام به الحكام الذين حولوا شعوبهم العربية الى حطام بشرية.

فالدرس الرئيسى لمأساة الغزو الأمريكى للعراق لا يتعلق بقضايا عسكرية أو جوانب تكتيكيـة وفنيـة أو تفصـيلات سياسية واعلامية وانما يتعلق بالانفصال التام عـن الواقـع والعيش فى فقاقيع من الأوهام. اذ تحـالف علينـا الخطـاب الرسمى البائس بمصطلحاته المجردة من الحقيقـة والحيـاة والخطاب الصادر عن الفضـائيات التلفازيـة الـذى دفعنـا لكراهية العالم وسطح معرفتنا بأنفسنا وبالسياسة والمجتمـع وكل ما يتعلق بالوجود.

لم يعد أمامنا مجال للمنـاورة أو التعـايش مـع الهـذر والسخافات السياسية والفكرية لأن مصيرنا كأمة صار فـى مهب الريح. فقد هزمنا الفكر الفضائى الفارغ أكثر كثيرا مما هزمنا الأعداء سواء صدر هذا الفكر عن زعماء مأفونين أو عن فضائيات فقاعية. وما شهدناه فى العراق كان قبـل كـل شىء فضيحة لأسلوب إدراكنا لأنفسنا وللعالم.

ليست القضية هى الهزيمة العسكرية الساحقة حتى لو أن الفضائيات جعلتها تبدو مفاجئة. بل ربما ليست القضية هـى هذا الانهيار المروع للمقاومة العسكرية والسياسية وللنظـام السياسى الذى فر قادته من الميدان دون أى خجـل بعـد أن ارتكبوا كل الأخطاء الممكن تخيلها والتى جعلـت العـراق ميدانا مفتوحا للرماية المجانية من الأرض والسماء. فقد كان ذلك متوقعا لأن الطغاة ليست لهم شجاعة حقيقيـة إلا ضـد شعوبهم. وليس فى ذلك مفاجأة مهما كانت الفضـائيات قـد حاولت اخفاء حقيقة هذا النظام. فالمفاجأة الأفـدح هـى أن العراق ظهر كمجتمع مثل كل المجتمعـات...مجتمـع وقـع تدميره السياسى والأخلاقى ولحق به اتلاف مروع ولم يكـن ينتظر سوى انهيار النظام الذى فعل به ذلك لكى يعرض فى مشاهد فضائحية مريعه انهياره الخاص. وبهذا انفجرت كـل الفقاقيع الفكرية التى تجاهلت هذه الحقيقة العارية بما فى ذلك فقاعة المقاومة التى عقدنا عليها الأمل فى إلحـاق هزيمـة سياسية للمشروع العدوانى الاستعمارى الأمريكى.

أعاشنا الفكر الفضائى فى وهم كبير لأنـه أهـدر الفكـر وصور الدنيا من خلال مفاهيم تجريدية مقترضة مـن أشـد صنوف الفلسفة القومياتية سقما وفقرا. فطالما أننا "أمة علـى ميعاد مع القدر"..وأننا " أمة واحدة لها رسـالة خالـدة" وأن جميع صراعاتنا "هى صراع وجود لا حـدود" كـان مـن المنطقى أن تنطلى لغة " سعيد الصحاف" على عقولنـا وأن نتوقع للغزاة "العلوج" الذبح بالجملة على أبواب بغداد. ولـم يكن ليدور برءوسنا أن تنهب العراق فى ذات يوم الهزيمـة والانهيار. وأن يقوم بذلك "شعب العراق البطل".

لا مجال هنا أيضا للسخرية. فالمقصود هو المدى المذهل لما وقعنا فيه من خديعة لأننا عشنا داخل صوبة مـن اللغـة الوهمية فلم يكن من الممكن أن نرى شعوبنا تتصـرف فـى أحلك لحظات المحنة والهزيمة كمجتمع تـالف ومهـدر تـم تدمير نسيجه الأخلاقى والانسانى إلى درجة العصف السريع بتراثه وعلامات دولته وحضارته دون أى تردد ودون أدنى تفكير وكأنه كان "على موعد مع القدر".

وقعت تلك المفاجأة لأننا لم نفكر سوى بالطريقـة التـى أرادها لنا الفكر الفضائى أو الفقاقيعى. ولو أن عقولنا قد بقت فى رؤوسنا سليمة غير تالفة لما ظهر ذلك لنا غريبـا ولمـا عصف باحترامنا لأنفسنا إلى الحد الذى نطالب فيه المحتـل بأن يبدأ على الفور فى حفظ الأمن والنظـام ضـد "شـعبنا العراقى البطل".

فشعبنا العراقى البطل ليس سوى مجتمع. وهو فى هذا لم يتصرف بطريقة أسوأ مما تصرفت بها شعوب أخـرى لهـا حظ أوفر من الثروة وفرص التعليم والثقافة بل وتتمتع بمـا يكاد يكون حرية مطلقة وبقدر أكبر من العدالة ومن الحمايـة القانونية للكرامة الانسانية. فلم يتردد شعب نيويـورك فـى "السطو السريع" والكامل على مدينته لمجرد انقطـاع التيـار الكهربائى لمدة ليلة واحدة منذ بضع سـنوات. ولـم يتـردد الشعب الروسى فى بيع حتى أغلى ما عند دولته طوال أكثر من عشر سنوات من انهيار هذه الدولة عام ١٩٩١. كل مـا هناك أن الشعب العراقى قد فعل ذلك فى الوقت الـذى كنـا نتضرع فيه للسماء بأن يبدأ المقاومة ضد الغازى المسـتعمر بعد أن انهارت دولته وهرب قادته النشامى المغاوير.

والواقع أنه ليس هناك ما ينبئ بأن أى شعب عربى أخـر لن يفعل نفس الشىء فى أى ظرف مشابه.

بل أن الفجيعة الحقيقية هى أن معظم الشعوب العربية قد تفعل ذلك بالضبط. فما حدث هو أن هذه الشعوب قد أفقـرت ماديا وروحيا وأخلاقيا بعد عقود من القمع وكبت الحريـات والمصادرة على الحق فى التجمع والتنظيم والتغييب القهرى للفضاء العام الحر والمحاولات المسـعورة لملئـه بصـور شخص واحد وكلمات وايماءات وأحكام وتماثيـل وأسـماء الزعيم المطلق الذى يملك سلطة الحيـاة والمـوت ويتمتـع بالعصمة ويحتكر الحكمة ولا يأتيه الباطل أبدا حتى لـو أن تاريخه كله فقر وسجون وتعذيب وقتـل وحـروب عقيمـة وهزائم أليمة.

وبينما أسس أكثر هؤلاء الزعماء أجهـزة بيروقراطيـة عملاقة تلقى بثقلها الكئيب على صـدور النـاس تكـرههم ويكرهونها من أعمق الأعماق صرفوا جل همهم فى تـدمير مؤسسات المجتمع التحتية الموروثة أو التى تم بناؤها عبـر قرن من التحديث. وبذلك دمروا المجتمع مرتين: الأولى عبر القمع الذى يخرج الناس من الفضاء العام ويمزق احساسـهم

به ويصيبهم فى النهاية ببلادة كاملة. والثانية عبـر تـدمير الروابط التلقائية والحرة التى كان بوسـعها ضـبط حركـة الأفراد وترقية حواسهم وتعليمهم وتثقيفهم وتنظيمهم بفعالية. وبسبب ما لحق هذا المجتمع وروابطه التحتيـة مـن دمـار واتلاف تتوسع وتتضخم تلك الكتلة البشرية الهائمة التـى لا تبحث سوى عن أى منفعة مباشرة تعينها على البقاء وسـط ظروف فقر مدقع فى محيط ثقافى وأخلاقى مهتـوك كليـة وحافل بكل دوافع الانتقام واليأس والاحباط. فمـا أن ينهـار جهاز الدولة القمعى حتى تنطلق كالعاصفة لتدمر كل شـىء فى طريقها غير حافلة أو مقدرة لشىء حتى تـراث بلادهـا وعلامات حضارتها.

لا مفر من الاعتراف بأن هذه هى القضية التى يجـب أن ينصب عليها كل الاهتمـام والفكـر الفلسـفى والأخلاقـى والاجتماعى الجاد فى كل بلادنا العربية أو أغلبها. فـالواقع الاجتماعى لبلادنا العربية يحتاج الى اصلاح جوهرى وسريع تعطى له كل الأولوية وتركز عليه كل الجهود المخلصـة. اذ لا أمل مطلقا فى أى شىء أو شعار بما فـى ذلـك صـيانة استقلالنا الوطنى والقومى قبل تحقيق هذه المهمة. ولا يجـب

أبدا أن ننساق وراء شعارات قومياتية زاعقة بما فـى ذلـك مواجهة الامبريالية قبل أن نتأكد من انجاز تلك المهمة. هـذا هو ما تؤكده محنة العراق الممتدة والمستجدة. فـلا يمكـن مجرد الأمل فى اشتعال المقاومة بل لا أمـل فـى مجـرد الامتناع عن الترحيب بالأعداء من جانب كتلة مهمـة مـن مجتمعاتنا إلا عبر اصلاح شامل وحقيقى ينهى مهانة الفقـر ويستعيد الكرامة والحرية وينسج روابط المجتمع من جديد أو يستعيد معنى المجتمع ذاته بعد أن جرى نسـفه فـى جميـع بلادنا العربية تقريبا.

نحتاج إلى هدنة طويلة حتى لو تجرعنا فيها هوان الظلـم القومى لكى ننجز مهمة التصحيح والإصلاح والنهضة، ولكى نستعيد معنى الحرية والمواطنة ولكى نقضـى علـى الفقـر والبلادة والتهميش. ومن أجل هذا نحتاج إلى فكر تـاريخى ونحتاج للتحرر من هيمنة الفكر أو الفقر الفضائى.

(٢٩)
رؤية للسياسة المصرية نحو المسألة العراقية بعد صدام

مقدمة:

خلال الأيام القليلة المقبلة من المرجح للغايـة أن تسـقط بغداد. بعدها ستبدأ عملية مطاردة للمسئولين العراقيين وعلى رأسهم صدام حسين واقتحام المناطق التى تستمر فى اعـلان ولائها للنظام والرئيس العراقى للقـبض علـى المسـئولين السياسيين والحزبيين. كما سيبدأ الجنرال جارنر تولى وظيفته من داخل بغداد ما أن يتمكن الأمريكيـون مـن اقتحامهـا. والأرجح أن تلك الوظيفة ستشمل تنيسق عمليات الأغاثة وما يسمى باعادة البناء. كما ستشمل تطبيق التصورات الى ينتهى اليها التحالف فيما يتعلق بالصيغة السياسية المؤقتـه وهـى مرحلة لا تخلو من انعكاسات ونتائج أو تضمينات فيما يتعلق بالمستقبل السياسى للعراق بعد نهاية الحكم العسكرى والادارة المدنية المؤقته.

ولذلك ينتظر أن يتكاثف الصراع الدولى حـول تحديـد الصيغة المؤقته ومن ثم الدائمة للحكم فى العراق. اذ سـتؤثر المرحلة الانتقالية تأثيرا كبيرا جدا على عملية تأسيس نظـام دائم للعراق وسيحصل من يبادرون بالحصول على مناصب سياسية على فرصة أكبر فى بناء النفوذ فى بلد لـم يعـرف غير صدام حسين وأعوانه القريبين لفترة تزيد عـن ثلاثـين عاما.

وتطرح تلك المرحلة طائفة من التحـديات والمعضـلات بالنسبة للسياسة المصرية. ويمكن تحديد أهم هذه المعضلات فيما يلى.

المعضلة الأولى تنطوى على تناقض بين الموقف المبدئى الذى يملى حجب الشرعية عـن تلـك الحـرب ونتائجهـا والمصلحة المصرية الملحة فـى التـأثير علـى المسـتقبل السياسى للعراق بتحركات سريعة قد تنطوى ضـمنا علـى اعتراف بنتائج الحرب وخاصة نهاية نظام صـدام حسـين. ويتضح هذا التناقض اذا نظرنا الى الموقف المبدئى بصورة منسجمة. فالانسجام الكامل معناه أن يتم مقاطعة كل النتـائج السياسية للحرب الى حين خروج الأمريكيين من العراق وهو

ما قد يستغرق مرحلة زمنية لن تقل بحال عن ستة أشهر وقد تصل الى عامين. وخلال هذه المرحلـة سـيكون مسـتقبل العراق السياسى قد تقرر على الأرض وسيكون نظام صـدام حسين قد شبع موتا. ومن الممكن أن تكون المقاطعة بـذاتها سياسة مؤثرة اذا قررت مصر معارضة السياسة الأمريكيـة نحو العراق بصورة نشطة وهو ما يدخل بنـا الـى نطـاق استراتيجى آخر تماما. كما أن فعالية سياسة المقاطعة تتوقف على امتلاك مصر لأوراق فاعلة على الساحة العراقية وهـو ما لم يعد صحيحا فى الوقت الحاضر.

والواقع أن حل هذه المعضلة يتوقف على انتهاج مصـر لسياسة تجمع بأقصى ما يمكن عمليا بين المرونة والانسجام. فمصر لا تستطيع أن تعترف بنتائج تلك الحرب اذا كانت تلك النتائج تعنى فرض نظام استعمارى على العراق أو التعامـل معه كأنه غنيمة حرب. اذ يجب ان نحتفظ فى أذهاننـا بـأن مصر ذاتها قد تستهدف فى السنوات القادمة أو قد تجد نفسها مدفوعة للدفاع عن اسـتقلالها أمـام العدوانيـة الأمريكيـة والاسرائيلية المتعاظمة. ومن ناحية أخرى فانها لا تسـتطيع أن تعزل نفسها عما يجرى فى العراق وإلا ضاعت العـراق

كلية من حيث هى دولة عربية وذلك بضغط من السياسـات الأمريكية. ولذلك يجب التعامل المبكر مـع الواقـع علـى الأرض دون أن يعنى ذلك بالضرورة الاعتراف بأى نتـائج سياسية لو كانت هذه النتائج سيئة. وأفضل حل لهذه المعضلة هى محاولة دفع الترتيبات الانتقالية منذ البداية فـى الاتجـاه السليم والمواتى لمصر وللعروبة. ويجب أن ندرك مع ذلـك أن فرصتنا وأوراقنا لتحقيق هذا الهدف قليلـة وخاصـة اذا تعامل الأمريكيون مع العراق كغنيمة حـرب وهـو الأمـر المرجح. ونظرا لقلة الأوراق التى تملكها مصر فيما يتعلـق بالمسألة العراقية فان حل المعضلة يتطلـب تقـديرا دقيقـا للموقف ومداخل التأثير وتوقيتاته الزمنية.

المعضلة الثانية تتمثل فى حقيقة أن العراق مهم للمصـالح المصرية ولكن مصر لا تملك – كما أشرنا أوراقا جوهرية أو ثقيلة للتأثير على مستقبل العراق السياسى بالمقارنـة بـالقوى الأخرى وخاصة الولايات المتحدة والقوى الكبـرى الأخـرى وبعض القوى الاقليمية وخاصة ايران وسوريا وتركيا وربمـا المملكة السعودية بدرجة أقل. فجميع هذا القوى الأخيرة لهـا أيضا مصالح جوهرية بما فـى ذلـك مصـالح اسـتراتيجية وسياسية مباشرة على الساحة العراقية كمـا أن لهـا أوراقـا

مباشرة وغير مباشرة للتأثير على الوضـع داخـل العـراق. ويجب حل هذا التناقض من خـلال الإفـادة القصـوى مـن الأوراق القليلة التى تملكها مصر على الساحة العراقية بما فى ذلك الأوراق التى تنشأ عن مشكلات القوى الأقليمية والدوليـة الأخرى فى داخل الساحة العراقية أو فى الساحة الدولية فيمـا يخص الملف العراقى. فبينما تملك أمريكا التواجد العسـكرى المباشر فهى مكروهة بحكم كونها دولة احتلال. وبينما تملـك إيران، تأثيرا على الشيعة فهى تفتقر الى تأييد السـنة الـذين يخشون ايران أما تركيا فهى مخيفة لجميع العـراقيين بحكـم مطالبها الاقليمية فى العراق وضغطها الشديد على الأكـراد. ولا شك أيضا أن السعودية لا تملك نفس الاحترام الـذى قـد تتمتع به مصر فى العراق وبين السنة خاصة لأنهم يعتقـدون أنهم أكثر تطورا منها. ويمقت الشيعة العراقيـون السـعودية نظرا لقمعها الطويل لأخوانهم فى الولايـات الشـرقية مـن الجزيرة العربية. أما مصر فانها تمتعت تاريخيا بنفوذ وسـط السنة الذين تعلق كثير منهم بالناصرية لفترة طويلة قبل انقلاب البعث عام ١٩٦٨. ولا يكن لها أى طرف مشاعر سلبية وهى ضرورية للتوازن العام بين الجماعات الطائفية المختلفة فـى العراق وهذه هـى أهـم الأوراق المصـرية إن اسـتخدمت بحساسية مرهفة ومهارة كبيرة.

وأخيرا فان المعضلة المباشرة التى تواجه صانع القـرار المصرى هى كيفية تكوين موقف أو طرح صـيغة سياسـية تستجيب للمعطيات الجديدة بعد الغزو والاحتلال وتتوافق مع المصالح القومية المصرية والعربية فى نفس الوقت. فان لـم تعترف مصر بالأمر الواقع فسوف يحرمها الأمريكيون مـن أى مقترب للتأثير على الوضع فى العراق او الافـادة مـن الأوضاع السياسية والاقتصادية الجديدة بما فى ذلـك عقـود اعادة الاعمار. ولكن اذا اعترفت مصر بالأمر الواقع الـذى قد ترتبه أمريكا وفقا لمشيئتها الانفرادية فقد تقع فـى خطـأ تأييد علاقة استعمارية وقد تخسر أكثر من الناحية المعنويـة فى العالم العربى وخاصة بين الجماهير العربية. بل قد تخسر الاحترام الذى تتمتع به عالميا وبين العراقيين. وليس هنـاك حل ثابت لهذه المعضلة. ففى المرحلة الأولـى للغـزو مـن المرجح أن يتسم الواقع العراقى بالتعقيد الشديد. فمن ناحيـة سيتفجر الغضب الكامن على نظام صدام حسـين وسـتعمل أمريكا على فضح وفتح ملفات قديمة وجديدة لنزع أى بقايـا شرعية لهذا النظام. وفى نفس الوقت قد تقوم قـوى مختلفـة باشعال نيران المقاومة العسكرية الشعبية وهو ما يعنـى أن

الاعتراف بالنظام الجديد قد يـؤدى الـى صـدم مشـاعر العديدين. ويبدو أن الحل الممكن لهذه المعضلة هو أن تكون المواقف المصرية وثيقة الصلة بالمعطيات التى تطرح فـى الواقع العراقى الذى قد يتغير بين مرحلة وأخرى.

وفيما يلى سوف نعالج هذه المعضلات وصولا إلى تكوين رؤية مصرية للمسألة العراقية وتوفير آليات عمل مسـنودة بأكبر قدر ممكن من الأوراق لتفعيل هذه الرؤية فـى سـياق عراق ما بعد صدام الذى سيكون أيضا خاضـعا للاحـتلال الأمريكى.

وربما تكون البداية السليمة هى تحديد الرؤية المصرية فى مقابل الرؤى الأخرى وبحيث يكون لهذه الرؤيـة مصـداقية عملية وقابلية للتنفيذ.

أولا: الرؤية المصرية للمسألة العراقية :

استندت الرؤية المصرية فى مرحلة ما قبل الحرب على عدم شرعية أعمال العدوان الأمريكية وعلى المبادىء المعروفة للقانون الدولى وخاصة حق الأمم فى تقرير مصيرها بنفسها ومبدأ السيادة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية. ومع ذلك فقد كيفت المزاعم الأمريكية فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل من ناحيتين. فمن الناحية القانونية تشكل تلك المزاعم نزاعا دوليا يخضع للقواعد المقررة فى القانون الدولى لفض النزاعات بصورة سلمية وخاصة الالتزام بقرارات مجلس الأمن ٦٨٧ و١٤٤١. ومن هنا طالبت مصر أيضا بأقصى قدر من التعاون من جانب النظام العراقى مع لجنة التفتيش التابعة للأمم المتحدة. أما من الناحية السياسية فقامت الرؤية المصرية على محاولة تجنيب العراق عدوانا مبيتا سيكون له تأثيرات اقليمية وخيمة. ومن ثم ركزت السياسة المصرية على مناشدة السلطات العراقية إظهار أقصى قدر ممكن من التعاون مع لجان التفتيش وهو نفس التحرك الذى قامت به الدول الأخرى دائمة العضوية فى مجلس الأمن لأنقاذ العراق من المخطط الأمريكى وهو التحرك الذى لاقى الفشل.

أما فيما يتعلق بالرؤية بعد العدوان فقد اتسـمت الرؤيـة المصرية بالعمومية. فاقتصرت على التأكيد علـى مبـدأين: الأول هو عدم شرعية تغيير الحكومات بالقوة والثـانى هـو المحافظة على وحدة العراق وتكامله الأقليمى.

أما بعد الحرب فالمنطق يقول بأن تلك الرؤية تعنى أيضا رفض إضفاء أية شرعية على احتلال العراق وهو ما يعنـى عدم الاعتراف بحكومة عسكرية أمريكيـة أو مـن جانـب التحالف. وبنفس المنطق فان مصر ملزمة أيضا بالتأكيد على عدم تجزئة العراق أو التعامل مع مسـتقبله السياسـى مـن منظور طائفى أو جالياتى (فيما يخص الأكراد بصفة خاصة وهم يشكلون قومية أو أمة مستقلة الى حد كبير).

ولكن تلك الرؤية تعنى رفض ترتيبات سياسية معينـة لا تصطدم بالضرورة مع الإعلانات والتصريحات الأمريكيـة التى دأبت على الالتزام بوحدة العراق الإقليمية. ومن ثم فان الموقف المصرى يخلو حتـى الآن مـن رؤيـة للجوانـب الإيجابية فيما يتعلق بالمستقبل السياسى للعراق.

وليس من المعقول أن تستمر مصر فى التعامل مع نظـام صدام حسين باعتباره النظام الشرعى فى البلاد بعد سـقوطه فعليا. وليس من المعقول أيضا أن يكون الموقف المصـرى هو القبول بفراغ سلطة غير سلطة الاحتلال. وأيـة رؤيـة واقعية يجب أن تتقدم لاقتراح ترتيبات محددة لنقل السلطة فى العراق والكيفية التى يتأسس بها نظام حكم جديد وهـو مـا يستدعى التمييز بين المرحلتين الانتقالية والدائمة لأن الأخيرة ستتطلب وقتا لاستنباطها واقعيا.

وفى الوقت الحالى لا يثور خلاف من حيث المبدأ علـى المرحلة الدائمة. فالولايات المتحدة التزمت بأن يعـود حكـم العراق الى العراقيين وأن يتم ذلك بصورة ديموقراطية. وهذا هو أيضا موقف الدول الأخرى دائمة العضوية فى مجلـس الأمن والتى تمنت سقوط نظام صدام حسين رغم أنها تعتبـر تلك الحرب العدوانية غير شرعية.

ولكن الخلاف قد يثور فى الوقت المناسب حـول آليـات إقامة نظام ديموقراطى وحول مضمون هذا النظام وهو مـا يتعين على مصر المشاركة بقوة فى الجدل حوله ولو بصورة غير مباشرة.

أما الخلاف الحقيقى على الساحة الدولية والاقليمية فهـو يتعلق بالمرحلة المؤقتة وترتيباتها. فالموقف الأمريكى يقـول بأنه سيتم بعث الإدارة المدنية العراقية بأقصى سرعة حتى لو تطلب الأمر التعامل مع موظفين ينتمون الى حـزب البعـث ولكن من غير المتورطين فى جرائمه. ويضطلع الأمريكيون بنوعين من الوظائف. الأولى هى المتعلقة بالإغاثة وإعـادة البناء. والثانية هى سلطات السيادة التى ستمارس من خـلال حكومة عسكرية فعلية يرأسها تومى فرانكس القائـد العـام لقوات التحالف الغازية. وأكد المسئولون الأمريكيـون بمـن فيهم الرئيس أن السلطة ستعود للعراقيين "من اليـوم الأول" وهو ما لا يشير الى طريقة محددة لاختيارهم. ولكن لا يبدو أن هذا الموقف (المرتبك وغير المؤكد) هو الموقف الأخير. ففيما يتعلق بالسلطات السيادية اشارت تصريحات أمريكيـة الى امكانية تطبيق ترتيب مشـابه للنمـوذج الأفغـانى (أى اجتماع لسلطة شبه تمثيلية تختار رئيسا للـبلاد أو للحكومـة ويعطى نفوذ كبير للمعارضة فى هذا الاطار). ولكن ليس فى العراق مثل هذا الاطار بصورة مستقلة عن نظـام البعـث. فالأغلبية الساحقة من أعضاء البرلمان الحالى بعثيون ولـن تعترف بهم أمريكا كممثلين شرعيين للشعب العراقى بل قـد

تعتقل أغلبهم. وفى نفس الوقت فان تطبيق نمـوذج أفغـانى على العراق سيواجه ادانة عالمية لأنه تعسفى وبعيد كلية عن النموذج الديموقراطى. ورغم أن تلـك الصـيغة الافغانيـة المعدلة (مثل اختيار ممثلين عن المقاطعات أو المحافظات ال ١٨ للعراق بصورة عشائرية أو تعسفية) سـتؤطر حكومـة "عراقية" الا أنها ستمنح أمريكا الحق فى أن تحـدد الـى أى مدى ستبقى فى العراق عسكريا وسياسيا ناهيك عن التـأثير على مضمون النظام الدستورى الجديد.

بقية أعضاء المجتمع الدولى أعلنوا بالفعل عن مواقفهم بالتصريح الصادر عـن وزراء خارجيـة فرنسـا وألمانيـا وروسيا وهو المطالبة بتفويض الأمم المتحدة (التى تعنى فى هذه الحالة الأمانة العامة تحت إشراف مجلس الأمن ولتطبيق قرار صادر بهذا الشأن من مجلس الأمن) بالادارة السياسـية الانتقالية فى العراق وفقا للقواعد التى قـد يحـددها القـرار المأمول من المجلس. والهدف من هذه الرؤيـة هـو بكـل وضوح اختزال المدى الزمنى لانسحاب القـوات الأمريكيـة ورفض إقامة نظام احتلال أمريكى. ويرفض الأمريكيون هذا التصور الذى يجعل العراق تحت السلطة السـيادية المؤقتـة للمنظمة الدولية وبالتالى إدخال عامل الإدارة التعددية الدولية للوضع الانتقالى.

وإضافة إلى المراوحة والتردد والتناقض وعدم الوضـوح فالموقف الأمريكى بالغ الضعف على المسـتويين السياسـى والقانونى. ومصدر هذا الضعف ليس كون الحـرب غيـر مشروعة فحسب بل ايضا لأن الموقف الأمريكى التزم وبرر الحرب بالمبادىء الديموقراطية وبأن الهدف هـو "تحريـر العراق" وهو ما يعنى اعادته للعراقيين على وجه السـرعة. وليس بمكنة الأمريكيين أن يكرروا النموذج الأفغانى بسـبب المعارضة الدولية من ناحية والافتقار الى نفـس المعطيـات الشكلانية التى توفرت فى حالة أفغانسـتان وبسـبب توقـع استمرار المقاومة العراقيـة سياسـيا وعسـكريا وإجمـاع العراقيين بمن فيهم قوى المعارضة الحليفة والمنضوية تحت لواء المؤتمر الوطنى العراقى على رفض الحكم العسـكرى الأمريكى.

وقد فشل السيد تونى بلير فى اقناع الرئيس بـوش بمـا يطلبه الأوربيون والروس من تفويض الأمم المتحدة بـادارة العراق. فاكتفى الطرفان بمنح الأمم المتحـدة "دورا داعمـا حيويا وهو ما يعنى أدواراً فـى المجـالات النوعيـة وذات الصلة بالشئون الانسانية واليومية مثـل الميـاه والصـرف

الصحى والسكان واعادة المهجرين وأيواء المشردين وادارة بعض المرافق. ولكن حرمت الأمم المتحدة من تولى المهمة السياسية بما يتجاوز مهام الاغاثة الانسانية. ومـع ذلـك لا ينبغى التسليم بهذه النتيجة ويجب العمل على تعزيز الـرأى القائل بأولوية الحل القائم على الأمم المتحدة. ومع ذلك فـان على مصر أن تستعد أيضا للجدل حول صيغة نقل السـلطة الى عراقيين.

والواقع أن الصعوبة الموضوعية التى تحيط بهذه القضية هى أنه لا يمكن تحديد العراقيين الذين يمكنهم تولى وظـائف الحكومة الانتقالية بصورة منطقية أو نيابية بسرعة كافية. ولا يمكن ضمان أن تكون هذه الحكومة ممثلة للشعب العراقى إلا عبر اجراء انتخابات حرة نزيهة وبناء على قانون ودسـتور واضح ومقبول من الشعب وهو الأمر الذى يسـتغرق وقتـا طويلا نسبيا قد لا يقل عن عام كامل.

ومن ناحية ثانية، فان أية حكومة انتقالية لا تملك جيشـا خاصا بها لن تستطيع سوى الاعتماد على القوات الأمريكيـة وهو ما يعنى النظر اليها "كحكومة عميلة" مهما كانت درجة خلاص نيتها.

والحل المعتاد فى مثل هذه الحالات هو أن يمـارس مـا تبقى من الجيش الوطنى مهام السيادة بصورة مؤقته. وهو ما يتوقف على ظروف وضع نهاية للحرب وما اذا كان بعـض العسكريين العراقيين راغبين فى القيام بهذا الدور أثناء تواجد القوات الأمريكية لفترة من الزمن بعد نهاية الحرب.

والواقع أن هذا الاحتمـال يمكـن أن يعمـل بطـريقتين مختلفتين تماما: فهناك نموذج "حكومة فيشى" فى فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية والذى انتهى الى التحالف مع الغازى. وهناك أيضا نموذج "حكومات الخلاص الوطنى" التى تولـت فيها بقايا الجيوش المهزومة مهام السيادة المؤقتـة لصـالح الوطن ولتقليل العبء النفسى والانسانى المـلازم لظـروف الاحتلال حتى يتم تشكيل حكومة منتخبة.

وبالتالى يمكن حصـر الاحتمـالات المختلفـة للمرحلـة الانتقالية فيما يلى:

قيام الولايات المتحدة والحلفاء بتشكيل حكومة عسكرية أو حكومة احتلال أيا كانت طبيعتها.

١- قيام الولايات المتحدة بتشكيل حكومـة بالاختيـار بالطريقة الأفغانية (المعدلة)

٢- قيام ضباط من الجيش العراقـى الـذين يتمتعـون بحسن السمعة والقبول الشعبى (سواء كانوا سابقين أو فى الخدمة وقت الاحـتلال) باسـتلام السـلطة بموافقة الحلفاء واعادة تجميع عناصر لجيش جديد قادر على تولى وظائف الأمن العام وتشكيل حكومة انتقالية تشمل مدنيين وعسكريين لاعداد البلاد لنظام دستورى جديد.

٣- قيام الأمم المتحدة بادارة العـراق علـى طريقـة "الحكومات الادارية".

٤- قيام الحلفاء بتشكيل حكومة ادارية عراقية ودوليـة تشمل عناصر من الجيش وقوات البوليس العراقى. وتتولى هذه الحكومـة وظـائف إعـادة الاعمـار وتشغيل البنية والمرافق الأساسية واعادة تشكيل قوة الجيش والأمن.

وبالنسبة لمصر تبدو الأفضليات مرتبة كما يلى:

أولا : حكومة خلاص وطنى تتكون من عسكريين عراقيين (سابقين أو حاليين) يتمتعون بالشعبية وحسن السمعة. يوفر هذا الحل سرعة انسحاب القوات الأمريكية. كما أنه يضمن بقاء العراق موحدا ويناسب استمرار نفوذ معقول للسنة العراقيين مع الانفتاح على ما تأتى به العملية السياسية والدستورية من حلول دائمة. وفى هذه الحالة يكون للأمم المتحدة والجامعة العربية دور مساند.

ثانيا : قيام حكومة ادارية فى العراق مكونة من علماء عراقيين ذوى سمعة حسنة وقدر من الشعبية أو من كبار المختصين الاداريين فى مختلف المرافق التى عادة ما تديرها الحكومات. ولا بد أن تشمل تلك الحكومة ضابطا كبيرا يتمتع بحسن السمعة لإعادة تأسيس نواة من الجيش العراقى الجديد على أسس مهنية واعادة تنظيم قوات بوليس وأمن داخلى مناسبة.

ثالثا : تولى الأمم المتحدة (بالتعـاون مـع المنظمـات والوكالات الدولية المتخصصة وربما جامعة الدول العربية) وظائف حكومة انتقالية لإدارة شئون البلاد والإعداد للعملية السياسية الضرورية لوضع دستور جديد وإقامة نظام ديموقراطى فى العراق.

وحيث أن الأمر سوف يتوقف الى حد بعيد علـى مـدى تأقلم الولايات المتحدة مع هـذه الأولويـات فـان الموقـف المصرى يمكن بناؤه كما يلى:

١- الرفض التام لتشكيل حكومة احتلال بغض النظـر عن كونها مدنية أو عسكرية واعتبار مثـل هـذه الحكومة غير قانونية وغير شرعية واعـلان هـذا الرفض مبكرا من خلال المطالبـة بتـولى الأمـم المتحدة وظائف الحكم الانتقالى من خلال عراقيين.

٢- التحرك بسرعة لاستصدار قرار من مجلس الأمـن بتوصية من جامعة الدول العربية وبالتنسـيق مـع كتلة عدم الانحياز يكلف الأمانة العامة والوكـالات المتخصصة لتولى "الاشراف" على تشكيل حكومـة انتقالية عراقية لادارة الشئون الاعتيادية فى الـبلاد

وبدء عملية وضع اسس نظام سياسى جديـد فـى العراق. ويتطلب هذا السيناريو سرعة التنسيق مـع الدول دائمة العضوية فى مجلـس الأمـن. وفيمـا يتعلق بالولايات المتحدة يجب البدء بإصدار قـرار علنى من مجلس الجامعة العربية يضـع تصـورا عربيا للعملية الانتقالية بحيث يشكل إحراجا لأمريكا ويجعل رفضها لهذا التصور أكثر صعوبة.

٣- فى حالة تعذر صدور قرار من مجلس الأمن بهـذا المعنى يجب أن يكون هناك قـرار مـن مجلـس الجامعة والتحرك على ضـوئه مـع الأمـريكيين والقوى العظمى الأخرى لتشكيل حكومـة اداريـة عراقية بالاختيار. ويجب أن يكون لـدينا أسـماء مقترحة لعراقيين يتمتعون بسمعة وتقـدير وطنـى عراقى يتولون تشكيل حكومـة انتقاليـة للعـراق. ويحسن أن يكون هؤلاء إما من عسكريين عراقيين أو من علماء عراقيين فى الخارج أو الداخل ممـن تولوا وظائف دولية مرموقة أو حصلوا على جوائز دولية أو يحظون بتقدير عالمى.

٤- يجب أن تكون قواعد العمل الأولية لقيام هذه الحكومة بتولى وظائفها واضحة على الأقل فيما يتعلق بالجانب السياسى. ومن وجهة النظر المصرية يجب أن تشمل هذه القواعد المعانى التالية:

أ- الأولوية الأولى يجب أن توجه للاعتبارات الإنسانية وتشمل القيام بالأعباء الصحية والتموين والغذاء واستعادة المرافق للعمل.

ب- حماية البلاد من أعمال الانتقام أو تصفية الحسابات ومن جميع صور العنف وضمان التعامل مع العراق والعراقيين بأعلى صور الكرامة والاحترام.

ج- اصدار عفو عام عن جميع المواطنين بمن فى ذلك الذين عملوا فى الأطر السياسية للنظام السابق ممن لم يرتكبوا جرائم جنائية وفقا للقانون الدولى والقانون المقارن.

د- دعوة جميع العـراقيين المنفيـين بصـورة اجبارية أو اختيارية للعودة الى بلادهـم اذا شاءوا ذلك واسقاط جميع الـتهم السياسـية الموجهة لبعضهم دون أساس مـن القـانون المقبول فى المجتمعات الديموقراطية.

ه- ان اداء الحكومة يتم على أساس عراق موحد حتى يتم الاتفاق علـى الشـكل الدسـتورى الجديد وعلى أساس مبدأ المسـاواة التامـة بغض النظر عـن الانتمـاءات الدينيـة أو الطائفية أو أى اعتبار آخر.

و- اعداد البلاد بعد عودة الحـد الأدنـى مـن الاستقرار لوضع دستور جديد يقـوم علـى المبادىء الديموقراطيـة بالأخـذ بنمـوذج الجمعية التأسيسية التى تكلف بهذه المهمة.

وقد لا يمكن الحصول على هذا التصور أو ضمان تحقيقه بسبب نية أمريكا فى احتكار النفوذ على العراق. ومع ذلـك فان من الممكن فرض جانب كبير منه عليهم. ويجب تحديـد حد أدنى من هذه المطالب التى إن لم يتسجب لها الأمريكيون تقوم مصر بالتشهير والادانة العلنية لهم وفرض تكلفة أعلـى لاحتلالهم للعراق.

ثانيا: الموقف العملى أثناء المرحلة الانتقاليـة وطبيعة التحركات المطلوبة:

ويرتبط بهذه القضية جانب آخر وهو الموقف من المقاومة العسكرية ضد الاحتلال الأمريكى للعراق. ومن الطبيعى أن تتناقض هذه المقاومة مع فكرة تشكيل حكومة انتقالية علـى وجه السرعة.

فالمتوقع أن تقوم كوادر النظام الحالى أو عناصر قريبـة منه بقيادة أعمال مقاومة فى شكل حـرب عصـابات ضـد القوات الأمريكية لفترة طويلة نسبيا مقبلة. كما قـد تظهـر دعوات للمقاومة السياسية من خلال مقاطعة جميـع النتـائج السياسية للغزو بما فى ذلك تشكيل حكومة انتقالية طالما بقى الاحتلال الأمريكى للعراق.

ويشكل هذا الاحتمال المهم فرصة وقيداً كبيرين للسياسـة المصرية والعربية بل وللقوى الدوليـة المعاديـة للاحـتلال الأمريكى للعراق.

وهناك اختياران أمام السياسة المصرية: الأول هو تأييـد عملية انتقال سريعة للسلطة والثانى هو التأييـد أو التسـليم الضمنى بالمقاومة العسكرية والامتناع عن طرح أو التعامل مع حكومة انتقالية. ولكل مـن هـذين الاختيـارين مزايـاه وعيوبه.

فالمزايا الأساسية لسيناريو المقاومة العسكرية والسياسـية تشمل: إيقاع خسائر أكبر بالأمريكيين وإقلاق حضورهم فى الساحة العراقية بما يشكل بذاته درسا مهما للأمريكيين وتكلفة كبيرة تمنعهم من توسيع نطاق الحرب أو التعامل مع العراق كمستعمرة فضلا عن إرسال رسالة لكل القوى الدولية بـأن عصر الاحتلال والاستعمار قد ولى وأن العرب لن يقبلوا أبدا بهذه العودة. وتزداد أهمية هـذه المزايـا فيمـا لـو عانـد الأمريكيون واستمروا فى مواقفهم التى تقوم حتى الآن علـى النموذج الاحتلالى.

أما عيوب هذا الاختيار فهى متعددة أيضا. فهناك أولا أن هذا السيناريو قد يجلب نتائج عكسية ويؤدى الى اطالة أمـد الاحتلال بالادعاء بأن الحرب لا زالت مستمرة وأن المقاومة العسكرية أو السياسية تشكل استمرارا للنظام القديم وأنها قـد تعيد العراق الى الوضع السابق وهو ما يرفضه الأمريكيـون ويشكل هزيمة كاملة لأغراضهم من شن الحرب. وهناك ثانيا مشكلة الخسائر الانسانية الأكبر واستمرار عدم الا سـتقرار بما لذلك من نتائج وتداعيات على الاستقرار فـى المنطقـة. وأخيرا فان المقاومة قد تدفع العراق الى التفتت والتجزئة. اذ ستنشأ منظمات عسكرية على أسس عرقيـة وطائفيـة وقـد تصطدم مع بعضها البعض بما يؤدى الى حرب أهلية علـى هامش الحرب الأمريكية. ذلك أن المعارضة العراقية الحليفة والقوات الكردية ستستخدم أمريكيا لوقف أو تصفية المقاومة التى قد تظهر فى مناطق السنة وربما مناطق الشيعة أيضا.

والحل السليم نظريا لهذه المعضلة يتمثل فيما يلى:

تفضيل سيناريو تشكيل حكومة مؤقتة اذا قبل الأمريكيون المطالب والرؤى المصرية والعالمية المشـار اليهـا سـابقا (حكومة عراقية عسكرية أو مدنية أو تولى الأمـم المتحـدة وظائف السيادة) وبالعكس تفضـيل المقاومـة العسـكرية أو السياسية أو الاثنين معا فى حالة إقدام الأمريكيين على تشكيل حكومة احتلال أو حكومة عرافية عميلة.

تقدير الموقف أولا بأول بالنسبة للقوة والتـأثير المتوقـع للمقاومة العسكرية والسياسية فى العراق بعد سـقوط نظـام صدام. فليست هنك فكرة فى التأييـد العلنـى أو الضـمنى للمقاومة اذا لم تكن قوية أو اذا هـددت وحـدة العـراق أو اشتملت على احتمالات عاليـة للحـرب الأهليـة ووفـرت للأمريكيين فرصة الادعاء بالحاجة لإطالـة أمـد تواجـدهم العسكرى فى العراق.

هناك مع ذلك عنصر مخاطرة فى أي اختيار مصـرى. فاذا وقفت مصر مبكرا مع فكرة حكومـة مؤقتـه وبـرزت حركة مقاومة عراقية قويـة وذات مصـداقية تسـقط هـذا الاختيار عراقيا سيكون الموقف المصـرى رسـالة سـلبية

للشعب العراقى. والعكس اذا دعمت مصر ولو ضمنا اختيار المقاومة عن طريق الصمت أو عدم الاعتراف وعدم التعاون مع حكومة مؤقته تتكون خلافا للإجماع الدولى وكانت المقاومة اضعف من المتوقع وأقل مصداقية أو أكثر ضررا فانها تخسر الحكومة الانتقالية وفرص التأثير على حاضر ومستقبل العراق.

ولذلك يصبح لبعد التوقيت أهمية حاسمة:

ولدينا هنا أسلوبان للتعامل مع المستجدات والموقف السائل على الساحة العراقية.

الأسلوب الأول هو إصدار أو إعلان موقف بالتقسيط بحيث يتمتع الموقف المصرى بالمرونة. فيعلن موقفا كلما استجدت حالة أو اتضحت الصورة من داخل العراق. أو يتم إعلان موقف مبكر من القضايا العامة والتى تحظى بإجماع ثم إعلان موقف تال من القضايا الجديدة قضية بقضية. هذا الأسلوب يقلل عنصر المخاطرة ولكنه أيضا يقلل المكاسب المحتملة. ومن ناحية أخرى يظهر هذا الموقف نوعا من الارتباك فى الموقف المصرى الذى قد يراوح بين الاحتمالات.

أما الأسلوب الثانى فهو اتخاذ موقف كامل مـن البدايـة ومبكرا نسبيا وتحمل نتائج المخاطرة أيا كانت. وهنـا تقـف مصر مع الموقف المبدئى وتعمل لأجل تنفيذه مهمـا كانـت النتائج والصعوبات. ويقلل هذا الموقف المبدئى الذى يقتـرح شكلا محددا للحكومة العراقية من الخسائر المبدئية المحتملة الى أقصى حد.

وقبل اتخاذ قرار حول الأسلوب الأفضل لابد من القيـام بعملية جس نبض وتقدير موقف الأمريكيين والقوى الدوليـة الأخرى وبعض العراقيين المطلعين حتـى يـأتى الموقـف المصرى قريبا قدر الأمكان من الواقع. ولا شـك أن قيـام مصر بالمخاطرة بإعلان موقف مكتمل ومبكر يؤيد الرؤيـة المتضمنة فيما سبق (حكومة عراقية-أمم متحدة) يحقق افضل توازن بين الاعتبارات المختلفة اذا ما تبين امكانيـة فرضـه على الأمريكيين. ويستند هذا الرأى على أن اختيار المقاومة ورغم مزاياه العديدة ليس من المرجح أن يـأتى قويـا أو أن يحظى بمصداقية كبيرة وخاصة اذا ما قامت حكومة عراقية ذات مصداقية وطنية.

ثالثا: الموقف من قضايا نظام الحكم:

لا شك أن انشاء نظام حكم جديد فى العـراق هـو أهـم الصعوبات التى تواجه جميع الأطراف ذات الصلة بالشـأن العراقى.

فالولايات المتحدة تلتزم علنا بانشاء نظـام ديمـوقراطى. ولكن مثل هذا النظام الذى يقوم على قاعدة التمثيـل يعطـى للشيعة العراقيين أغلبية قد تصل الى النصف وهو ما يمـنح ايران قدرا كبيرا من النفوذ فى العراق ويحرم السنة من الثقل التاريخى الذى تمتعوا به فى العراق منذ الاسـتقلال. ومـن ناحية أخرى يرغب الأكراد فى شكل فدرالى للدولة يمـنحهم وضع الحكم الذاتى القوى الذى قد يتحول فعليـا اذا ضـعف الحكم المركزى الى دولة فعليا. وتعارض تركيبيا كمـا هـو معروف مع هذا المطلب. كما أن الأكراد يطلبون كركـوك إداريا على الأقل وهو أمر لن تتسامح معـه أيـة حكومـة مركزية فى بغداد. ومن ناحية ثالثة فهنـاك تنـاقض بـين العلمانيين المتطرفين الذين يطلبـون دولـة محايـدة دينيـا والحركات الاسلامية الشيعية والسنية وهى تطلـب تطبيـق شكل أو آخر من أشكال الشـريعة الاسـلامية. فالولايـات

المتحدة سترغب فى حكومة موالية للأمريكيين وربما ترتبط باسرائيل بقوة بينما المشاعر العراقية على كـل المسـتويات ولدى كافة الجماعات العربية تغلـى بالعـداء للأمـريكيين ولاسرائيل. وقد ينقسم المجتمع العراقى حول هذه المسـائل. كما أن الولايات المتحدة ستطلب اتفاقا أمنيا مماثلا للاتفـاق الثنائى مع الكويت وقطر وهو ما يعد أمـرا يـراه غالبيـة المجتمع العربى فى العراق خيانة فعلية.

وعلى أى حال فان السيناريوهات المرجحة تبدو كما يلى:

السيناريو الأول انشاء نظام نيابى لعراق موحد: ويتطلب هذا السيناريو تشكيل جمعية تأسيسية لوضع دستور جديـد. ولكن هذه الخطوة تبدو مستحيلة بدون حد أدنى من الاتفـاق المسبق على ملامح هذه الدستور لأنه سيتناول قضية تنظـيم الدولة وحسم قضية الفدرالية أو الحكم الذاتى أو مجرد حكـم محلى قوى. وهذا الاتفاق بدوره يعنـى وضـوح الفـاعلين الأساسيين. ويتضح الفاعلون فى حالة الأكراد الذين ينضوون تحت الحزبين الكبيرين. كما أن ثمة قدرا من الوضوح فـى حالة الشيعة الذين زاد وزن التنظيم الدينى بينهم ممثلا فـى المجلس الأعلى للثورة الاسلامية وربما يكون هناك شىء من

الوزن للحزب الشيوعى. أما بالنسبة للسنة، فهنـاك غيـاب للأحزاب الكبيرة ذات المصداقية والثقل الشعبى إذا تم تدمير حزب البعث بتكوينه الحالى. وحتـى لـو اسـتبدل بـبعض القيادات التاريخية الكبيرة فقد تنازعه بعض القـوى الناشـئة وخاصة التيار الاسلامى الحديث الظهور. ويبـدو أن فكـرة العسكريين الكبار الذين يتمتعون بالشعبية قد تكون بديلا مؤقتا للأحزاب وسط الجماعة السنية.

فإذا تمت مفاوضات أولية بين زعامات محتملة لهذه الكتل السكانية الكبيرة تنشأ جمعية تأسيسية بالانتخاب وتقوم بوضع دستور للعراق يتم على أساسه صدور قانون جديد للانتخابات وانتخاب مجلس نيابى أو أكثر. والأغلب أن ينشأ بهذا المعنى نظام برلمانى من مجلسين. ويبدأ نظام سياسـى جديـد فـى العراق. ولكن هذه العملية قد تستغرق عاما كاملا على أقـل تقدير.

وتزداد احتمالية هذا السيناريو فيما لو تولت الأمم المتحدة حكم العراق خلال المرحلة الانتقالية كما تزداد فرص نجاحه لأنه سيكون مقيدا بقرار من مجلس الأمن أى بالقانون الدولى ويتولى تطبيقه خبراء دوليون.

السيناريو الثانى يقوم على قيام حكم جديد يتولى الأمريكيون صياغته ويقوم بشكل أو أخر على نوع من التمثيل الجزافى للطوائف والأعراق الكبرى فى العراق على النحو الذى شهدناه فى حالة أفغانستان. وينشأ بالتالى نوع من المجلس التمثيلى المصغر يتولى وضع دستور جديد ويكلف حكومة بصورة مباشرة دون عقد انتخابات عامة. وهذا هو ما أشار اليه ضمنا دونالد رامسفلد. وسيكون من الأسهل على الأمريكيين التأثير على مثل هذا المجلس أو الحكومة والحصول منها على اتفاق أمنى يضمن وجودا محدودا للقوات الأمريكية و"حق" عودتها الى العراق اذا "ما تطلبت الظروف ذلك".

ولكن المشكلة الأكبر فى هذه الحالة هى أنه لن يكون هناك منطق وراء تعيين أو اختيار أعضاء المجلس التمثيلى أو الحكومة. كما أن هذا الشكل لن يتمتع بشرعية عراقية أو دولية هذا فضلا عن مخالفته للقواعد الديموقراطية التى التزم بها الرئيس الأمريكى وسيكون من الصعب خرقها من وجهة نظر الرأى العام الأمريكى أو الصراع السياسى فى الولايات المتحدة.

وتزداد احتمالية هذا السيناريو اذا تولى الأمريكيون الحكم المؤقت.

السيناريو الثالث يتمثل فى نشوء ظروف سياسية تـؤدى الى انقسام العراق واهدار وحدته الاقليمية وتكـون وحـدات سياسية فعلية جديدة لفترة طويلة من الزمن تتفق فى تكوينها مع الانقسامات العرقية (عرب –أكراد) وطائفيـة (شـيعة-سنة). وربما شيوع العنف المتبادل وقـدر مـن الفوضـى السياسية. وهذا السيناريو رغم كونه غير مرجح إلا أن مـن المستحيل استبعاده. وقد يتخذ هذا السيناريو نفس المسار الذى سارت عليه يوجوسلافيا السابقة. فيكون للأكـراد وللشـيعة دولتين فعليتين (لا يحظيان باعتراف دولى) ويضطر السـنة لتشكيل هيئات سياسية خاصة بهم لادارة الشئون المحلية مع استمرار الحديث باسم العراق ككل.

وقد تتعدد الظروف التى تقود الى هذا الاحتمـال. فمـثلا تنشأ خلافات شديدة حول الوجـود العسـكرى الأمريكـى. ويحتمى الأكراد بالأمريكيين لتعزيز استقلالهم الفعلى بينمـا تنشأ حركة مقاومة عسكرية نشطة ضد الأمريكيين فى الوسط السنى. وتنهار أية محاولة لتأليف نظام مستقر لكل العـراق

فيبدأ الشيعة فى تكوين مجالس محليـة قويـة يفـوز فيهـا الإسلاميون ويبدأون فى حراسة أنفسهم بادخال قـواتهم مـن ايران بأعداد صغيرة الى الجنوب وهكذا، فينقسم العراق فعليا وتبدأ موجات من العنف المتبادل فيما بينهم.

وهنا لابد من الاشارة الى أن هذا الاحتمال سيكون إحدى المشكلات التى تنشأ عن استمرار المقاومة المسلحة أو عـن تكوين حكومة مركزية ضعيفة أو عن تشجيع الأمريكيين لهذا السيناريو عن طريق التلاعب لضمان تواجد طويل المدى فى العراق.

ومن الواضح أن أفضل الاختيارات الممكنة لمصر هـو سيناريو عراق موحد وديموقراطى. فرغم أن هذا السـيناريو يخفض من وزن السنة أصحاب التوجه العروبـى والعلاقـة الأفضل مع مصر إلا أنه أفضل من سـيناريو الانقسـام أو الفوضى. كما أنه أفضل من سيناريو حكومة قائمة على أسس غير انتخابية وضعيفة.

ومن الواضح أيضا أن هذا السيناريو قد يـتم الـدفع لـه أمريكيا أو اسرائيليا (السيد جارنر المعين من قبل ادارة بوش هو رجل عميل لاسرائيل وقد يلعب لمصلحتها أكثر مما قـد يلعب لحكومته أو دولته ذاتها بقدر ما يمكنه ذلك).

ويناء عليه يقترح أن تتبنى مصر مبكرا سيناريو عـراق ديموقراطى موحداً.

وقد تلعب مصر مباشرة دورا كبيرا ومبكـرا اذا أخـذت بهذا الاختيار باستخدام أكثر من آلية عمل.

فمثلا يمكن لمصر أن تدعو فرقاء الوضع العراقـى فـى أول فرصة ممكنة الى "ندوة" أو "ورشـة عمـل" دسـتورية لاستكشاف وتعيين الملامح الأساسية لدسـتور جديـد فـى العراق. وهو أمر لن ينظر له الأمريكيون بالترحاب ولكـن يصعب عليهم معارضته على اعتبار أنه اقرب الى الممارسة الأكاديمية منه الى المؤتمر السياسى أو الدستورى. ومع ذلك فلو كانت هذه الورشة أو الندوة هى الأولى من نوعهـا فقـد تحمل دلالة كبيرة بالنسبة لأى مفاوضات حول الدسـتور أو الوضع الدائم للعراق.

وقد تبدو قدرة مصر على التأثير على المسار الدستورى للعراق محدودة الى حد كبير. فمصر كما قلنا لا تملك نفوذا على أى قطاع سياسى كبير فى العراق. ومن ناحية أخرى فانه لا ينظر لمصر عراقيا أو عالميا كأحد النماذج الديموقراطية. ومع ذلك فان فقدان مصر لأوراق تتصل بالنفوذ المباشر على أية قوة أو جماعة كبيرة فى العراق قد يكون بذاته هو أفضل مؤهل لها. ذلك انها قد تكون الوسيط الذهبى الذى لا يخشى منه أحد وخاصة فى مجال التحيز ضد أو مع أية قوة. فالشيعة لا يخشونها لأن بها بعض التقاليد الشيعية ولأنها ليست دولة جامدة من حيث تمثيل التقاليد الدينية السنية. والأكراد يحترمونها ولديهم هنا مكتب تمثيل فى القاهرة يكن لمصر احتراما كبيرا. أما السنة فهم الأقرب إليها بحكم الانتماء العروبى والحاجة لموازنة إيران.

وحتى إن لم تتمكن مصر من الدعوة لمثل هذه الندوة أو ورشة العمل التى قد تمثل "بروفة" لأعمال جمعية تأسيسية أو لجنة تحضيرية للدستور الجديد تستطيع مصر أن تدعو شخصيات عراقية بارزة الواحد تلو الآخر أو كجماعات صغيرة متتالية وهو ما يوفر إليه مشابهة وإن بفاعلية أقل.

وقد تعمل مصر أيضا كوسيط للتفاوض حول دستور جديـد عن طريق تخصيص شخصية سياسية مهمة لهـذه الوظيفـة تكون مدعومة بمكتب من الخبراء والفنيـين فـى الشـئون السياسية والدستورية.

رابعا: تصور لجدول زمنى للمواقف المصرية وآليات العمل :

من المتوقع أن تتطور الأحوال السياسية فى العراق عبـر المراحل التالية:

المرحلة الأولى أو اسـتكمال الغـزو وتشـمل مطـاردة المسئولين العراقيين السابقين واستكمال السيطرة على جميـع الأراضى العراقية وتأمين هذه السيطرة من خلال نشر معين للقوات الأمريكية والحاليفة (بما فيها القوات العراقية المقبولة) وشن حرب دعائية أكثر كثافة ضد النظام السابق ولبيان مدى الاستقبال الشعبى العراقى الايجابى للاحتلال (أو باسـتخدام اللغة الأمريكية :التحرير!). ويعنى ذلك أيضـا أنـه مقابـل المطاردة الساخنة للمسئولين السابقين ستسعى أمريكـا الـى خطب ود الشخصيات المرموقة من العراقيين وخاصة مـن العسكريين وربما العلماء والفنانين..الخ.

خلال هذه المرحلة التى تمتد للأسبوعين التاليين فواجـب مصر هو:

١- تحميل قوات الاحتلال مسئولية سـلامة المـدنيين العراقيين واحترام اتفاقيات جنيف والتوقـف عـن مطاردة المسئولين العـراقيين السـابقين وتأكيـد ضرورة نقل السلطة للشعب العراقى علـى وجـه السرعة واستعادة الحياة الطبيعية فى العراق.

٢- جس نبض الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن والدول التى يمكن التنسيق معها لاصدار قرار من مجلس الأمن يتعلق بتمكين الأمم المتحدة من تولى ادارة العراق خلال مرحلة انتقالية قصيرة وتمكـين العراقيين من وضع دستور جديد. والصورة المثالية فى حالة قبول صيغة الأمم المتحدة هـى انسـحاب القوات الأمريكية وتولى قوات متعـددة الجنسـية مهمة حراسة السلام فى العراق والمحافظة عليـه موحدا. ولكن ليس هنـاك أدنـى احتمـال لقبـول الولايات المتحدة تلك الصيغة الأخيرة لأنها لم تأت للعراق لكى تتركه لقوات متعددة الجنسيات.

٣- وبناء عليه يمكن لمصر أن تقترح صـيغة لتـولى الأمم المتحدة لمسئولية ادارة العراق مـع وجـود اتفاق بينها وبين القيادة المركزية الأمريكية حـول الاختصاص. وتصوغ مصر وتقوم بالمفاوضـات الأولية حول مسودة مشروع قرار.

٤- ومن الضرورى أن يكون هذا الموقف علنيـا وأن يعلن عبر خطاب عام تحشد له وسـائل الاعـلام الدولية للرئيس مبارك بذاته. ويتناول الرئيس فـى هذا الخطاب تقديم رؤية كاملة لمسـتقبل العـراق السياسى كما تراه مصر من جميـع جوانبـه مـع الاهتمام بالتدابير الانتقاليـة بالتفصـيل والحـديث بصورة عامة عن نظـام دسـتورى ديمـوقراطى يضمن وحدة واستقرار العراق والتمثيـل العـادل والمتوازن بين جميع القوى الاجتماعية فى العراق. وفى هذا الخطاب يشير الرئيس مبـارك الـى أن عروبة العراق يجب الا تكـون محـل تشـكيك أو تجريح ولكن العروبة المعنية هنـا هـى عروبـة إنسانية تعمق الصلات التاريخية وتمنح المشـاركة الكاملة لجميع الثقافات والأديان والقوميات الأخرى.

٥- وخلال هذه المرحلة لابد من الإسراع بعقد جلسة لمجلس الجامعة يصدر قرارا بتخصيص موازنة لمعونات الإغاثة العاجلة وتقديم شتى صور المعونة للشعب العراقى.

٦- وخلال هذه المرحلة أيضا لابد من مسح الشخصيات العراقية التى يمكن أن تكون مرشحة للتأثير على مستقبل العراق السياسى إضافة إلى جس نبض الأكراد وإيران والسعودية وتركيا لتنسيق المواقف أو مجرد التعرف عليها وفرز المواقف داخل وحول العراق. ويجب التعرف على وجهات نظر القوى المختلفة من خلال اتصالات أولية واستكشاف ما يمكن لمصر أن تفعله للعراق من خلالهم.

٧- وبدون المصادرة على احتمالات استمرار المقاومة العسكرية أو السياسية يجب أن ننتظر لتبين الموقف العسكرى على الأرض.

المرحلة الثانية: تأسيس الحكومة المؤقته :

أهم واجبات مصر فى هذه المرحلة هى ما يلى:

١- الإجهاض المبكر لخطة الأمـريكيين فـى تكـوين حكومة عسكرية أمريكية على اعتبار أن مثل هـذا الإجراء يعد استعمارا غير مقبول فى القرن الواحد والعشرين ويمكن لمصر استغلال كافـة الآليـات المتاحة دوليا وإقليميا وعربيا وعراقيا ومن خـلال الأدوات الذاتية. ويتفق مع نفس الهـدف محاولـة إجهاض أية محاولة لزرع أو فرض حكومة غيـر تمثيليـة علـى العـراق بالاسـتعانة بشخصـيات المعارضة أو تنظيم عمليـات سياسـية لا تتمتـع بالمصداقية الشعبية أو القانونية.

٢- التفاوض الجاد والساخن مع الأعضاء الدائمين فـى مجلس الأمن حول الحكومة الانتقالية وأن تأتى مـن الأمم المتحدة وأن تستعين بعـراقيين فـى تشـكيل الحكومة وأن تعلن تلك الحكومة مصـالحة وطنيـة شاملة وتطلق سراح الأسرى العراقيين وتضمن عفوا شاملا عن جميع الأشخاص الذين لا توجه لهم تهـم بإبادة الأجناس أو القيام بجرائم قتل أو ما يشبه ذلك.

٣- اتخاذ قرار من مجلس الجامعة بعـدم الاعتـراف بتمثيل العراق إلا لأشخاص تحددهم الأمم المتحـدة أو حكومة عراقية يتم الاعتراف بهـا مـن قبـل الجامعة. وتطلب الجامعة فى نفس القرار أن يكون لها حق المشاركة فـى ادارة شـئون العـراق أو الرصد والرقابة لهذه الادارة.

٤- فى حالة قيام الولايات المتحـدة بـالانفراد بحكـم العراق وفرض نظام استعمارى ومعاملة مسـئوليه أو شعبه بقسوة، يجب حجب أى نوع مـن أنـواع الاعتراف وتشجيع المقاومة السياسية والعسـكرية العراقية من خلال الاعلام غير الرسمى ومن خلال شخصيات مصرية غير رسمية..الخ والاسـتمرار فى المطالبة بالانسحاب الفورى للقوات الأمريكية.

٥- المشاركة فى عمليات إعادة تعمير العراق أولا مـن خلال تنفيذ العقود القائمة وثانيا بمساعدة الشـركات المصرية على التنافس الفعال مع غيرها من الشركات العالمية. كما أن الحصول على عقود مـن البـاطن يتطلب مساعدة الدولة لهذه الشـركات بالمعلومـات والخبرة الفنية والدعم الدبلوماسى اذا لزم الأمر.

٦- يمكن لمصر أن تستخدم آليات الدبلوماسية الدولية غير الحكومية مثل عقد مؤتمر دولى تدعو له منظمات غير حكومية فى القاهرة لوضع تصور حول الضغط على أمريكا لتمكين العراقيين من حكم أنفسهم بأنفسهم واحترام القانون الدولى الانسانى والدعوة لعفو عام ومصالحة وطنية شاملة وسحب القوات الأمريكية على الأقل من المدن الرئيسية شاملة بغداد.

٧- دعوة شخصيات سياسية من شتى الاتجاهات السياسية والفكرية ومن شتى الطوائف والقوميات لندوة فى القاهرة حول وضع دستور جديد للعراق وحول آليات تبنى مثل هذا الدستور.

٨- التنسيق مع الدول الكبرى والوسيطة لتأسيس تحالف عالمى يدعو للسلام العادل واحترام حرية واستقلال الدول الصغيرة ويرفض التسليم باستباحة الدول الكبيرة لاستقلال وأمن الأمم الضعيفة.

المرحلة الثالثة: تأسيس النظام الجديد :

أكثر المهام أهمية فى هذه المرحلة هى ما يلى:

١- مساعدة عناصر عراقية وخاصة تلك المنتمية الـى الجماعة السنية على تنظيم أنفسـهم فـى أحـزاب عروبية ناصرية أو حتى بعثية للتعبير عن التوجـه العروبى فى العراق والمشاركة فـى ادارة شـئون البلاد.

٢- المطالبة بسحب القوات الأمريكية وضمان استقلال العراق بكل الوسائل الممكنة مثل التوصيات المقدمة الى الجمعية العامـة للأمـم المتحـدة والوكـالات الأخرى وقرارات الجامعـة العربيـة والحمـلات الاعلامية والسياسية.

٣- إنشاء قنوات اتصال مستدامة مـع كافـة الهياكـل السياسية العراقية والتعاون اذا لزم الأمر مع الدول العربية ذات الصلة لتحقيق هذا الهدف حفاظا على عروبة العراق الذى سيتعرض بكل تأكيد لمحاولـة تغيير هويتة.

٤- فى حالة تعرض العراق لعمليات تصـدع سياسـى تفضى الى عنف متبادل يجب أن تقوم مصر علـى الفور بمد يد المساعدة لإحلال السلام والتفاهم بـين القوى السياسية والطوائف الدينيـة حتـى لا يـتم استثمارها من قبل الأمريكيين لدفع العـراق الـى الانهيار أو التفتت السياسى أو إضعاف الحكومـة المركزية تمهيدا لتقسيم العراق فى المدى الوسيط.

٥- معارضة أية مشروعات لتوطين الفلسطينيين فـى العراق.

٦- معارضة فرض اتفاقيات إذعان أمنية واستراتيجية مع الحكومات العراقية التى قد تنشأ فـى مرحلـة الوضع النهائى.

٧- بحث امكانية مشاركة مصر فى ترتيبـات أمنيـة خليجية أو دولية يكون من شأنها تسهيل انسـحاب القوات الأمريكية من العراق وضـمان اسـتقراره والدفاع عن استقلاله وصيانة سلامته الاقليمية.

٨- دعوة الدول العربية وايران للتنازل عن التعويضات المستحقة لها لدى العراق لتمكينه من الوقوف على قدميه إذا ما تم تبنى صيغة سياسية مناسبة من حيث احترامها للشعب العراقى ولحقوقه السيادية حيث أن دخله البترولى لن يكون كافيا لمجرد تسديد الديون المستحقة عليه خلال ما يزيد عن خمسين عاما.

(٣٠)

بحثا عن صيغة خلاصية للعراق

تثير أعمال الهجوم المسلح ضد القوات الأمريكيـة فـي العراق حماس العرب في كل مكان..ربما بفضل الفضـائيات مرة أخرى.

إن الإسراع بوصف هذه الأعمال بصفة المقاومة يكشـف عن الخفة المألوفة في التعامل مع اللغة العربية وخاصة فـي مجال السياسة. فهناك فارق بين أعمال هجوم مسـلح حتـى ضد جيش محتل من ناحية وظاهرة المقاومـة مـن ناحيـة أخرى. من جديد نؤكد أن المقاومة هـى ظـاهرة أو مهمـة سياسية. ولأنها كذلك يجب أن تقـوم علـى رؤيـة ثقافيـة وبرنامج سياسي. البرنامج السياسي يجب أن يقول لنا ما هو شكل الدولة المستقلة التي ترمى المقاومة لتأسيسها بعد الفوز بمعركة الاستقلال وما هي المنطلقات التي تحقق الانطـلاق والنهوض بالوطن والمجتمع العراقي في الأفـق المنظـور. ويجب بداهة أن يكون للمقاومة تحليل مقبول لما حدث.

بدون هذه المعطيات المشروحة بوضوح من المحتمل أن تثير فينا أعمال الهجوم المسلح ضد قوات الاحـتلال بعـض الفخر وربما تنفخ في الناس داخل العراق وعلـى الصـعيد العربي بعض النخوة. فهي ترد على واقعة الأداء المخـزي للنظام السياسي وللجيش العراقى أثناء معركة الـدفاع عـن الوطن. ولكن الفخر والنخوة لن يؤديا إلى شئ بذاتهما أكثـر من مضاعفة كميات العنف والاضطراب السياسي والفكري.

فحتى لو كان من يقوم بأعمال الهجوم المسلح ضد قـوات الاحتلال عصابات من النهابين سوف تستمر أعمالهم الناجحة في إثارة الفخر طالما أنهم عرب يواجهون قـوات احـتلال. ولكننا نعلم أن هؤلاء لن يضـعوا العـراق علـى طريـق الاستقلال والنهضة.

والواقع وهذا هو تقدير القوى الديموقراطية والحقوقية في كل مكان لن يختلف الأمر كثيرا إذا كان مـن يقـوم بهـذه الأعمال هم رجال صدام حسين. فهؤلاء الرجال لا يختلفـون كثيرا بل يزيدون سوءا عن عصابات النهب التـي عصـفت بالحضارة العراقية بعد الغزو مباشرة. ورسالة هـؤلاء لـن تكون أكثر من العودة بالعراق إلى وضعية المجـزرة التـي

تعمل على مدار الساعة وهى الوضعية التي سـمحت بقيـام الرئيس السابق وولديه وأعوانه بنهب خيرات العراق و تدمير كرامتها وإنسانيتها.

يجب أن نتوقف عن إصدار تأييد ميكانيكي شامل لكل من يمسك سلاحا حتى لو كان يطلق النار على الأعداء. فالسلاح ليس أمرا بسيطا وحرب التحرير ليست مناقشة بالنار. وهى بكل تأكيد ليست "ثأرا " بين عصابات مسلحة على الطريقـة التي تحدث داخل عالم المافيا. إنها معاناة مهولة تخسر فيهـا الشعوب الكثير جدا. ويجب أن تعنى بالنسبة لجموع النـاس أي للشعوب الكثير جدا أيضا حتى يكـون لإ طـلاق النـار وللتضحيات معنى. وليس هناك أي معنى فـي أن يضـحي الشعب العراقي بالمزيد من أجل أن يعـود رجـال صـدام وأجهزته أو من أجل تسليم السلطة لعصابة شمولية جديدة.

ولكن هذا الواقع الصعب يضع المجتمع العراقي ونخبتـه السياسية أمام امتحان كبير. إن أداء الاحتلال الأمريكي فـي العراق سيئ ومريع بكل المعايير بل وإجرامـي بالمقـاييس السياسية والقانونية. ولكن أداء النخبة العراقية بمعظم تياراتها منذ وقع الاحتلال ليس رائعا أو ملهما. وقد نستطيع أن نفهم

التمزقات والمعاناة والصعوبات التي تجعل الوصـول إلـى معايير أفضل للأداء صعبا بعد عقود من مصـادرة الحيـاة السياسية بل من التدمير والقتل والاستعباد. ولكن إن اسـتمر الواقع الراهن فان العراق سيخرج من التاريخ كليـة. ولـن يكون قد حصل على أي شئ إيجابي من المعانـاة الخارقـة التي أجبر عليها.

من الطبيعي أن يفشل الاحتلال في إنتاج صـيغة تحـرر الشعب العراقي وتعيده إلى طريق النهوض الوطني. ولكـن ليس من الطبيعي أن يستمر فشل النخبة العراقية في التوافق على صيغة عميقة لاستعادة الاسـتقلال وتحقيـق الخـلاص الوطني والنهوض الاجتماعي.

فما هو نموذج الفعل السياسي الذي يجسد واجبات ومهـام النخبة العراقية؟.

النموذج الذي تتحرك على هداه النخب السياسية العراقيـة حاليا يوصف في أفضل التقديرات بأنه "رجاء المشاركة" في حكم البلاد عبر حكومة انتقالية عراقية تتكون علـى هـامش الاحتلال. وهذا النموذج مشوب بالصراع حول "حصة النفوذ" بين فرقاء أو فرق السياسة العراقية الراهنة. وتعـد صـيغة "مجلس السبعة" تجسيدا لهذا النموذج. ونستطيع التنبـؤ بـأن مصير هذا النموذج كله هو السقوط السريع. فإضـافة إلـى الظلال الكثيفة للاحتلال لم يتفق هؤلاء السبعة على شئ أكثر من الشكليات العامة. وهو أمر لا يكفى للقيام بمهام الحكومة. وقد يقع في خطأ تكريس نظام الحكـم المـوروث باسـتثناء واحديته وتسلطيته التي لم تكن عيوبه الوحيدة. فالمطلوب هو إيجاد تصور مشترك عن "طبيعة الدولة" وليس فقـط شـكل الحكم أو الحكومة. ويعنى ذلك بصفة أساسية بنـاء أوعيـة المواطنية والمشاركة وتقريب السلطة من الناس وتعيين اتجاه عام لإحياء الاقتصاد والمجتمع وليس الأمـن وحـده. أى أن المطلوب هو الاتفاق على معنى جديـد للسـلطة والسياسـة ولطبيعة العيش والحياة التى يريدونها فى العراق.

مطلوب أيضا حد أدنى من الاستقلال عن الاحتلال حتـى لو لم يكن من الممكن الخلاص منه سريعا كما نتمنى.

وقد نقترح هنا صيغة مثل صيغة الوفد المصري للتفاوض مع سلطة الاحتلال حول شروط بقاء قواته ومـداه الزمنـي وتمكين الحكومة العراقية الانتقالية والمنتخبة مـن ممارسـة سلطة شاملة على البلاد ووضع أسس السياسات العامة فـي جميع مجالاتها. إذ لن يكون هناك معنى لحكومة لا تسـيطر على قرارات الإعمار وعلى الثروات الوطنية.

وفكرة الوفد المصري طرحت عام ١٩١٩ لتمكين وطنيين من تمثيل الأمة في التفاوض -حـول الاسـتقلال والحكـم الوطني -مع الاحتلال الإنجليزي باعتبار الأمة المصرية هي صاحبة السلطة بعد نهاية الخلافـة العثمانيـة وفقـا للفكـر الدستوري والديموقراطي الحديث. ولكي يتعزز هذا التمثيـل انبثقت فكرة توقيع المواطنين على وثيقـة تفـوض "وفـدا" مصريا في تمثيل البلاد.

وفكرة التوقيع على وثيقة تفويض لا تصل في إحكامهـا إلى مستوى الاستفتاء أو الانتخاب العام. ولكنها قـد تكـون الفكرة الوحيدة الممكنة في وقت قصير.

وفى التجربة المصرية تعززت فكرة تفويض وفـد مـن خلال العصيان المدني بعد رفض الاحتلال الموافقـة علـى التفاوض من أجل استقلال مصر. والواقع أن هـذه الفكـرة كانت كافية لإجبار الاحتلال على إصدار وثيقة مـن جانـب واحد باستقلال مشروط لمصر. وسريعا ما تقدمت الحركـة الوطنية المصرية خطوة أخرى إضافية دون انتظار موافقـة الاحتلال وهى وضع دستور جديد للبلاد عـام ١٩٢٣ وهـو الدستور المعروف بهذا التاريخ.

والواقع أن العراق يمكنه أن ينتج نموذجا أكثر تقدما إذا ما نجحت النخبة العراقية في الإمساك بزمام المبادرة والاتفـاق على صيغة تفاوضية ترضى جميع أقسام المجتمع أو الشعب العراقي. وتكون هذه الوثيقة في شكل دستوري دون أن تكون بالضرورة دستورا بالمعنى المفهوم. ثم تتقدم النخبة السياسية بأسماء وفد مقبول من جميع هذه الأقسـام للتفـاوض مـع الاحتلال حول شروط وطبيعة بقائه ومدة هذا البقاء وحـول توليها المباشر لمهام ووظائف الحكم وتطبيق برنامج محـدد للخلاص والنهضة.

فإذا لم يوافق الاحتلال يكون من المفهوم أن تعلن النخبـة أو الوفد الدعوة للعصيان المدني العام. فإذا مـا فشـل هـذا العصيان في هز نظام الاحتلال وإجباره على القبول ببرنامج الخلاص الديموقراطي الشعبي تدعو النخبة للثورة المسـلحة بناء على هذا البرنامج.

ومثل هذه الثورة المسلحة ستكون قد انطلقت من موقـف متقدم يتفق عليه العراقيون أو أغلبيتهم الكبرى ولـن يكـون عودة مأساوية إلى نظام حكم صدام المشئوم. وعندها ستختفي أعمال الهجوم العشوائي التي يقوم بها الآن مسلحون يشـتبه في انتمائهم إلى أجهزة النظام السابق بل قد يذوبون فيها.

المهم أن تخوض النخبة العراقية تجربة حـوار وطنـي مكثف حول الخلاص والاستقلال والنهـوض الـوطني وأن تصوغ الاتفاق في رؤية وبرنامج عمل يمكنها مـن انتـزاع زمام المبادرة من الاحتلال. وهذا وحده هو ما يمكن أن ينقذ العراق.

(٣١) هل ننجح اجتماعيا فى العراق والسودان؟!

ليست هناك اضافة فى القول بأن العـالم العربـى فشـل سياسيا فى فلسطين وفـى العـراق والسـودان والصـومال والجزائر. ولكننا نستطيع أن ننجح اجتماعيا فى هذه الـبلاد العربية.

نعرف التاريخ السياسى للفشل فى فلسطين. أما فشلنا فـى السودان والصومال والجزائر فهو عميق الأثر، ولكنه غائب تماما تقريبا عن الوعى العربى خارج البلدين. أما فى العراق فكان الفشل كارثيا على كل الأصعدة. وانغرس الوعى بهـذا الفشل فى الوعى والضمير، وسوف يبقى أبد الدهر كأحد أهم تحديات ومحن الثقافة السياسية العربيـة. فقـد فشـلنا فـى المساهمة فى وقف المجزرة البشرية التى اشتعلت دون توقف منذ عام ١٩٥٨ وبشكل يومى منذ تسلم صدام لقمة الحكم عام ١٩٧٩. ثم فشلنا فى تجنيـب العـراق الغـزو والاحـتلال الأمريكى. ولا زلنا فاشلين فى مد يد المساعدة للعراقيين لنيل استقلالهم وبناء نظام سياسى جديد.

والعلة الجوهرية وراء الفشل المعمم للعرب فى المجـال السياسى هو أن أحدا لا يستطيع أن يعطى ما لا يملكه. فمـن كان يستطيع أن ينصح الرئيس العراقى السابق أو الـرئيس السودانى الأسبق أو غيرهما من الرؤساء الذين زجوا ببلادهم فى أتون حروب أهلية لا ترحم بأن يديروا مجتمعاتهم بشىء من الحكمة والعدالة والرحمـة – ولا نقـول الديموقراطيـة والحرية والمساواة والكرامة الانسانية- طالما أن حكاما عربا قليلين حكموا مجتمعاتهم هم بشىء من هذا كله.

ولكننا نستطيع أن نعطى على الأقل للعراق والسودان شيئا مما نملكه وفى المجال الذى لا يثير أحـدا ولا يقحمنـا فـى صراعات أو خلافات مستعصية، وهو المجـال الاجتمـاعى وبصورة محددة المساهمة فى حل بعـض أهـم المشـكلات الاجتماعية التى خلفتها سلسلة من الحروب الأهلية والدولية. ففى العراق هناك آلاف من أطفال الشوارع والأيتام أو الذين يعيشون مستويات مروعة من الفقر والتصدع الاجتمـاعى. ويستطيع العالم العربى ككل أن يركـز اسـتراتيجيته فـى مساعدة العراق على هذا الموضوع اللاسياسى.

نقول أنه لاسياسى لانه لا يتطلب اتخـاذ موقـف محـدد وقطعى من الغزو أو التواجد الأمريكى أو من مجلس الحكـم الانتقالى أو من الخلافات المثارة بشأن الدسـتور الجديـد أو غيرها من "قضايا السياسة العليا". ولكنـه بـالطبع سياسـى بمعان أخرى وأشد عمقا. فهو يقع فى قلب ما يمكن تسـميته "بالمفهوم الجديد للسياسة" والذى يلغى التمييز الشـائع بـين السياسة العليا والسياسة الدنيا. الأول يشمل كل مـا يتعلـق بطبيعة الدولة وسياساتها الكلية، ومن ثم بالصراع فى الداخل والخارج حول "الأنصبة من السلطة والنفـوذ". أمـا الثـانى فيشمل فى الحقيقة كل قضايا الحياة وبصفة أخص كـل مـا يتعلق المجتمع وأساليب المعاش ويشغل الناس أو يجـب أن يشغلهم. ومعالجة القضية الاجتماعية المتفجرة هو الموضوع الأهم على جدول أعمال "السياسة الجديـدة" التـى نأمـل أن تصبح المستوى الحقيقى للفعل السياسـى مـن جانـب كـل الفاعلين المهمين فى المجتمعات العربية اليوم وغدا.

ولأن الصراعات والمناظرات تركزت فى العالم ككل وفى العالم العربى بوجه خاص على القضايا السياسية العليـا، أى قضية السلطة لم يعـر العـرب أو العـالم التفاتـا للقضـية الاجتماعية. ولابد لطرف ما أن يثير ويتناول هـذه القضـية بالعلاج الفورى وأن يفرضها على جدول الأعمال فيما يتعلق بالعراق. والواقع أن من يتولى، هذه المهة سيكون هو البطل الحقيقى فى عين الشعب العراق بكل أقسامه وقواه. وحتـى بالمعنى العملى فان من يريد أن يكون لنفسه "سمعة سياسـية طيبة" فى العراق بل وربما نفوذاً حقيقياً على تطور الأحداث السياسية على المدى البعيد هناك، هو ذلـك الفاعـل الـذى يطرح تلك المهمة على ذاته وأن يعمل فيها بكل نشاط وهمة.

وكل من يهمه أمر العروبة كقيمة أو كسياسة عملية يجب أن يدرك أن المساهمة فى حل المشكلة الاجتماعية المتفجـرة فى العراق هى آخر فرصة لخطـب ود الشـعب العراقـى والاحتفاظ به فى النسق السياسى العربى.

ونفس الأمر يصح أيضا فى السـودان. فاتفـاق السـلام وشيك. ومن بين الأشياء الأخـرى التـى سـتحدد مصـير السودان هو الاستفتاء حول تقرير مصير الجنوب بعد نهايـة الفترة الانتقالية. فإما أن يبقى السودان موحـدا أو ينفصـل الجنوب. وإحدى أهم آليات العمل من أجل حـث الجنـوبيين على التصويت للوحدة هى الاستثمار فى البشر حيث تتفجـر مشكلات اللجوء ويعصـف الفقـر والعـوز بملايـين مـن السودانيين وخاصة من أهالى الجنوب والغرب.

على الأقل تعى الجامعة العربية وتناضل لصياغة سياسة ما للمساهمة فى حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية فـى السودان. أما فى العراق فلا تكاد المشكلة الاجتماعيـة تثيـر انتباه الجامعة أو أى بلد عربى بعينه. وقد آن الأوان لوضـع استراتيجية عربية للمساهمة فـى تخفيـف حـدة المشـكلة الاجتماعية هناك.

والمقصود باستراتيجية عربية ليس مجرد مساهمة جميـع الشعوب والمنظمات الأهلية والنقابيـة والحكومـات العربيـة بالموارد اللازمة. فالأهم هـو الرؤيـة والفلسـفة والجـداول الزمنية. فقد تعلم العالم ونضطر نحن أيضا لـتعلم أن العمـل الخيرى الصرف لا يجـدى. فـالطريق الصـحيح لمعالجـة مشكلات اجتماعية متفجرة مثل أطفال الشوارع وضحايا الفقر الشديد والتهميش والتصدع الاجتماعى والشـيخوخة والوحـدة الإنسانية- وهى من المشكلات الكلاسـيكية للحـروب- هـو فلسفة التمكين والتنمية البشرية حيث تتكامـل آليـات التعلـيم والاسكان والرعاية الصحية والتشغيل فى الأعمـال المناسـبة والتواصل مع المحيط البشرى والتثقيـف وبنـاء المؤسسـات والمشاركة فى ادارتها من جانب المستفيدين منهـا فـى كـل واحد، وتوضع أولويات للتوسع فى استيعاب المسـتحقين بمـا يتلاءم مع إلحاح المشكلة والظروف المتاحة والموارد الماليـة والمؤسساتية وخبرات الادارة والكادر البشرى. فـاذا أنجزنـا صياغة هذه الاستراتيجية نستطيع أن نوظف المنظمات الدولية ذات الخبرة والقدرات وأن نوزع الأعبـاء بـين القطـاعين الحكومى وغير الحكومى وفيما ين الحكومات العربية.

والواقع أننا لو نجحنا فى تدشين حملة تتعامل مع القضية الاجتماعية وحدها فى العراق لخدمنا العالم العربى كله وليس العراق وحده. فأولا سوف نسترد احترام العالم الذى لا يرى فى عالمنا العربى سوى العنف والفساد والجمـود السياسـى والثقافى. وثانيا قد نسترد احترام شعوبنا ومجتمعاتنا لـذاتها ولبعضها البعض، ونكون قد وضعنا أساسـا صـلبا لفكـرة الوحدة القومية التى ظلت تعيش حياة علوية متعالية وفى أكثر الأحوال قاسية وصلفة. وثالثا قد نبتكر لأنفسنا مدخلا مناسبا لظروفنا وثقافتنا للتكامل وذلك بالتوازى مع المدخل الأوربى مثلا الذى اختار المدخل الاقتصادى ونجح فيه، بينما لم ننجح نحن فى تطبيقه. وقد نفلت أيضا بتجربة ناجحة نؤسس مـن خلالها "مؤسسة الأغاثة العربيـة" فتصـبح مـدخلاً مهمـا لمساهمتنا فى جهود الاغاثة الدولية التى صارت قلب فكـرة المجتمع المدنى العالمى وأقدم هيئاته وأكثرها نجاحا. ويمنحنا ذلك بدوره للنفوذ السياسى فى العالم الخارجى. بل وقد نحول مثل هذه المؤسسة يوما ما الى وزارة عربية موحدة للشـئون الاجتماعية تكون مدخلنا الى الوحدة السياسية علـى المـدى الطويل.

وعلى نفس الدرجة من الأهمية، فلـدينا فرصـة نـادرة للنجاح فى هذا القطاع لأسباب عديدة. فهذا القطاع لا يكـاد يثير خلافات سياسية فيما بين الدول العربية. ثم أن هذا هـو القطاع الذى تتوفر فيه ومن أجله أفضل التقاليد فـى العمـل الأهلى العربى على المستوى الداخلى. وأخيرا فـان بعـض الدول العربية حققت من خلاله احتراما عالميا عندما ساهمت فى تخفيف ويلات الحروب الأهلية التى انتشرت فى العـالم مؤخرا. ونذكر هنا بتجربة الإمارات المتميزة فـى البوسـنة والهرسك.

أمامنا فرصة فريدة وتكاد تكون وحيدة وقابلـة للتطبيـق الناجح لمساعدة العراق والسودان ومساعدة أنفسنا كعـرب. فان لم ننتهزها فأقرأوا على العرب الفاتحـة وتمنـوا لهـم الرحمة يوم القيامة واليوم أيضا.

(٣٢)

مرة ثانية: من ينقذ العراق

للمرة الثانية يثار سؤال من ينقذ العراق. المرة الأولى كان التساؤل يدور حول من ينقذ العراق من الغزو الأمريكي. أما هذه المرة فقد صار السؤال هو مـن ينقـذه مـن الفوضـى والعنف واحتمالات الانجراف الى الحرب الأهلية.

مناسبة السؤال هو أن الأمريكيين صاروا يعترفون علنـا لأول مرة بأنه قد لا يكون بوسعهم استعادة الأمـن وإعـادة إعمار العراق. فهم يقدرون أن استعادة الأمن تحتاج الى نحو نصف مليون جندي، وليس لديهم في العراق سوى ١٤٠ ألفا. وكانوا يرغبون في سحب فرقة كاملة مـن العـراق لـدواع استراتيجية. أما إعادة الاعمار فقد تتكلف ٦٠ بليـون دولار وفقا لما ذكره الحاكم المدني الأمريكي بريمـر. وهـم لـم يخصصوا لإعادة الاعمار سوى ٧ بلايين دولار. فمن أيـن يمكن سد الفجوة؟

تحاول الولايات المتحدة أن توسع مـا تسـميه بتحـالف الراغبين تحت قيادتها في العراق فتدعو عشرات مـن دول العالم لنشر قوات في العراق. كما ستحاول أن تعبئ مـوارد إضافية من خلال مؤتمر المانحين المزمع عقده في أكتـوبر المقبل. ولكن التقديرات الأمريكيـة لا تبـدو متفائلـة بهـذا السيناريو. فالدول القادرة على إرسال قوات مدربة وكبيـرة العدد مثل الهند لا تملك تمويل نشر هذه القوات. والدول التي تستطيع نشر قوات والمساهمة في تمويل إعادة الاعمـار لا تريد أن تقوم بهذه الخطوة إلا وفقا لسيناريو توسيع دور الأمم المتحدة.

الانسحاب بغطاء دولى :

ورغم أن الإدارة الأمريكية لا تزال ترفض هذا السيناريو يدافع كثيرون في الولايات المتحدة والعالم عن فكـرة نقـل الإشراف على العراق الى الأمم المتحدة. وقـد لا تسـتطيع الإدارة الأمريكية الصمود طويلا أمام الضغوط التي تدفع إليه باعتباره الحل الوحيد للوضع المتدهور في العراق. ولا شك أن هذا هو السيناريو الوحيد الذي يمنح عملية الانتقال شرعية دولية حقيقية. ولكن نجاح سيناريو الأمم المتحدة يتوقف الـى

حد بعيد على رغبة الدولة الأمريكية في الالتـزام بصـورة قوية بإعادة بناء الدولة العراقية على أسس ديموقراطية. وهذا مشكوك فيه كثيرا. فقد لا يكون نقل الإشـراف الـى الأمـم المتحدة سوى خطوة على طريق الانسحاب شبه الكامل مـن العراق. ومن المحتمل للغاية أن يقـوم الأمريكيـون بنقـل الإشراف الى الأمم المتحدة كتغطية ملائمة لتخفيض الالتزام بالقضية العراقية والتحلل من الالتزامات الماليـة والأمنيـة المكلفة تجاهه. فتدعو الولايات المتحـدة الـدول الأوربيـة المعارضة الى المشـاركة فـي تـدبير القـوات والأمـوال الضرورية لإعادة الأمن والخدمات الى العراق وفقا لقـرار جديد لمجلس الأمن كما يطالب الأوربيون ثم تبدأ هـي بعـد شهور قليلة أو كثيرة في سحب قواتها من العراق تاركة الأمم المتحدة بدون غطاء مالي وعسكري كاف. وبذلك قد تجبـر المنظمة الدولية على الانسحاب بدورها بعد فترة إذا تعرضت لتحديات كبيرة وهو ما يترك العراق في قبضـة السـيناريو الصومالي.

والواقع أنه لا يمكن استبعاد هذا الاحتمـال. فالولايـات المتحدة عموما ليست مؤهلة أو مهتمة سوى بالحرب. وهـى بالفعل لم تساعد أفغانستان كثيرا على إعادة الاعمار وتركتها عمليا نهبا للفوضى بعد أن نجحـت فـي إسـقاط حكومـة الطالبان. وكان هذا هو حالها في معظم البلاد التـي قامـت بغزوها وتغيير نظمها بالقوة طوال تاريخها. وهى لم تـنجح أبدا تقريبا في مساعدة تلك البلاد على إعادة الإعمار بعد أن قامت بتخريبها بالحروب. والهروب من العراق ليس سيناريو مستبعدا في فكر المحافظين الجدد الذين يحكمـون أمريكـا فعليا. فهم لا يخجلون من الفشل. ويقولون بكل بسـاطة فـي وثائقهم "إن فشلت في مشروع ما انتقل الى غيره". ورغم أن العراق أكثر أهمية من أي بلد أخر قامت الولايات المتحـدة بشن الحرب ضده لأسباب كثيرة فان تحقيـق النجـاح فـي العراق بالمعايير الأمريكية قد يكون مستحيلا بـدون تحمـل تكلفة لم يتصورها مهندسو تلك الحرب. وقد تجبـرهم هـذه الحقيقة على الهروب بكل بساطة من العراق تـاركين إيـاه يواجه مصيره بنفسه حتى لو كان معنى ذلك هـو الفوضـى والحرب الأهلية لفترة طويلة مقبلة.

بطبيعة الحال لن يكون ذلك هو الاختيـار الأول لـلإدارة الأمريكية. فالهرولة خارج العـراق الآن تكلـف الـرئيس الأمريكي نهاية فرصة إعادة انتخابـه. وحتـى الآن تؤكـد التقارير الصادرة مـن الولايـات المتحـدة أن الكـونجرس الأمريكي سيكون مستعدا لدفع مزيد من الأموال من دافعـي الضرائب حتى لا تلحق ببلاده هزيمة سياسية ثقيلة قد تشجع "الإرهاب" وتعزز مكانة القـوى المتطرفـة فـي المنطقـة. والأرجح أن الكونجرس سيطالب الرئيس مقابل ذلك بوضـع استراتيجية واضحة لتحقيق الأهداف الأمريكية من الحـرب التي فوض الرئيس بشنها ضد العراق. وقد لا يعنى ذلك أكثر من إجبار الرئيس على الإذعان لحتمية الموافقة على سيناريو الأمم المتحدة.

ولكن كما أشرنا فان الشرط الأساسي لنجاح سيناريو الأمم المتحدة هو أن تقدم الولايات المتحدة أكثر وليس أقل وخاصة فيما يتعلق بالموارد المالية اللازمة لإعادة الإعمـار. وهنـا يتعين على الرئيس الأمريكي أن يختار بين تقديم زيادة كبيرة لمخصصات إعادة إعمار العراق إضافة إلى تمويل القـوات الأمريكية هناك أو تحقيق نجاح اقتصادي داخل أمريكا وهو

أمر بالغ الأهمية لإعادة انتخابه. والاختيار هنا صـعب لأن عجز الموازنة الأمريكية بلغ نصف تريليون دولار. وقد يجد الرئيس الأمريكي أن عليه أن يدفع المزيد من الأمـوال دون أن يكون هناك ضمان لنجاح مؤكد في العـراق. ولهـذا لا نستبعد أن يتخلى عن العراق كلية بعد أن حقق جزئيا أهدافه هناك بالتأكد من خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل وإنهاء نظام صدام حسين.

ولكن إذا كانت الأخطاء الأمريكية هي السـبب الرئيسـي وراء الوضع الحالي في العراق فلماذا نعتبر أنه ستكون هناك مشكلة إذا قامت بالانسحاب. الإجابة هنا واضـحة وتجمـع عليها كافة القوى الديموقراطيـة فـي العـراق وخارجهـا. فانسحاب القوات الأمريكية قبل إعادة بناء الدولـة العراقيـة على أسس ديموقراطية متوازنة يعنى حربا أهلية مؤكدة لـن تستطيع أن تكسبها بسهولة أي من الأطراف السياسية الثلاثة المهمة عسكريا في العراق وهى بقايا النظام القديم والقـوات التابعة للقوى الإسلامية الشيعية وخاصة المجلـس الأعلـى للثورة الإسلامية والقوات الكردية.

من يستطيع أن ينقذ العراق من هذا السيناريو الصومالي؟.

قد تكون الأمم المتحدة حتى بـدون الولايـات المتحـدة! فالمنظمة الدوليـة تملـك الشـرعية والقـدرات التنظيميـة والخبرات الإشرافية الضرورية. ولكن هذا كله لا يكفى إن لم تقم الدول الكبرى الأخرى بتعويض القوات الأمريكية وهـو احتمال بالغ الضآلة.

هل تستطيع الدول العربية أن تقوم بإنقاذ العراق؟ هذا هو المنتظر من النظام العربي. فماذا تعنى العروبة السياسية ان لم تمثل دافعا كافيا لإنقاذ العراق؟. ثم أن إنقاذ العـراق مـن الفوضى مصلحة وطنية مؤكدة لعدد كبير من الدول العربيـة وعلى رأسها دول الخليج ومصر وسوريا.

لا شك أن تلك الدول ستعانى من مشكلة عملية كبيرة لـو حاولت إنقاذ العراق باسم المشروعية العربية. فهي لا تملـك القدرات اللوجيستيكية الكافية لنقل ونشر قوات كبيـرة فـي العراق إضافة الى تمويل تلك العملية الجبارة التي قد تتهرب منها الولايات المتحدة بكل قوتها وثرائها. ومع ذلك فليس من الضروري أن تقوم الدول العربية بهذه العملية وحدها. فهـي تستطيع أن تفعل ذلك من داخل سيناريو الأمم المتحدة فتكمل النقص في حالة هرولة الولايات المتحـدة خـارج العـراق بالتعاون مع الأوربيين وغيرهم.

وتبدو المشكلة الرئيسية هي الإرادة السياسـية. فمعظـم الحكومات العربية لا تكاد تملك الإرادة السياسـية أو حتـى مجرد الوضوح الذهني الضروري لمجرد إنقاذ نفسها هي من عوامل الهدم والتحلل التي قامت بزرعها في تربتها الوطنية.

من ينقذ العراق إذن؟ :

لا يوجد من ينقذ العراق سوى شعب العراق.

وفى الظروف العادية قد لا يقول هذا شـيئا. فالشـعوب العربية بائسة بكل المعايير بعد أن جردت من أبسـط أدوات التمكين. ولكن الموقف المأساوي الذي يواجه العراق قد يدفع الشعب إلى ملء الفراغ الذي ترتب على انهيار النظام القديم والغباء الأمريكي معا. فالعراقيون مصـممون علـى عـدم السماح بعودة نظام صدام حسين سواء كان الرجـل القبـيح على رأسه من جديد أو تـولى رجـل قبـيح آخـر نفـس المسئوليات بنفس العقلية الدموية.

ولا شك أن هذا لا يكفى. فالموقف يحتاج الـى وضـوح كبير فيما يتعلق بالبديل الديموقراطي المتوازن. وهـذا هـو دور العقلاء في كل مكان.

(٣٣)

مصر والعراق فى محنته

يسود في مصر صمت رهيب حول العـراق. فمنـذ أن جرى احتلاله صار يمثل لنا مجرد عناوين فـي الأخبـار. نحزن له ونتعاطف معه ونتشاجر حول شئونه أو مسـارات السياسة والأمن فيه. ونحن نعرف أنه بحاجة إلى كل مساعدة ولكن لا نعرف ماذا نستطيع أن نفعل من أجله. وكأن كل ما كان بوسعنا أن نفعله من أجل العراق هو التظاهر أو إصدار بيانات. ويبدو أن السياسة الخارجية المصرية قد أصيبت بعقم مفاجئ فيما يتعلق بملف العراق. فالدبلوماسية المصرية لـم تذكر العراق في جملة مفيدة منذ فترة طويلة. وهى لا تحرك ساكنا أو تبادر بفعل شئ لمصلحة العراق ولـو مـن بـاب طريقتها المشورة والمعروفـة باسـم "ان الحركـة بركـة". والمؤتمر الوحيد الذي انعقد فى المنطقة حول العـراق منـذ الاحتلال وجمع الدول المجاورة له لم يكن بمبادرة مصـرية. وبينما هناك حضور قوى وفعال لكل بلاد الإقليم في العراق تغيب مصر بصورة مثيرة للتساؤل، وهذا الصمت الغريب لا

يخص الحكومة وحدها بل يشارك فيه المجتمع كله. فالمجتمع المدني المصري لم يقم بواجبه تجاه هذا الشعب المكلوم أثناء أسوأ أزمة يتعرض لها فى تاريخه منذ الاستقلال.

الهم شرق :

العراق لا يستحق منا هذا الصمت وهـذه السـلبية التـي نعامله بها منذ الغزو. والعراقيون ينظـرون الآن بغضـب لحقيقة تجاهل العالم العربي لهـم مـن جانـب الحكومـات والشعوب أيضا. فالحضور العربي هناك ضئيل وليس لديـه رسالة إيجابية محددة. ومن المنطقي أن يشـعر العراقيـون بالسخط والغضب لتخلى العرب عنهم. ومـن الطبيعـي أن يتساءلوا ماذا يجنون من الانتماء السياسي للعالم العربي. فإذا لم يكن هذا الانتماء يمنحهم ولو مجرد تضامن رمزى، أليس من الأولى أن يتجاهلوا هم أيضا العالم العربي ويطلبـون أن يتركهم لشأنهم أو يرجون الارتباط بمن يهتم بأمرهم بغـض النظر عن الأسباب والمصالح وراء هذا الاهتمام.

لا يجب أن نبالغ في خطورة الشـعور بالغضـب داخـل العراق لأن البلاد والمجتمعات العربية لا تقوم بواجبها نحوه. فقد جربنا نحن المصريين نفس هذه المشـاعر أثنـاء عقـد السبعينات. فكان هناك اتجاه قوى ينفض يـده مـن العـالم العربي ويلومه على الأوضاع الصعبة التي عشناها في ذلـك الوقت. ويشعر الفلسطينيون أيضا منذ فترة طويلـة بغضـب شديد تجاه العالم العربي الذي تركهم وحدهم – فيما يقولون- ولم ينتفض لنصرتهم وهم يواجهون أسوأ آلة عسكرية فـي العالم منذ هزيمة الفاشية والنازية. وثمة عدد أخر من الـبلاد العربية تشعر بنفس الغضب من بقية العالم العربي لأسـباب متباينة. ومع ذلك فلا مناص من أن يكتشف كل شعب أنه لا يستطيع أن يواصل رحلته الصعبة إلى النهضـة والتحـرر وحده وأن هناك بالفعل قانونا عاما يؤكد وحدة المصير فيمـا بين الشعوب العربية. وقد يكون مـن المشـروع أن ينـال الغضب من الشعوب العربية الواحد تلو الآخر تجاه بعضـها البعض. ولكن تظل الحقيقة التي قد تخفف من المرارة وهى "أننا جميعا في الهم شرق".

ولكن لا يجب أن نهون من الآثار الباقية للغضـب الـذي تشعر به الشعوب والمجتمعات العربية تجاه بعضها الـبعض وخاصة أثناء المحن الكبيرة. فحتى لـو أدركـت الشـعوب والمجتمعات قانون وحدة المصير فـذلك لا يصـرفها عـن البحث عن بدائل أخرى لتحقيق مصالحها حتى لـو كانـت تفتش فى سديم من السراب. وقد تعود البلاد العربية بعد تيه طويل إلى بعضها البعض ولكن العاطفة تكـون قـد خبـت والحماس سيكون قد تبدد. أليس ذلك ما يحدث داخل العائلـة الواحدة عندما يتخلى الأخ عن أخيه؟ إنه يحدث أيضـا فـي العلاقة بين الشعوب والدول.

الضباع :

والواقع أن مسئولية مصر تجاه العراق أكبر من غيرهـا لأسباب معروفة ويجب أن نتذكرها جيدا. فمصر هي أكبـر البلاد العربية ومسئولياتها فى المحيط العربي تتناسب منطقيا مع حجمها. ثم أن العراق هو واحد من أهم الـبلاد العربيـة وبالذات بالنسبة لمصر. ولا يجب أن ننسى أن العراق كـان يمثل أهم سوق عمل للمصريين. وأن بين الشعبين والبلـدين رابطة عميقة عاطفية ومصلحيه. ثم أن العراق كـان لفتـرة

طويلة أهم شريك تجارى لمصر بين البلاد العربيـة. وكـان يمنح مصر دائما نوعا من الأفضلية فى أسواقه. وقد نقـول هنا أن ثمة جميل لا ينكر للعراق فى عنق مصر ويجـب أن نسدده عندما يكون بحاجة إلى كل من يمد له يد المساعدة.

وحتى لو تركنا مؤقتا لغة العاطفـة والانتمـاء المتبـادل والمشترك فمصالح مصر المستقبلية مع العراق كبيرة. وقـد تمثل العلاقة التكافلية بين مصر والعراق أهـم محـور فـى السياسة والاقتصاد العربي فى المستقبل. ولكن الحديث عـن المصالح السياسية والاقتصادية بل والشخصية والإنسانية (فلا يزال هناك عدد لا بأس به من المصريين المرتبطين بالعراق على نحو أو أخر). لا يعنى تجاهل لغـة العاطفـة أو القـيم المشتركة أو رسالة الاحترام والتقدير.

ومن يتحدث عن المصالح وكأنها أرقام صـماء لا يفهـم شيئا لا فى قضية المصالح ولا فى العلاقات بـين الشـعوب والدول. فكل شيء في السياسة الدولية يحمل من لغة العاطفة والانتساب المتبادل بل ومعاني النبل والنخوة بقدر ما يحمـل من لغة الأرقام والكميات والمعاملات التي تمر عبر الحدود.

ومن هنا لا يجوز مـثلا أن ننـاقش مصـالحنا الراهنـة والمستقبلية فى العراق وكأنها كميات لا علاقة لها بالطريقـة التي نقدم بها أنفسنا للشعب العراقي. وعلى سبيل المثـال لا يجب أبدا أن نناقش مشاركة مصر فى "إعادة أعمار العراق" وكأنها مدفوعة بباعث الدفاع عن "حصتنا" العادلة في سـوق مجرد كان لنا فيه نصيب وخسرناه بسـبب الحـرب. فهـذا النصيب لم يكن نتيجة مزايانا التنافسية وحـدها بـل أيضـا وربما أهم نتيجة تفضيل مصر عن غيرها لأسباب سياسـية. والحديث عن نصيبنا العادل يجعلنا نبدو في أعـين الشـعب العراقي وكأننا ننساق الى تسابق الضـباع حـول عقـود أو "ثروة تتعرض للنهب" في غياب الشعب العراقي نفسه. وهذا هو المعنى الذي دفع الرئيس الألماني للقول بأن ألمانيـا لـن تشارك في هذه العلمية خوفا من استخلاص الشعب العراقـي للرسالة نفسها وذلك بالرغم من أن الثقافة الألمانية لم تشـغل نفسها بالعاطفة ولم تمتدح كثيرا معاني النبل فـي العلاقـات الدولية مثلما تفعل ثقافتنا العربية.

الشراكة :

فالمعنى الذي يجب أن يصل إلـى العـراقيين هـو أننـا نشاركهم همهم وأننا لسنا أغنياء كما هو معروف ولكننا على استعداد لاقتسام لقمتنا معهم وقت الحاجة. فتسـرع الدولـة بتخصيص مبالغ كبيرة لتمويل برامج تساعد الشعب العراقي على التغلب على محنته الراهنة والحصول علـى حاجاتـه الأساسية وخاصة في مجالات مثل الغذاء والمياه وفى مجال الدفاع عن التراث العراقي واستعادته وغيرها من المجالات. ويجب أيضا أن تسرع مختلف النقابات والجمعيات بالاتصال بمثيلاتها العراقية للبحث في تقديم أوجه المسـاعدة والـدعم الضرورية لإعادة تسيير النظم الأساسية في العراق بقدر ما هو ممكن فى ظل الأوضاع الفوضوية التي تعيشها العـراق بعد الحرب وفى ظل الاحتلال.

والى جانب الرسالة العاطفيـة يجـب أن تـتم مباشـرة الصلات مع الشعب العراقي ومنظماته ومؤسساته وشخصياته ونابغيه ونخبه في كل المجالات في ظل الترويج لمشـروع سياسي محدد. نتحدث هنا عن "مشروع إعادة بناء الشـراكة المصرية العراقية" باعتبارها مكونا رئيسـيا فـي مشـروع

عربي جديد يجرى التحضير له بعناية من أجل تطبيقه فـى المستقبل. فقد كانت هناك شراكة حقيقية على الأقل في مجال الثقافة والاقتصاد. ويعرف كل من درس التـاريخ العربـي الإسلامي أن هذه الشراكة مثلت ركنا أساسيا للنهضة والأمن فى المنطقة وأنه عندما اختلت تلك الشراكة أو تفككت وقـع تصدع كبير فى المنطقة.

وتثير المسألة السياسية أكثر القضايا الراهنة صعوبة وهى كيفية مباشرة هذه العلاقة ونقل هذه الرسالة وتقديم كل صور المساعدة فى ظل نظام الاحتلال الأمريكي. حسـنا. ان هـذا الاحتلال لن يدوم ولكن السياسة الأمريكية تـنهض – حتـى الآن- على الانفـراد بـالعراق وحجـب أو منـع الأدوار الجوهرية الأخرى بما في ذلك دور الأمم المتحدة.

وبالرغم من ذلك فثمة أشياء كثيرة جدا يمكن إنجازها مع العراقيين بدون الاعتراف بالاحتلال أو منحه صـفة المـنح والمنع. ومن ناحية أخرى فان هذه السياسة محكـوم عليهـا بالفشل والأرجح أن يعترف الأمريكيون – غالبا بسرعة أكبر مما كان مقدرا- بعجزهم عـن القيـام وحـدهم بالوظـائف والأدوار التي يتحتم عليهم القيام بها كدولة احتلال.

فالسياسة الصحيحة هي التعامل المباشـر مـع العـراق والعراقيين بالرغم من وجود الاحتلال، وان هذا التعامل يـتم انطلاقا من القواعد المرعية في القانون الدولي ومن واجباتنا باعتبارنا أكبر دولة عربية.

ان رسالتنا السياسية يجب أن تشمل بعدين إضافيين. مـن ناحية أولى أن مصر تتوجه للعراق باعتباره عراقا: أي أنها تتوجه وتخاطب جميع العراقيين بغض النظر عن الطوائـف والقوميات. ويجب أن نميز لغة خطابنا عـن غيرنـا الـذين يتحدثون عن العراق بلغة الطوائف والقوميات. فالعراق بنـاه العراقيون والثقافة العربية التي تدفقت من العراق لم ينتجهـا العرب وحدهم بل شارك فيها الأكراد وغيرهم من العراقيين. ان مصر هي الدولة الوحيـدة المؤهلـة لمخاطبـة جميـع العراقيين. ويجب أن نتجنب الوقـوع فـي الأخطـاء التـي ارتكبناها في بلاد أخرى فى العالم العربي عندما توحدنا مع طائفة بعينها فنلنا غضب وشكوك الأخـرين ولـم نسـتطع المحافظة حتى على العلاقة مع الطائفة المختارة.

ثم أن رسالتنا إلى العراق والعـراقيين هـي أننـا مـع الديموقراطية بحسم ووضوح. ويجب هنا أيضـا أن نتجنـب الوقوع في المصيدة التي جعلتنا نبدو وكأننا نفضـل الـنظم العسكرية على حساب الحقوق الديموقراطية. ان مصر كانت تاريخيا أول ديموقراطية في الشرق. والديموقراطية فى البلاد العربية الأخرى فى مصلحتنا على المدى الطويل.

الصفوة والشعب :

وفيما وراء هذا التكييف السياسي تمتد الرسالة المصـرية المرجوة نحو العراق والعراقيين إلى ثلاثة أبعاد أساسية.

فأولا يمكننا أن نساعد العراقيين سياسيا من خـلال دعـم محاولاتهم للامساك بزمام المبادرة ووضع صـيغة سياسـية يتحقق عليها إجماع العراقيين فيما يخص مستقبلهم السياسـي بكل مراحله بدءا من تشكل حكومة انتقالية مرورا بالترتيبات الدستورية الديموقراطية ووصولا إلى اسـتعادة الاسـتقلال السياسي الكامل.

ويمكننا أيضا أن نساعد المجتمع المدني في العـراق مـن خلال البدء فورا في بناء مشتركات أو برامج عمـل فنـدعو أكبر عدد من العراقيين في كافة المجالات ومن جميع الخلفيات لمصر أو نذهب إلى هناك من أجل مناقشـة أو مباشـرة مـا يهمهم وضعه من ترتيبات بدءا من الإعداد للدسـتور حتـى استعادة قاعات الفنون التشكيلية للعمل الطبيعي.

أما البعد الأهم فهو الذي يهم جميع أبناء الشعب العراقي أي استعادة النظم الأساسية للعمل. ويمكننا هنا تقديم طائفة واسعة من المساعدات مثل مجرد إتاحة فرصة للمناقشة الهادئة بـين العراقيين حول استعادة أو إعادة بناء هذه النظم والفلسفة العامة الجديدة التي يريدون وضعها لتسيير هذه الشئون في بلادهـم. ويمكننا أيضا تقديم المشورة بناء على نتائج الخبرة المصـرية بما فيها من نجاح وفشل. ثم إننا قد نستطيع تقـديم المسـاعدة المادية فى مجالات معينة أو علـى الأقـل الـدعوة لتقـديم المساعدات على المستويين العربي والدولي فى طيف واسـع من النظم والوظائف بدءا من الأمن والغذاء مـرورا بـالطبع بقضية النظـام الصـحي والتعليمـي والرياضـي والثقـافي والعمراني..الخ. ويجب تقديم كل ما يمكننا تقديمه مهما كانـت التضحيات وحتى لو كرسنا كل إمكانياتنا الخارجية لهذا الملف وحده خلال الشهور القليلة القادمة.

(٣٤)

ورقة عمل حول مستقبل العراق

مقدمة:

كما أشارت الورقة المقدمة من خبراء أمريكيين لـ وزارة الدفاع في الأسبوع الماضي يبدو أن العراق يتجه نحو كارثة إن لم يتم إدارته بأسلوب مختلف جذريا يحرك عملية إعـادة الاعمار بسرعة وفعالية وتبدأ عمليـة ديموقراطيـة تمكـن العراقيين من حكم أنفسهم بأنفسهم عبر وضع دستور جديـد وانتخاب حكومة تمثيلية.

وتبدو عناصر المشكلة العراقية بعـد الاحـتلال متعـددة ومعقدة بحيث يرجح أن تتفاعل على نحو كإرثي بالفعل إن لم يتغير المسار الحالي.

ولا شك أن الاحتلال نفسه وما يمثله من مهانـة لشـعب عربي عظيم هو أهم تلك العناصر. ويرتبط بـذلك المـدى المروع للدمار الذي نال البنية الأساسـية بسـبب الحـروب الثلاث التي عاشها إضافة إلى القصف الجوى الذي لم يتوقف

قط تقريبا ونظام العقوبات الأكثر قسوة وشمولا وطولا فـي التاريخ إضافة إلى سوء الإدارة الحكومية الذي ميز تـاريخ العراق منذ نشأة الدولة الحديثة وفى مختلف النظم السياسـية التي مرت عليه.

ولأسباب عديدة يمر العراق منذ الاحتلال بأوضاع قلمـا تفلت من نتائجها المدمرة أية دولة. فهناك حركـة مقاومـة مسلحة غير معروفة الأصول أو الأيديولوجية والـولاءات. ويبدو أن قوى عديدة تشارك فيها. ويـؤدى تـوفر السـلاح بكميات كبيرة وأنواع مختلفة إلى تسلح أعداد كبيرة جدا مـن العراقيين القـادرين والـراغبين فـي اسـتخدامه لمختلـف الأغراض. وتساهم هذه الحقيقة بين حقائق وأسباب أخـرى في تفاقم الوضع الأمني المتدهور منذ الاحتلال وقبله.

ولا يقل عن ذلك أهمية الفشل الذريع الذي تعـانى منـه الإدارة الأمريكية للعراق منذ الاحتلال وحتى الآن. ويسـاهم هذا الفشل في حرمان الصيغة السياسية التي انتهى إليها نظام الاحتلال وهى مجلس الحكم الانتقالي مـن الشـرعية ومـن الفعالية أو حتى مجرد احتمالية القدرة على شـغل الفضـاء السياسي بعد سقوط نظام صدام حسين.

ويضاعف من تعقيد الموقف السياسي التعمـق المتزايـد للطائفية السياسية. وبينما لم ينته بعد الأمل في استمرار الحد الأدنى من الوحدة الوطنية بين الشيعة والسنة على الأقل فلا شك أن الاتجاه العام يشير إلى التصدع أن لم يكـن الحـرب الأهلية. فقد أسفر سقوط نظام صدام حسين عن فراغ سياسي لم يملأه حتى الآن سوى رجال الدين. ويبدو مـن المؤكـد تقريبا أن دول الجوار الرئيسية وخاصة إيران مـن جانـب والدول الخليجية الأصغر من جانب أخر تسعى لتوطيد مركز طوائف مختلفة من رجال الدين الشيعة من جانب والسنة من جانب آخر. وبينما يملك فاعلون عشائريون وبقايـا رجـال الجيش الكبار والمتوسطون وبعض بقايا النظام القديم بعـض النفوذ المؤسس جزئيا على القوة المسلحة داخـل المجتمـع السني يبدو أن ثمة تمزقات هائلة في المجتمع الشيعي تجعله مفرقا بين تيارات مختلفة تتمحور حول شخصيات لا يتمتـع بعضها بالحكمة وقد تستطيع دفع الأمور إلى استقطاب طائفي مريع بدأت ملامحه في التشكل بالفعل.

وفى هذا السياق يبدو مستقبل العراق بالغ الغموض.

وأحد أهم أوجه هذا الغموض غياب أي دور عربي متناسق أو منسجم أو متحد على رؤية أو استراتيجية عمل. ومن المحتمل أن تكون بعض الدول العربية قد اندفعت لممارسة دور لا يقوم بالضرورة على قوة أو نفوذ حقيقي بقدر ما يقوم على المال والإعلام ودون إدراك متكامل للمسار الذي تدفع إليه. وبينما يضاعف ذلك الخطر الذي يدلهم على العراق فانه ينبهنا إلى أهمية العامل العربي وطبيعة دوره والكيفية التي يقوم بها بهذا الدور.

وربما يكون السؤال الرئيسي الذي تطرحه هذه الورقة على المشاركين في الندوة هو ماذا يمكن للعرب أن يفعلوا لتسيير دفة التحول السياسي في العراق لمصلحة العراق ومصلحتهم.

ولكي نجيب على هذا السؤال ربما يكون من الضروري أن نتابع تطور السياسة الدولية والأمريكية تحديدا بالنسبة للعراق. وعلى ضوء مختلف السيناريوهات يمكننا تخيل مختلف المسارات المحتملة للتطور السياسي في العراق.

أولا: تطور المواقف الأمريكية والدولية من العراق :

من الواضح أن الأمريكيين قد بدأوا يدركون حقائق الموقف العراقي وجبال المشاكل المتراكمة التي أدى إليها الاحتلال.

فإضافة إلى الفشل المريع في إدارة العملية السياسية وعملية إعادة الاعمار واسترداد الحياة العادية وخاصة الأمن وتشغيل مختلف مرافق الحياة العامة فالأمريكيون يواجهون مقاومة مسلحة متنامية. ومن المرجح أن تنتهي عمليات الصدام المسلح إلى وقوع الأمريكيين في نفس المصيدة التي واجهتها القوى الاستعمارية الأخرى التي حاولت الحفاظ على الوضع الاستعماري بعد نهاية الظروف الموضوعية التي جعلته ممكنا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. فمواجهة حرب عصابات واسعة الانتشار نسبيا يضاعف مخاطر الصدام مع السكان العاديين ويدفعهم إما إلى تأييد ودعم الكفاح المسلح حتى يصبح انتفاضة قومية أو إلى تشكل عدد من حركات المقاومة المسلحة وانهيار العلاقة بين الشعب بكل أقسامه والقوة الاستعمارية.

أما هذا الواقع الحافل بالمصاعب والفشـل فثمـة ثلاثـة احتمالات أساسية أمام السياسة الأمريكية.

الاحتمال الأول الذي يبدو أن الولايات المتحـدة تتحـرك نحوه ببطء الآن هـو تـدويل الإدارة الانتقاليـة للعـراق. وتستهدف الإدارة الأمريكية من خلال التدويل الذي رفضـته من قبل أولا ضمان توزيع المسئولية السياسية على عدد كبير من دول العالم الكبيرة والمتوسطة من خـلال إمـا صـيغة متعددة الجنسيات أو صيغة الأمم المتحدة. وثمة ما يدل على أن الإدارة الأمريكية تعكف الآن على إعداد مسـودة قـرار لمجلس الأمن يكلف الأمم المتحدة بإدارة العراق بالتعاون مع الإدارة الأمريكية في العراق. وتسمح هذه الصيغة للدول التي عارضت الغزو بالقيام بدور في إدارة الوضع الانتقالي فـي العراق وهو ما يحسن صورة الاحتلال ويشرك الأمم المتحدة في المسئولية أمام الشعب العراقي. ويرتبط بذلك أيضا توزيع المسئولية المالية عن إعادة اعمار العراق والـذي حـذرت جهات عديدة من عدم إمكانية الوفاء بها من خلال الأرصـدة المالية المستحقة للعراق أو صادراته النفطية وحدها.

وتحقق هذه الصيغة بعض الإيجابيات. فهي تعطى أمـلا للعراقيين بوضع نهاية لنظام الاحتلال الأمريكي. ثم إن هـذه الإدارة التعددية الدولية تشير بقوة إلى مشاركة أكبر بكثيـر من جانب العراقيين في إدارة شئون بلادهم. كمـا أن الأمـم المتحدة تملك الخبرة والنزاهة النسـبية الضـروريتين لنقـل العراق إلى وضع ديموقراطي من خلال دستور وانتخابـات حرة.

وقد تساعد هذه الصيغة الأمريكيين على الـتخلص مـن بعض أسوأ النتائج السياسية لمغامرة غزو واحتلال العـراق. ولكنها بالمقابل ستمثل في الواقع هزيمـة سياسـية وربمـا فضيحة حقيقية لإدارة بوش. وقد يدفع ثمن هذه الفضـيحة أو الهزيمة غاليا في وقت ينخرط فيه فـي التحضـير لإعـادة انتخابه. ولهذا قد يتراجع الرئيس بوش في اللحظة الأخيـرة عن هذا السيناريو وخاصة إن لم تحظ مسودة مشروع القرار الذي يزمع تقديمه لمجلس الأمن برضا وموافقة المعارضـين الدوليين (فرنسا- ألمانيا- روسيا).

ومن هنا قد يبرز احتمال ثان يتمثل في استحداث تعديلات جذرية على أسلوب الإدارة الأمريكية لعملية الانتقال السياسي وإعادة الاعمار في العراق. ويعنى ذلك في الجـوهر القيـام باستثمارات كبيرة جدا من الناحيتين المالية والسياسـية فـي العراق بهدف تجاوز الوضع المأساوي الراهن.

يتطلب هذا السيناريو أمرين جوهريين. الأول هو تـوفير موازنة ضخمة لإعادة الاعمار تضمن تسريعها وامتيازها من أجل استرداد ثقة المواطنين العراقيين وجذب البسـاط مـن تحت أقدام المعارضة والمقاومة العراقية في الداخل. والثاني هو تسريع عملية وضع دستور جديد وإجـراء الانتخابـات العامة لإنشاء حكومة تمثيلية في العراق تسمح بسحب القوات الأمريكية بأسرع ما يمكن.

والواقع أن ثمة قيوداً على إمكانية الأخذ بهذا السـيناريو. فأولا لا ترغب إدارة بوش وقد لا تستطيع توفير موازنـات مالية كبيرة من الأموال الأمريكية. ذلك أن نظـام الموازنـة الفدرالية لا يسمح بتخصيص مبالغ كبيرة من موازنة العـام القادم التي صدق عليها الكونجرس بالفعل. كما أن الـرئيس الأمريكي يكون بذلك قد تراجع عن وعوده للكونجرس بـأن

تتم إعادة اعمار العراق بدون تكلفة كبيـرة إضـافية علـى الموازنة الأمريكية. وثالثا فان حجم العجـز فـي الموازنـة الأمريكية هائل بالفعل وقد لا يتمكن أي طرف حتى لو رغب في تخصيص مبالغ كبيرة إضافية وهو ما يعنى المخـاطرة بتعدي الخطوط الحمراء.

ومن هنا يتمثل الأمل الحقيقي في تسريع عمليـة إعـادة الاعمار في إيجاد تمويل مـن حلفـاء الولايـات المتحـدة الإقليميين والدوليين. وهو ما يعيدنا إلى السيناريو السـابق. وحتى في هذه الحالة فان حجم التمويل المتاح دوليا وإقليميـا قد لا يكون كافيا على الأقل لبقية هذا العام.

ثم أن هناك نوعاً من التعارض بين الإجراءين. فلـو أن الولايات المتحدة تنوى تسريع العملية السياسـية واختصـار المرحلة الانتقالية فإنها لن تقطع شوطا طويلا لدعم العـراق اقتصاديا أو تحمل جانب مهم من تكلفة إعادة اعماره.

ومع ذلك فهذا السيناريو على صعوبته له مزايـا معينـة بالنسبة لإدارة بوش. إذ أنه ينقذها من الظهور بمظهر الفشل الفاضح حتى لو كانت تكلفته المالية أكبر ثم أنه قد يحسب لها إذا نجح. ومن ناحية أخرى فهو يحررهـا مـن الخضـوع

للشروط المهينة للمعارضين الدوليين الذين لابد سيستغلون فرصة الورطة الأمريكية لتأكيد صحة وجهة نظرهم أمام الشعب الأمريكي ذاته. ومن ناحية ثالثة فان هذا السيناريو ينقذ مصداقية الإدارة الأمريكية في الشرق الأوسط. إذ لو بدا الفشل الأمريكي واضحا فانه سيشجع على الانتفاض على الهيمنة الأمريكية في المنطقة وقد يقوى حتى المتطرفين مثل القاعدة والجهاد الإسلامي.

أما عيوب هذا السيناريو من وجهة نظر الإدارة الأمريكية فتتمثل كما قلنا في التكلفة المالية وتسريع الانسحاب. ويعنى ذلك أن الغزو سيظهر آجلا أو عاجلا في نظر الشعب الأمريكي كشيء لم يكن له أي عائد دفاعي أو اقتصادي إضافة لأنه لم يكن مبررا بالأصل. وما لا يقل أهمية عن ذلك هو أن تفضي انتخابات حرة نزيهة في العراق إلى صعود التيار الإسلامي بشقية الشيعي والسني وهو ما يعنى أن أمريكا قامت بغزو العراق لكي تخلصه من عدو ضغيف وخائف وتسلمه لعدو قوى وشرس.

فإذا لم تقبل الولايات المتحدة تكلفـة السـيناريو الأول أو الثاني فقد تأخذ بالخيار أو السيناريو الثالث وهو الانسـحاب المفاجئ. ويخلصها هذا السيناريو من أية تكاليف ماديـة أو بشرية ولكن يعيبه من وجهة نظر الإدارة أنه يفضح انعـدام مسئوليتها. وقد يمثل اعترافا ضمنيا بخراقة وحمـق قـرار غزو بلد كبير مثل العراق.

ورغم أن هذا الاحتمال يعد ضئيلا فلا يمكن استبعاده.

ويجمل بنا أيضا في هذا الإطار أن نشير للمحددات العامة للسياسة الدولية فيما يتعلق بالعراق. ويلاحظ هنـا أن العامـل الذي لم يكن في حسبان أية قوة دولية هو مدى الفشل والتخبط وسوء الإدارة الأمريكية للعراق بعد الغزو وما أدى إليه هـذا العامل من تورط أمريكا أو وقوعها في مصيدة العراق.

ويحكم مواقف القوى الدولية والإقليمية عاملان متضادان. العامل الأول هو وجود مصلحة حقيقية لمعظم القـوى فـي استمرار استنزاف الولايات المتحدة في العراق. فلو اسـتمر الفشل الأمريكي في العراق فقد يشكل هذا بحـد ذاتـه أثـرا رادعا يحول دون توسع الولايات المتحدة في الخارج ويوقف المشروع الإمبراطوري للإدارة الحالية وقـد يـؤدى إلـى إسقاطها وهو أمر يتمناه الجميع تقريبا.

وإذا صدق هذا الافتراض فان القوى الدولية المعارضة لن يكون لديها أي دافع لتحمل مسئوليات جديدة في العراق سواء في إطار قرار جديد لمجلس الأمن ينقل الموضوع إلى الأمم المتحدة أو في صيغة متعددة الجنسـيات. ويضـاعف مـن احتمالات التردد أن الأمم المتحدة ذاتها قد تفشل في العـراق وهو ما يجعل الدول المشاركة تأخذ نصيبها من الفشـل دون عائد ينتظر من العملية برمتها.

أما العامل المضاد فهو الخوف من السيناريوهات البديلـة فيما لو فشلت الولايات المتحدة في العراق فشلا فضـائحيا. فثمة عواقب لا يريدها أحد داخل الولايات المتحدة ذاتها. فهي قد تقرر بعد الاعتراف بالفشل في العراق أن تنعـزل علـى ذاتها وتنأى بنفسها عن السياسة الدولية كلية. وثمة تيار قوى للعزلة كان الجمهوريون التقليديون ذاتهم هم جسده الأساسي. ولا تريد القوى الكبرى فى العالم الآن أن تنعـزل الولايـات المتحدة لأنه لا يوجد بديل لها في موقع قيادة النظام الدولي. فوجود نظام دولي يعانى من التصدعات الراهنة بدون قيـادة قد يعنى الفوضى. ما تريده هذه القوى هو تـرويض القـوة الأمريكية فى اطار القانون الدولى.

وعلى المستوى الإقليمي فان الفشل التام للولايات المتحدة في العراق يعنى حتما إما استعادة نظـام صـدام حسـين أو إنشاء دولة دينية في العراق أو المرور بمرحلة حرب أهليـة طويلة وهو ما يعنى أيضا تدخلات إقليمية نازعة للاستقرار. وجميع هذه النتائج غير مرغوبة من الدول الكبـرى علـى الأقل.

وقد تتخذ كل قوة دولية أو إقليمية اختياراتها تبعا لظروفها الاستراتيجية. فمن مصلحة إيران أن تغرق الولايات المتحدة ولكن تبقى مدة إضافية في العراق. فذلك يضطرها للـدخول في حرب استنزاف قد تضعفها وتضعف العصب العسـكرية السنية في الوقت نفسه وتتركها باعتبارها القـوة السياسـية والعسكرية الأهم في العراق ذاته. أما تركيا فهي تخشى مـن أن يؤدى الفشل الأمريكي إلى فراغ لا تمـلأه غيـر إيـران فضلا عن أنه سيحتم استقلال الأكراد وهو أسوأ ما تخشـاه. وبالنسبة للسعودية ودول الخليج فان فشل الولايات المتحـدة سيعنى تحلل العراق وانقسامه وهو أمر يترك المنطقة تحـت رحمة إيران بعد ذهاب أمريكا. وفضلا عن ذلك فان صعود الشيعة سياسيا أو عسكريا يبدو أمرا مخيفا لها بـالنظر إلـى

نتائجه بالنسبة لهذه البلاد ذاتها. ويبدو أن دول الخليج قد بدأت في التورط بقوة في مساندة القيادات الدينية والعشائرية السنية استعداداً لهذه الاحتمالات. ولكن هذا التورط قد يقود إلى نتائج وخيمة.

وبتعبير أخر فان الجميع يريد أن تستمر الولايات المتحدة في التورط في العراق ولكن دون أن يؤدى ذلك إلى كارثة سياسية عالمية أو عراقية. ويكشف هذا التحليل عن الأسباب الأعمق لتخبط جميع الأطراف ذات التأثير حتى الآن فيما يتعلق بالعراق.

ثانيا: المسارات المحتملة للعراق :

ليس بمقدور أحد في الوقت الحالي أن يعرف الموقف السياسي العراقي على الأرض بدقة. وقد لا يمكن المجازفة بالقيام بأي تقدير واقعي في الوقت الحالي بدون توفر معلومات أساسية عن طبيعة الخريطة السياسية. ويضاعف من هذه المشكلة أن هذه الخريطة تتطور وتتغير بدقة وبصورة فيها شئ من العشوائية.

ومع ذلك فنظرا لأهمية الموضوع يتوجب علينا القبـول بهذه المخاطرة في حدود معينة.

فبوجه عام يبدو أن غالبية "العقلاء" في العراق بمن فـي ذلك المعادون لأمريكا عداء شديدا قد رحبوا بسـقوط نظـام صدام حسين. وهم بالتالي لا يريدون انسحابا سريعا للقـوات الأمريكية قبل إتمام عملية انتقال منهجية وسلمية. وفى تقدير هذه "الغالبية" أن العراق سيتجه حتما إلى التقسيم والفوضـى أو الحرب الأهلية إذا وقع هذا الانسحاب قبل ذلك.

ومن الواضح مع ذلك أن ثمة قوى مؤثرة فـي المجتمـع السني تشعر بالغبن والتهديد لمجرد أن أية صيغة مسـتقبلية في العراق لن تمنحهم الوضع المهيمن الذي تمتع بـه هـذا المجتمع منذ الاستقلال. ولو أن عملية الانتقال إلـى صـيغة ديموقراطية قد تمت في ظل نوع ما من الدور المؤثر للسـنة من خلال الجيش مثلا (قبل حله من جانب الإدارة الأمريكية) لكان السنة أنفسهم قد قدموا تنازلات كبيرة للشـيعة بهـدف إرضائهم وضمان انتقال سلمى. أما وأن الأمر قد تـم غيـر كذلك فان صيغة المجلس الانتقالي التي وضعها الأمريكيـون في الظروف الفوضوية التي تعيشها منطقة الوسط قادت إلى

مضاعفة الشعور بالتهديد. ومن المرجح أن هـذا الشـعور بالتهديد قاد ضباطا سابقين إلـى تـأليف سـرايا المقاومـة العسكرية إن لم يكن لضرب الأمـريكيين وإجبـارهم علـى الانسحاب فعلى الأقل للاستعداد للسيناريو الأسـوأ للحـرب الأهلية.

ومن المرجح أن يكون ثمة قطاع لا بأس به - قد لا يقل عن خمس المجتمع السني راغبا في عودة نظام صدام حسين أو يتجه له بالولاء. ومن المرجح كـذلك أن يكـون البعـث الحالي لرجال الدين السنة استجابة جزئية للفـراغ السياسـي وتعبيرا عن العشائر الغاضبة. ومن المحتمل أن يكون ظاهرة سطحية تماما. حيث لا يملك رجال الدين السنة هذا الـوزن السياسي الذي تنسبه لهم الفضائيات العربيـة تعبيـرا عـن سياسات دول معينة في الخليج وخاصة قطـر والإمـارات. وبإيجاز يبدو أن المجتمع السني موزع الولاء فـي الوقـت الحالي بين العشائر التي لم تحسم بعد موقفها بصورة نهائيـة وبعض العصب العسكرية التي تعكس غضب الطبقة الوسطى السنية ومخاوفها. وقد يتجه بعض هـؤلاء بـالولاء لصـدام حسين ويرفض البعض الأخر هذا التوجه أملا في بعث نوع

ما من الوطنية العراقية الجديدة. ولا شك أن ثمة بداية لحركة أخوان مسلمين في صفوف قطـاع لا يـزال صـغيرا مـن العراقيين. وأخيرا يبدو أن غالبية الطبقة الوسطى تعانى مـن توترات وقلق شديدين ولكنها لا تملك ولاء محددا وأنهـا لا زالت تبحث عن نوع ما من الولاء.

أما وسط المجتمع الشيعي فالصورة تبدو أكثر اختلاطـا. ومن المرجح أن "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية" قد نجـح في إعادة غالبية كادره العسكري والسياسي إلى العراق. وقد دخل هذا القطاع إلى الصيغة السياسية الحالية فـي العـراق وأخذ مواقعه في إطار المجلـس الانتقـالي جزئيـا بسـبب تعليمات إيرانية بأن يتجنب الصدام مع الأمريكيين وجزئيـا لأن مصلحته أن تتم انتخابات حرة نزيهة في العراق يتوقـع أن يحصل فيها على جانب مهم من الكعكة. ويبدو أن غالبية المراجع الشيعية تتبنى نفس الصيغة. ومع ذلك فثمـة فـرق قوية تلتف حول شخصيات سياسية شيعية لا تتمتع بالضرورة بنفوذ تقليدي داخل الحوزة تريد أن تفـرض واقعـا جديـدا يمنحها مكانة تتفق مع تراثها ودورها فى النضال السـرى. ويبدو أن هذا القطاع من الشباب لديه أيـديولوجيا مشـابهة

للقاعدة أو حركات الجهاد على المستوى السني. وبينما يتمتع بقوة تعبوية وربما عسكرية فانه سيخسر لو نجحت العمليـة السياسية. ويؤلب هذا القطاع المجتمع الشيعي ضد الأمريكان والسنة طمعا في أن تؤدى فتنة طائفية إلى صـعود نجمـه. وبينما يتجه المجتمع الشيعي بصورة ساحقة إلى تفضيل دولة دينية والالتفاف حول قياداته الدينية فثمة انقسامات كبيرة ولا يستطيع أحد في الوقت الحالي توضـيح الصـورة بصـورة دقيقة. ويبدو أن القوى العلمانية داخل الشيعة قـد خسـرت كثيرا ولكنها ليست محرومة تماما من القوة كما ظهـر مـن المظاهرة الأخيرة التي نظمها الحزب الشيوعي العراقي.

وتتأثر الخريطة السياسية في العـراق بصـورة كبيـرة بعنصر الزمن وبأداء الولايات المتحدة وربما بـأداء النظـام الدولي وأخيرا بالقوى العربية إلى جانب القـوى الإقليميـة الأخرى.

وحيث أن الموقف الأمريكي هو العنصر الحاسم في ذلك كله فقد يكون من المناسب التمييز بين الأمد المباشر والوسيط والطويل.

الأمد المباشر:

السؤال الذي يشغل بال الجميع الآن هو مـاذا لـو وقـع انسحاب أمريكي مفاجئ (وغير مرجح بالطبع) وقبل إتمـام عملية انتقال منهجية ودستورية سليمة.

معظم المراقبين سيذهبون إلى استنتاج وقوع حرب أهلية تبدو محتمة. فرغم هزيمة صدام حسين والانهيار التنظيمـي والسياسي للجيش العراقي فانه يستطيع إعادة تجميع قطـاع كبير منه أو من عناصره السنية بالذات. ولدينا أمثلة عديـدة لكيفية تجميع عناصر جيش "قومي" انهار سياسيا ولكنه نجح في إعادة تجميع العنصر أو الاثنية المؤثرة والغالبـة فيـه. وتمثل تجربة الجيش اليوغوسلافي أحـدث هـذه النمـاذج. وباختصار تستطيع القيادات العسكرية السابقة والتي تتمتـع بسمعة طيبة بين العراقيين عموما إعادة تجميع قطاع لا بأس به من الجيش والحرس الجمهوري في وقت قصـير نسـبيا. وعندئذ ستثور مسألة الولاء لصدام حسين وغالبا ما سـيقوم ضابط كبير أو اكثر بحسم المسألة لصالح الولاء السني العام بدون صدام حسين المكروه بصورة عميقة من الجميع تقريبا. وقد يفاوض هذا الجيش حول صيغة سياسية جديدة للعراق أو يحارب من أجل هذه الصيغة.

وفى المقابل فان المجتمع الشيعي لن يكون لديه إمكانيـة تجميع كل قدراته العسكرية في هيكلية واحدة. وفـى حالـة السيناريو الأسوأ ستشكل القوات التي تعمـل تحـت لـواء المجلس الأعلى قلب أي "جيش شيعي". ولكن قوات صـغيرة أخرى تعمل بطريقة العصابات أو بغير ذلك مـن الوسـائل سيكون لها بعض الوزن.

ويختلف الأمر في حالة الأكراد المنظمين بالأصـل فـي الحزبين التقليديين والمعـروفين (الـديموقراطي والـوطني الكردستانى). حيث تتمتع القوات الكردية بقـدر كبيـر مـن الانضباط.

وفى ضوء الاعتبارات المختلفة يرجح أن يستطيع جـيش يتكون من السنة حسم أي حرب أهلية مـع قـوات شـيعية لمصلحته. ولكنه قد لا يستطيع ضمان استقرار المناطق ذات الأغلبية الشيعية فى الجنـوب. ومـن المـرجح أن تكتفـي الأحزاب الكردية بالسيطرة علـى مناطقهـا دون أن تـدخل الحرب الأهلية إلا إذا توجه مثل هذا الجيش السني بـالولاء من جديد لصدام حسين.

فإذا ما حدث ذلك سيكون من المحتمل أن ينقسم العـراق إلى المناطق الثلاث: شيعة في الجنوب وسنة فـي الوسـط وأكراد في الشمال. ولكن من المحتمل أيضا أن يتمكن الجيش السني من السيطرة على الوسط والجنـوب لسـبب انعـدام إمكانية تكون دولة بدون الجنوب. وقد يتمتع قادة هذا الجيش بشيء من الحنكة والحكمة ما يجعلهم قادرين على التوصـل بسرعة إلى صيغة سياسية ترضى الشيعة في إطـار دولـة موحدة.

وبسبب مأساوية سيناريو الحرب الأهلية فإنها قد لا تشتعل أصلا. فيتوصل السنة والشيعة إلى صيغة سياسية تحافظ على الوحدة ولو شكليا بحيث يتم تجنب الحرب الأهلية أو التصدع التام. ومن المرجح مع ذلك أن انسـحاب الأمـريكيين يبيـد إمكانية وضع دستور ديموقراطي وإنشاء نظام نيـابي فـي المدى المنظور.

الأمد الوسيط:

أما إن لم ينسحب الأمريكيون فيتوقف المسـار السياسـي على إمكانية الأخذ بتعديلات جوهرية على أسـلوب الإدارة الأمريكية للعراق.

في حدود الأمد الوسيط وباستبعاد انسحاب أمريكي مفاجئ أو عاجل يبدو أن ثمة ثلاثة سيناريوهات.

السيناريو الأول يقوم على افتراض عدم لجوء الولايـات المتحدة لتعديل توجهاتها الحالية في إدارة العملية السياسـية وعملية إعادة الاعمار واستعادة الوضـع الطبيعـي للحيـاة المدنية. في ظل هذا الافتراض من المؤكد أن حركة المقاومة ستنمو وسيتبعها تعاظم القمع الأمريكي ولن يحظى المجلـس الانتقالي بتأييد كبير. ومع تنامي غضب الطبقـة الوسـطى والشعب العراقي عموما من المرجح أن يتكون موقف بـالغ الاضطراب والاختلاط. فتظهر قيادات محلية منتخبة أو غير منتخبة قد تستطيع أن تؤثر على الأوضاع المحلية. وفى نفس الوقت ستزيد حدة القمع وشدة الفوضى المدنيـة والسياسـية والإدارية. والتوقع عندئذ أن يفشل أي طـرف فـي حسـم الموقف السياسي لمصلحته إلا على أصعدة محلية.

أما السيناريو الثاني فيقوم على افتراض حـدوث تحسـن كبير في أسلوب الإدارة الأمريكية للعراق من خلال أسـاليب أكثر فعالية في التعاطي السياسي مع الموقف العراقي. وثمة أساليب عديدة لتحقيق هذا التحسن مثل استعادة جزء لا بأس

به من الجيش العراقي القديم ليوازن الغالبية العددية للشـيعة مع الاتجاه إلى وضع دستور جديد بسرعة وتسـريع تنميـة البنية الأساسية وعقد انتخابات نيابية لضمان تأسيس حكومـة منتخبة حتى لو أتت بأغلبية من الاتجاه الإسلامي الشيعي أو السني. وعندئذ لا يمكن وقف المقاومة المسـلحة تمامـا أو استعادة الاستقرار تماما ولكن ستظهر في الأفق إمكانية نجاح في ضمان وحدة العراق وتجنب سيناريو الحرب الأهليـة أو الفوضى السياسية. وقد يعود العراق للوقوف على قدميه في نهاية المطاف.

أما السيناريو الثالث فيفترض قيام الولايات المتحدة بنقـل المسئولية السياسية عن إدارة العراق إلـى الأمـم المتحـدة وقوات متعددة الجنسيات بسلطات حقيقية. ولا شك أن هـذا السيناريو هو الأكثر قدرة في الأمد المباشـر علـى تحقيـق النجاح. فهو يمثل غطاء دولياً مناسـباً لانسـحاب تـدريجي للقوات الأمريكية وإنهاء احتلال العراق بأقصى سرعة. ومن المرجح في هذا الإطار أن يتم أيضا تسريع عملية اسـتعادة الإدارة المدنية وإعادة الاعمار نظرا لتضافر جهود عدة دول كبرى لتحقيق هذا الغرض.

ومع ذلك فان الانسحاب الأمريكي ولو التدريجي قد يغرى الكثيرين بالاستعداد لحسم الصراع عسكريا إن لم تنته العملية السياسية بسرعة وعلى نحو يضمن التوازن النسبي للقـوى داخل العراق مع استقرار الحريات الديموقراطية فـي نفـس الوقت.

المدى الطويل:

إذا افترضنا نجاح العملية السياسية سواء في إطار الأمـم المتحدة أو في الإطار الأمريكي الصرف سيكون من الممكن إنقاذ وحدة العراق. ولكن ستستمر أسباب عديدة للقلق.

السبب الأول يتعلق بضمان نزع الأثنيـة مـن الموقـف السياسي والحزبي العراقي. فالفراغ الذي ترتب على سـقوط نظام صدام حسين يجذر الطابع الاثنى للسياسة وقـد ينتهـي الموقف إلى بنية سياسية وحزبية متوافقة مـع الانقسـامات العرقية والطائفية. ويزرع هذا عوامل عدم الاسـتقرار فـي البنية السياسية على المدى الطويل وقد يشكل تحـديا دائمـا قابلاً للتفجير في أية لحظة.

أما السبب الثاني فيتعلق بالتوجه الخـارجي للعـراق. أن الأسباب الجوهرية لعدم الاستقرار التاريخي للعـراق تمثـل طوال مئات أو آلاف من السنين في موقفه الخارجي الصعب والذي جعله في العادة يراوح بـين أن يتحـول إلـى قـوة إمبريالية أو أن يخضع لمن يسيطر على الهضبة الإيرانيـة. ومن المرجح مع ذلك أن ينكفئ العراق على ذاته إذا حصـل على شئ من الاستقرار النسبي وذلك بسبب استمرار حاجته لإعادة البناء لفترة طويلة من الزمن. ومع ذلـك فـان هـذا الانكفاء لن يحميه من التدخلات الخارجية.

أما السبب الثالث فقد يغرس فـي الصـيغة الدسـتورية وخاصة فكرة الفدرالية. ومن المـرجح أن تمثـل الفدراليـة المخرج الوحيد للعراق. ولكنها ستكون أيضا صـيغة قابلـة للاهتزاز بسبب الصعوبات المهولة في تقسيم السلطة والثروة بين الحكومة المركزية والأقاليم وخاصة إذا تحددت الأقـاليم بصورة أثنية أو طائفية. ومن هنا يحتاج العراق إلى صـيغة دستورية ذكية تتفق مع الواقع من ناحية وتقيه شرور الانقسام الفعلي أو المنازعات الدائمة في نفس الوقت. وقد تمثل صيغة حكم محلى قوياً وليس فدرالية الصيغة الأفضل. فإذا لم يكـن

ذلك ممكنا قد يكون من الأفضل تعيين الولايات أو الأقـاليم بحيث يستمر مركزاً قومياً قوياً ولا يكون من الممكـن لأي إقليم أن يشكل قوة منفردة قادرة على فرض إرادتـه علـى المركز أو الأقاليم الأخرى.

أما السبب الرابع فهو الموقف مـن العروبـة السياسـية والصراع العربي الإسرائيلي. فمن المرجح أن تسعى أمريكا لفرض صلح منفرد وعلاقات ثنائية خاصـة بـين العـراق وإسرائيل. وفى نفس الوقت تحاول انتزاع العراق بعيدا عـن محيطه العربي وخاصة أن الأغلبية السكانية غير متحمسـة للعروبة السياسية (شيعة وأكراداً على السواء). ويسبب ذلـك مزيدا من التوترات ومن الكراهية للاحتلال الأمريكي. وقـد يسبب عدم استقرار ممتداً. وليس مـن المـرجح أن تقـوم الولايات المتحدة بفرض هذا التصور بسـرعة أو قبـل أن تستقر الأوضاع الداخلية في العراق. ومع ذلك سـيبقى هـذا أحد التهديدات المهمة لشخصية العراق ولاستقراره الداخلي.

وعلى المدى الطويل ستكون الولايات المتحدة قد انسحبت. وبالتالي ستترك تحديد مصير العراق للعراقيين وجزئيا للقوى الإقليمية المؤثرة مع احتفاظ أمريكا بشيء من النفوذ إذا ما نجحت في تأمين الانتقال السلمي لوضع مقبول من العراقيين.

ثالثا: الموقف العربي:

السؤال الأول هو هل هناك أية إمكانية لتنسيق موقف عربي حقيقي من قضية الشعب العراقي؟ هل هناك سوابق لتنسيق حقيقي للسياسة الخارجية العربية خارج الموضوع الفلسطيني؟

وإذا ثبت أن من غير الممكن القيام بالتنسيق على المستوى العربي الشامل هل هناك إمكانية للتنسيق على مستوى كوكبة معينة من الدول العربية ذات القيم السياسية والأهداف المتجانسة؟

وفى حالة وجود إمكانية من هذا النوع خارجياً فما هو المسار السياسي الذي تفضله الدول العربية المرشحة؟

لنتحدث أولا عن الوضع الراهن. فالدول العربية الرئيسية لا تتدخل أو تتبنى منهج العمل المستقل للتأثير على المستقبل العراقي لأسباب مختلفة. فسوريا تواجه موقفـا صـعبا مـع الأمريكيين الذين بدوا متحفزين للصدام. وهى فيما يبدو تلقت تحذيرا قويا بأن لا تقوم بأي دور في العراق. ومع ذلك فإنها تعلن ولو عن تحفظات كما فعلت بشأن تكوين مجلس الحكـم الانتقالي. ومصر والسعودية قدمتا بعض النصائح للأمريكيين ومن الواضح أنه كانت لديهما ترشيحات معينة لعـدد مـن الشخصيات السياسية التي يؤمل أن تمثـل السـنة وتحظـى ببعض الشعبية. وبوجه عـام يتفـق الموقفـان المصـري والسعودية على الحرص التام على عدم إغضاب الأمريكيين بالظهور بمظهر من يريد أن يتدخل بقوة أو بصورة مسـتقلة في التأثير على السياسة العراقية. ومن المحتمـل أن تكـون السعودية قد سعت للتأثير من خلال قنوات غير مباشرة حتى لا تصطدم مع الأمريكيين.

ومن الواضح أن مصر والسعودية تستهدفان مساندة السنة مع إظهار حرص عام على وحدة العـراق وتـولى أبنائـه مسئولية حكم أنفسهم بأنفسهم.

غير أن ثمة - كما أشرنا- تغيرا ملموسا في الموقف الأمريكي من مشاركة العالم الخارجي في إدارة الملف العراقي. فهل تقبل الدول العربية المشاركة المباشرة من خلال الأمم المتحدة؟ وهل ترسل قوات للمشاركة في تكوين القوات متعددة الجنسيات؟ أم ترفض ذلك وتنأى بنفسها عن المشاركة؟ ولماذا؟ وفى الحالتين ما هي المخاطر والأهداف المحتملة من وراء كل اختيار؟.

نحن نعلم أن العالم العربي لا يملك استراتيجية للتطور السياسي حتى على المستوى الداخلي. ولكن هل يمكن أن ننتهز فرصة بناء أو اتخاذ موقف من الوضع المتغير في العراق لوضع ولو تصور أولى بعيد المدى عن مستقبل العالم العربي؟

(٣٤) سيناريوهات الخروج من ورطة المستعمر

قد يهدأ النجاح فى قتل ابنى الـرئيس العراقـى السـابق خواطر الأمريكيين قليلا ولكنه لن يحل المعضلة أو الورطـة التى يواجهونها فى العراق. فالمعضلة الحقيقية كامنـة فـى الوضع الاحتلالى ذاته وفى الذهنية التى يديرون بها العـراق منذ سقوط بغداد.

وتظهر علامات ورطة المحتل فى سـوء ادارة الوضـع الانتقالى وسوء معاملة العراقيين وهو الأمر الذى يغضـبهم ويدفع عديداً من الناس للمقاومة المسلحة. وما أن تبدِأ هـذه العملية حتى تصبح حلزونية. فأحداث العنف المسـلح ضـد المحتل تقوده الى الانتقام وتشديد الرقابة على حيـاة النـاس واساءة معاملتهم فى وطنهم وهو ما يضاعف مـن رفضـهم للاحتلال ومضاعفة العنف المسلح والذى يتحول فى لحظـة معينة الى ظاهرة مقاومة شعبية وطنية وهو ما يـرد عليـه الاحتلال بالبطش والتنكيل وهكذا.

والواقع أن هذه الورطة قد ظهرت فى الساحة العراقية بأسرع مما ظهرت فى غيرها من حالات الاستعمار، لأسباب عديدة منها وان لم يكن أهمها ما يقوله ويعرفه الجميع من أن أمريكا ليست لديها الحنكة والخبرة الاستعمارية التى يتميز بها البريطانيون مثلا. فالأمريكيون بتخبطون فى العراق على نحو لم يتنبأ به أحد بل ولم يكن يدور بخلد أحد. ويرجع هذا المستوى الغريب من التخبط الى ما يتمتع به اليمين الأمريكى المتطرف من جهل وغطرسة فى نفس الوقت وهى الوصفة المؤكدة للوصول الى أعلى مستويات الانجاز فى الحمق السياسى والثقافى.

ويضاعف من شدة الورطة ان ادارة الاحتلال لم تتمكن من اكساب الصيغة السياسية البائسة التى انتهت اليها مؤخرا - بعد مراوحة عجيبة وتردد شديد- أى قدر معتبر من المصداقية فى الداخل العراقى. وكما يشير تقرير فريق الخبراء المستقلين الذى قدم أخيرا للبنتاجون فالادارة الأمريكية لن تتمكن من تحريك عملية اعادة الاعمار واستعادة الأمن بالسرعة المطلوبة لاكساب الوجود الأمريكى أية شرعية. فالأرصدة المالية العراقية ودخل الصادرات

التغطية العراقية لا يكفى كما أكد الجميع من قبـل. والادارة الأمريكية لم تخصص سوى ٦,٥ مليار دولار من الخزانـة الأمريكية لاعادة الاعمار وهى قطرة فى محيط مما يحتاجـه إعمار العراق وإعادة تشغيل هيئاتـه ومؤسسـاته. وبـذلك يضاف الى الورطة الكامنة فى العلاقة الاحتلالية بـذاتها أن الأمريكيين لا يملكون العقل ولا المال الضـروريين لحسـن ادارة الوضع الانتقالى والتخفيف من وطـأة الكارثـة التـى تراكمت عناصرها فى العراق لفترة ثلاثة عقود وعبر ثلاثـة حروب مدمرة.

التدويل :

فما هى المخارج المحتملة من ورطة الأمريكيين فى العراق؟ :

المخرج الأول هو ما نادى به التقرير المشار اليه والـذى أعده فريق الخبراء الأمـريكيين المسـتقلين وهـو تـدويل المسئولية عن الوضع الانتقالى فى العراق من خلال الأمـم المتحدة وهو الشرط الذى وضعته الدول الكبرى للمسـاهمة بقوات لحفظ السلام فى العراق والمساعدة المالية فى إعـادة

إعماره. وتؤكد مصادر واشنطن أن ذلك بات ممكنا بسـبب تراجع الـوزن السياسـى لمـن يطلـق علـيهم مصـطلح "الانفراديين" أى اليمين المتشدد الذى يرغب فى انفراد أمريكا بالقرار الدولى وبالقرار الخاص بالعراق. وقد يتم ذلك مـن خلال التقدم بمشروع قرار لمجلس الأمن يمنح الأمم المتحدة دورا أقوى مما منحه لها القرار ١٤٨٣. فاذا تم اصدار قرار جديد فقد تدخل باريس وبرلين وموسـكو أطرافـا شـريكة وتساهم بالجنود والمال.

ومن وجهة نظر الادارة الأمريكية يمتاز هذا المخرج بأنه يخفف الضغط عليها ويقلل من النقد الداخلى والعالمى لفشلها فى ادارة الوضع العراقى. وقد يعطى انطباعا ايجابيـا لهـذا الجزء من النخبة السياسية والرأى العـام الأمريكـى الـذى يرفض توجهات اليمين المتشدد والذى يعزل أمريكـا عـن المحيط الدولى. ولكن يعيب هذا السيناريو أنه يعـد اعترافـا بالهزيمة الدبلوماسية أمام الأوربيين. كما أن هذه الصـيغة لا بد أن تستجيب لما يطلبه الجميع فى العالم وداخل العراق من ضرورة وضع جدول زمنى لانسحاب القـوات الأمريكيـة. وأخيرا فان هذا السيناريو لا بد أن يقيد مستقبل سياساتها فى الشرق الأوسط عموما.

ولهذا قد تحاول الادارة الأمريكية أن تحصل علـى مـا تريده من دعم أوربى واقليمى بدون تقديم تنازلات سياسـية مهمة للأمم المتحدة. ويعنى ذلك أن تحصـل علـى الـدعم العسكرى والمالى من الآخرين دون أن تقبل بتدويل حقيقـى للمسئولية السياسية عن العراق وبدون أن تمنح الأمم المتحدة الولاية العامة المطلوبة لاعداد العراق للانتقال الـى نظـام دستورى ديموقراطى دائم ومن ثم إعداده للاستقلال. وغالبـا ما سيرفض الأوربيون هذه الخديعة. ومن المعتقد ان الرئيس الأمريكى لن يخاطر هذه المرة بالذهاب الى الأمـم المتحـدة قبل أن يستطلع رأى الأوربيين.

جر أقدام العرب :

فاذا ما وجد الرئيس الأمريكى أن الأوربيين سيرفضـون صيغة أن يتحملوا جانبا كبيرا من العـبء دون أن يمـنحهم جانبا كبيرا مقابلا من النفوذ السياسى عبر الأمم المتحدة، فقد يفضل أن يأخذ بمخرج آخر تماما وهـو توسـيع التحـالف الراهن وهو ما يسميه تحالف الراغبين. وغالبا ما سيتم هـذا التوسيع من خلال تكوين قوة متعددة الجنسيات يشارك فيهـا من وقفوا معه فى أوربا الغربية والشـرقية. ولكـن القيمـة

الحقيقية لهذا المخرج ستتحدد بمدى مشاركة الدول العربيـة ومساهمتها بالمال والقوات. فـان قـدمت الـدول العربيـة مساهمات كبيرة سيكون قد حصل على أفضل ما يتمناه: أى الحصول على الدعم والمشروعية دون أن ينقل المسئولية عن العراق الى الأمم المتحدة أو يعترف بالهزيمة السياسية عمليا وهو فى مقتبل حملة إعادة الانتخاب.

ولكن الرئيس الأمريكى يدرك أن الدول العربيـة التـى كانت غنية صارت شبه مفلسة. ومن ناحيـة أخـرى فـان تقديمها لمساهمات مالية والمشاركة بـالقوات بـدون نفـوذ سياسى حقيقى سيكون أمرا سيئا جدا من وجهة نظر الـرأى العام العربى. ومن المحتمل أن مشاورات معينة ربما جرت بالفعل بين الولايات المتحدة وعدة دول عربيـة فـى هـذا الاطار. وبالمقابل فان قيام وفد عراقى بتوجيه طلب للـدول العربية من خلال الأمانة العامة للجامعة العربية بألا ترسـل قوات للعراق تحت أى ظرف يمثل خطابا موجها للرأى العام العربى بمعارضة أى احتمال لاتخاذ هذا الاجراء لمصـلحة الأدارة الأمريكية.

تغيير الفسلفة :

فان لم تحقق الادارة الأمريكية نجاحا يذكر فى تطبيق هذا السيناريو قد تلجأ الى مخرج آخر وهو احداث تغيير جذرى لمدخلها نحو القضية العراقية. وثمة شرطين أساسيين لهـذا المخرج من الورطة. الأول هو تسريع اعادة الاعمار وهو ما يتطلب قيامها هى بتوفير موارد مالية كبيرة. والثـانى هـو تسريع الانتقال السياسى عبر عملية اعداد دسـتور وإجـراء انتخابات لتشكيل حكومة تمثل العراقيين. ولكن ثمة مشـاكل عديدة تواجه هذا المخرج. فالادارة الأمريكية لـم تخصـص موارد مالية لإعمار العراق فى موازنة العام المقبـل. وقـد تحاول أن تعبىء أموالا من خلال الاقتراض من أسواق المال الخاصة. ولكنها ان اقترضت باسم العراق قد لا تحصل على الكثير بالنظر الى ضخامة الديون العراقيـة ورهـن عائـد مبيعات النفط لسنوات طويلة مقبلة. أما إن اقترضت باسـمها هى فقد تواجه معارضة فى الكونجرس الذى يعانى من قلـق شديد بسبب العجز الكبير للموازنة وضخامة الدين العام. أما العائق الأهم فهو أن الوفاء بأحد هذين الشرطين يتعارض مع الوفاء بالآخر. فاذا قامت الادارة الأمريكيـة بـالاقتراض أو

بتخصيص موارد مالية كبيرة للعراق فهى لن تخـرج منـه سريعا. وإن حاولت تسريع العملية السياسية فى العراق فلـن يكون لديها عذر للبقاء فيه وهو ما يحلها من عـبء تـدبير أموال لاعادة الإعمار. ثم أن تغيير الفلسفة الأمريكيـة فـى ادارة العراق على هذا النحو قد يؤدى الى نتيجـة مضـحكة حقا. فاذا ما جرت انتخابات حرة نزيهة فى العراق يرجح أن يحصل التيار الاسلامى الشيعى والسنى على أغلبية كبيـرة. وسوف يعنى ذلك أن الادارة الأمريكية ذهبت الـى الحـرب ضد خصم عراقى هو صدام حسين لتعطيه لخصم آخر هـو التيار الاسلامى. وبذلك يصبح لديها أكثر من ايران واحدة!

الانسحاب! :

وأخيرا قد يبقى مخرج آخر ليست له سوى فرصة ضئيلة وهو الانسحاب من العراق. وهذا السيناريو لا يمكن استبعاده تماما. فهو يخلص أمريكا من صداع سياسى مؤلم ومن عبء مالى ضخم. ولكن نتائجه السلبية من وجهة نظر الادارة قد يفوق ما يمكن أن تحققه من ورائه. فهو يعد اعترافا بارتكاب خطأ استراتيجى كبير فى الوقت الذى يتطلع الرئيس الأمريكى لترجمة انتصاره العسكرى فى العراق الى عائد انتخابى فى الداخل. كما أنه يجعل أمريكا أضحوكة العالم ويفقدها احترام حلفائها الاقليميين بل وقد يفقدها الهيبة العالمية كلية.

ومن هنا قد لا يكون أمام الادارة الأمريكية اختيارات حقيقية بديلة فى العراق. قد تستطيع إحداث تحسين طفيف على كفاءة الادارة اليومية ولكنها قد تغرق أكثر فى الورطة السياسية والأخلاقية الكامنة فى الموقف الاستعمارى ذاته. ولذلك فقد تختار ألا تأخذ بأى من المخارج الأخرى وتواصل المشى فى طريق حافل بالأخطاء والمشاكل وربما الفضائح.

(٣٥)

سياسة خارجية استثنائية

تمر السياسة الخارجية لكل دولة مهمة في النظام الـدولي بدورة حيوية معروفة. فهي تذخر بالنشاط في مرحلة معينـة وتميل للسكينة والهدوء في مرحلة ثانية ثم تنكفئ الدولة على ذاتها في مرحلة ثالثة وقـد تسـتجيب بكسـل ودون همـة للتطورات العالمية الكبيرة في مرحلة رابعة الى أن تبدأ دورة جديدة.

ودورات السياسة الخارجية لا تقاس بالكم فقط بل بـالنوع أيضا. ففي مرحلة معينـة تمتلـئ بالمبـادرات الإيجابيـة والاستجابات الخلاقة. وفى مرحلة تاليـة تكتفـي السياسـة الخارجية بالاستجابات الاعتياديـة والاختياريـة لمبـادرات الآخرين. وفى مرحلة ثالثة قد تشعر الدولة بالإنهاك وتخمـل حواسها السياسية والثقافية، فتتعامل مع التطـورات الدوليـة بقدر ملحوظ من عدم الاكتراث ويتم تشغيل آلياتها بطريقـة باردة ودواوينية وعبر إعمال ورقية للتعامل حتى مع أكثـر الأحداث الدولية حسما وصخبا. وتتفق هذه الدورة مع حالـة

المجتمع الحيوية وارتفاع وانخفـاض مسـتويات طموحـه القومي. وفى هذه المرحلة تستجيب السياسة الخارجية بردود سلبية وغير متحمسة للمبادرات الدولية الكبيـرة والصـغيرة على السواء. وهى تكاد تستسلم للأقدار دون أن تسعى لتغيير اتجاه الأحداث أو تبنى فلسفة جديدة أو طرح أفكار ثاقبة.

والسياسة الخارجية المصرية ليست استثناء مـن قـانون الدورة الحيوية. ولكنها مع ذلك محكومة بقانون آخـر هـو مسئولياتها الدولية والتوقعات العالية منها لدى العـالم كلـه وخاصة أن مصر تشكل قيادة تاريخية لحركات وكتل دوليـة مهمة يرغب العالم حتى في مرحلة الانفرادية الأمريكية فـي الاستماع إليها والتطلع لدورها. هذا القانون الأخير لا يسمح لمصر بأن تتصرف وفقا لقانون الدورة الحيوية عندما تشعر بالإنهاك أو بالحيرة وحتى عندما تكون الاختيارات الإيجابية ضئيلة والرغبة في الانكفاء على الذات قوية. فـالفجوة فـي الأداء تصبح ملحوظة من جانب الجميع والفـارق المعنـوي والمادي بين الانفتاح والإبداع من ناحية والانكفاء والخمـول من ناحية أخرى يذهل من يتوقعون منها القيادة ومن يرومون لها الخير ومن يسألونها أن تصنع فرقا كبيـرا بـين حالـة

الطبيعة وحالة الحضارة. ونحن نشهد هـذه الدهشـة وهـذا الذهول في المرحلة الحالية. ولا مجال للرد بأن هـذه هـي طبيعة الحياة ودورتها ومواسمها الطبيعية والإنسانية.

وما يجعل الدهشة أشد والذهول أشمل أن المرحلة الراهنة في الساحتين العالمية والعربية تشهد تطورات حاسمة قد تغير مصير العالم ككل والعالم العربي والإسلامي بشكل خـاص بشكل خاص حيث تقع دوائر الاهتمام المصرية الرئيسية منذ عام ١٩٥٢. وبينما تمتعت مصر بمكانة ممتازة فـي هـذه الدوائر فإنها لم تتمكن من إنتاج تشخيص سليم واقتراح علاج ناجع لمشكلات وأزمات هذه الدوائر.

إن الظاهرة الرئيسية آلتي تتعامل معها جميع دول العـالم اليوم – بما فيها العالمان العربي والإسلامي- هـي الهجـوم المضاد الذي تشـنه الولايـات المتحـدة بقصـد تقـويض المشروعية العالمية التي تأسست بفضل حركـات التحـرر الوطني. وتخاط الولايات المتحدة عمدا بين الحـرب ضـد الإرهاب والحرب ضد القانون الدولي الحديث وهـو خلـط تنبهت إليه القوى الكبرى الأخرى وسجلت رفضها له بمناسبة بحث قضية الغزو الأمريكي للعراق.

ولكن الآمال الحقيقية في مواجهة هـذا الهجـوم بفعاليـة تتوقف ليس على الدول الكبرى الأخرى وإنما على اسـتجابة الدول الصغرى في جنوب العالم وخاصة العالمين العربـي والإسلامي. فلم يكن من الممكن أن يتمتع الهجوم الأمريكـي المضاد بالفعالية بل ولم يكن من الممكن أن يتحول العالم الى نظام القطب الواحد إلا بسـبب الأزمـة الداخليـة العميقـة والطاحنة التي تعانيها معظم دول الجنوب. فكل ما احتاجتـه الولايات المتحدة هو استثمار حالة التحلل والضعف الأخلاقي والمادي الذي تعيشه معظم هذه الدول من أجـل إخضـاعها وإنهاء سيادتها فعليا من خلال العصا والجزرة.

ولا شك أن الأسـباب الكامنـة وراء الأزمـة العميقـة والطاحنة التي يعيشها العالم العربـي والإسـلامي متعـددة وبعضها لا يمكن حله أو مواجهته إلا على المـدى الطويـل ومن خلال ما أسميناه بالتنمية. ولكن ثمـة مظهـرين لتلـك الأزمة كان لهما دور كبير في انهيار مناعة العالم العربـي والإسلامي والعالم الثالث أو الرابع ككل، وهمـا الاسـتبداد السياسي والحروب الأفقية بين أبناء نفس البلد أو فيمـا بـين البلاد المتجاورة.

ومن يشاء المساهمة في قيادة العالم وتعزيز مكانته الدولية عليه أن ينتج أفكارا مبدعة للتعامل مع هذين الجـانبين مـن الأزمة العامة للعالم العربي والإسلامي أو على الأقـل مـع الصراعات والحروب المنتشرة في أرجاء هذا العالم وبنـاء السلام في ربوع هذا العالم. ويمكن القول أن تحقيق مستوى أعلى من المناعة من خلال هذه المهمة هو على الأقل نصف المطلوب للظفر بالمعركة العالمية من أجل تعزيز الاسـتقلال والحصول على العدالة الدولية. وهذا هو تحديدا مـا يجـب على مصر أن تفكر فيه.

يكفينا في هذه المرحلة التصدي الفعال لظاهرة الحـروب الأهلية والصراعات الدولية التي تفتح الباب على مصراعيه للتدخل الخارجي وتفضي الـى انهيـار المناعـة العربيـة والإسلامية. فلدينا في العالم العربي الصراع حول الصحراء الغربية وهو صراع أهلي ومشتبك بصورة غير عقلانية مع العلاقة الثنائية بين المغرب والجزائر، وحالة الحرب الأهلية في السودان وهى أطول وأقسى الحروب الأهلية في العـالم العربي، ثم لدينا الجانب الداخلي من قضية الشعب العراقـي وهو جانب أساسي من معادلة الاستقرار والسلام في العـالم

العربي كله الى جانب كونه العامل الأهم في نيـل اسـتقلال العراق ذاته. أما على مستوى العالم الإسلامي فلدينا قضـية الإرهاب والتطرف التي تسببت في معظـم النكبـات التـي تعرض لها العالمان العربي والإسلامي خلال السنوات القليلة الماضية. ولدينا في منطقة الحدود بين العالم الإسلامي والهند قضية كشمير التي سببت نزيفا مستمرا منذ عام ١٩٤٦ وقـد تكون السبب في اشتعال حرب ذرية بين الهند وباكستان.

ندرك أن أغلب تلك الصراعات والقضايا الساخنة علـى امتداد العالم العربي والإسلامي أو على حدوده معقد وممتنع عن الحل أو الوساطة. وندرك أيضـا أن مصـر لا تملـك وحدها ما فشلت الأمم المتحدة بكاملها في حله أو التعامل معه بفعالية. ولكننا ندرك أيضا أن استمرار تلك الصراعات هـو السبب وراء خسائر جسيمة ألمت بقضايانا وهو من بين أهم العلل وراء الضعف الجماعي للعالم الثالث وخاصة في قارتي آسيا وأفريقيا.

وبداهة فانه يستحيل على مصر أن تسهم في حـل تلـك الصراعات بالآليات وأساليب العمل الاعتيادية. كما أنهـا لا تستطيع أن تضع هذه المهمة علـى جـدول أعمالهـا إلا إذا دخلت مرحلة جديدة من دورة السياسة الخارجية تستجمع فيها كل ما لديها من طموح وحيوية. وبتعبير أخر فـان مصـر يمكنها ولوج مرحلة جديدة في تاريخهـا السياسـي الـدولي وتولى وظيفة جديدة تعزز مكانتها وتعيد لها اللمعان والتقدير إذا ما وضعت على جدول أعمالها مهمة خارقة وهى إحيـاء حركة العالم الثالث وخاصة العالم الإسلامي عبر مراحـل لا شك أن أولها وأهمها هو إنهاء الصراعات التـي تنـز فـه وتعصف بمناعته. ما نقوله أن هذه المهمة الخارقة تحتاج الى سياسة خارجية خارقة أو استثنائية لا تسلم نفسها للأسـاليب المعتادة أو للأدوات المكتبية.

وحتى تقوم مصر بهذه المهمة يجب عليها أن تنتج أفكـارا جديدة وأن تطلق مبادرات جديدة. فمعظم هذه الصراعات شهد جهودا دولية مستميتة من أجل حلـه دون طائـل. ومعظمهـا يحرق يد من يقترب منه – إذا سمحت له الأطراف المباشـرة بالاقتراب- حتى يهرب من التعامل معه. ولأن أغلبها يشـتمل على عوامل ثقافية ودينية واستراتيجية معقدة فلا يصلح معهـا المداخل التقليدية بما في ذلك قرارات الأمم المتحدة ولا حتـى المطرقة الثقيلة للولايات المتحدة. ولكن مصر بالـذات تتمتـع بالمؤهلات الثقافية التي تجعلها مقبولة أكثر من غيرها وخاصة عندما لا تكون وحدها بل محاطة بزمالة دول وزعامات قوية وذات مصداقية أخلاقية عالية. ولهذا السبب قد يكون افضـل مدخل للتعامل مع معظم هذه الصراعات والقضايا هو البـدء بطرح فكرة تكوين جماعة من الزعماء الدوليين الذين يتمتعون بدعم ومكانة في بلادهم وفى العالم لوضع تصورات للتعامـل مع كل قضية على حدة والقيام بالجهود الضرورية لبدء حركة نشطة تضمن أقصى درجات النجاح لجهود الوسـاطة وحـل الصراع. وقد نطلق على هذه الجهود تسمية دالة مثل "المبادرة من أجل السلام العالمي".

وقد ترى مصر أن الوقت قد حان لإنهاء عزلتها النسـبية عن المجتمع المدني العالمي الذي خاض أروع معركة فـي التاريخ عندما تولى مهمة مناهضة خطط الحرب الأمريكيـة ضد العراق ولا يزال يقوم بهذا الدور طلبا لانسحاب القوات الأمريكية على وجه السرعة من العراق. ومـا نعنيـه فـي الحقيقة بسياسة خارجية مصرية استثنائية هو هـذا المعنـى تحديدا. فالسياسة الخارجية المصرية اعتادت على الأسـاليب التقليدية للدبلوماسية وأتقنتها وساهمت فيها بنشـاط موفـور أحيانا ومحدود أحيانا أخرى. ولكن مصر لم تتأمل بل تعالت وخافت من التلامس مع حركة المجتمع المدني العالمي. وهذه الامتناع قد يفلت منها فرصة العمر فـي اسـتعادة مكانتهـا العالمية أو مجرد المحافظة على ما تملكه من هذه المكانـة. دعنا نقول بوضوح أن المكانة الدولية والقدرة على التـأثير بالنسبة لدول مثل مصر سوف تتحدد في المستقبل بناء على صورتها لدى المجتمع المدني العالمي الذي يتولى الآن الدور الأكبر في الدفاع عن السلام العالمي والعدالة الدولية.

والسياسة الخارجية المصرية بحكم تحفظها على التعامـل بأساليب غير تقليدية وبحكم امتناعها عن الارتبـاط بحركـة المجتمع المدنى العالمي لا تملك الخبرة الكافية لتعويض مـا فاتها في هذا المجال. وطرح فكرة مثل "المبادرة مـن أجـل السلام العالمي" يمكن أن تكون الفرصة المثالية لتكوين هـذه الخبرة. وبذلك يكون هنـاك إطـاران للقيـام بـدور حـل الصراعات: إطار يتكون من نخبة من الزعمـاء العـالميين الذين يتمتعون بمصداقية وإطار أوسع يتكـون مـن حركـة السلام العالمية النشطة والتي تتمتع بتأييد كامل مـن جانـب المجتمع المدني العالمي.

يتطلب الأمر كما قلنا خيالاً واسعاً وحيوية كبيرة وفكـراً ثاقباً ومعرفة دقيقة بأحوال النظام الدولي وبخصـائص تلـك الصراعات التي نتحدث عنها: أي العناصر الأساسية لسياسة خارجية استثنائية.

الباب الثالث

إشكاليات التحرر

(٣٦)

من قتل سيرجيو؟ ولماذا؟

من قتل سيرجيو دو ميل رئيس بعثة الأمم المتحـدة فـى العراق ومعه أكثر من عشرين من مـوظفى البعثـة وقـام بتدميرها، يتوق الى تحقيق ثلاثة أهداف.

الأول هو وقف الدور الانسانى الذى تلعبـه البعثـة فـى العراق. ويعد هذا الهدف جزءا مـن هـدف أشـمل وهـو مضاعفة الفوضى الشاملة التى يعانى منهـا العـراق بعـد الاحتلال الأمريكى ومضاعفة معاناة الشعب العراقى وهو ما يفترض أن يؤدى بدوره الى ثـورة شـعبية عراقيـة ضـد الاحتلال الأمريكى. ولا تعجب من هذا المنطق. فهو فعـلا منطق مريض ولا ينتهجه سوى قتلة لا ثوارا وطنيين. فقتـل الشعب العراقى ليس هو الأسلوب المنطقى لدفعه الى الثورة. لا تعجب لأن لدينا فى العالم العربى قوى سياسية ومذهبيـة بالغة الشذوذ والقسوة ولا تعرف معنى للانسانية أو الوطنيـة أو الدين أوالأخلاق والبديهى أنها لا تعرف طريقا للعقل.

أما الهدف الثانى للعملية فهـو فضـح العجـز الأمنـى الأمريكى ونقل رسالة هذا العجز الى الداخل الأمريكى على افتراض أن فضحه بهذه القسوة والهمجية يضـعف مركـز الادارة الأمريكية ويعزز موقع الناقدين لها فى الداخل وقـد يجبر هذه الادارة على سحب القوات الأمريكية على عجـل حتى تتجنب سقوط أعداد أكبر من الجنود الأمـريكيين فـى العراق ومزيدا من الاحراج السياسى والعسكرى.

أشارت معظم التحليلات الى هذين الهدفين نظرا لوضوح الرسالة. ولكن الهدف الثالث لم يلفت نظـر أحـد تقريبـا. فاختيار مقر بعثة الأمم المتحدة فى العـراق للتـدمير يمثـل رسالة أكثر خطورة وأشد جذرية بكثير. فهؤلاء الذين قـاموا بتدمير المقر وقتل سيرجيو لا يريدون تواجد الأمم المتحـدة فى العراق.

فلا يمكن افتراض أن الذين قتلوا سيرجيو ليسـوا علـى اطلاع على ما يجرى من مناقشات وضغوطات عالمية مـن أجل انهاء الاحتلال الأمريكى وتمكين الأمم المتحدة من تولى مسئولية الاشراف على الوضع الانتقالى فى العراق وتطبيق جدول زمنى سريع لبناء نظام ديموقراطى دائم هناك يسـمح بانسحاب سريع للقوات الأمريكية.

فالواقع أن الذين قتلوا سرجيو يحاولون قطع الطريق على هذا السيناريو! صحيح أن الادارة الأمريكية قد وضعت هـذا السيناريو على الرف واختارت بدلا من ذلك صيغة توسيع ما تسميه "تحالف الراغبين" ودفع عدد أكبر مـن الـدول الـى ارسال قوات الى العراق للمشاركة فى تولى المهام الأمنيـة مع استمرار الولايات المتحدة فى تـولى وظـائف السـيادة باعتبارها سلطة الاحتلال الحقيقية. صحيح أن هذا كان قرار البنتاجون وعصابة المحافظين الجدد كما تسميهم الصـحافة الأمريكية ذاتها. ولكن هناك اتفاقاً عاماً بـين المـراقبين أن الادارة الأمريكية ستضطر عاجلا أو آجلا الى اتخـاذ هـذا القرار. فهى لا تملك ولا ترغب فى تعبئة مزيد من الأمـوال للانفاق على اعادة اعمار العراق بسرعة بما يضمن استقرار الأوضاع. والأهم هو أنها لا تملك القوات الكافيـة لضـمان الأمن.

وهى تحتاج الى سحب فرقة مـن الفـرقتين الكبيـريتين العاملتين فى العراق وهو ما يحتم عليهـا الاسـتعانة بـدول أخرى لن تأتى الا بقرار جديد يفوض الأمم المتحدة فى القيام بالدور الأكبر.

ولكن من له مصلحة فـى قطـع الطريـق علـى هـذا السيناريو؟

اتجهت التحليلات الاستراتجية فى البداية الى القول بـأن أعوان صدام هم الذين يقومون بالعمليـات العسـكرية فـى العراق. وبالفعل فان صدام حسين أو بقايـا أجهزتـه لهـا مصلحة فى قتل سيرجيو لأن سيناريو إشراف الأمم المتحدة على العراق فيما يشبه نظام الوصاية يؤهلـه للتحـول الـى الديموقراطية بناء على دستور دائم. وهذه البقايا لن تسـتطيع أبدا أن تحكم العراق من خلال صندوق الاقتراع. اذ أنها لن تحصل أبدا على أغلبية الأصوات فى أى انتخابات حرة ولو عقدت بعد مئة عام من الجرائم المريعة التى ارتكبتها بحـق الشعب العراقى والشعوب العربية والمسلمة. ومن ثـم فلـو تمكنت من إجبار الأمريكيين على الرحيل قد تصـبح القـوة العسكرية الأكبر فى العراق وقد تفرض عليه النظـام الـذى تريده.

فاذا قلنا أن هذا التقدير للأمور فيه كثير من الثغرات لما كان ذلك حجة ضد القاء المسئولية عن قتل سيرجيو على بقايا نظام صدام حسين وأجهزته. فالرجل كان معروفا بأنه "ملك الحسابات الخاطئة". ففى كل تحركاته وحروبه الخارجية لم يحسن الحساب والتقدير حتى فيما لا يتطلب اكثر من حكمة طفل أو حدث صغير السن. ومن الواضح أن تلك العملية قد صممت على ضوء تجربة الولايات المتحدة والأمم المتحدة فى الصومال. فوقوع خسائر جسيمة من هذا النوع تفضى الى انهيار التأييد للتواجد الأمريكى وهو ما يؤدى – وفقا لهذا الحساب- الى سحب سريع للقوات الأمريكية وغير الأمريكية من العراق تاركة إياه للقوة العسكرية التى يمكن حشدها بسرعة وهى تلك التابعة للنظام السابق وهو ما يعيده الى السلطة رغم هزيمته العسكرية وتسببه فى احتلال الدولة.

ولكن من المشكوك فيه أن تكون تلك البقايا هى التى قامت بقتل سيرجيو وتدمير مقر الأمم المتحدة. فأعوان النظام السابق لا يقومون بعمليات انتحارية، بل ان هزيمتهم السهلة على يد الأمريكيين لم تدفع أحدا من القادة السابقين الى الانتحار. وسلم الكثيرون منهم أنفسهم للأمريكيين بكل بساطة مبتلعين خطابهم الملتهب عن "النشامى والماجدات".

ومن الواضح أن من قام بقتل سيرجيو لم يكن يفكر فـى النموذج الصومالى حيث ينسحب الأمريكيون بسرعة وينتهى احتمال أن تقوم الأمم المتحدة بادارة العراق. فهـذه العمليـة تبدو جزءا من حملة بعيدة وطويلة المدى. ويهم من قام بهـا أن يقطع الطريق على الدور السياسى للأمم المتحدة لأسباب أخرى تماما غير الوصول الى السـلطة بسـهولة أو بقفـزة واحدة. ويبدو أن من قام بها يملك تحليلا أكثر واقعية وأكثر تصميما على الاشتباك طويل المدى مع الأمريكيين. وهو قام بالعملية حتى ينفرد بالأمريكيين بدون غطاء من الأمم المتحدة أو قواتها.

ومن المرجح أن تكون منظمة القاعدة أو قـوات تتوجـه بالولاء لهذه المنظمة هى التى قامت بتلـك العمليـة. فمـن الناحية الفنية هى تتفق مع نمط عمليات القاعدة وخاصة تلك التى قامت بها ضد السفارات الأمريكية فـى نيروبـى ودار السلام وفى باكستان ضد السفارة المصرية وأيضا فى العراق نفسه ضد السفارة الأردنية وعشرات أخرى مـن الأحـداث المماثلة.

وما يلفت النظر مع ذلك هوالهدف السياسـى. ويبـدو أن التصميم السياسى للعملية يشير الى استراتجية متكاملة وذات أفق عالمى بغض النظـر عـن سـلامة أو عـدم سـلامة الافتراضات التى تقوم عليها تلك الاستراتجية.

فاستراتيجية القاعدة منذ سقوط نظام الطالبان فى أفغانستان هى استنزاف القوات الأمريكية فى

أكثر من موقع. فاضافة الى التصعيد الملحوظ لعمليـات القاعدة وطالبان فى أفغانستان خلال الشهور الأخيـرة فـان التواجد الأكثف للقوات الأمريكية فى العراق يعد هدفا أفضل. ففى أفغانستان تستنفد القاعدة وطالبان قواهما فى حرب ضد أمراء الحرب المحليين وهى لا تكاد تطال الأمريكيين نظـرا لقلة عددهم هناك وتركز التواجد الأمريكى فى مجال القوات الجوية وعدد من المستشارين والفنيين والقوات الخاصة.

أما فى العراق فلدى القاعدة عدد هائل مـن الأمـريكيين والغربيين الذين يسهل ايقاع ضحايا بينهم على اعتبار أنهـم يقومون بمهام شرطية وينتشرون فى مساحة عريضة نسبيا. ولذلك فأهم ما قد تحرص عليه استراتجية القاعدة ليس هـو سحب القوات الأمريكية وانما العكس تماما: أى ابقاءها فـى العراق الى أطول فترة ممكنة.

ويتفق هذا التفكير مع الاستراتجية العالمية للقاعدة. وتشير مصادر القاعدة وأدبياتها الى أنها تحرص على الاستنزاف الاقتصادى للولايات المتحدة بأكثر مما تحرص على ايقاع خسائر بشرية بها. فالقاعدة لديها فهم متقدم لآليات السوق الرأسمالى الذى يتأثر ايجابا وسلبا بحساسية كبيرة للمتغيرات السياسية وأحداث العنف. واذا نجحت القاعدة فى حرمان الولايات المتحدة من الغطاء الأممى فيمكنها اجبارها على مضاعفة انفاقها العسكرى فى العراق اضافة الى الانفاق على مشروعات اعادة الاعمار. وهذا هو ما حدث فعلا حيث تم الغاء أو تأجيل سحب فرقة من القوات الأمريكية سواء لضرورات عسكرية أو لتوفير النفقات الكبيرة.

إن دلالة اغتيال سيرجيو هى ابقاء القوات الأمريكية الى أطول فترة ممكنة ونسف سيناريو تولى الأمم المتحدة للشأن العراقى وهو عكس ما قد تستهدفه بقايا أجهزة صدام. ولو صدق هذا التحليل فقد لا ننتظر طويلا قبل أن نشهد نزاعا وخلافا استراتجيا بين القاعدة وقوات صدام فى العراق.

(٣٧) هل تظهر مدرسة مختلفة للمقاومة فى العراق؟ الديموقراطية والوطنية مرة أخرى

يتفق معظم المـراقبين علـى أن العمليـات العسـكرية الأمريكية لتصفية المقاومة العسكرية فى الفالوجا والموصـل لن تمثل نهاية للمقاومة المسلحة، بل ولن تنجح فـى هـدفها المباشر وهو تأمين انتخابات ذات صدقية فى العراق.

ولكن هذا الاستنتاج لا يحيط بجميع الآثار المهمـة لهـذه العمليات وخاصة اذا تواصلت. فضرب قطاعات اساسية مـن المقاومة المسلحة قد يخلخل هياكلها التنظيمية لفترة من الوقت. والأرجح أنه سيبعثر قواها الى بؤر وبنيات تفتقر الى الوحـدة التنظيمة التى كانت جمعتها منذ أغسطس من العام الماضـى عندما انطلقت لمباشرة عمليات كبيرة ومخططة جيداً. ويعنـى ذلك أن يتضاعف عدد التنظيمات العسكرية وشبه العسـكرية ويشتد افتقارها الى ارادة وقيادة موحدة وهـو مـا يضـاعف الفوضى الأمنية وينشر العمليات العسكرية والعنيفة على نطاق أوسع وقد يكون أشد أيلاما مما حدث حتى الآن.

ويترتب على هذه النتيجة أن الأمريكيين لن يحظوا بفترة هدوء طويلة أو حتى قصيرة فى العـراق. ولكـن النتيجـة المعاكسة قد لا تقل أهمية وهى أن آمال المقاومة العسـكرية فى تحقيق نصر سياسى أو عسكرى سيكون أبعد وأصـعب من أى وقت مضى، وأن تكلفة الحرب الدائرة فـى العـراق ستزيد كثيرا رغم أنها مريعة بالفعل.

وهذا هو تحديدا ما يعنيه المراقبون عندما يؤكدون أنه لا يوجد حل عسكرى للمسألة العراقية. فالولايات التحـدة لـن تنتصر فى العراق ولكنها بالمقابل قد لا تهزم، والمقاومة قـد لا تصفى، ولكنها لن تحقق انتصارا عسكريا يعيـد العـراق دولة متحدة ويبشرها بمستقبل ديموقراطى أو مقبـول ممـن يحبون هذا البلد العظيم والذى تدين له الانسانية بكثيـر مـن انجازاتها العقلية والابداعية عبر تاريخ الحضارة.

يشعر أى عربى أصيل بالأسى العميق للخسائر التى ألمت بالمقاومين فى العراق. وفى الوقت ذاته لا يسع أى عربـى يفكر تفكيرا سليما سوى استنتاج أن جانبا مهما مـن تفسـير النتائج المأسوية للعمليات الأمريكية فى الفالوجا ولتباعد آمال النصر والتحرير يعود الى تبنى المقاومة لمدرسـة صـدام حسين فى المقاومة وفى السياسة معا.

ان الرواية التى تروجها الدوائر الصدامية فى العراق قـد لا تكون دقيقة. تحكى هذه الرواية أن الرئيس السابق صـدام حسين قد أعد أعدادا كبيرة للغاية من ضباطه وخاصـة فـى أجهزة المخابرات والمخابرات العسكرية للمقاومة العسـكرية وأنه طبق رؤية تقول بأنه لا أمل فـى المقاومـة النظاميـة للعدوان الأنجلو أمريكى، ولذلك "ذابت" قواته وانسحبت مـن بغداد لكى تمارس استراتيجية المقاومة غير النظامية والتى لا يتقنها الأمريكيون بحيث يمكن استنزافهم فى حـرب فدائيـة طويلة حتى تأتى اللحظة المناسبة التـى يـتم فيهـا توجيـه ضربات قاصمة لهم تجبرهم على الانسحاب يجرون أذيـال الخيبة والعار ويتحقق الانتصار.

والواقع أنه يصعب القبول بصحة هذه الروايـة. ولكـن ترويجها يكشف بذاته عن بعض عناصر المدرسة الصدامية فى الحرب والسياسة. وبينما يتنبأ أصـحاب تلـك الروايـة بالنصر النهائى، يمكن القول بأنها تنبى بنتائج مريعة وكارثية وغير مختلفة كثيرا عما جره الرجل على بلاده مـن دمـار مؤكد ومآس لا حصر لها.

أن أهم سمات المدرسة الصدامية فى السياسة هى النظـر الى السياسة باعتبارها معركة يفوز فيها طرف واحد فقط اذا ما أمن ايمانا أسطوريا بالنصر وشق طريقه بالعنف الى غاية منتهاه وبتركيز كامل على أنه يملك الحق والحقيقة فلا يلـين ولا يتراجع ولا يقبل نقدا أو مراجعة أو قيوداً من أى نـوع ويباشر كل شىء لتدمير الخصوم معنويا وماديا دون نظـر لأى اعتبار أخر سوى النصر حتى لو أدى الأمر للمخـاطرة بنهاية الحياة ودمار البلاد والعباد. ولا يعنى ذلك أن المدرسة الصدامية فى السياسة لا تعـرف التحالفـات والمنـاورات، ولكنها ليست سوى آليات عمل بسيطة ومؤقتة وليست كتلـة تاريخية لا تستقيم الحياة بدون حد أدنى منها.

ولذلك تبنت المقاومة التى تعتبره قائدها أو تستلهم مدرسته فى السياسة استراتيجية تشى بنفس تلك المبـادىء الأيمانيـة والاجرائية. فالعنف المطلق هو المبدأ الأساسى الى درجة أن المبادىء السياسية والأهداف صارت متحدة تماما مع الايمان المطلق بالعنف. ويتجه العنف الى تقويض بنية السلطة التـى اقامها الأمريكيون عبر حملة اغتيالات تشمل عددا مذهلا من الأشخاص، ومتابعة عمليات الاغتيال لعدد مذهل من الكوادر

السياسية والادارية للسلطة الجديدة ووقـف عمليـة اعـادة الإعمار وشل جميع جوانب الحياة السياسـية والاقتصـادية والاجتماعية وتخريب ركائزها المؤسسية ومرافقها وبنيتهـا الأساسية حتى لو كانت مسيسـة الصـلة بالحيـاة اليوميـة للمواطنين لمجرد اثبات الفشل الكامل للأمريكيين والسـلطة الجديدة ووضع قـوات البـوليس والحـرس الـوطنى بـل والمواطنين العاديين فضلا عن الرمـوز الكبـرى للأيـان الأخرى والأجانب بغض النظر عن انتماءاتهم ومـواقفهم أو مواقف بلادهم السياسية من العدوان الأمريكى فى قلب قائمة الاستهداف. فقتلهم بأعداد كبيرة يمثل أحد أهم محاور وابعاد تلك الاستراتيجية. ولا يعنى ذلك اهمال العمل العسكرى ضد قوات الاحتلال. وتدرك المدرسة الصدامية فى المقاومـة أن من الصعب تحقيق انتصار عسكرى سـريع ضـد القـوات الأمريكية والبريطانية المتفقة تجهيزيا. ولذلك يـتم حصـر الهدف فى المرحلة الأولى على هز، ثـم بعثـرة التحـالف الدولى بتركيز الضربات فى البداية علـى الأمـم المتحـدة والمنظمات الدولية الأخرى والأطراف الصغيرة فـى هـذا التحالف لعزل الولايات المتحدة وبريطانيا وضرب مـؤخرة

تلك القوات وخطوط امداداتها والقيـام بعلميـات تسـتهدف اهانتها فى وسط المدن الرئيسية وخاصـة بغـداد والهبـوط بمعنوياتها الى الحضيض وصولا الى التأثير علـى التقيـيم العسكرى للقيادات العسكرية العليا والوسيطة يـؤثر بنهايـة المطاف على الادارة الأمريكية التى تضطر بنهاية المطـاف الى الاعتراف بالهزيمة السياسية ومن ثم الانسحاب السـريع الذى يمثل فرصـة لمزيـد مـن الاهانـة وبعثـرة الارادة والمعنويات.

وقد حققت هذه الاستراتيجية بعض النجاح مـن منظـور المدرسة الصدامية فى المقاومة. فقد شلت الحياة فى العـراق وأثارت فوضى أمنية كاملة أطاحت باحلام الأمريكيين فـى حصد ثمار الانتصار العسكرى الذى تحقق فى عملية الغـزو والاحتلال وفرضت عليه التصرف بما يتفـق مـع الجدليـة التاريخية المعروفة للمقاومة والـبطش الاسـتعمارى. فكـل عملية استعمارية لتصفية المقاومة تؤلب السـكان وتضـيف كراهية جديدة للاحتلال والاستعمار وهو ما حدث فى العراق بالفعل خلال العام الماضى. وقد ظهرت تلك الجدلية بصورة أسرع فى العراق عنها فى التجارب الأخرى.

ولكن نتائج تلك الاستراتيجية ليست بحال نجاح كامل بـل قد لا تكون نجاحا على الاطلاق. ويبدو الفشل واضحا فـى النتائج التالية. أولا: الفشل فى مد جسور التحالف الوطنى بما هو أبعد من المثلث السنى. ومن المثير بالفعل أن المدرسـة الصدامية فى المقاومة لم تنجح فى الافادة من جدلية المقاومة والبطش الاستعمارى المعروفة فى التجارب الأخرى للتحرر الوطنى. فرغم انتشار الرفض والكراهية للاحتلال فى نفوس أكثرية من المواطنين العرب والأقليات الصغيرة، فالأكثريـة من الطوائف غير السنية صارت تخشى المقاومة بأكثر ممـا تخشى الأمريكيين. فاذا كانت تمارس كل أعمال القتل هـذه وهى لم تنتصر بعد فيم اذن تعـد العـراقيين اذا انتصـرت وعادت للسطة ان لم تكن حمامات من الدم؟ كما أنها لم تنجح فى الافادة من الرفض العالمى للاحتلال الأمريكى للعـراق. فمعظم دول العالم تأمل فى فشل أمريكا فى العراق خوفا من توحش الادارة الأمريكية الحالية ولكنها تشعر برعب مماثـل من المقاومة بل وصارت تخشى المسلمين وتشـعر بجـزع كبير مـن العـرب وثقـافتهم بسـبب الأعمـال الوحشـية واللاعقلانية التى تقع غفى العراق باسم المقاومة. ومن ناحية

ثالثة يبدو انتصار المقاومة لو حدث محاولة لاسترجاع موقع السنة الممتاز السابق فى الدولة العراقية وهو ما يعنى العودة الى دولة لاديموقرطية وهو ما لا تحاول المقاومة جديا تبديد الشكوك حوله حيث لم تعد الشعب العراقى بدولة ديموقراطية او متسامحة مع الاختلاف. ولذلك يخشى الجميع تقريبـا أن يؤدى انسحاب الأمريكيين أو هزيمتهم الى حرب أهلية امـا تدمر وحدة العراق أو تعيده الى نظام أشد من نظـام صـدام حسين. ولذلك فان محاولة الأمريكيين تصفية المقاومـة فـى الفالوجا لم تجد معارضة سياسية شديدة خارج المثلث السنى.

ان علامات الفشل كامنة فى المدرسـة الصـدامية بمـا يتجاوز بكثيـر النتـائج العسـكرية للعمليـات الأمريكيـة المرفوضة. ولهذا يحتاج العراق الى مقاومة من طراز جديد كلية.

(٣٨)

هل ما يحدث في العراق مقاومة؟

سوف أخاطر برأي يختلف مع الانطباع السائد فى مختلف البلاد العربية والإسلامية حول ما يحدث فى العراق وهو أن التفجيرات وأعمال القتل ليست مقاومة للاحتلال، بل هى فى غالبها "عنف جنونى" ضد الذات والوطن وقد ينتهـي الـى خراب عام ويأس شامل. وهى بهذا المعنى لـيس تقويضـا للاحتلال ولا هى تجاوز لشروطه بل فعل مكمل له من حيث المضمون.

الكاتب والرأى العام :

يخاطر الكاتب – ولا أقـول العـالم بالضـرورة تجنبـا للادعاء- أحيانا وربما كثيرا، بـرأي مخـالف للشـعوب أو للغالبية لأن هذه هي مسئوليته تحديدا عنـدما يـرى أن رأى الشعوب والغالبية خطأ ويقود الى كارثة. وكثيرا ما يعاقـب الكاتب أو العالم لقيامه بهذا الواجب وخاصـة فـي العـالم العربي.

وتتفرع ممارسة "عقاب" الكاتب أو العالم المخـالف عـن تقاليد معينة في القراءة وعن مدرسة سائدة فى علاقة الكاتب بالجمهور، وهى مدرسة صارت جزءا من "عقيدة" الكتابة أو عقدها فيما يتعلق بشئون السياسة والمجتمع فى العالم العربى. فالكتاب صاروا يبحثون عن الشعبية ولو على حسـاب مـا يرونه الحقيقة وإن أخطأوا فى نيلها أو أصابوا. والتقاليد التي نتحدث عنها تنتظر من الكاتب أن يقول للجموع ما تريـد أن تسمعه لا أن يقودها الى رؤية "حقل الاختيارات" الذي يدرسه ولو بخيال العالم والمبدع. ولا تصنع هـذه التقاليـد علاقـة التوتر الكامنة - وأظن أنها مفيدة - بـين الكاتـب والعـالم والشعوب التي ينتمي إليها. فأحد أهم واجبـات الكاتـب أو العالم هي أن يخضع أراء الجمهور أو حتى الشعوب للبحث والتمحيص، وأن ينظر في نتائج الاختيارات التى تصنعها أو تفرض عليها باعتبارها حقائق، فيلقى بذلك ضوءا كثيفا على الاختيارات المتاحة والممكنة. وأداء هذا الواجب هو الطريق الوحيد لممارسة الحرية. فمن تقوده الغريـزة لـيس حـرا. وتتطلب الحرية رؤية الاختيارات الممكنة فيستطيع الفاعـل الاجتماعي أن يقتطف منها ما يشاء بما فيها تلك التي لا تبدو بضغط الاتجاه أو العقائد الشائعة أمرا بديهيا.

والكاتب والعالم الذي لا يفعل ذلك لا يتخلى عن واجبـه فحسب، بل هو كائن فائض عن الحاجة ولا لزوم له في أقل تقدير وخائن للأمانة في أسوأ صورها. فعندما يتحـول الـى التصفيق لا يضيف سوى واحـد الـى جمـوع كثيـرة أو "أغلبيات". فلا تكون هذه الاضافه كنزا ثمينا أو مكسبا نادرا ويكون قد حرم هذه الجموع من الكنز الثمـين أو المكسـب النادر وهو المعرفة. أما الضرر الذي يحدثه مثل هذا الكاتب أو العالم الذي ينضم للجموع مصفقا وهاتفا بما تصرخ بـه، فهو خديعة الناس ومن ثم خيانة الأمانة. فالشعوب تنفق على علمائها وكتابها من أجل تخصيصهم في إنتاج معرفة مفيـدة وليس من أجل صنع "هتيفة" إضافيين.

الرأى العام :

أما أن الرأي الغالب فيما يتعلق بالعراق يؤيـد ويحتفـل بأعمال العنف التي تحدث في العراق وكأنها مقاومة، فـأمر يستشعره كل من يشتغل بمهنة الرأى العام. ولدينا كذلك آخر استطلاعات للرأي العام فيما يتعلق بموضوعات عديدة منهـا ما يحدث في العراق. وقد أجرت هذا الاسـتطلاع مؤسسـة "بيو" للبحث والاستطلاع الأمريكية بالمشاركة مـع صـحيفة "هيرالد تريبيون". وأجرته في عدد كبير من الدول منها أربع دول إسلامية متنوعة هي المغرب والأردن وباكستان وتركيا.

ويلحظ الباحث المدقق أن الاستطلاع ساعد على إنتاج تحيز بعينه فيما يتعلق بالرأي فيما يجرى لأنه خلط – ربمـا عمـدا ولأهداف سياسية أمريكية داخلية- بين الاتجاه نحو الولايـات المتحدة وما يحدث فى العراق. فأجابت أغلبية مـن الجمهـور المستطلع في الدول الإسلامية الأربع بأن "الأعمال الانتحارية" ضد الأمريكيين في العراق والغربيين الآخرين فـي العـراق مبررة. ولم يسأل الاستطلاع عن رأى النـاس فـي "مجمـل الأعمال العنيفة" التي تجرى في العـراق. وقـد دفعـت هـذه الصياغة الناس الى تأييد ما قد لا يؤيدونه بالضـرورة بسـبب موقفهم المشروع الرافض للعدوان الأمريكـى علـى العـراق والشعب الفلسطيني. وهنا تشارك الشعوب الأوربيـة شـعوبنا العربية والإسلامية في رفض السياسات الأمريكية وفى النظرة السلبية المتزايدة للولايات المتحدة ذاتها. فانهار مستوى النظرة الإيجابية للولايات المتحدة في بريطانيا من ٧٠% فـي مـايو الماضي الى ٥٨% في مارس الحالي. وانهار من ٤٣% الـى ٣٨% في فرنسا ومن ٤٥% الى ٣٨% في ألمانيا خلال نفس الفترة. ولا شك أن هذه الأرقام تفضح النتائج الفعلية للسياسـة الأمريكية الظالمة ولكنها لا تتعلق بأمريكا كمجتمع وبشر. ومع ذلك يظل الخلط بين هذا وذالك قائما ببب سوء الصياغة.

ويستشعر المشتغل بالرأي العام أن ثمة رأياً غالباً يؤيـد العنف الراهن في العراق من مقالات الرأى فـى الصـحافة العربية وخاصة الأكثر حرية وتعبيرا عن الأجيـال الشـابة وهى "الصحافة الاليكترونية" ومن أراء الناس فـى بـرامج الحوار التى تجرى فى الفضـائيات العربيـة ومـن الآراء الشائعة في الندوات والمؤتمرات التي تعقد في أنحاء العـالم العربي باستثناء العراق. وبكـل أسـف، فثمـة قليـل مـن استطلاعات الرأي التي تجرى في العـالم العربـي بسـبب موقف الحكومات السلبي من فكرة إجراء استطلاعات شفافة تعلن نتائجها وتعرضها للمناقشة المفتوحة بغض النظر عمـا تنتهى اليه.

مجازر بشرية أم مقاومة؟ :

ثمة خلط أخر - يعمق التحيز اللغوي ومن ثم الخلط فـى الموقف الفكرى حول ما يجرى في العراق ونراه واضحا في الاستطلاعات - بين الرأي في السياسات الأمريكية والـرأى فى الولايات المتحدة كدولـة ومجتمـع. ويسـتخدم اليمـين الأمريكي نتائج الاستطلاعات السلبية فيما يتعلق بما هو فـي الحقيقة رأى في السياسات الأمريكية لكي يقول للأمـريكيين

العاديين "ان الشعوب الأخرى تكرهنا" وهو يسرع لتفسير هذه الكراهية بما لديه من رسالة تقول بـأنهم يكرهوننـا لأننـا ناجحون وأغنياء وأحرار. وأن النظم الديكتاتورية هي التـي تصطنع هذه الكراهية في العالمين العربي والإسلامي. وبذلك ينجحون في تأليب الشعب الأمريكي ضد الشعوب الأخـرى وخاصة الإسلامية وفى دفع قطاع كبيـر مـن المـواطنين الأمريكيين لتأييد السياسـات العدوانيـة لـلإدارة اليمينيـة الأمريكية المتطرفة بقيادة بوش أو بالأحرى تشينى.

ثم أن هناك خلطا آخر بين الرأي في السياسـات الأمريكيـة عموما والنظام الاحتلالى في العراق. ويقود هـذا الخلـط بـين التعبير المشروع والسليم عن رفض الاحتلال والحق في مقاومته من ناحية وتأييد أعمال العنف في العراق من ناحية أخرى.

وربما تكون الملحوظة الأولى فيما يتعلق بالرأي حول ما يدور في العراق هو الاعتقاد الشائع بـأن أغلـب الأعمـال العنيفة- انتحارية كانت أم نحرية- تصيب جنود الاحـتلال الأمريكيين أو البريطانيين والايطاليين وغيرهم. والواقـع أن الغالبية الساحقة من أعمال العنف في العراق قـد صـممت ونفذت لإحداث أكبر قدر من القتل بين العراقيين ولتخريـب

منشآت عراقية. وسقط نتيجة هذه الأعمال من العراقيين عدة أضعاف من سقطوا من جنـود الاحـتلال. واتخـذت هـذه الأعمال شكل المجازر الجماعية التي وقع ضحيتها عراقيون. ولم يتورع من يقوموا بهذه الأعمال عن اسـتهداف مسـاجد تتمتع بالقداسة الدينية وهيبة التاريخ. ولم يتورع من يقومـوا بهذه الأعمال عن استهداف المواطنين العـراقيين بمختلـف طوائفهم وأعراقهم أثناء المآتم والأفراح والاحتفالات الدينيـة أو حتى أثناء قيادة سياراتهم أو النوم فى بيوتهم. كما اتجهت غالبية أعمال التفجير الى تخريب المرافق والمنشآت المدنيـة التي تحافظ على حياة العراقيين بالكاد وهم بنوها بجهد جهيد خلال قرن من التحديث.

ولا يعرف غالبية العرب مـن الكتـاب والمـواطنين أن الغالبية الساحقة من العراقيين يدينون هذه الأعمـال. وأنهـم لغرابة وشذوذ أكثرها لا يصدقون أن يرتكبها عربى أو مسلم ويعزونها الى المخابرات الإسرائيلية أو الأمريكية. وبـديهي أنه لا يمكن تصنيف مثل هذه الأعمال باعتبارهـا مقاومـة. فنسبها من جانب العقل الشعبي الى هذه الجهات يعنى أنهـا أعمال اجرامية لا شأن لها بالمقاومة كتعبير نبيل عن نضال الشعوب ضد الاحتلال وطلبا لنيل الحرية.

وتبرر مثل هذه الأعمال الإجرامية بالقول بأن العـراقيين المستهدفين "عملاء للاحتلال"! ويقول الواقع غير ذلـك لأن الغالبية الساحقة من ضحايا أعمال التفجير التي تسمى مقاومة هم من المواطنين العاديين، اضافة الى شخصيات تاريخية لا يمكن بأى حال وصفها بالعمالة للاحتلال مثل السـيد بـاقر الحكيم الذى يحمل سجلا تاريخيا وسياسيا مشهودا، فضلا عن قيمته الفكرية والأخلاقية والمعنوية بين الشـيعة العـراقيين والعرب العـراقيين عمومـا أو منظمـات الأمـم المتحـدة والمنظمات الانسانية الأخرى مثل الصليب الأحمر والعمـل الدولية والأطفال..الخ

ويستند هذا التبرير للأعمال الإجرامية التـي اسـتهدفت المواطنين العراقيين والشخصيات التاريخيـة علـى الخلـط المتعمد بين الاستراتيجية التى تتبناها النخبة العراقية الجديدة من ناحية وبين مقولة "العمالة" للأمريكية من ناحية أخـرى. وبالتالي يتحول خلاف حول أنسب الاستراتيجيات للتحرر من الاحتلال وبناء دولة ومجتمع عراقي جديداً زورا وبهتانا الى "عمالة" للأمريكيين. فغالبية أعضاء مجلس الحكم الانتقـالي من العرب ليسوا من طراز أحمد جلبي بل شخصـيات لهـا

تاريخ طويل من النضال والرفض للسياسة الأمريكيـة. ولا يمكن مطلقا وصف أو تبرير اغتيال مناضل سياسـي مثـل السيد باقر الحكيم بأنه عميل لأمريكا!

وتعانى هذه المسألة من خلط وعدم فهم أشد بين الكتـاب والشعوب العربية خارج العراق. يشـعر الشـعب العراقـي بمهانة شديدة تجاه الاحتلال الأمريكي وهـو يـرفض هـذا الاحتلال بأغلبية كبيرة وفقا للاستطلاعات الأمريكيـة التـى جرت حتى الآن. غير أن هذا الغزو الأمريكي أنشأ وضـعا جديدا قد يؤدى الى حرب أهلية ودفع العراق أو وضعه فـي مصيدة عدم استقرار دائم وثبات مظاهر العنف التـي تـدمر حياة المواطنين وتفترسهم. وثمة أغلبية كبيرة أيضا تقول بأن الأجدر بالعراقيين أن يجربوا النضال السلمي من أجل ضمان الاستقلال وإعادة بناء الدولة والمجتمع. ومـن هنـا تنبثـق استراتيجية للتحرر من الاحتلال وظلال نظام صدام حسـين تضع الأولوية على قضية إعادة بناء الدولة وتنظيم الشـعب في أحزاب وجمعيات ونقابات ومنابر للرأى واعـادة بنـاء الادارة المدنية والسياسية وتأمين حق العراقيين من مختلـف الاتجاهات الفكرية فى طرح أرائهم بحرية والتفاعل بين هذه

الأفكار وصولا الى أسلم الطرق لاعادة بناء دولتهم. فإعـادة بناء مجتمع دمره الاستبداد لفترة طويلة يضمن تنظيم طاقات الشعب كله للنضال من أجل الاستقلال بوسائل عسـكرية إذا ما رفض الأمريكيون الانسحاب بدلا مـن الاعتمـاد علـى عصابات من المغامرين الذين أذاقوا هذا الشعب ويلات نظام صدام حسين. ولا يمكن إنجاز مهمة إعادة تنظـيم الشـعب سياسيا بدون إعادة الإدارة المدنية واستعادة الحياة الطبيعيـة ووضع دستور جديد يحمى الحريات العامـة وإعـادة بنـاء الاقتصاد.

ومن هنا تنظر غالبية العراقيين للمجازر البشـرية التـي تديرها تنظيمات عديدة باعتبارها تعويقا لهذه الاسـتراتيجية وتقويضا للإمكانية الحقيقية لتحرر العراق مـن الاحـتلال. ويرى أغلب العراقيين أيضا أن استمرار تلك العمليات العنيفة يؤدى في الواقع الى دفع العراق للحـرب الأهليـة. ولـذلك يخشى قطاع كبير من العراقيين حتى من انسـحاب سـريع للقوات الأمريكية قبل استكمال بناء الجيش والبوليس الجديـد لأن ذلك قد يزج بالعراق الى أتون الحرب الأهلية، وقد يعيد نظاما مشابها لصدام حسين أو أسوأ منه. ولذلك يعتقدون أن

تلك العمليات هي من تـدبير مجموعـات عربيـة تنتمـي للتنظيمات الإسلامية المتطرفة التي تريد استنزاف الأمريكيين على حساب العراق أو من الموالين للنظـام القـديم الـذين يريدون استعادة امتيازاتهم السياسية والاقتصادية على حساب دم وحقوق الشعب العراقى بجميع أطيافـه أو مـن عمـلاء المخابرات الأمريكية والإسرائيلية الـذين يسـتهدفون قطـع الطريق على عملية بناء عراق موحـداً وتعطيـل اسـتقلال العراق وسحب القوات الأمريكية من أرضه. ومن هنا يقـع التمييز بين الحق في المقاومة المسلحة المشروعة لاحـتلال وهو أحد مبادئ القانون الدولي من ناحية وممارسة هذا الحق فى هذا التوقيت من ناحية أخرى. ذلك أن تعقيدات الموقـف الذى ترتب على انهيار نظام استبدادى وحشى تفرض هـذا التمييز على أن تبدأ ممارسة هذا الحق ما أن تستكمل عملية بناء نظام ديموقراطي جديد للمجتمع والدولة وما أن يـرفض الأمريكيون الانسحاب من العراق.

أى مستقبل وأى وعد؟ :

ومن الناحية الموضوعية يصعب النظر الـى المسـئولين عن العنف الذي يجرى في العراق أو أكثره الذي يتوجه لقتل المدنيين من العراقيين والأجانب والمرافق المدنية باعتبارهم مقاومين لأسباب عديدة. أول هذه الأسباب أن أكثر المسئولين عن هذه الأعمال وهم من التنظيمـات الجهاديـة المتطرفـة ورجال الحكم السابق لا يريدون تحرير الشعب العراقي وإنما إخضاعه لنظام أكثر وحشية واستبدادا من النظـام السـابق. وإذا كان هؤلاء قد ركزوا علـى تـدبير مـذابح جماعيـة للعراقيين باسم أنهم متعاونون مع الاحـتلال وهـم خـارج السلطة، فماذا يفعلون وهم في قمة السلطة؟ ومن ناحية ثانية فالمقاومة ظاهرة وطنية لها مبادئ وأفكار وبرامج عمل. ولم يصدر سوى عن تنظيمات صـغيرة للغايـة وطنيـة فعـلا ومتجاوزة لنظام صدام حسين أية إعلانات أو برامج أو أفكار تعد الشعب العراقي بالحرية أو التقـدم. ويبقـى أن الوعـد الوحيد الذي يقدمونه للشعب العراقي هو القتل الجماعي. وقد عانى الشعب العراقي طوال تاريخه من هذه المجازر البشرية ولا يريد المزيد.

والآن لنجب على السؤال بكل وضوح. نعم ثمة جماعات صغيرة من المقاومين الذين يرومون الحرية للشعب. ولكـن أغلب من يقوم بالعنف ضد الشعب هم من القتلة المحترفين.

(٣٩)

هل يبقى الأمريكيون في العراق؟

نسب الى سيرجيو دو ميلو رئيس بعثة الأمم المتحدة في العراق قبل اغتياله بعمل إجرامي مريع تأكيده أن على الأمريكيين أن يغيروا من منهجهم في التعامل مع العراق والعراقيين وإلا ستكون الفوضى كاملة.

وتتفق هذه النصيحة مع ما خلصت إليه بعثة الخبراء المستقلين التي أرسلها البنتاجون لوضع توصيات بخصوص السياسة التي يجب اتباعها. أكد الخبراء الأمريكيون نفس الاستنتاج الذي قال به دو ميلو بأن العراق سيتجه الى كارثة إن لم يتم تغيير المنظور الذي تتبعه الإدارة الأمريكية للعراق.

وقدم فريق الخبراء الأمريكيين حجتين أساسيتين للتغيير المنشود. الأول هو أن إعادة تعمير العراق وهو شرط ضروري لضمان رضا العراقيين عن أبسط مقتضيات حياتهم اليومية يحتاج الى موارد مالية تصل الى عشرات المليارات بينما لم ترصد الإدارة الأمريكية لعملية إعادة التعمير سوى

سبعة مليارات فقط. والثاني أن القوات الأمريكية هناك غيـر كافية حيث يرابط أقل من ١٥٠ ألف جندي لتأمين بلـد فـي حجم كاليفورنيا. واقترح هذا الفريق أن يتمثل المنظور الجديد في نقل الإشراف الى العراق الى هيئة الأمم المتحـدة حتـى يمكن ضمان تعبئة الدعم العسكري والاقتصادي الضـروري لتغطية الاحتياجات الأمنية والاقتصادية لإعادة بنـاء الدولـة العراقية وتأمين استقرارها.

الفشل الراهن :

لقد كان هذا هو المعنى الذي كـرره الساسـة والخبـراء العقلانيون في داخل الولايات المتحدة وأوربا الغربية وأيضا في مختلف المنظمات الدولية. بل وبـدا لفتـرة وجيـزة أن الإدارة الأمريكية ذاتها تتعامل مع هذا التغيير بجدية وأنها في سبيلها للأخذ بسيناريو الأمم المتحدة كبديل لسلطة الاحـتلال التي تمارسها في العراق. ومن الواضح أن المناظرات داخل الإدارة انتهت الى هزيمة هذا الاقتراح والعودة الى سـيناريو توسيع ما أسماه الرئيس بوش بتحالف الـراغبين. وتضـغط الإدارة على نحو ١٤ دولة إضافية لإرسال قـوات وتقـديم الدعم المادي لنظام الاحتلال. وأكدت مصـادر الإدارة أنهـا

ليست مستعدة لقبول "تمييع" السيطرة العسـكرية والسياسـية التي تتمتع بها بصورة شبه منفردة لحساب الأخذ بسـيناريو الأمم المتحدة. وفى نفس الوقت فقد أشارت تلك المصادر الى رضاها عن مستوى القوات الحالي في العراق والقول بأنـه كاف للغرض على عكس ما انتهى إليه الخبراء الأمريكيـون المستقلون وأغلبهم لـه خبـرة ودرايـة طويلـة بالشـئون الاستراتيجية.

ان معنى ذلك كله هو أن الإدارة الأمريكية لن تتمكن من إدخال عناصر جديدة تغير بصورة مهمة طبيعـة المعضـلة التي تواجهها في العراق. فمن المشكوك فيه أن ترغـب دول أخرى كبيرة في إرسال قوات عالية المستوى الى العراق في الظروف الحالية. وعلى أية حال فان الدول التـي تسـتطيع تمويل وتقديم التغطية أو التبرير السياسي الـداخلي لعمليـة إرسال قوات تقوم بمهام قتالية في الأوضاع الصعبة هنـاك هي الدول الكبيرة في أوربا الغربية مثل بريطانيا وفرنسا وقد أعلنت هذه الدول أنها لن تقوم بذلك إلا وفقا لسـيناريو دور سياسي كبير للأمم المتحدة. بل أن اليابان التـي كانـت قـد اتخذت قرارا بإرسال قوات رمزية لتقوم بمهام طبية قد أجلت

إرسالها وهو ما يعد تأكيدا للقلـق مـن الأوضـاع الحاليـة وللحاجة الى إعادة تقدير الموقف الـذي لا يبشـر بـالخير للوجود الأمريكي أو لسيناريو القوات متعددة الجنسيات الذي تصر الإدارة الأمريكية على انتهاجه.

فإذا لم يكن هناك عنصر جديد في التوجهات الأمريكيـة كيف يمكن لها حل المعضلة التي تواجهها في العراق؟ وهل يمكن للولايات المتحدة أن تبقى هناك فترة طويلة وأن تنجح في تحقيق أهدافها من احتلال العراق؟.

دورة البطش والمقاومة :

يتوقف الأمر الى حد بعيد على تحليلنا لطبيعة المعضـلة التي تواجه تلك الإدارة. فهذا وحده يمكننا من التنبؤ بإمكانية تغيير المدخل والتوجهات الأمريكية الراهنة في العراق.

والواقع أن تقرير الخبراء الأمريكيين المسـتقلين اقتـرب كثيرا من الإمساك بالمعطيات الجوهرية للمعضلة العراقيـة. فقد أشار الى سوء معاملة العراقيين على يد القوات الأمريكية وخاصة أثناء التفتيش عن الأسلحة والمقاتلين. ولكن سيرجيو دو ميلو وضعها في التصريح المنسوب إليـه قبـل اغتيالـه

بصورة أدق كثيرا. لقد أشار الى تجاهل الأمريكيين للتقاليـد والأعراف العراقية. ولكن الأهم أنـه أشـار الـى التواجـد الأمريكي ذاته باعتباره احتلالا يهين العـراقيين ويسـتحيل عليهم قبوله.

وبتعبير أخر، فالمعضلة العراقية بالنسبة للأمـريكيين لا تتجلى في تصرفات حمقاء بعينها في التعامل مـع العـراق والعراقيين. ويبالغ البعض في تأكيد قيمة هذا الجانب علـى حساب القضية الأعمق. فالبريطانيون مثلا معروفون بخبرتهم الاستعمارية الأرقى والأعمق والأكثر حكمـة بكثيـر مـن الأمريكيين. وكان الكثيرون في الولايـات المتحـدة نفسـها يرفضون فكرة غزو العراق بالإشارة الى حقيقة أن أمريكـا ليس لها باع يذكر فيما يسمى بناء الأمـة: أي إدارة الدولـة التي يتم غزوها. وبالفعل فالمتفق عليه أن البريطانيين حققوا أداء أفضل ولو قليلا في إدارة البصرة بالمقارنـة بـالإدارة الأمريكية للعاصمة بغداد.

ولكن القوات البريطانية تواجه في البصرة وفى الجنـوب عموما نفس المعضلة. فالقضية ليست في حسـن أو سـوء الإدارة وليست في مجرد حماقة في تصرفات يومية بعينهـا وإنما هي كامنة في الموقف الاستعماري ذاته. فهذا الموقـف هو الذي ينتج حمق التصـرف مـع الشـعوب المسـتعمرة بالضرورة. يكفى أن تنبثق أية صورة من صـور المقاومـة العسكرية مثلما يحدث منذ نهاية الشهر الأول للغزو حتى تبدأ الدورة الكلاسيكية للقمع وتوسع المقاومة. فالبطش بالمقاومـة عادة ما ينطوي على بطش اكبر بالمدنيين وهو ما يضـاعف كراهية الاحتلال ويدفع عددا متزايدا مـنهم لرفـع السـلاح وهكذا تتضخم المقاومة العسكرية فيزداد البطش وهكذا.

والواقع أن الموقف الاستعماري الذي نشأ فـي العـراق ينتمي في طبيعته الى العصور الوسطى بأكثر مما ينتمي الى نمط الاستعمار الحديث. فالأخير عادة ما يستخدم نفس دولاب الدولة القديم بعد استحداث التعديلات الضرورية عليه. أمـا الاستعمار الأمريكي للعراق فقد صرف دولاب الدولة السابق كلية وبدأ بتسريح الجيش وقوات البوليس العراقي دون سبب مفهوم غير الغطرسة التي دفعت الإدارة الأمريكية للاعتقـاد

أن بإمكانها بناء دولة جديدة من الفراغ. وبالتـالي لـم تبـدأ المقاومة من جانب مناضلين عقائديين بل من بقايـا النظـام القديم. ومن النادر أن نجد نظاما استعماريا يبدأ بارتكاب هذا القدر من الأخطاء مثلما فعـل الاسـتعمار الأمريكـي فـي العراق. وبسبب هذه الأخطاء بدد الأمريكيون أهم العوامـل التي كان من شأنها أن تساعدهم على سرعة استيعاب العراق وتأمينه في وجه المقاومة العسكرية وهو الكراهيـة العميقـة التي يكنها العراقيون من جميع الأقسام لنظام صدام حسـين. ويضاف الى ذلك أن القوات الأمريكية لم تكن مستعدة كما أو نوعا للقيام بمهام الشرطة. وبدأت صورة الاحتلال تهتز منذ اليوم الأول عندما تم نهب العراق تراثـا وحاضـرا، وأدت صدمة الاحتلال الى الفوضى وليس الترويع.

وهنا لابد من القول بأن المقاومة العسكرية ذاتها لا تزال تحمل نفس طابع القرون الوسطى. والموقـف كلـه يحمـل بصمات العصور الوسطى بأكثر مما يحمل علامات العصر الحديث. فنظام الرئيس السابق صدام حسـين نفسـه ينتمـي موضوعيا الى العصور الوسطى وكـان قـد رد المجتمـع العراقي الى هذه العصور بالفعل. واستكمل القصف الجـوى

المستدام الذي قام به التحالف الأنجلو أمريكي المهمـة بـرد البنية الأساسية للعراق الى مستوى العصور الوسطى. ولأن الاحتلال استهدف إسقاط كل نظام الدولة لا النظام السياسـي فحسب فقد حرم العراق خلال الشهور التالية للاحتلال مـن أي تنظيم إداري يمكنه تدبير شئون الحياة الحديثـة. وهكـذا وجد الجميع نفسه وسط فوضى كاملة.

ومثلت الفوضى ظرفا مثاليا لبدء المقاومة المسلحة مبكرة بالمقارنة بحالات الاستعمار الحديث الأخرى. كمـا مثلـت ظرفا مثاليا لتدفق أعداد كبيرة من الجهاديين العرب وخاصة من العناصر التي تستلهم مبادئ تنظيم القاعدة أو ترتبط بهـا على نحو أو آخر. ولا يمثل عدد المشاركين فـى المقاومـة المسلحة تهديدا كبيرا للوجود العسكري الأمريكي. إذ تقـدر المصادر الأمريكية هذا العدد بنحو ٧٠٠٠ مـن العـراقيين وبضع مئات من الجهاديين غير العراقيين. ولم تقـدم تلـك المقاومة رؤية عقدية تنتمي للعالم الحديث أو تستطيع إبهـار العراقيين من مختلف القوميات والطوائف- كما ظهـر مـن العملية الإجرامية ضد الأمم المتحدة. ومع ذلك فهي ظـاهرة قابلة للتطور.

والواقع أن أخطاء الإدارة الأمريكية لم تتوقف عند هـذا الحد. إذ يبدو أن لديها عبقرية خاصة في مضاعفة الكراهيـة لها في العراق. فالتلاعب بالشأن الطائفي أدى الـى تأليـب القبائل السنية ضدها بسبب شعورها بأن الصـيغة السياسـية الجديدة سوف تحيلها الى الهامش بعد أن لعبـت دور القلـب منذ نشأة الدولة العراقية الحديثة وذلك، دون أن تـنجح فـي كسب ود الشيعة العراقيين بالرغم من منحهم أغلبية سـاحقة في مجلس الحكم الانتقالي. بل أن الإدارة الأمريكيـة بـدأت تخسر الثقة الكاملة التي كانت تتمتع بها وسط الأكراد أيضا. وحيث أن الإدارة الأمريكية قامت باحتلال العراق بالرغم من الإدانة العالمية وهى متهمة بقوة بأن هدفها هو السيطرة على النفط العراقي وحيث أنها لم تعلن حتى الآن عن أي نوع من الجداول الزمنية لسحب قواتها وإنهاء احتلالها للعراق فـان الكثيرين ممن كانوا على استعداد لتحمـل مرحلـة انتقاليـة صعبة من أجل نظام وطني جديد وأفضل قد بدأوا يحتضنون أو يشاركون في المقاومة.

اختياران :

فماذا سيفعل الأمريكيون لمواجهة هذا الموقف؟ :

أمام الإدارة الأمريكية في العراق أحد اختيارين.

الأول هو تحويل الصراع الى عراقي- عراقي وهو أمر مشابه لما قاموا به في فيتنام (أي الفتمنة). وهم يشيرون الى توسعهم في منح سلطات إدارية وبوليسية لعراقيين دون تغيير الصيغة السياسية الاستعمارية بصورة جوهرية. وهم يتوسعون الآن في تشكيل قوات شرطة وجيش عراقي جديد وفى منح صلاحيات إدارية للمجلس الانتقالي. وتأمل الإدارة الأمريكية أن تؤدى جهود إعادة الاعمار وتعزيز هذه الجهود وتسريعها الى سحب البساط من تحت أقدام حركة المقاومة وصولا الى تمكين قوات عراقية تابعة من مواجهة المقاومة المسلحة وهو أمر قد تقوم به هذه القوات بحماس إذا تزايد وزن العنصر غير العراقي في أعمال المقاومة المسلحة في العراق.

ولكن هذا السيناريو يواجه صعوبات جمة. إذ لا تحظـى تلك الصيغة السياسية بتأييد كبير داخـل العـراق باسـتثناء الأكراد. ويكاد يستحيل علـى تركيبـة سياسـية لا تحظـى بالشرعية أن تنتصر على مقاومة مسلحة ذات بعـد عقيـدى متزايد.

أما الاختيار الثاني فهو وضع جدول زمني سريع نسـبيا لنقل العراق الى وضع سياسي دستوري دائم تمهيدا لسـحب القوات الأمريكية والأجنبية عموما. وهذا السيناريو يختلـف من حيث الصيغة السياسية وقد ينجح في حشد تأييـد قطـاع كبير من العراقيين وخاصة لو أمكن وضع نظام دسـتوري يحقق الديموقراطية والتوازن السياسي والطـائفي والقـومي داخل العراق. ومع ذلك فسوف يظل النظام الجديد هشا فـي العراق من الناحية الأمنية.

والواقع أنه ليس هناك ما ينبئ بـأن الإدارة الأمريكيـة ستأخذ بالاختيار الثاني. ولكنها قد تجد نفسها مضطرة للأخذ به كحل وحيد للمعضلة التي تواجههـا فـي العـراق وفـى الساحتين الأمريكية والعالمية. فتلـك الإدارة رفضـت نقـل الإشراف على العراق الى الأمم المتحدة أثناء سباق الرئاسـة الأمريكية خشية أن يعد ذلك اعترافا بفشل الاحتلال والحمق الكامن في قرار الغزو نفسه. ولكن من الممكن نظريا لتلـك الإدارة أنه تقوم بنفس ما هو مـأمول أن تقـوم بـه الأمـم المتحدة: أي تسر يع برنامج الانتقال الى نظام دستوري جديد ودائم ومن ثم الانسحاب. وقد يسمى هذا الاختيار "الانسحاب بشرف" ولكنه يعنى الفشل دون الاعتراف به. فلم تعد هنـاك إمكانية لنجاح فكرة الاستعمار في هذا العصر.

(٤٠) مجلس انتقالى؟
وما علاقة الأمم المتحدة بالأمر؟

من الواضح أن تفكير مجلس الأمن قد إصابه شىء كثيـر من التشوش ربما بسبب الصـيف القـائظ فـى نيويـورك. فالترحيب الذى أبداه فى قراره الأخير بمجلس الحكم الانتقالى العراقى يبدو أمرا لا معنى له. لقد كانت لدى الدول المعارضة للغزو وللانفراد الأمريكى بالعراق بعـض الشـجاعة عنـدما عارضت الصياغة التى تقدمت بها الولايات المتحـدة والتـى كانت تستخدم كلمة "يصادق على" واستبدلتها بكلمة "يرحب".

وعلينا أن نجتهد فى علوم اللغة لنعرف دلالة الفـارق بـين "الترحيب" و"التصديق". فالانطباع الشائع بـين النـاس الـذين يتحدثون بحسن نيه هو أن الترحيـب ينطـوى ضـمنا علـى التصديق. ويتوقع الناس أن العاقل لا يرحب بشىء لا يصـدق عليه أو يصدقه أو يصادقه. وان كان من الممكن أن يتمنع عاقل عن الترحيب بشىء يحبه ويرغبه. والتفسير المعـروف فـى الثقافات الشرقية للتمنع فى هذه الحالة هو الدماثة والأدب. فاذا عرض عليك أحد أن يشترى لك "آيس كريم" كنوع من الكـرم فانت تتمنع أولا حتى لو كنت تذوب شوقا لهذا النوع من اللذائذ.

أما العكس: أى الترحيب بشىء لا تراه جديرا بالموافقة أو المظاهرة أو التصديق- وخاصة لو كانت له ميوعة الآيـس كريم بدون كعكة- فله تفسير واحد فى كل الثقافات وهو أنك تفعل ذلك لكى تغسل يديك من الفشل الذى تتوقعه. وعندئـذ تستطيع أن تشمت بحرية ودون شعور بالذنب. انك فى هـذه الحالة تقول "حسنا. سنعطى الأمريكيين هذه الفرصة ايضـا ولكن دون أن نشاركهم المسئولية عن هذه الحماقات حتى لا يتحججوا بأن معارضتنا كانت هى سبب الفشل".

وهكذا تستطيع أن ترى كيف تدار الأمور فـى مجلـس الأمن. فاللغة تعلب دورا كبيرا حيث يتبارى المندوبون فـى اظهار مواهبهم اللغوية باعتبارهم لا علماء لغـات فحسـب وانما ثعالب حقيقية. ولكن مهما كان مستوى الاعجاب بالذكاء الذى يتمتع به هؤلاء الدبلوماسيون فلا تملك سوى الشـعور بأنهم يهدرون ذكاءهم هذا فيما لا طائل من ورائه. وهنـاك تفسير واحد فقط لممارسة أناس على هذا القدر مـن الـذكاء لتقنيات تضييع الوقت وهو أنه ليس لديهم عملاً آخر!

وهذه هى الحقيقة على أي حال. فقد كان مجلس الأمن – أو بالأحرى القوى المعارضة للانفرادية الأمريكيـة عمومـا وفى العراق خصوصا- ينتظر أن تتقدم الولايـات المتحـدة بمشروع قرار يمنح الأمم المتحدة دورا كبيرا فـى العـراق على الصعيدين الأمنى والسياسى. وكان هذا هو الشرط الذى قدمته الدول المعارضة وايضا كثير من الدول التى طالبهـا الأمريكيون بارسال قوات الى العراق والمساعدة فى امدادات الاغاثة. وبدا لبعض الوقت أن الادارة الأمريكية تفكر جـديا فى هذا السيناريو وخاصة بعد صدور تقرير لجنة الخبـراء المستقلين التى أرسلها البنتاجون لتقييم الأوضاع فى العـراق على الطبيعة. وقال هذا التقرير أن تلك الأوضاع تتجه الـى كارثة إن لم تغير الولايات المتحدة اسلوب ادارتهـا للعـراق سواء فى المجال الأمنى- السياسى أو فيما يتعلـق بالقضـية الأكثر تفجرا على المستوى الشعبى وهى اعادة الحياة الـى طبيعتها من خلال إعادة الإعمار. واقترح الخبـراء –لأنهـم مستقلون- منح الأمم المتحدة دورا كبيرا فى المجالين.

وهنا قفز رامسفلد الثعلب الصغير ومن ورائـه وولفيتـز الثعلب الكبير ليقول لا..لا للأمم المتحدة. فـالأمم المتفرقـة أفضل لنا. ومن الواضح أن هذا المنطق قـد راق الـرئيس الأمريكى كثيرا. فتمكين الأمم المتحدة مـن أن تلعـب دورا أساسيا فى ادارة الانتقال فى العراق يعنى فى الجوهر التسليم بعدم صواب قرار الغزو وبفشل ادارته الواضـح فـى ادارة العراق وسلامة منطق فرنسا وألمانيا حول الموضـوع مـن البداية للنهاية. كما أنه كان هناك اعتبار آخر. فقيـام الأمـم المتحدة بدور أساسى على المستويين الأمنى والسياسى يقيـد آلة الحرب الأمريكية فى ملاحقة المقاومة. ولا تزال الادارة الأمريكية راغبة فى القيام بمزيد من أعمال العنف فى العراق ربما لتفريغ شحنة العدوانية التى ملأت شرايينها المنتفخة من كثرة الغرور والغطرسة. أما من الناحية الحسابية فان دخول الأمم المتحدة طرفا أساسيا فى ادارة الأوضاع الانتقالية فـى العراق يتم فى العادة وفقا لجدول زمنى وهو ما يعنى تحديـد فترة زمنية تنتهى بعدها الحاجة للقوات الأمريكيـة ويكـون عليها أن تحمل عصاها وترحل! وهذا هو ما لا تريده الادارة الأمريكية.

وفيما وراء هذا كله فوراء الموضوع كله اختلاف عميـق فى التقدير وهو ما يتسق مع التفسير الذى قـدمناه لموقـف المعارضة فى مجلس الأمـن والتـى اسـتبدلت التصـديق بالترحيب بالمجلس الانتقالى. فغالبية الحكماء فى العالم كلـه وفى الولايات المتحدة ذاتها ترى أن الولايات المتحدة مقبلـة على فضيحة سياسية بكل المقاييس. إذ فشلت حتى الآن فـى ادارة العراق وفشلت فى اقناع الشعب العراقى بأنها جـاءت لتحريره وفشلت فى مجرد المحافظة على الأمن وفشلت فـى قمع وانهاء المقاومة العسكرية وفشلت أيضا فـى الحصـول على "ود العراقيين" بسبب عجرفتها ولجوء قواتها الى العنف الزائد. وترى كل العناصر الحكيمة أن هذا الفشل يعود الـى أن الولايات المتحدة ليست لديها المعرفة والخبرة والخصـال الضرورية لبناء نظام استعمارى ذكى فى العراق أو فـى أى مكان آخر. ولذلك فان هذا الفشل ليس صدفة ولكنه سـيتفاقم مع الوقت.

فى مواجهة هذا التحليل يرى ثعالب الادارة أن من المبكر جدا الاعتراف بالحقيقة. لا لانهم ليسوا على استعداد للتسـليم بالفشل فحسب..فلديهم طرق عديدة منصـوص عليهـا فـى أدبياتهم تقول: أن فشلت لا بأس اذهب الى موقـع آخـر أو ببساطة غير الموضوع. فالسبب فى عدم استعدادهم للتسـليم بالفشل هو بدء سباق الرئاسة. فاذا ذهبوا الى الأمم المتحـدة سيكون من السهل على منافسى الرئيس الأمريكى اصـطياده فى ملف العراق كله ليس بناء على تقديرات أو آراء وانمـا على مظاهر الفشل الفعلى والاعتراف الضمنى به.

وهكذا، وبدلا من الذهاب للأمم المتحدة بمشـروع قـرار ينص على منح المنظمة الدولية سـلطات اشـرافية حقيقيـة اكتفوا بدعوتها "للتصديق"! واضطروا لاحقا لقبول التنـازل عن التصديق اذ يكفيهم الترحيب وزيادة. وبذلك صار مندوبو الدول الأعضاء بدون عمل حقيقى وهو ما يفـرض علـيهم ازجاء الوقت فيما لا طائل من ورائه.

فبماذا يرحب مجلس الأمن؟ ومـا هـى حسـابات هـذا الترحيب؟

مجلس الحكم الانتقالى هو هيئة استشارية موسعة كونها الأمريكيون – فى يوليو الماضى- بصورة جزافية من "شخصيات قيادية" جاء أغلبها من خارج العراق سواء للاشراف على الوزارات أو لوضع مشروع دستور جديد للعراق. وأثار هذا التكوين للمجلس الاستشارى معارضة واسعة داخل العراق أولا لأنه لم يستند على مجرد استمزاج الارادة الشعبية وثانيا لأن دوره استشارى بحت وهو ما يعد التفافا على حق العراقيين فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وثالثا لأن اشخاصه تم اختيارهم بناء على اعتبارات طائفية وهو ما يضاعف التهديد بتدمير وحدة العراق.

وبينما لا توجد وسيلة لمعرفة رأى العراقيين بدقة فى هذا المجلس على الاقل من حيث تمثيليته فان غالبية دول العالم وكل العالم العربى تقريبا يرى أن هذا المجلس لا يتمتع بأى شرعية وأنه جزء لا يتجزأ من نظام الاحتلال وأنه لم يتكون كخطوة على طريق تمكين العراقيين من حكم أنفسهم بأنفسهم.

وهنا نعود الى السؤال الأصلى. لماذا "رحب " مجلس الأمـن بهذا المجلس اذا كان لا يراه الخطـوة السـليمة فـى الاتجـاه الصحيح؟ ولماذا زج المجلس بنفسه أصلا فى مناقشـة الأمـر وخاصة بعد تراجع الولايات المتحدة عن فكرة منح الأمم المتحدة دورا سياسيا وأمنيا اضافة الى دورها فى اعادة الاعمار؟.

الاصل أن الموضوع كله له صفة ادارية وليست سياسية. وليس لها صلة بمهام وصلاحيات المجلس فى صيانة السـلم والأمن الدوليين. وبهذا المعنى لا صلة لمجلس الأمن بالقضية برمتها. فاذا كان المجلس الانتقالى قد تكون علـى هـامش الاحتلال وأنه يتمتع فقط بسلطات استشارية فهو فى الواقـع جهاز ملحق بمكتب السيد بريمر وهـو أمـر يخـص ادارة الاحتلال وليس مجلس الأمن.

بل كان من الأجدر بالمجلس وبالأمم المتحدة عمومـا أن تعكس الارادة الدولية العامة فى رؤية خطوات محددة تتخذها سلطات الاحتلال وفقا للقرار ١٤٨٣ لتمكين العراقيين مـن حكم أنفسهم. وبذلك يمكن لمجلس الأمن أن يتقدم بمقترحـات ايجابية لادارة الوضع الانتقالى ويؤكد اختصاصه فى الأمـر كله من زاوية صيانة الأمن واستعادة وبنـاء السـلام فـى العراق. ولكن المجلس يدرك أن الولايـات المتحـدة كانـت ستعارض مثل هذا التصور.

لقد فسرنا الأمر وكأنه محاولة من جانب المعارضين لإبداء "حسن النية" تجاه الولايات المتحدة دون الوصول بذلك الى "التصديق" على الفلسفة الأمريكية. ويعد هذا استمرارا للموقف الذى اتخذته هذه الدول منذ وقوع الغزو والاحتلال. فتلك الادارة الأمريكية تمثل "مشكلة" للدول المعارضة. فالمواجهة الكاملة مع تلك الادارة قد تترك علامات غائرة فى العلاقات الثنائية وليس هناك من هو على استعداد الآن للقطيعة مع الولايات المتحدة حتى لو كان يدافع عن دوره فى العلاقات الدولية ويرغب فى افشال السياسات الانفرادية لتلك الادارة أو مشروعها الامبراطورى. وبذلك تمثل الحل الوسط فى المحافظة على الحد الأدنى من سلامة العلاقات مع الولايات المتحدة. ولكن هناك هدفاً آخر من هذا التوجه الوسط. فالدول المعارضة فى مجلس الأمن تعتقد أن الادارة الأمريكية ستضطر إن آجلا أو عاجلا لترك الأمر كله بيد الأمم المتحدة وخاصة اذا فشلت فى انهاء المقاومة العراقية المسلحة أو فى تسكين المشاعر الشعبية المعارضة. ويحسن بالتالى أن تبقى الأمم المتحدة قريبة من الأحداث وهو اختيار أفضل من البعد التام عما يحدث فى العراق.

وربما تكون هذه هى أيضا الحسابات العربية.

(٤١) الشعب العراقى الغامض وأراؤه المتناقضة

قبل الغزو الامريكى للعراق كان الجميع يتحدثون باسـم الشعب العراقى دون اهتمام بابراز أى تفويض منه. وكـان ذلك مبررا من زاويتين. فالشعب العراقى لم يكن يجرؤ على الحديث باسم نفسه. وبالتالى كان مفهوما أن يتحدث أى فاعل نيابة عن هذا الشعب حتى بدون تفويض. ومع ذلك كانت كل مظاهر التأييد لهذه المزاعم فاقدة للمصداقية والا لكنا صدقنا المسيرات المليونية الحاشدة التى سيرت فى بغـداد للهتـاف بالدفاع عن صدام حسين بالروح والدم. ولما لم نجد ترجمـة فورية- أثناء وبعد الغزو مباشرة- للتهديد والوعيـد الـذى صرحت به هذه المسيرات كان مـن المحتمـل أن نصـدق الطرف الأخر الذى تحدث باسم الشعب العراقى بكـل ثقـة وخاصة عصابة البنتاجون التى دفعت بلادهـا الـى هاويـة الغزو واعدة الشعب الأمريكى بأن جنودة سيجدون أحضـانا عريضة ودافئة وأغصانا وزهورا يلقيهـا علـيهم الشـعب العراقى بالملايين. وما حدث فى الواقع كان غير ذلك. فلـم

يحدث كساد فى الأسواق العالمية للـ ورود والريـاحين لأن الشعب العراقى لم يجد ضرورة لاستيرادها خصيصا لالقائها على صدور الغزاة. ولم يطل الوقت قبل أن نجد الرصـاص والقنابل تلقى فى وجه الجنود الأمريكيين. فبغض النظر عن الخلاف حول طبيعة ما يفعله هؤلاء الـذين يلقـون المـواد الناسفة فى كل مكان فأغلبيتهم كما يقول بريمر نفسـه مـن "الشعب العراقى".

ويغدق كل الساسة وكل الكتاب وكل من هب ودب علـى نفسه بأريحية صلاحية الحديث باسم الشعب العراقـى حتـى الآن. وكان من الممكن أن نصدق كل من أدعى بدون بينـة لأنه كان مستحيلا معرفة رأى الشعب العراقـى. والمشـكلة الوحيدة التى صادفت هذا الاستعداد الصافى للتصديق هو أن السذاجة لها حدود ناهيك عن كونها قد صارت فى هذا العالم الوغد سلعة نادرة. فقد انتهينا إلـى آلاف الآراء المتناقضـة للشعب العراقى: إنه رحب بالقوات الأمريكية وهـو يقـاوم ببسالة منقطعة النظير القـوات الأمريكيـة، وهـو يطالـب بالانسحاب الفورى للقوات الأمريكية وفى نفس الوقت ببقـاء القوات الأمريكية لأطول فترة ممكنة، وهـو غاضـب مـن

الشعوب العربية التى لم "تناضل" ضد صدام حسـين وهـو ممتعض من الشعوب العربية التى تتركه يقاتل وحده القوات الأمريكية، وهكذا.

فاذا لم يعد بوسعنا أن نصـدق المسـيرات الحاشـدة ولا الادعاءات المجانية للمناضلين المزعـومين والحقيقيـين ولا التصريحات الوردية للمحتلين والمنكوبين بمرض البحث عن دور ووجدوه أخيرا فى العراق من بين الأجنـاس والـدول والعصابات التى لم يكن الشعب العراقى يعرف مجرد اسمها، فمن نصدق إذن؟

هل نصدق استطلاعات ومسوح الرأى العام؟

لقد تجمعت لدينا بعض نتائج هـذه الاسـتطلاعات التـى تكاثرت فى الآونة الأخيرة. فهل تقول لنا تلك الاستطلاعات شيئا مفيدا عن آراء الشعب العراقى؟ وهل يمكننا التسليم بأن ما نسمعه من خلالها هو صوت الشعب العراقـى ولا أحـد غيره؟

تناقضات مكررة :

تقودنا مجرد الأرقام الواردة فى تلك الاستطلاعات الـى نتيجة واحدة مؤكدة: وهى أن الشعب العراقى الذى يظهر فى تلك الاستطلاعات ليس سوى كيان غامض.

فوفقا لاستطلاع جالوب الأخير، يرى ثلثا الشعب العراقى أن خلع نظام صدام حسين يستحق كل هذا العنـاء والـبلاء الذى يعيشونه منذ وقوع الاحتلال. وقد احتفل السيد تشـينى نائب الرئيس الأمريكى بارتياح شديد بهذا الرقم. ولكن وكما يقول والتر بينكوس فى جريدة النيويورك تايمز لا تبدو بهجة السيد ديك تشينى مبررة لأن ٤٧% من سكان بغداد قالوا أنهم صاروا أسوأ حالا و٩٤% منهم قالوا أن بغداد صارت مدينة خطرة على الحياة.

ويؤكد ٦٠% من أهالى بغداد- وفقا لاسـتطلاع زغبـى انترناشيونال- أنهم يريدون بقاء أمريكا فى العراق لعام آخر على الأقل فان ٢٩% منهم هم من يحملون تقـديرا ايجابيـا لأمريكا مقارنة ب ٤٤% يحملون تقديرا سلبيا لهـا مقابـل ٥٥% يحملون تقديرا ايجابيا لفرنسا وهى الدولة التى يعرف

العراقيون أنها تطالب بانسحاب فورى للقوات الأجنبية وتسليم الحكم للعراقيين على وجه السرعة. وليس هناك ما يـدعونا للاعتقاد أن العراقيين وقعوا فى غرام فرنسا لسبب آخر غير مقاومتها للغزو الأمريكى للعراق. وإمعانا فى التنكيـل بـأى شخص لديه الرغبة فى أن يرى منطقا منسجما فيما يقوله أى شعب يقول نصف الشعب العراقى وفقـا لهـذا لاسـتطلاع الأخير أنهم يعتقدون أن أمريكا تضر العراقيين وذلك مقابـل ٣٥% فقط قالوا أنها تساعدهم. فلماذا يريد هؤلاء بقاء القوات الأمريكية لأكثر من عام طالما أنها تضر بهم، اللهـم إلا إذا كانت إحدى الصفات المستحدثة فى الشـعب العراقـى هـى "كراهية الذات والرغبة فى الإضرار بالنفس". وعلى أى حال لو كان ذلك سليما، فلماذا يحتاج العراقيون لأمريكا وقد أثبتوا – مثلهم مثل بقية الأشقاء العرب- قدرة فذة على الاضـرار بأنفسهم، ودون حاجة لأية مساعدة أجنبية فى هـذا المجـال الحيوى!

والواقع أننا مضطرون أيضا - بحكم نفاد كمية السـذاجة التى نملكها- للتشكيك فى مصـداقية هـذه الاسـتطلاعات. فالشعب العراقى مثله مثل كافة الأشقاء العرب لا يعرف مـا هى استطلاعات الرأى، أو لعلنا نذهب مع النكتة التى حكيت عن الشعب العراقى عندما سألة بعض الخبثاء عن رأيه فـى الخبز فرد قائلا :"ما هو الخبز؟". ثم أننا نعـرف أيضـا أن الشعب العراقى كريم وقد يبز غيره من الشعوب العربية فى الكرم مع المستطلعين. حيث يفرض الكرم الا تغضب هؤلاء المستطلعين حتى لو أنك تراهم كمتطفلين أو عملاء لحكومـة ما، لأنه ليس من شيم العرب إغضاب "ضيوفهم"!

ولكن هناك أسبابا أعمق للشك فـى مصـداقية الصـوت المنسوب للشـعب العراقـى والطـالع مـن جـوف هـذه الاستطلاعات. فقد اثبتت أنها أكثر أو اقل قليلا من "طبلـة" يغنى علي ايقاعاتها كل على ليلاه. ومن عاش فى الولايـات المتحدة طوال عام ٢٠٠٢ يستطيع أن يدرك بسـهولة أكبـر وموضوعية أشد هذا المعنى. فحـرب الاسـتطلاعات بـين الرافضين والمتحمسين لغزو العراق كانـت تجـرى علـى أشدها. ولم يكن يمر أسبوع دون أن تسـمع أو تقـرأ عـن استطلاع جديد يقول شيئا مختلفا عما سبقه.

هل عرفت رأى الشعب العراقى إذن بعد أن سمعت جميع تلك الآراء السياسية والعلمية الصادرة عن كل شخص ينتمى أو لا ينتمى للشعب العراقى؟ الأجابة هى بالتأكيد لا!

ولكن أليس من المحتمل أن يكون بتلك الاسـتطلاعات- ولنترك جانبا الادعاءات- بعض الصحة والمصداقية؟

لا شك فى تقديرى أن مثل تلك المؤسسات الاسـتطلاعية العملاقة لن تخاطر بسمعتها دون أن يكون لديها شىء ما من أوراق الاعتماد. فهى فى النهاية لم تتأثر بعد تماما بالعـادات العربية فى الحديث دون طائل وحول موضوعات لا يعرفها المتحدث وبدون أن يكون هناك قصد محدد وفى الوقت الخطأ دائما.

وهذا يترك لنا احتمالاً واحداً وهـو بدهيـة: ان الشـعب العراق كان منقسما فى الرأى طوال الوقت: أى قبل الغـزو وبعده وحتى الآن. فالشعوب ليست كتلا صماء وهى لا تمنح صكوكا ممهورة بتوقيعها الجماعى الى الأبد لفكرة أو حزب أو زعيم. ثم أن الشعوب كثيرا ما تكون مضطربة الوجـدان ومختلطة فى العقل ومراوحة بين الشىء ونقيضـة. أليسـت هذه هى حالتنا جميعا؟

(٤٢)

الدور العربى ومصير العراق

مقدمة:

منذ ظهور "المسألة العراقية" على مسرح السياسة العالمية والاقليمية تعامل معها النظام العربى بروح الاستقالة أو بالحد الأدنى التسليم للأقدار.

ويبدو من المتعذر للغاية تقديم تعريف متفق عليه لما أسميناه هنا بالمسألة العراقية، نظرا لأن بعض أهم جوانبها لا يخص العراق وحده بل شاركته فيها الغالبية من النظم العربية. فالحكم المطلق والتعسف شبه الكامل فى اتخاذ القرارات ورسم السياسات والمراوحة الغريبة بين تقديس العنف الخارجى والاستعداد للتبعية والتعايش مع الظلم القومى والتدمير المنظم للمجتمع المدنى، ومن ثم بروز أحقاد ومرارات وثارات داخلية عميقة الى الدرجة التى تدعو الكثيرين الى قبول التدخل الخارجى حتى لو كان عسكريا هى سمات مشتركة بين النظم والدول العربية.

ومع ذلك فان ثمة ما يدعو للتأكيد بأنه كان ولا يزال ثمة "مسألة عراقية" تتجاوز تلك الملامح العامة. وتتمثل فى وجود مستوى خارق من البطش الداخلى المستمر والنزوع للحروب الخارجية التى لا تقرها أبسط صور العقلانية وحسن الجوار وما انتهى اليه ذلك كله من التضحية بتدمير مـذهل وغيـر مسبوق للمجتمع بسبب البطش والحروب الخارجية المستدامة منذ عام ١٩٨٠ وإخضاعه لأسوأ نظام للعقوبات والحصـار شهده تاريخ العلاقات الدولية بدعم من الأمم المتحدة: منـاط الشرعية الدولية. ولا شك أبـدا أن العـراق عومـل بقـدر استثنائى من القسوة. ومع ذلك فلا شك أبدا أن النظام الحاكم ورئيسه اتسما بقدر هائل من العنف والخراقة فـى التعامـل الداخلى والخارجى على كل المستويات.

ولا يمكن أن نقطع بأنه كانت ثمة إمكانية لحل الصعوبات الكامنة فى القيام بدور عربى لمواجهة أو العمل بفعالية مـع تلك المسألة. ولكن يمكن القول بأنه لم يكـن هنـاك عـوز للأفكار المفيدة والعملية.

ومن هذا المنظور يمكن القول بأن سياسة التسليم للأقدار لم تكن هى الأسلوب أو النموذج الوحيد للتعامل مع المسـألة العراقية.

فقد أتيحت فرصة نظرية لوقفة قوية مع الرئيس العراقـى وقطع الطريق على الحرب العراقية الأيرانية. كمـا يمكـن القول بأنه كانت هناك أيضا ولو فرصة نظرية لقطع الطريق على عملية الغزو العراقى للكويت. وربما غابت هذه الفرصة أو ضاقت كثيرا بعد هذا الغزو فى انقاذ العراق من حـرب عام ١٩٩١. ولكن المؤكد أن سياسـة مسـئولة وجماعيـة للتعامل مع تبعات الحرب الأخيرة وإنهاء "المسألة العراقيـة" من جانب النظام العربى أو مجموعة منسجمة مـن الـدول العربية كان يمكن أن تقطع الطريق على الغـزو الأمريكـى للعراق.

وعلى أية حال أدى فشل العرب والعالم فى انهاء تبعـات أزمة ١٩٩٠-١٩٩١ وإعادة العراق الـى النظـام الـدولى والتخفيف من شدة الاحتقان الداخلى الى جعل مشروع الغزو الأمريكى للعراق تهديدا جديا منـذ انتخـاب بـوش رئيسـا للولايات المتحدة. وهنا فشل العرب أيضا فى قطع الطريـق على الغزو لأسباب متعددة.

والواقع أنه لم يكن من بين تلك الأسباب أن النظم والدول العربية استخفت بتبعات ونتائج الغزو. فقد أدركـت غالبيـة الدول العربية خطورة هذا العمـل عليهـا وعلـى مسـتقبل العراق. ولم يصدق أحد فى المنطقـة أو العـالم أن غـزو واحتلال العراق سيؤدى الى نهاية سـريعة لمحنـة الشـعب العراقى أو أزمة العراق كدولة.

ومنذ أن وقع الغزو والاحتلال، كرر العرب الأخطاء التى وقعوا فيها تاريخيا فيما يتصل بالمسألة العراقية. إذ تركوهـا كلها بيد الأمريكيين. ولم يتخـذوا خطـوة ايجابيـة واحـدة للاعلان عن حرصهم على الشعب العراقى بصورة ملموسة أو مساعدته على تجاوز محنته وآلامه المذهلة.

ويطرح هذا التقدير قضية ماذا كان وما يجب أن يكـون عليه الدور العربى نحو المسألة العراقية بعـد وقوعـه فـى براثن الاحتلال.

وبطبيعة الحال فان بلورة دور عربى واضـح وايجـابى يتوقف على حل الاشكاليات التى تعترض هذا الدور. وسوف نشير فى البداية الى هذه الاشكاليات قبـل أن نتحـدث عـن طبيعة ومجالات هذا الدور.

أولا: إشكاليات الدور العربى فى العراق :

لقد فشل العرب فى قطع الطريق على مشـروع الغـزو الأمريكى للعراق لأسباب متعددة. فالانقسامات فيما بين الدول العربية والتضارب بين مواقفها وسياساتها شكلت أحـد أهـم هذه العوامل. وحتى داخل منطقة الخليج تضاربت المواقـف والسياسات الى الحد الذى كان لكل بلد فيه موقـف مميـز. فبينما تحمست الامارات للقيام بمبادرات تعيد العـراق الـى النظام العربى مقابل اعتذاره عن غزو الكويـت واعترافـه الكامل بالحدود التى وضعتها لجنة الأمم المتحدة تبعا للقـرار ٦٨٧، تقربت قطر من العراق بصورة ملحوظة فى محاولـة لموازنة النفوذ السعودى. أما عمان فكانت أقرب الى موقـف الحياد السلبى. وعملت الكويت على التنسـيق الكامـل مـع الولايات المتحدة. وأظهرت السعودية قـدرا ملحوظـا مـن البرود تجاه مختلف المبادرات الاماراتية والمصرية خـلال أعوام ١٩٩٧-١٩٩٩ لاستعادة العلاقات الطبيعية بين العراق والدول العربية الأخرى كمدخل لتخفيف الاحتقان الأمريكـى العراقى.

ولكن الاشكالية التى واجهـت الـدور العربـى خـلال التسعينات اشتملت أيضا على الغطرسة التى تعامل بها النظام العراقى مع القضية برمتها وعدم استعداده لإنجـاح الـدور العربى. وبدا أن اختراق الحاجز العراقى ذاتـه أمـر بـالغ الصعوبة إن لم يكن مستحيلا.

وكان هناك عامل ثالث ساهم فى تعميق العجز عن القيام بدور حتى انتخاب بوش رئيسا للولايات المتحدة وهو استبعاد أن يقوم الأمريكيون باستخدام أسلوب الحرب مـرة أخـرى لتسوية صراعهم مع النظام العراقى. ولم يصـدق العـرب إمكانية ذلك حتى قبيل الغزو الفعلى بشهور قليلة. وعندما بدا ذلك واضحا على ضوء معلومات يقينية عـن الاسـتعدادات الجارية للقيام بعملية الغزو لم يكن من الممكن للنظام العربى المتهافت أن يتمكن مما لـم تـتمكن منـه الـدول الكبـرى المعارضة للغزو مثل فرنسا وألمانيا. وهكذا بدا من المنطقى أن "يستسلم العرب للأقدار" من جديد.

والواقع أن جملة من هذه العوامل لا زالت فاعلـة علـى الساحة العراقية والدولية فيما يتعلق بالشأن العراقى. ولكـن الغزو غير جزئيا من طبيعة الاشكالية التى واجهت الحـديث عن دور عربى. فقد رفضت غالبية الدول العربيـة مثلمـا رفضت غالبية دول العالم الاعتراف بشرعية الغزو. ومن ثم باتوا مرتبكين تماما فيما يتعلق بشرعية تبعاتـه. أن القـرار ١٥١١ مثلا أقر بمسئوليات دولة الاحتلال. ولكن ظلت وجهة النظر السائدة بين الدول العربية وغالبية دول العالم وخاصة "أوربا القديمة" أن الاحتلال يجب أن يزول على وجه السرعة تاركا مصير العراق بيد العراقيين. وبطبيعة الحال لم تقبـل الولايات المتحدة وجهة النظر هذه.

وضاعف من شدة هذه الاشكالية صعوبة التعـرف بدقـة على خريطة المواقف العراقية على المستوى الشعبى وتعقـد هذه المواقف بصورة واضحة ومخالفة للتقـديرات الأوليـة الرائجة فى العالم العربى. إذ بدا أن غالبية العراقيين وخاصة النخبة السياسية الجديدة على أستعداد لتحمل أو التعايش مـع الاحتلال لفترة أطول بكثير ممـا يقـدره العـرب والعـالم الخارجى لقاء ضمان عدم عودة نظام صدام حسين أو القذف

بالعراق الى أتون حرب أهلية. ولأن أهم الدول العربية كانت ولا تزال تشعر بأن نجاح الأمريكيين فى العراق يؤدى الـى تشجعيهم على المضى فى سياسة الضغط المتواصل بأساليب عدوانية على المنطقة بأسرها بما يشتمل على خدمة الأهداف الاسرائيلية أيضا، وقعت هذه الدول أسيرة التوازن الصـعب والحرج بين سلسلتين متعارضتين من الاعتبارات.

السلسلة الأولى تقود الدول العربية الرئيسية الى تجـاوز قضية الشرعية القانونية من أجل التعامل بواقعية مع العراق وصولا الى مساعدته على تخطى محنته من ناحية، وتأكيـدا على الضمانات المطلوبة لتكسين أوضاعه بمـا يتفـق مـع الحاجة الى استقرار استراتيجى فى المنطقة وهو ما يشـمل التأكيد على الوحدة الاقليمية للعراق وانتقاله سلميا الى دولـة جديدة.

أما السلسلة الثانية من الاعتبارات فتقود الى الترحيب بكل ما من شأنه أن يفشل مشروع الاحتلال الأمريكـى للعـراق وخاصة ظاهرة المقاومة العسكرية التى انبثقت بعد أقل مـن شهرين من اتمام الاحتلال.

واضافة الى هذه الإشكالية العامة يبدو أن الوضع الأمنى فى العراق جعل من الصعب على أية دولـة عربيـة ربمـا باستثناء الكويت والأردن أن تسارع بلعب دور كبيـر فـى العراق. وضاعفت معارضة مجلس الحكم الانتقـالى لـدور عربى مباشر من خلال المشاركة بقوات لحفظ السـلام مـن تردد هذه الدول. ويبدو أيضا أن شعور هذه الدول بأنهـا لا تملك أدوات مستقلة للعمل من داخل العراق ساهم فى الشـلل الواضح للموقف العربى.

والواقع أن التوازن النسبى بين هـذين السلسـلتين مـن الاعتبارات أدتا بنهاية المطاف الى المراوحة والشـلل فـى الموقف العربى العام. فغاية ما قام به العرب هو المشـاركة فى مؤتمر للدول المجاورة للعراق كرر المبادىء العامة التى تحكم الموقف القانونى الدولى من الاحتلال الأمريكى للعراق وخاصة فيما يتعلق بالحفاظ على وحدته الترابية ونقل السلطة الى العراقيين. فرفضت غالبية الـدول العربيـة المشـاركة بقوات الى جانب القوات الأمريكية لضمان الأمن فى العراق. كما أنها رفضت المشاركة فى عمليـات تـدريب الشـرطة العراقية. بل ولم يسهم أى منها فى المناقشات السياسية حول مسار عملية إعادة بناء الدولة العراقية.

أما الجامعة العربية فاكتفت حتى الآن بالامساك بالعصـا من المنتصف. فسمحت لـوزير خارجيـة مجلـس الحكـم الانتقالى باحتلال مقعد العراق بالجامعة، ولكنهـا رفضـت الاعتراف القانونى بهذا المجلس. بل وفى إشارة قوية الى هذا الموقف الحيادى حول المستقبل السياسى للعراق قامت الأمانة العامة بمقابلة شخصيات عراقية معارضة لمجلـس الحكـم الانتقالى وللوضع الجديد بصورة عامة.

غير أن الشعور المتزايد بعقم هذا الموقف وعدم مواكبتـه للتحولات التى تجرى فى العراق ومتطلبـات التـأثير فـى المستقبل العراقى حتم على الأمانة العامة أن تبدأ فى البحـث عن صيغة للتعامل الايجابى مع احتياجات العراق، بما يشير الى احتمالية الأخذ بموقف أو سياسة جديدة نحو محنة هـذا البلد.

ثانيا: محددات وآفاق سياسة عربية بديلة نحو العراق :

لقد انطلق الاجراء الأخير للجامعة من نقد الشلل الكامـل الذى اتسم به الموقف أو الدور العربى فـى العـراق بعـد الاحتلال. وهو حتى الآن يبدو متحفظا الى حد بعيد. ذلك أن هناك صعوبات ومحددات موضوعية كثيرة تعترض القيـام بدور ايجابى بناء.

وما نؤكد عليه هنا هو أن صياغة دور عربى بناء يبـدأ بالاقلاع عن أسلوب التفكير الذى يركز على عقبات التحرك أو التوازنات التى تدفع الى الشلل.

وبناء عليه يجب أن تبدأ صياغة الدور العربى انطلاقا من طائفة أساسية من المحددات والمبادىء الايجابية. وتشمل هذه المبادىء ما يلى:

المسئولية العربية الجماعية عن مستقبل العراق:

فلا يوجد أى معنى لفكرة العروبة السياسية أو حتى فـى فكرة "نظام اقيلمى" بالمعنى العام المحايد بدون تأكيـد مبـدأ المسئولية الجماعية عن مصير الشعوب والدول الأعضاء فى هذا النظام. بل ويكتسب مبدأ المسئولية الجماعية عن المصير أو مبدأ المصير المشترك أولوية على مبدأ الدفاع الجمـاعى. فالأخير وإن كان ركنا من أركان النظام العربى هو مجـرد اشتقاق من معنى المصير المشترك والمسئولية عن مصـير كل عضو من أعضائه. وبينما يحصر مبدأ الدفاع المشـترك التدابير المطلوبة فى الجوانب التعزيزية أو الداعمة، فان مبدأ المسئولية الجماعية ينشأ من حيث المبدأ ولاية عامـة علـى مصير الدول الأعضاء عندما يتهـددها خطـر الـزوال أو الاندثار لسبب من الأسباب سواء كانت داخلية أو خارجية.

ويجب أن يكون هذا هو المبدأ الحاكم للدور العربى فـى العراق. إذ بدونه لن تبدو الدول العربية أو العروبة السياسية أفضل فى علاقتها مع العراق أو أية دولة عربية أخرى قـد تواجه نفس المصير أو المسار من أية طائفـة أخـرى مـن الدول فى المعترك العالمى.

غير أن هناك أسباباً ودواعى أخرى تحتم العمـل بهـذا المبدأ. فثمة كما هو معروف محاولات مضنية مـن جانـب قوى داخلية وأخرى خارجية لتغيير هويـة العـراق قسـريا لتخلعه عن الانتماء العربى. ومسودة الدستور المقترحه مـن جانب فعاليات أمريكية تؤكد على انهاء هذه الهوية العربيـة. واضافة لذلك فان المركز الفعلى للعروبة السياسـية داخـل العراق صارت تتحدد بصورة مهمة بالدور العربى المباشـر فى دعم العراق. فالعراق يمكن أن ينجذب أيضا تجاه ايـران بسبب ثقل المرجعيات الدينية ذات الصلة التقليدية بهذا البلـد الكبير. وهو يمكن أيضا أن يخضع لتبعية دائمـة للولايـات المتحدة والغرب عموما بتأثير الدور الساحق الـذى تلعبـه عسكريا واقتصاديا. وأخيرا فان غياب الدور العربـى يـدفع الشعب العراقى للسخط والغضب علـى الهويـة السياسـية العربية على النحو الذى يحدث فى بلاد عربية أخرى.

الحضور العربى أهم من أى اعتبار آخر:

اذ أن أهم أسباب الشلل الذى يواجه الدور العربى هو الاعتقاد بأن تأسيس حضور عربى فى العراق فى ظل أوضاع الاحتلال يضفى شرعية على هذا الاحتلال. ويمثل ذلك خطأ فى الفكر القانونى والسياسى. فالحضور العربى بأى صورة من الصور يمكن أن يستند على الأطر التعاهدية وخاصة اتفاقية الدفاع العربى المشترك، وقيام الولايات المتحدة بالموافقة على هذا الحضور لا يعنى أنها هى التى تحدد المركز القانونى لأى طرف داخلى أو خارجى فيه. أما من الناحية السياسية فان هذه النظرية تخطأ عندما نفضل عدم القيام بأى دور لتأكيد عدم شرعية الغزو والاحتلال على تأسيس حضور فعلى بموافقة الولايات المتحدة التى تمارس فى ظروف الاحتلال وظائف السيادة الفعلية. فالتعامل الفعلى لا يضفى أى قيمة قانونية على الاحتلال. وهو من ناحية أخرى أمر لا غنى عنه حتى لو اشتمل على عنصر المخاطرة للتمتع بأية فاعلية.

بل لو أن الأمر اشتمل على المخاطرة بالعمل من داخل ما يسمى بالتحالف الدولى، لكان من الأفضل الأخذ بهذه المخاطرة بالمقارنة بالقعود التام عن العمل. فمن الناحية الشكلية يمكن أن تتحالف أطراف أو دول ما على أنجاز أهداف مختلفة فى منطلقاتها عن تلك التى تحددها دولة الاحتلال. فمثلا تعلن الدول العربية أن هدف مشاركتها فى العمل من داخل العراق هو تطبيق قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة والمحافظة على وحدة العراق الترابية.

وعلى نفس القدر من الأهمية فان المخاطرة بتأسيس حضور مباشر فى العراق كان ولا يزال هو العامل المحدد لدور كل طرف ووزنه الفعلى فى تحديد المسار الذى تتخذه المسألة العراقية أو مصير العراق ومستقبله. ومن هذا المنظور فان الغياب العربى يؤدى الى انعدام فرصة التأثير على مستقبل العراق. ولا شك أن مقارنة الفرص والقيود أو التكلفة والعائد من تلك المخاطرة كان من شأنه أن يجعلها مفضلة بل وحتمية من وجهة نظر المصالح العليا للعراق نفسه وللنظام العربى ككل.

١ - التحضير لأسوأ الاحتمالات وتعزيز أفضلها :

ويحكم الموقف العربى من العراق انطلاقا من المبـدأين السابقين الاحتمالات المخيفـة لمسـتقبل العـراق وخاصـة الاندفاع نحو الفوضى السياسية أو الحرب الأهلية أو التقسيم. ومن الواضح أن مثل هـذه السـيناريوهات أو المسـارات محتمله بدرجات متفاوتة سـواء بقـت أو رحلـت القـوات الأمريكية فجأة. ففى ظروف اندلاع حركة للمقاومة المسلحة وعدم اكتسابها لشرعية سياسية وأخلاقية داخلية فـى نفـس الوقت وعجز القوات الأمريكية عن ضمان استتباب الأمن أو تلاعبها المقصود وغير المقصود بالشروط الأمنية كما حدث فى بداية الاحتلال، قد يؤدى الى انهيار المجتمع فى أعقـاب انهيار الدولة. كما قد تؤدى الانحيـازات الطائفيـة لـلادارة الأمريكية الى انهيار امكانية التراضى حول طبيعـة الدولـة الجديدة. وتلعب مختلف العوامل الانقسامية بالتوازنات الدقيقة هناك وقد تفضى الى حرب أهلية ممتدة أو الى تقسيم العراق بنهاية المطاف. وهذه الاحتمالات كلها كارثيـة لـيس فقـط بالنسبة للشعب العراقى وإنما أيضا بالنسبة للأمن الاقليمى فى الخليج وفى العالم العربى كله. ومن هنا يحتاج العالم والعرب الى دور فاعل يقطع الطريق على هذه الاحتمالات.

وحتى لو أن الادارة الأمريكية قصدت ونجحت فى تجنب المسارات المستقبلية الأسوأ للعراق فلن تكون استعادة الدولة العراقية أمرا سهلا بدون العمل القصدى على تسهيل الحوار وبناء التراضى وتشجيع كافة أطراف المسألة العراقية علـى التفكير الايجابى البناء وصولا الى أفضل صـياغة ممكنـة لمستقبل العراق. والعالم العربى هو الطرف الوحيد القـادر على إنجاز هذه المهمة.

٢ - المصلحة الكلية مقدمة على الحياد السلبى:

ومن الواجب أيضا أن نناقش مسـألة أو موقـف الحيـاد السلبى بين فرقاء السياسة العراقية الداخلية. فالمبـدأ العـام القائل بعدم التدخل أو عدم تفضيل طرف على طرف هو أمر مستحيل بذاته. فالحياد السلبى لا يقدم ولا يؤخر، وهو يترك الأمور على أعنتها بما يقود الى المخاطر سالفة الذكر. ومن ناحية أخرى فان الحياد السلبى يجعل الدور العربى غير ذى قيمة فى وقت يحاول فيه الجميع، كل على قدر قوته أن يقود مستقبل العراق فى اتجاهه. وتقود عمليات الشد والجذب الى مضاعفة اليأس واحتمالات التقسيم. ومقابل هذا الموقف يجب أن يؤكد النظام العربى على أولوية المصلحة الكلية للعـراق على موقف أو مصلحة أى قوة محددة فيه.

والواقع أنه لا يوجد مقام حقيقى هنا لمبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية. فمن العبث أن يمنع أى طرف دورا عربيـا مستنيرا بالقول بعدم التدخل فى الوقـت الـذى تقـوم فيـه الولايات المتحدة باحتلال العراق وتقرير مصيره وحدها الى حد كبير. فاالتدخل العربى سيكون لمصلحة العراق الكليـة، وفقا لتصور الحد الأدنى المتمثل فى ميثاق الأمـم المتحـدة والشرعية الدولية والعربية. وهو بكل تأكيد لا يعنى احتكـار الحقيقة أو فرضها وانما يعنى بضمانات تمكين العراقيين من تقرير مصيرهم على أفضل نحو ممكن.

وتثير هذه المسألة قضية "مضمون الدور العربى" بغـض النظر عن مجالاته أو أدواته.

٣ - النموذج الديموقراطى لمستقبل العراق :

وهنا يجب على النظام العربى أن يحسـم تمامـا قضـية صورة المستقبل العراقى- بل صورة المسـتقبل العربـى – المرغوب. فالعرب لن يختاروا للعـراق إلا مـا يختارونـه لأنفسهم. وبينما لا تقوم نظم الحكم العربية علـى المبـادىء الديموقراطية فان هذه المبادىء- هى بالحتم- التـى تحكـم الموقف العربى من المستقبل السياسى لأية دولة عربية تواجه

قضية بناء نظامها السياسى بعد حـروب دوليـة أو أهليـة. والدليل على ذلك هو اتفاق الطائف الذى توسطت السـعودية – وهى لا تأخذ بالمبادىء الديموقراطية- وذلك لإعادة بنـاء الدولة اللبنانية على أسس ديموقراطية. فالديموقراطيـة فـى العراق هى النموذج الوحيد الذى يتجنب أخطـاء الماضـى. وهى أيضا السبيل الوحيد لتجنب التقسيم أو الفوضى الممتدة، هذا الى كونها النموذج الذى التزمت به الولايات المتحدة فى سياق عملية اعادة بناء العراق بعد نهاية نظام صدام حسين. بل أن النموذج الديموقراطى هو الوحيد الذى يترجم مبدأ حق الأمم فى تقرير مصيرها السياسى والاجتماعى.

وبطبيعة الحال، فإن من حق العراقيين وحدهم أن يحددوا نمط الديموقراطية التى يريدونها أو التفاوض حول الأسلوب أو النموذج المحدد للنظام الديموقراطى الذى يودون الأخـذ به. غير أن العرب يستطيعون القيام بدور فى تسهيل الحوار بين القوى الداخلية المختلفة فى العراق.

٤ - الطابع فوق السياسى للدور العربى:

ونعنى بذلك أنه إضافة الى المستوى السياسى للدور العربى فان هذا الدور يجب الا يستوعب أو يقتصر على المجال السياسى بل يجب أن نعترف بأولوية شعور المواطن العراقى بهذا الدور فى حياته اليومية التى تعرضت لمحنة غير مسبوقة فى تاريخه. اذ يجب أن يشعر هذا المواطن بالأخوة العربية الصادقة وبأن العرب لم يتركوه لمصيره البائس أو أنهم يحققون مصالحهم السياسية على حساب الاهتمام بقضاياه وحياته.

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو كيفية تطبيق هذه المبادىء والمحددات. ويعالج القسم التالى مجالات التحرك العربى فى العراق على ضوء المحددات السابقة.

ثالثا: مجالات التحرك العربى :

على ضوء المبادىء السابقة والمحددات العامة والمشتركة للدور العربى نحو العراق يمكن تصور نماذج للتحرك أو الحضور العربى فى المسألة العراقية. وتبدأ هذه النماذج بأقل مستويات الاجماع والمخاطرة السياسية وصولا الى أعلاها.

١ - نموذج الإغاثة الانسانية:

ويقوم هذا النموذج على افتراض فشل النظام العربى فـى الاتفاق على أطر سياسية تؤسس حضورا شاملا فى العـراق أو تعذر توفير أدوات التحرك السياسـى المباشـر وغيـر المباشر اللازمة لتأسيس حضور عربى شامل. فمن ناحية لا مناص من اشتعال الخلافات بين الدول العربيـة حـول أى نماذج سياسية للعمل أو الحضور المشترك فى العراق. ومن ناحية أخرى فحتى لو توافر قدر معقول من الاتفـاق علـى المبادىء السياسية للتحرك، فقد تفتقـر الـى أدوات كافيـة للتحرك السياسى الفعال وخاصة على ضوء المخاوف مـن إضفاء شرعية على الاحتلال. ثم أن هذا المستوى للتحـرك سيكون مطلوبا حتى فى ظـل أعلـى مسـتويات الاتفـاق والاهتمام السياسى العربى.

فالاغاثة الانسانية هى أقل مستويات الحضور العربى التى تترجم مبدأ المسئولية العربية الجماعية عن مصير الشـعب العراقى. ولكنها فى نفس الوقت هى الأكثر ملموسية وتلامسا مع الاحتياجات المباشرة للشعب العراقى. فالواقع أن المعاناة الانسانية للشعب العراقـى لا توصـف. وبينمـا لا تتـوفر

معلومات دقيقة عن حجم المأساة الانسانية والاجتماعية التـى نجمت عن عقود من الحروب وأعمـال الـبطش الـداخلى والعقوبات الدولية، فان ما يتوفر مـن تقـارير يثيـر أشـد الأحزان. ومن هنا تأتى أولوية هذا المستوى من الحضـور العربى. فأعداد أطفال الشوارع والمشردين والعائلات التـى تترأسها سيدات وليس لها عائل من الرجال وعـدد الأيتـام والأرامل وشدة مستويات الفقر بين الفقراء والمعوزين هائلة بأى مقياس. ويستلزم تحفيف تلك المعاناة الانسـانية العمـل الفورى على وضع منظومة عمـل فـى المجـال الاغـاثى والانسانى والاجتماعى على درجة عالية من الكفاءة وتتـوفر لديها الموارد الضرورية الكافية.

ويخشى أن افتقار الجامعة العربيـة لوكالـة أو منظمـة متخصصة للاغاثة يمثل عائقا دون القيام بهذا الـدور الـذى يتطلب تحركا عاجلا لتعويض الشلل الطويل والافتقار الـى آليات دولية فعالةو كما يتطلب خبرة وكفاءة مؤسسية كبيرة. وهنا يمكن حل تلك المشكلة عبر إحدى أليات التحرك التالية.

أ- تكليف أحدى وكالات أو منظمات الاغاثة لأى مـن الدول العربية ذات الخبرات الدولية المعتبرة بالقيام بالمهمة باسم الدول العربية على أن يصدر القـرار بذلك من الجامعة العربية ربما على مستوى مؤتمر القمة أو مستوى مجلس وزراء الخارجية العـرب. وتعد الهيئات الاغاثية الإمارتية والمصرية من أكثر تلك العيئات كفاءة ومن حيث حسن السمعة.

ب- العمل الاغاثى متعدد الجنسـيات: ويقتـرب هـذا النموذج بدرجة أكبر من فكرة الحضور الجمـاعى العربى ويتجاوز بكـل تأكيـد العمـل الانفـرادى والثنائى. ويمكن لعدد من هيئات الهـلال الأحمـر التجمع معا لوضع تصور حول خطة عمل عامـة للقيام بالجهد الاغاثى وتوسـيعه ليشـمل الفضـاء الاجتماعى وأساليب التنمية الاجتماعية فى العـراق فى الوقت الحالى بحيث تقوم كل هيئة بما يتوفر لها من مزايا نسبية بجهد فى نطاق جغرافى أو قطاعى معين.

ج- تأسيس ادارة داخل الأمانة العامة للجامعة لتنسـيق أداء مختلف الهيئات الاغاثية أو الاجتماعية التـى يمكن أن تقوم بدور فى العراق، وذلك بـدءا مـن تشجعيها على القيام بهذا الدور

د- تأسيس وكالة اغاثة تابعة للجامعة العربية تقوم عبر اكتساب الخبرة بالمشاركة مع أحد أو جميع الهيئات الاغاثية العاملة على مستويات قطرية.

٢ - نموذج العمل السياسى المستقل عن بعد:

بهذا النموذج تبدأ أول مستويات الفعل السياسـى للنظـام العربى فى العراق. ويتفق هذا النموذج مع عدم رغبة عـدد كبير من الدول العربية تأسيس حضور مباشر فـى العـراق على المستوى الرسمى بسبب ما قد يتضمنه ذلك من إضـفاء للشرعية على الاحتلال الأمريكى للعراق أو الحصول علـى "ترخيص" بالحضور من الولايات المتحدة باعتبارهـا قـوة الاحتلال أو السلطة الفعلية فى العراق. ويضاعف من القلـق أن الحضور العربى فى العراق يمكـن أن يصـبح "أسـيرا" لسلطة الاحتلال أو أن يساء استخدامه أو توظيفه لصالح هذه السلطة وسياساتها.

ويتم تأسيس حضور عن بعد فيما يتعلق بالعراق من خلال المتابعة اليومية للشأن العراقى واتخاذ القرارات ذات الصـلة بمستقبل العراق عبر آليات الجامعة ومستوياتها المختلفة.

وكان ينبغى فى هذا السياق أن تشكل الجامعة فـى الحـد الأدنى "فريق أو مجموعة أزمات" تتابع الشأن العراقـى أولا بأول وتضع تقارير للدرس واتخـاذ القـرار أمـام مجلـس الجامعة أو تتخذ القرارات مباشرة. ويكون من بين مهام مثل هذا الفريق أو المجموعة الاتصال بكل القوى العراقية للعمل معها بانتظام للبناء على مـا تحقـق والتوصـل الـى رؤى مشتركة يكون من شأنها تحقيق الأهداف المشتركة للعراقيين وللعرب معا.

ورغم أن الوقت قد تجاوز هذه الفكرة فانها قـد تصـلح لتنسيق المواقف العربية وفيما بين الجامعة أو النظام العربى من ناحية والقوى العراقية المختلفة من ناحية أخرى بل ومع الأمريكيين أو التحالف من ناحية ثالثة سـواء فـى الوقـت الحالى أو فى ظروف الطوارىء اذا ما تهدد العراق أى من المخاطر التى يجب العمل على تجنبها وهـى الفوضـى أو التقسيم أو الحرب الأهلية.

وكان يجب أن تكون الجامعة هى الفضاء الطبيعى الـذى يمارس العراقيون من خلاله الحوار حول مستقبلهم السياسى. ولم ينته هذا الدور بعد. اذ لا يزال من الممكن والضـرورى نظريا أن تقوم الجامعة بدعوة ممثلين للقوى المختلفـة فـى العراق لوضع دستور لدولة عراقية جديدة سواء بالتعاون مع الأمم المتحدة أو بصورة مستقلة عنها. وكان ولا يزال مـن الواجب أن تقوم الجامعة العربية باقتراح أفكـار ذات صـلة بتنظيم ومراقبة الانتخابات العامة اللازمة لتأسـيس حكومـة منتخبة وشرعية فى العراق تكون مؤهلة لممارسـة السـلطة القانونية والحديث مع ادارة الاحتلال حـول نقـل السـلطة والانسحاب وفقا لقرارات مجلس الأمن.

كما كان ولا يزال مـن الواجـب مسـاعدة الـوزارات والهيئات الادارية العراقية على الاضطلاع بمسئولياتها فـى القيام بالمهام الادارية والمؤسسية المرتبطة بالعودة الى الحياة الطبيعية. ويمكن إنجاز كثير من تلك المتطلبات بالتعاون مع الجامعة فى مجالات كثيرة بدءا من الكتب والنظام المدرسى والجامعى مرورا بكثرة من المهام الادارية الداخلية وذهابـا الى المسئوليات التى تمارسها عادة سلطات السيادة.

إذ لا تتطلب معظم هذه المساعدات العمل المباشـر مـن داخل العراق، ويكفى تماما للقيام بها تلقى مساعدات ماديـة وفنية والتوافق على نظام العمل التـى يريـدها العراقيـون لأنفسهم وبما يتفق مع المعايير العالمية.

نموذج الحضور السياسى المباشر :

ولكن أعلى مستويات المسـئولية العربيـة الجماعيـة أو الفردية عن مستقبل العراق تتمثل فى تأسيس حضور سياسى مباشر فى العراق وبين سكانه. ولكن هذا الحضور قد يختلف من حيث محتواه أو هدفه وطبيعته. ويرغب الأمريكيون فى حضور عربى يقنن تواجدهم أو يسهم فى نجاحهم فى تتبيـع العراق وتوظيفه فى إطار استراتيجيتهم فى المنطقـة وفـى العالم. ولن يكون لديهم مانع من دعوة الدول العربية لارسال قوات أو المساعدة فى تدريب الشـرطة أو قـوات الجـيش الجديد. ولكنهم لم يضغطوا على أى بلد بعينه للقيام بذلك إلا فى سياق التحضير للغزو. فالدول العربية التى وافقت علـى المساهمة فى الغزو على نحو أو أخر، حافظت على نوع أو أخر من التواجد المباشر فى العراق ربما أساسا لشراء رضا الأمريكيين. ولأن هذه الدول صغيرة (الأردن والكويت مثلا) فهى لم تؤثر تأثيرا كبيرا على التوجه السياسى للعراق مثلما يمكن أن تؤثر عليه جامعة الدول العربية ككل.

ولكن حيث أن النظام العربى لم يشارك فـى العمليـات العسكرية أو الجهود الأمريكية ومتعددة الجنسـيات لانشـاء نظام جديد للأمن فى العراق فانه لا يستطيع أن يكون لنفسـه نفوذا أو دورا ملموسا فى بناء الدولة العراقية الجديدة. وهنـا قد يكون السؤال الحاسم هو ما يلى: هل يمكن للنظام العربى أو لأى مجموعة من الدول العربية أن يكون لها دور فى بناء العراق الجديد من خلال الحضور فـى المعـادلات الأمنيـة والسياسية دون أن يكون ذلك لمصلحة الولايات المتحدة وانما لمصلحة العراق ومصلحة العرب.

الواضح أن غالبية الدول العربية قد أجابت على السـؤال بالنفى ومن ثم حرمت نفسها من التأثير على مستقبل العراق أو لعب دور فى إعادة تأسيس دولته كلية. وربما نكون فـى أمس الحاجة لأعادة طرح السؤال والتوصل الى إجابة مبتكرة عليه.

إننا نقف هنا أمام مفترق طرق أو معادلة صعبة تتمثل فى العناصر التالية:

لا يمكن أن يكون للنظام العربى نفوذ كبير على مسـتقبل العراق دون حضور عسكرى أو أمنى مباشر.

ولكن تأسيس هذا الحضور قد يعنى إضفاء شرعية على الغزو والاحتلال أو على الأقل التعامل مع نتائجه بمنطق الأمر الواقع.

وبهذا المعنى يكون النظام العربى بمجرد الموافقة على تأسيس هذا الحضور الأمنى أو العسكرى قد منح الأمريكيين ميزة الموافقة على الوضع الجديد ابتداء. ولكن يمكن من الناحية النظرية أن يؤدى الحضور العسكرى أو الأمنى العربى وظيفة الدفع نحو نقطة نهاية للوضع العراقى مختلفة عما يريده الأمريكيون بما يتسق مع المصالح العربية والعراقية.

وهذه الامكانية ضعيفة من الناحية الشكلية حيث يحتفظ الأمريكيون لأنفسهم بصلاحية ادارة الوضع الانتقالى للعراق. ولكنها قد لا تكون كذلك من الناحية الفعلية بحكم الروابط المشتركة بين النظام العربى والشعب العراقى عموما بما فى ذلك قواه الأساسية.

وتتوقف هذه الامكانية على مدى إصرار النظام العربـى على أن يؤدى دوره بصورة مستقلة وعلى تماسك وعقلانيـة وفعالية الصيغة أو النموذج السياسى الذى يطرحه لحل جميع جوانب المسألة العراقية.

واذا تأملنا أطراف هذه المعادلة لوجدنا أن من الأحكم على النظام العربى ألا يتعد أسيرا للماضى حتى لو كان الماضـى القريب وخاصة أن نظام صدام حسين لم يكن يعمـل لصـالح العرب أو العراقيين وأنه مرفوض رفضا تاما ونهائيـا مـن جانب العراقيين وأن الأحداث قد تخطت تماما نقطـة العـودة المحتملة (القبض على صدام حسين). ولا يجب أبدا أن تقـف المساءلة القانونية البحتة (عدم شرعية الغزو والاحتلال) دون أن يؤسس العرب وجودا فاعلا لهم بالنسبة لمسـتقبل العـراق الذى يتشكل بالضرورة على نحو مختلف وجديد.

وهناك عامل أخر يؤكد هذا الاستنتاج. فقد انتظرت معظم الدول العربية وامتنعت عن القيام بدور مباشر أو غير مباشر فى العراق لا نتيجة الخوف من أن يحسب ذلك على الجانب الفعلى والقانونى لصالح الأمريكيين فحسب. اذ أنه كان مـن مصلحة بعض أن لم يكن كل هذه الدول أن تفشل الولايـات المتحدة فى العراق بما يؤدى الى تقليل قوة الانـدفاع نحـو العدوان على دول عربية أخرى أو الضغط السياسى عليها.

ومن المحتمل أن يكون لهذا العامل بعض التأثير البـاقى. فالمقاومة العسكرية العراقية لن تنتهى بسرعة. بل قد تنمـو وتتكور. غير أن هذه المقاومة لـم تـنجح فـى شـل أرادة الأمريكيين. وهى على الأرجح لن تجبرهم علـى الرحيـل. والأهم أنها لم تؤسس لذاتها شرعية سياسية داخل العراق بل العكس هو الصحيح حيث يرفضها أكثـر العـراقيين نظـرا لتورطها فى أعمال اجرامية مرفوضة عراقيا ودوليا (ضرب الأمم المتحدة – ضرب المساجد- استهداف العراقيين أنفسهم مدنيين وعسكريين- ضرب البنية الأساسية والتركيز علـى إفشال إعادة الإعمار مما يؤثر على حياة العراقيين العـاديين ويضاعف آلامهم). ومن هنا قد يكون من الأسـلم والأكثـر حكمة أن نغلب تحقيق أهداف ايجابية (اعادة بنـاء العـراق الجديد) على الأهداف السلبية (فشل الأمريكيين فى العراق). ثم أن هناك حلا سليما وخاصة بعد أن أثبت الأمريكيون قدرا كبيرا من الفشل وهو أن ننجح نحن العرب وأن ننسب النجاح فى اعادة بناء الدولة والاقتصاد العراقى بمنهجيـة مختلفـة لأنفسنا كعرب وللعراقيين أنفسهم.

ويحضنا هذه التحليل على أن نتدارس بسـرعة امكانيـة المساهمة فى اعادة بناء الدولة العراقية من خـلال نمـوذج الحضور السياسى المباشر فى العراق. ويعنى هذا الحضور طائفة من التدابير مثل:

ارسال قوات "حفظ سلام" للعراق تتلقى أوامر من الأمـين العام لجامعة الدول العربية أو من رئاسـة أركـان تحـددها الدول العربية المشاركة.

تكون المهة العامة لهذه القوات هى المساهمة فى تـأمين عملية إعادة البناء السياسى والاقتصادى. أما المهام الفرعيـة فتتحدد على ضوء العملية السياسية داخل العراق وفيما بـين العراقيين وفى الأطر الشرعية الدولية.

المساهمة بتسهيل توصل العراقيين لدستور جديد يمكن على أساسه تشكيل حكومة عراقية منتخبة عبر انتخابات عامة حرة ونزيهة تحت اشراف الأمم المتحدة والجامعة العربية.

ويكون من بين أهداف هذه القوات العربية تأمين الأشكال الأخرى من الدعم العربى للعراق سواء فى مجـال الاغاثـة الانسانية أو التنمية الاجتماعية وإعادة بناء الاقتصاد العراقى على الأقل فى فروع ومجالات معينة (الزراعة مثلا).

وتستعد هذه القوات لأى احتمـالات علـى نحـو يمنـع الاحتمالات الخطرة ويعزز السلم الأهلـى ويـؤمن عمليـة الانتقال الى عراق ديموقراطى جديد يقوم على توازن ووحدة جميع اقسام المجتمع العراقى.

ومن ذلك كله ربما يكون أكثر المداخل حكمـة أو أكثـر النماذج توفيقا بين مختلف الاختيارات هو نمـوذج مركـب يعتمد على عنصر التوقيت. ويشمل هذا المـدخل العناصـر التالية:

أولا : البدء بجهد عربى متناسق يقـوم علـى نمـوذج الاغاثة والتنمية الاجتماعية التى تحظى بالأولويـة من حيث الالحاح والتـى تجاهلهـا الأمريكيـون والمجتمع الدولى حتى الآن. ولابد أن يكـون هـذا الجهد كبيرا حتى يتم كسـب المـواطن العراقـى البسيط أو على الأقل استعادة ثقته وفخره بعروبتـه وارتباطه بها.

ثانيا : التحضير المثابر لامكانية القيـام بـدور أمنـى وعسكرى فى ظروف طارئة: وعلى سبيل المثـال لا يمكن أن نسـتبعد بصـورة تامـة مثـل هـذه

الطوارىء. فعلى سبيل المثال قد يقوم الأمريكيـون بسحب جانب كبير من قواتهم بسبب أعبائها المالية والبشرية تاركة فراغ سلطة فى العراق وهـو مـا يؤدى الى مضاعفة احتمالات الفوضى أو الحـرب الأهلية. ويوفر نموذج العمل الأمنى فـى ظـروف الطوارىء أعلى امكانيات الاجمـاع بـين الـدول العربية المهمة أو الكبيرة والقادرة على القيام بمثل هذا الجهد. وهو يؤدى عمليا إلـى إحـلال قـوات عربية محل القوات الأمريكية ومتعددة الجنسـيات، وهو ما يجعل النظام العربى فى وضعية مثالية لـو قرر الانتشار السريع لاحلال السلام وحفظ النظام.

ثالثا : فى الظروف الراهنة قد يكفـى أن تقـدم الـدول العربية مباشرة أو عبر آليات النظام العربى قوات مساعدات أمنية صغيرة مثل التدريب أو الأجهـزة والموارد المادية لأعادة بنـاء قـوات الشـرطة أو الجيش العراقى الجديد.

رابعا : وفى اطار الظروف الحالية مع تطبيق الالتـزام الأمريكى بنقل السلطة الى العراقيين من المهـم أن تسارع الجامعة العربية إلى مساعدة العراقيين على وضع دستور جديد تجرى على أساسـه انتخابـات لاختيار حكومة عراقية جديدة. ويجـب أيضـا أن تنسق الجامعة العربية مبكرا مـع الأمـم المتحـدة للاشراف على هذه الانتخابـات والقيـام بـالجهود الادارية الضرورية لنزاهتها وعدالتها.

ويجب فى هذا الاطار أن تبدأ عملية التنسيق مـع الأمـم المتحدة من الآن وأن تتم على نحو يشجع جميع هيئات الأمم المتحدة على العودة للعمل فى العراق حتى لو قامت الجامعة العربية بتوفير الغطاء الأمنى المباشر لعمليات الأمم المتحدة الجديدة فى العراق وصولا الى إجراء الانتحابـات وتشـكيل حكومة عراقية جديدة.

خامسا : تطبق الجامعة العربية خطة مستقلة لاعادة البناء. فالمساهمة بالمال أو الموارد فـى اطـار الخطـط الأمريكية ينسب النجاح المحتمل لهذه الأخيرة بينما يمكن للدول العربية أن تحتفظ بعائد هذه المساعدات لنفسها أو للنظام العربى ككل.

سادسا : ويقتضى ذلك كله الارتفـاع بمسـتوى الموقـف العربى من المسألة العراقية من المستوى المنخفض الراهن الى أعلى مستويات الاهتمام الممكنة عبـر تطوير عملية تقصى الحقائق الى "فريـق أزمـات" يتابع الشأن العراقى أولا بأول ويكون مستعدا لكافة الاحتمالات عبر خطط افتراضية يتم الاتفاق عليها والتدرب الفعلى على تطبيقها.

خاتمة:

إن السياسة أو الموقف العربى الراهن من القضايا العربيـة الساخنة وعلى رأسها قضية العراق وفلسطين يـؤدى بنهايـة المطاف الى الاقتراب بثقة الدول والمواطنين العـرب بنظـام جامعة الدول العربية الى الصفر حتى لو بقت الجامعة رسميا.

وعلى العكس فان الطريقة الوحيدة لاحياء النظام العربـى تتمثل فى تمكينه من لعب أدوار مهمة بالنسبة لحياة الشعوب والدول العربية وخاصة فى أوقات الأزمات الكبرى. وتمثـل المسألة العراقية تحديا كبيرا للحضور العربى أو لقيمة النظام العربى فى حياة الشعب العراقى. ويجب النجـاح فـى هـذا الاختبار بالرغم من السقوط المدوى للعرب أمام تحدى هـذه المسألة. ولم يمض الوقت بعد لتحقيق نجاح ملموس وكبير.

ورغم الاعتراف بالتعقيد الهائل لهذه المسألة الا أن النجاح فيها ليس مستحيلا بأى معنى. بل لدينا فرص كبيـرة جـدا للنجاح من خلال فكر خلاق وخيال ملتـزم بايجـاد منافـذ ومقتربات للعمل مع الشعب العراقى على مستويات مختلفة. ومن المنطقى أن يكون المقترب المناسب مركباً مـن عـدة تصورات وتتلاقى مع المصالح والـرؤى المختلفـة لجميـع الدول العربية ذات الصلة بالشأن العراقى.

(٤٣)

أربع تحركات عربية سريعة

يبدو أن مشروع عقد مؤتمر دولى يخصص للعراق دخل طور التطبيق وربما تحدد له موعد فى الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر. وعند ذلك الوقت ستكون الانتخابات الأمريكية قد انتهت. وبغض النظر عن الفائز والخاسر فى تلك الانتخابات ستبدأ مرحلة جديدة من السياسة الأمريكية فى المنطقة. فاذا فاز كيرى سيكون من الضرورى أن يتراجع الشعارات التى أطلقها اثناء حملته الانتخابية فيما يتعلق بالمنطقة الى سياسات خارجية محددة، وبعضها لا يطمئن، ولكنها بالقطع ستكون أقل عدوانية من السياسات الراهنة لادارة بوش.

أما إذا فاز الرئيس الحالى بوش- وهو الأرجح- فمن المتوقع أن يبدأ التحضير على الفور لمواصلة وتوسيع نطاق ما كان يقوم به فى المنطقة بالفعل أثناء الولاية الأولى. ويبدو أن الأولوية الأولى ستكون ضرب سوريا وصولا الى محاولة اسقاط النظام السياسى بوسائل سياسية وعسكرية معا. ويتلو

ذلك بكل تأكيد محاولة أخرى للقضاء على حزب الله ونـزع سلاحه بالقوة. كما أن ادارة بوش الجديـدة سـوف تطبـق خططها لإنهاء البرنامج النووى لايران بكل السبل بما فيهـا أعمال القصف الجوى أو الأعمال التخريبية أو غيرها مـن التدابير. ومن المرجح أن تبدأ أيضاً فى تطويق واسع للعـالم العربى من جنوبه الأفريقى وعزل المغـرب العربـى عـن المشرق عبر طائفة من الأدوات.

وادارة بوش لن تنسحب من العراق قبل القيـام بأعمـال انتقامية كبرى تفرغ فيها شحنة الكراهية التى تكنها للعـرب عموما وتعيدهم بها عقودا الى الوراء كما فعلـت بـالعراق نفسه، أى أنها تخطط للقيام فى منطقة المشرق العربـى مـا قامت به القوات الاسرائيلية فى رفح وغزة عموما: أى جعلها خرابا يبابا. وبالنهاية فى تقديرى سوف تسحب هـذه الادارة قواتها من العراق لأسباب عملية شتى بعـد أن تقـوم بهـذه العمليات المؤجلة من فترة الولاية الأولى. ومن المطلوب أن تواجه هذه الادارة موقفا اقليميا قويا ومتحدا بقدر الامكان قبل أن تبدأ صياغة توجهاتها فى المنطقة فـى مرحلـة الولايـة الثانية.

لقد فشلت ادارة بوش فى بناء أى شىء فى المنطقة أو فى المساهمة بأى شىء ايجابى فى سياساتها. ولكنها ستمضى فى تطبيق تلك السياسات التخريبية بل قد توسعها مـن العـراق وفلسطين الى سوريا ولبنان والسودان، فضلا عن إيـران أن لم تجد معارضة إقليمية وعالمية قوية. ومـن ناحيـة ثانيـة سيكون من المحتم على هذه الادارة أن تأخذ فى الاعتبار أية معطيات جديدة فى المنطقة، بما فى ذلك تبلور ارادة اقليميـة مستقلة وربما قوية تستهدف مقاومة سياسات البطش والعنف والقوة الخارجية والداخلية. فهل يستطيع الاقليم أن ينتج هـذه الارادة وأن يغير من معطيات السياسة والاستراتيجية داخلـه لتحقيق أهداف مشتركة ولو على حساب الانفـراد بوضـع السياسات الخارجية لكل دولة؟

لتحقيق هذا الهدف، من الضرورى التحرك بسرعة لبنـاء ارادة اقليمية تدير الصراع مع الادارة الأمريكيـة بصـورة ذكية لتجنب التخريب العسكرى والسياسى الواسع الذى قـد تحدثه مستفيدة بالحضور المباشر لقوات بريـة كبيـرة فـى العراق، اضافة الى حضورها البحرى والجوى التقليدى فـى بعض الموانى والسواحل العربية.

ويجب أن توضع الأولوية لأربعة تحركات سريعة علـى المستوى الاقليمى.

التحرك الأول يستهدف انقاذ سوريا ولبنان مـن الخطـط الأمريكية والاسرائيلية لضربهما. وبكل أسـف لا يبـدو أن سوريا ذاتها مهتمة بالعمل على نطاق اقليمى لتجنب ضربات أمريكية وهو ما يحتاج الى تفسير قد نجده فى بعض تقاليـد السياسة السورية مثل الثقة الزائدة بالأوراق التى تملكهـا أو بقدراتها الدبلوماسية على الادارة المباشـرة للعلاقـات مـع أمريكا وأوربا. وهنا نجد مجالا للخطأ الذى تـدفع المنطقـة كلها ثمنا كبيرا له. وربما يجب أن ينبه الساسـة السـوريون الى هذه الحقيقة والى حاجتهم الحقيقية للدعم الاقليمـى فـى مواجهة التهديد وبالتالى المشاركة الاقليمية فى ادارة الأزمـة وخاصة تلك المرتبطة بالقرار ١٥٥٩ لايجاد طريقة تـؤمن سوريا من الادانة الدولية داخل مجلس الأمـن، والتـى قـد تستخدم لتبرير ضربات عسكرية أمريكية، وذلك بدون تنازل عن الموقف العربى المبدئى وخاصة فيما يتعلق بحـزب الله ومنظمات المقاومةالوطنية اللبنانية والفلسطينية.

أما التحرك الثانى، فيتعلق بالقضية الفلسطينية. وهنا أيضا يجب أن تظهر ارادة اقليمية قوية لإسـناد نضـال الشـعب الفلسطينى وضمان إدانة الجرائم الاسرائيلية وبصفة خاصـة سياسة العقاب الجماعى الثقيل وبصورة خاصة بعد اسـتخدام الفيتو الأمريكى ضد مشروع القرار الجزائرى والعربى فـى مجلس الأمن لادانة تلك الجرائم. ومن المهم أن ينطلق هـذا الاسناد من الاعتراف بعدم كفاية الدعم العربى وعدم كفايـة الادارة الفلسطينية وحدها للصراع. وفى نفس السياق يجـب أن يمتد هذا الاسناد السياسى الى كل ما هو ضرورى لـدعم نضال الشعب الفلسطينى من ناحية ودفع العملية السياسية من ناحية أخرى.

أما التحرك الثالث، فينصرف الى القضية السودانية. وهنا أيضا يجب أن تظهر الارادة الاقليمية لتسريع التحـرك مـن أجل ارساء السلام فى دارفور وفى الجنوب وإعـادة بنـاء السودان لمصلحة جميع أبنائه. وليس غريبـا أن نـزعم أن القضية السودانية لا يجب أن تستمر بعيدة عن الأطر العربية تحتكرها الدبلوماسية الأمريكية والأفريقية (الايجـاد) لأنهـا تمس جوهر العلاقات العربية الأفريقية بل ومستقبل العـرب

فى النظام الدولى. ومن الواضح بذاته أن الادارة الحكوميـة السودانية للموقف والأزمات المعقدة فى هذا البلد فشلت وأدت الى نتائج سلبية وخيمة، وأنه آن الأوان لمشـاركة عربيـة واقليمية لتقديم ادارة جماعية أفضل وأكثـر حكمـة وحنكـة وقوة.

أما القضية الرابعة فهى أقل التهابا ولكنها تمثل مصـدرا مهما للقلق وسببا مهما لنزيف السمعة العربية ولتشوه صورة العرب فى العالم بل وربما تصبح فجـأة سـببا لصـدامات سياسية بل وعسكرية بين المغرب والجزائر، وهـى قضـية الصحراء الغربية. ومن العجيب أن تبقى هذه القضـية مـن المحرمات على الدبلوماسية العربية. فتكرست عقيدة تقول أن من يلمس هذه القضية يحرق يده ولا يكسب شيئا وذلك بسبب الجمود الشديد فى موقف الطرفين وخاصة موقف الجزائـر. وقد فوجئنا بتدهور اضافى فى العلاقات الجزائرية المغربيـة خلال الأسابيع القليلة الأخيرة، وهو مـا يضـاعف الدهشـة والقلق نظرا لعمق الروابط بين الشعبين. مطلوب اذن معجزة اقليمية لوضع حل لقضية الصحراء أو بدء عمليـة سياسـية لوضع هذا الحل.

فاذا فاز بوش فى الانتخابات المقبلة ووجد هذه القضـايا الأربع ملتهبة والموقف العربى والاقليمى نحوهـا صـفراً، أويكاد فلن يرجعه شىء عن توسيع نطاق العنف الأمريكـى. ومن المؤكد أنه سيفكر طويلا قبل أن يقدم على مزيـد مـن أعمال العنف فى المنطقة اذا وجد أن القوى الاقليمية المهمة تتحرك بقوة لحل القضايا والصراعات الاقليمية وللاشـتباك السياسى والدبلوماسى مع ادارته بصدد هذه القضايا بمـزيج من الحكمة والقوة. فهو لن يخسر دولا فرادى وإنما تجمعـاً اقليمياً. كما أن خسارته لن تقف عند حدود الاقليم بل سـوف تتعداه الى العالم كله لو خاطبناه وسعينا لتنظيم تحالف اقليمى عالمى مناهض لسياسات القوة فى المنطقة.

ولكى تحقق العملية الاقليمية أهدافها يجب أولا أن نحدد ما المقصود بالقوى الاقليمية وأن نعين ثانيا التوقيتات الملائمة. الواقع أنه قد لا يمكن العمل من خلال الأطر الجاهزة مثـل الجامعة العربية أو المؤتمر الاسلامى. وانما تتحـدد القـوى الاقليمية بأنها تلك الراغبة فى المشاركة الديناميكيـة سـواء بابداء المرونة فيما يتعلق بمضمون الموقـف مـن القضـايا المثارة أو باستثمار موارد سياسية واقتصـادية ودبلوماسـية

وخاصة من الدول الكبيرة فى المنطقة وعلى رأسها مصـر. ويمكن لمصر أن تكون الركيزة المحورية الثابتة فى العمـل الاقليمى حيال القضايا الأربع بينما تتغيـر تركيبـة القـوى الاقليمية تبعا لكل من تلك القضايا على حدة. كما قد نفكر فى اطار تشاورى سريع يعالج بالتدرج القضايا الأربع ثم بقيـة القضايا الاستراتيجية المهمة للأمن والسلام فى المنطقة.

ويستحيل بالطبع أن نقوم بتحرك اقليمى فعال فى كل هذه القضايا قبل الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر. غير أن ايجاد ارتباط ما مع مؤتمر شرم الشيخ الخاص بالعراق هـو أمـر بالغ الأهمية. فطالما أن هذه القضايا لن تنـاقش فـى هـذا المؤتمر فقد يكون من الضرورى أن نسرع بايجاد إطار مـا لمناقشة هذه القضايا الأخرى. وهنا قد تكفى مشاورات أولية لكل من هذه القضايا. كما يمكننا تصور مناقشتها معـا فـى إطار واحد يجمعها تحت مبادرة عامة باسم "السلام العربـى" وسوف يكون رائعا حقا أن تطلق مصر مثلا هذه المبـادرة أثناء شهر رمضان وبحيث تبدأ المشاورات حولها قبل العيـد ثم تنطلق بعده.

(٤٥)

نرسل أو لا نرسل قوات

مجلس الجامعة طلب من المجلـس الانتقـالي الإسـراع بالتحرك نحو استعادة العراق اسـتقلاله وإنهـاء الاحـتلال وتقرير الشعب العراقي مصيره بنفسه. ورغم أن هذه خطوة إيجابية بذاتها إلا أنها تظهر أنه ليس بيد الدبلوماسية العربيـة الجماعية ما تفعله للتأثير على المستقبل السياسي للعراق بمـا في ذلك تحقيق الغايات التي نص عليها قرار مجلس الجامعة سوى أن تطلب من مجلس الحكم الانتقالي أو من العـراقيين أنفسهم تقرير مصيرهم بسرعة.

وبذلك تعود الدبلوماسية العربية من حيث المضمون إلـى نفس الحلول اللغوية البحتة - والتي تخلو مـن المضـمون السياسي الفعلي- للمشكلات القومية. وتكون قد أعفت نفسها من القيام بدور محدد ومباشر في الدفاع عن عروبة واستقلال العراق ناهيك عن واجبها في نقـل العـراق إلـى وضـع ديموقراطي وهو الوضع الوحيد الذي يمكن إنقاذ العراق من خلاله.

يبدو الحل اللغوي للمعضلة فـي افتـراض أن "الشـعب" العراقي قادر في اللحظة الراهنة على إنقـاذ بـلاده بنفسـه بسهوله وبدون مساعدة قوية من المجمـوع العربـي ومـن المجتمع الدولي.

ولو أن الأمر كذلك لكان الشعب العراقي قد تمكـن مـن إنقاذ نفسه من نظام صدام حسين ومـن ثـم مـن العـدوان الأمريكي الذي وقع عليه.

ويقول الواقع أن الأمر لم يكن كذلك. والسبب هو أنـه لـم تتوافر للمجتمع العراقي الآليات المؤسسية أو القـوة السياسـية الضرورية للتصدى للبطش المروع الذي مارسه ضده النظـام السابق. والأهم أن هذا الحل اللغوي يتجنـب تفهـم المعضـلة السياسية العميقة التى تواجه العراق الآن. وجانب مـن هـذه المعضلة يتمثل في العدوان والاحتلال الأمريكي. ولكن الجانب الأخر هو أن التوزيع الفعلي للقوة داخل العراق لا يتيح انتقـالا سهلا للديموقراطية أو إعادة تأسيس الدولة العراقية كدولة للحق والقانون. ولو أن الأمريكيين انسحبوا فورا لن تكـون هنـاك ضمانات حقيقية لتجنب الحرب الأهلية أو عدم عـودة نظـام مماثل للنظام السابق. بل ولن تكون هناك ضـمانات حقيقيـة للحيلولة دون "صوملة" العراق أو سيادة الفوضى والعنف فيه.

ويصبح السؤال هنا هو من يحل محل القـوة العسـكرية الأمريكية.

مجرد طرح هذا السؤال يعنى أن الموقف القائـل بعـدم إرسال قوات عربية إلى العراق ينطلق من نفس الميتافيزيقـا السياسية التى عوملت بها كل قضايانا العربية الأخرى.

فإذا لم تكن هناك قوة عسكرية في العراق قـادرة علـى تأمين عملية بناء الدولة فان الموقـف الدبلوماسـي العربـي ينتهي إلى أحد أمرين: إما أن العرب يطلبون من الولايـات المتحدة فعليا أن تقوم بتأمين عملية بناء الدولة العراقية مـن جديد وهو ما يتناقض مع عدم الثقة فيها. وحتى لـو تـوفر عامل الثقة يكون العرب قد اكتفوا بألا يفعلوا شيئا لمسـاعدة الشعب العراقي على تجاوز محنته الراهنـة. أو أن العـرب يقبلون بالمخاطرة الكامنة في سحب القوات الأمريكية بأقصى سرعة وترك الأمور تتطور إلى كافة الاحتمالات بمـا فيهـا احتمال الحرب الأهلية والتي قد تنتهي إلى أسـوأ المخـاوف مثل تقسيم العراق أو استمرار الفوضى والعنف كما يجـرى منذ عام ١٩٨٩ في الصومال.

يقودنا المنطق للكشف عن نقطة الضـعف القاتلـة فـي الموقف العربي السابق والراهن. فإذا شاء العرب أن يفعلـوا شيئا للعراق يتجاوز الأمنيات الطيبة فيجب أن يكـون لهـم رصيد قوة على الأرض. وطالما أنهم يمتنعون عن إرسـال قوات فلن يكون لهم هذا الرصيد.

ولكن الموقف الذي يعارض إرسال قوات عربية لا يخلو من وجاهة.

هذا الموقف يستند على حجج مختلفة تماما من حيث بنائها المنطقي ونتائجها العملية. فهناك من ينطلق مـن منطـق أن إرسال قوات عربية في إطار الواقع الحالي قد لا يؤدى سوى إلى التواطؤ مع وتقديم دعم مجاني لنظام الاحتلال الأمريكي. ويبدو أن هذا هو المنطق الذي يقول بـه التيـار الرئيسـي للسياسة العربية. ولكن هناك منطقاً آخر تمامـا يقـول بـأن وجود قوات عربية يكون دورها هو المساعدة علـى حفـظ السلام في العراق قد يؤدى إلى اشـتباكات عسـكرية مـع عراقيين –مثل عناصر ما يسمى بالمقاومة العراقية - وهـو ما يعنى أن العرب قد يهدرون دم عراقيين والعكس. ثـم أن هناك منطقاً يقول بأن تواجد قوات عربية يعـد تـدخلا فـي شئون العراق الداخلية.

والواقع أن هذه الحجج لا تقف على أرضية صلبة. كما أنها تتوقف عند الجوانب السلبية من الموضوع. فحجة عدم التدخل في الشئون الداخلية لا تصمد للمناقشة. فالهدف السياسي من إرسال قوات عربية هو المساعدة على تأمين عملية إعادة بناء الدولة التي يحدد ركائزها وطبيعتها العراقيون أنفسهم. ثم لماذا يسمح بتدخل الأمريكيين مع ٢٢ دولة أخرى بينما لا يسمح بتدخل العرب؟ والواقع أن من "ينصح" بهدم إرسال قوات عربية على الإطلاق هم هؤلاء الذين لا يريدون أن يكون للعرب أية كلمة مؤثرة على المستقبل السياسي للعراق.

وهناك من يخشى أن يكون الموقف العربي معاديا للديموقراطية في العراق. ويستند هذا التحليل على اعتبارات شكلية محضة. فإذا كانت النظم العربية غير ديموقراطية في بلادها فلن تكون لصالح الديموقراطية في العراق. ولكن هذا المنطق يتجاهل سوابق تاريخية هامة مثل اتفاق الطائف الذي أعاد بناء الدولة اللبنانية على أسس ديموقراطية وغير طائفية ولو نظريا.

أما القول بأن القوات العربية قـد تشـتبك فـي صـراع عسكري مع عراقيين فهو اقل منطقية ويشتمل على نوع من العبث السياسي. فمهمة القوات العربية وقوات تابعـة للأمـم المتحدة ليس احتلال العراق بل المسـاعدة علـى اسـتقلاله بأقصى سرعة ممكنة عمليا. فإذا تم إرسال قـوات عربيـة لتحقيق وظيفة سياسية وقانونية واضحة وهى المساعدة على تأسيس دولة ديموقراطية فى العراق فان من قد تصطدم بهم هذه القوات لن يكونوا من بين هؤلاء الراغبين في الاحتكـام لصندوق الاقتراع ولكن من يريدون سرقة العراق أو حكمـه بالقوة والعنف. ومن الطبيعي والمنطقـي أن تكـون مهمـة القوات العربية أو الدولية التصدي لهؤلاء لمصلحة الشـعب العراقي وبهدف بناء دولة الحق والقانون في العراق.

أما الحجة الأولى وهى أن هذه القوات قد تخدم المصـالح والسياسات الأمريكية فهي حجة جادة ولكنها – كما أشـرنا- متناقضة. صحيح أن الأمريكيين يطلبون من الدول العربيـة إرسال قوات وتحميل بعض الدول العربية جانبا مـن تكلفـة احتلالهم غير الشرعى للعراق. غير أن هذا التحليل يتجاهـل تماما السياق السياسي للمسألة برمتها. فالواقع هو أن الإدارة

الأمريكية مجبرة على طلب مساعدة الدول العربية لضـمان استتباب الأمن والنظام في العراق بعد أن فشلت فـي ذلـك وحدها وبعد أن صار واضحا أنها ستضطر آجلا أم عـاجلاً إلى سحب جانب كبير من قواتها هنـاك. وكـان الموقـف الأصلي للإدارة الأمريكية هـو معارضـة "تـدخل" الـدول "المجاورة" بما فيها الدول العربية.

والأهم هو أن هذا الموقف لا يوضح كيف يمكن للعـرب التأثير في المستقبل السياسي للعراق وتحقيق غايات قوميـة جوهرية مثل الحيلولة دون سـقوط العـراق تحـت النفـوذ الإسرائيلي وضمان استقلاله وسيادته وتكامله الإقليمي. فـان لم تكن للعرب قوات في العراق فكيف سيكون لهم أي تـأثير في مواجهة الأمريكيين أنفسهم.

موازين هذه الحجج كلها أن أفضـل مـدخل للدبلوماسـية والسياسة العربية هو أن ترسل قوات للعراق في إطار سـلطة حقيقية للأمم المتحدة وتكون مهمتها هي مسـاعدة العـراقيين على بناء النظام الذي يشاءونه بصورة ديموقراطية. بدون ذلك لن يكون للعرب أي دور أو نفوذ حقيقي في التأثير الإيجـابي على مستقبل العراق بما يحقق غاياتهم الجماعية المشروعة.

(٤٦)

نقد العنف حتى لو كان مقاومة

لعلى أبدا بشرح مفهوم النقد لأن هذا الشـرح ضـرورى وكاف لتبديد سوء الفهم وسوء التقدير. النقـد فـى الفلسـفة المعاصرة هو الجدل حول موضوع ما، عند مستوى أعلـى مما تدل عليه ممارسته فكريا وواقعيا. وبهذا المعنى فالنقـد ليس بالضرورة نقضا أو رفضا مطلقـا أو هجومـا وانمـا تجاوزا لمنظور وظروف فهم وممارسة مفهـوم مـا مثـل العنف. ولا يمكن إحداث هذا التجاوز سوى من خلال رؤيـة بديلة.

والفكرة التى أدافع عنها هنا هى أننا - كعرب- نحتاج فى الحقبة المقبلة الى موقف فكرى يتجاوز العنف حتى لو كـان مقاومة مشروعة. ولكننا لن نتجاوز العنف إلا عبـر طـرح مشروع بديل وملهم لشعوبنا العربية لتجاوز واقعنا المتخلف والمشوه والتخرج الى تحرر له معنى.

وعندما نقول بتجاوز العنف حتى لو كان مقاومة مشروعة فنحن نشير تحديدا الى النضال الوطنى والقومى الفلسـطينى ومن أجل قضية فلسطين والعراق تحديدا. ففى الوقت الحالى لايمكن اضفاء مشروعية على العنف إلا فى تلـك الحـالتين حصراً.

وبين العنف المشروع والعنف غيـر المشـروع رابطـة عملية لا بد من الإشارة اليها ولو على عجـل. فـنحن فـى منطقة رزحت طويلا تحت الثقل الرهيب لشتى أنواع العنف. فهناك عنف الدولة ضد مواطنيها. وقد عشنا ولانزال تحـت وطأة هذا العنف. ثم أن هناك سلاسل من الحروب الأهليـة التى افترست عددا لا بأس به من الأقطار العربية وسقط فيها عدد من الضحايا يزيد إضعافاً مضاعفة عما سقط لنـا مـن شهداء وجرحى ومفقودين ومنفيين ولاجئين مـن الحـروب العربية الاسرائيلية مجتمعة. ولدينا أيضاً عدد من الحـروب الدولية التى فتحت نزيفا مريعا للدم بين مسلمين. فقط سـقط فى الحرب العراقية الايرانية وحـدها مليـون قتيـل علـى الجانبين. فاذا أضفنا من سقط وأعيق فى المأسـاة العراقيـة الكويتية وما بعدها من حروب أمريكية ضد العـراق ومـن

حروب صغيرة فى الشق الأفريقى من العالم العربى لأسـفنا لمدى الضرر الذى وقع لعلاقات العـرب بعضـهم بـبعض ولعلاقاتهم مع الأفارقة. ثم إن لـدينا تاريخـاً كـاملاً مـن الانقلابات العسكرية والصراعات السياسية التى أفضت لنفى أو قتل أو تشريد آلاف من أهم العناصـر فـى المجتمعـات العربية. والى تلك القائمة الطويلة من أعمال العنف وضحاياه نضيف ما وقع بسبب موجة الإرهاب الدينى التى اجتاحـت العالم العربى طوال عقد الثمانينات والتسـعينات. وبغـض النظر عن المسئولية عما وقع فقد سقط فى الجزائر وحـدها نتيجة العنف المتبادل بين الدولة والحركات الاسلامية عـدة آلاف من المرات من سقطوا شهداء للانتفاضة على يد قوات الاحتلال الاسرائيلى.

فى هذا السياق عندما يندلع العنف المشـروع لا يمكـن عزله مهما حاولنا فى فئة وحده. فسيكون من السهل أن نقنع أنفسنا بأن العنف الذى ينهض على المقاومة يختلـف نوعيـا عن غيره. وأنه ليس مشروعا فحسب، بل هـو ضـرورى أيضا. ولكن لم يكن بوسعنا اقناع المجتمع الدولى. وهذا مـا حدث. فالعنف المقاوم الذى تقوم به الفصائل الفلسطينية فـى

السنوات الأخيرة وخاصة بعد بدء تطبيق خطة الطريق يواجه رفضا لا من الولايات المتحدة بموقفها المتحيـز لاسـرائيل فحسب بل وايضا من الدول الأوربية المتعاطفة مع القضـية الفلسطينية، وذلك بالرغم من كونه عنفا دفاعيا ومشـروعا. وقد نختلف أو نتفق حول الأهمية النسبية لموقـف المجتمـع الدولى ولكن أقلية ضئيلة من المناضلين والمهتمين بالشـأن الفلسطينى أو العربى عموما ينكرون أن موقف أوربا بالذات يعد حاسما بالنسبة، للمصير الفلسطينى. فاذا كانـت أوربـا ترفض المقاومة عن طريق العنف فلا أمل فى تأمين تعاطف دولى عميق مع الشعب الفلسطينى اذا اسـتمر هـذا العنـف بالرغم من كونه حقا مشروعا. ففى بحار متلاطمة من العنف فى المنطقة لن يكون الرأى العام العالمى أو حتى نخب الحكم فى أوربا وأمريكا الشمالية، بل وفى افريقيـا وآسـيا التـى جربت العنف الاستعمارى والاسـتيطانى اجـراء التمييـز المطلوب ووضع العنف الفلسطينى المقاوم فى فئة وحدة.

ولا شك أن جانبا كبيرا من عدم الفهم وعدم الاستساغة يتفرع عن الادراك العام وسط المجتمع الدولى لهذه المنطقة باعتبارها مولدة للعنف بأكثر من غيرها. وهنا يؤدى الاختلاط أو مجرد التزامن بين العنف غير المشروع فى أرجاء العالم العربى وفى علاقته بالمحيط الثقافى والجغرافى من ناحية وبين العنف المشروع الذى هو مقاومة لنظام احتلال اجرامى بكل المقاييس: أى نظام الاحتلال الاسرائيلى من ناحية أخرى. وليس هناك أدنى شك فى أن ما قام به تنظيم القاعدة والحركات الاسلامية الجهادية فى ومنذ ١١ سبتمبر قد ساهم فى تعميق هذا الخلط.

ومع ذلك، فهذه الفكرة لا تبدو ولن تكون مقنعة لفصائل المقاومة الفلسطينية. فبوسع هذه الفصائل والشعب الفلسطينى كله أن يقول لماذا يتعين عليه أن يغير أسلوبه فى النضال فقط لأن العالم العربى كان ولا يزال يغلى بالعنف لأسباب أخرى. فالعنف كأسلوب للنضال فى الحالة الفلسطينية ليس مبررا فقط بوجود الاحتلال الاستيطانى بل وأيضا بضرورة أكثر إلحاحا فى الدفاع عن النفس فى وجه حكومات اسرائيلية تتكون من مجرمى حرب لا يتورعون أبدا عن ارتكاب أشد الجرائم والمجازر الجماعية.

ثم أن بوسع الفصائل الفلسطينية والشعب الفلسطينى كلـه يستطيع أن ينقل عبء التفكير فى القضية الى أى سـائل أو متسائل عن جدوى العنف المقاوم بمجرد أن يطلب منه تقديم اقتراحات بديلة. يستطيع أن يتساءل بكل بساطة: ان لم يكـن العنف يعجبكم فهل لديكم أسلوب أو وسيلة أخرى لتحريرنـا من نير الاحتلال والاستيطان؟

الواقع أن تلك حجج دامغة، ولكنى أرى أنها ليست مطلقة ولا تغلق باب النقاش حول الموضوع. فنحن لا نناقش مبـدأ استخدام العنف المقاوم فى وجه العنف الاحتلالى الاستيطانى بشكل عام أو من حيث المبدأ. فلا يمكن لأى مشتغل بالقانون الدولى أو بحقوق الانسان أن ينـازع مشـروعية المقاومـة المسلحة ضد الاحتلال من حيث المبدأ. ولكن ما نناقشة هـو الموازين النسبية للعائد من العنف مقابل مداخل بديلة للنضال فى هذه الحالة تحديدا وفى هذه الحقبة من التاريخ الفلسطينى والعربى بالذات.

لقد حققت المقاومة المسلحة بعض العائد الايجابى العملى. فهو نبه المجتمع الدولى الى استحالة بقاء الأوضاع على مـا هى عليه. ومن ثم قام بوظيفته الممكنة عمليا وهـى تنشـيط المجتمع الدولى فى البحث عن حل. ولم يكن مـن الممكـن على الأرجح- ومهما كان سوء فهم واستقبال الانتفاضة فـى البداية- أن يفهم هذا المجتمع عمق المحنة الفلسطينية فى ظل نظام الاحتلال بدون هذا الانبثاق العظيم للغضب الفلسطينى. ثم أنه قام بوظيفة ايجابية ثانيـة وهـى إسـقاط الغطرسـة الاسرائيلية والتى تبدت فى النظر للفلسطينيين خلال مرحلـة أوسلو وكأنهم مجموع خاضع وغير قادر على رفض ما يقدم له حتى لو كان مجرد إعادة تسمية نظـام الاحـتلال نفسـه بمسميات جديدة. وقد تعاظمت كراهيـة الفلسـطينيين لـدى الإسرائيليين، ولكنهم صاروا مضطرين لاحتـرام الانسـان الفلسطينى الذى حرر نفسه من صورة الضحية وقام بعمـل شىء عملاق ودفع ثمنا مخيفا لإنجاز هذا التحـرر. وعلـى نفس القدر من الأهمية لم يعد الفلسطينى مجـرد لاجـىء أو محتل (بضم الميم) منزوع القوة أو ثورى زائـف يتحـرك بالمال ويفشل فى ميدان القتال. بل أثبت نفسه كمقاتل عنيـد

وقادر على ابداع حلول حقيقية لتعويض قلة أو انعـدام مـا يملكه من وسائل القتال الحديثة فى مواجهة واحد من أقـوى الجيوش فى عالم اليـوم مـن حيـث القـدرات النيرانيـة والتكنولوجية. وقبل ذلك وبعده أثبتت تلك المقاومـة العنيفـة لإسرائيل أيضاً أسطورة أنها تملك حلا عسـكريا لا يمكلـه الفلسطينيون أو العرب مجتمعين.

هذه هى العناصر الأساسية للعائد العملى للعنف المقـاوم فى الأرض المحتلة. وفى المقابل كانت هناك عناصر عديدة للعائد السلبى أو الخسائر التى ترتبت على المقاومة المسلحة خلال السنوات الثلاث الماضية. أول هذه العناصر هى دفـع غالبية كبيرة من الاسرائيليين الى تبنـى الرؤيـة اليمينيـة المتطرفة لاسرائيل وللفلسطينيين. فقد فهمت هذه الغالبيـة أن رسالة الانتفاضة هى رفض ونبذ اسرائيل ذاتهـا واسـتحالة التعايش بين الجانبين. وليس موضوعنا الآن لمـاذا خـرج الاسرائيليون بهذا الاستنتاج. المهم أنهم تصرفوا وفقـا لـه فعادوا إلى فلسفة اليمين والتى تـرى أن العلاقـة الوحيـدة الممكنة بين إسرائيل والفلسطينيين هـى الحـرب أو النفـى الوجودى المتبادل. وهذا هو السبب وراء التغير شبه البنائى

الذى أصاب السياسة الاسرائيلية منذ الانتفاضة. وبناء عليـه لم يحقق العنف المقاوم جوهر ما يرمى اليه أو ما يسـتهدف تحقيقه من نتيجة عقلانية وهى كسر إرادة الاحتلال وإجبـار اسرائيل على الانسحاب من الأرض المحتلـة عـام ١٩٦٧. وليس من المتوقع تحقيق هذا الهدف فى المدى المنظور عبر المقاومة المسلحة. بل أن التحول اليمينى والعدوانى للسياسـة الاسرائيلية ككل، جعل الشروط النفسية والسياسية للتسـوية التفاوضية أكثر احتقانا مما كانت عليه فى أية مرحلة سـابقة من تاريخ الصراع، وهو ما يعنى أن المضـمون المحتمـل للتفاوض قد يكون أقل بكثير مما كان متاحا قبل الانتفاضة.

أما العنصر الثانى فيما وقع من خسارة فهو فقدان القضية الفلسطينية لما مثلته من تحدى أخلاقى للمجتمع الدولى. وهنا نأتى الى عامل الخلط بين العنف فى المنطقـة مـن ناحيـة والعنف الفلسطينى من ناحية أخرى. وضـاعف مـن تلـك العوامل أن العمليات الانتحارية كانت الوسيلة الوحيدة العملية أمام الفلسطينيين للمقاومة المسلحة فى ظروف لا يملكون فيها وسائل عسكرية تقليدية. وهنا قد ننازع ما وقر فـى أذهـان العالم من أن غالبية من سقطوا فى هذه العمليـات هـم فـى

الحقيقة والواقع عسكريون (سواء بالاشارة الى نظام التجنيـد وطبيعة الآلة العسكرية فى اسرائيل أو بالاشارة الـى كـون إسرائيل كلها مجتمع استيطانى يقوم فى الجوهر على العنف الذى يشارك فيه كل اسرائيلى ما أن يأتى الى تلك الدولـة). فالمجتمع الدولى لم يقبل هذه الفكرة ولا يتوقع منه أن يقبلهـا فى المدى المنظور. وقد ترتب على ذلك أن وصمت المقاومة الفلسطينية المسلحة بالارهاب. وصار ينظر لمن يمارسـون المقاومة المسلحة باعتبارهم إرهابيين أو قتلة. وهى صـورة تختلف جوهريا عن تلك التى تكونت عـن انتفاضـة عـام ١٩٨٧ التى اتسمت إجمالا بالطابع السلمى. ثم أن سوء تلـك الصورة تضاعفت بسبب أن عـددا كبيـرا مـن العمليـات الانتحارية- التى قامت بها حماس تحديدا- تمت فى أعقـاب الاعلان عن أية خطوة على طريق استئناف المفاوضات. وقد أى هذا الارتباط الى قبول الدعاية الاسرائيلية التى تقول بأن الهدف من تلك العمليات هو تدمير المسعى التفاوضى نفسـه وتدمير اسرائيل إجمالا. ولذلك نجـد فارقـا بـين موقـف الأوربيين مثلا من التحرك لحل القضـية الفلسـطينية بعـد انتفاضة عام ١٩٨٧ وتحركهم لحلها فى العام الأخير. فبينما

كان الدافع فى الحالة الأولى هو الانتصار للضـعيف، فـإن الدافع فى الحالة الثانية هو الملاءمة السياسية. وقد وقع ذلـك لأن الأوروبيين وغيرهم من أطراف المجتمع الدولى لم يقبلوا التمييز بين العنف الفلسطينى الذى هـو مقاومـة والعنـف الاسرائيلى الذى هو جرائم احتلال. وقد وصل الأمـر هنـا بالاتحاد الأوربى الى تبنى نظرة للمقاومة الفلسطينية المسلحة لا تختلف كثيرا عن نظرتهم لتنظيم القاعدة. ومن جديد ليست القضية فى خطأ تلك النظرة. إذ يصعب للغاية تغييرها.كمـا أن الخلاف حول تقدير مدى تلك الخسارة لا يحجب عن أى مراقب موضوعى للأحداث ثقلة وانعكاساته علـى مسـتقبل القضية الفلسطينيية. فلا يمكن لتلك القضـية أن تنتصـر إذا خسرت تأييد المجتمع الدولى أو اذا انجرفت الـى أسـلوب للنضال لا يوافق عليه بل يستنكره المجتمع الـدولى بغـض النظر من على حق ومن على باطل.

وثمة عنصر ثالث بالغ الأهمية وقد لا ندرك أهميتـه الا بعد مضى فترة من الزمن وهو أن العنف المقاوم ورغم كونه مشروعا وتعبيرا صادقا عن الوطنية يسبب ضـررا بالغـا بالفلسطينيين أنفسهم من الناحية الثقافيـة والسياسـية. فمـع استمرار ممارسة العنف يأخذ فى طبع من يمارسه بطابعـه بغض النظر عما اذا كان مشروعا أو غير مشروع. وقد وقع ذلك الضرر على شعوب عديدة. وربما نذكر هنـا بالحالـة الجزائرية الراهنة التى يقول مفكرون مهمـون أنهـا تعـود بجذورها الى حرب الاستقلال العنيفة والطويلة. ومن الناحية السياسية بدأنا نشهد بالفعل هـذا الانحـراف نحـو العنـف السياسى فى الأرض المحتلة. ويمكننا أن نحصر هنا عـددا من الحوادث المقلقة ربما لا يكون أهمهـا الطريقـة التـى عوملت بها حكومة أبو مازن بغض النظر عن الرأى فيهـا. فأظن أن أهمها كان هو عودة التصفيات الجسـدية "للخونـة" وهو تعبير ينفى من الجوهر الفكرة الجوهرية القائلـة بـأن المتهم برىء حتى تثبت إدانته والفكرة القائلـة بـالحق فـى محاكمة عادلة ونزيهة. والأهم أن القتل باطلاق اتهام الخيانة يصبح فى العادة وسيلة لتصـفية الخلافـات الشخصـية أو

السياسية وأحيانا القتل لذات القتل. ولحسن الحـظ أن تلـك الانحرافات لا زالت ضئيلة بالنسبة للرصيد النضالى العظـيم للشعب الفلسطينى. إذ فشلت اسرائيل حتـى الآن ونأمـل أن تفشل تماما فى المستقبل فى دفع الشـعب الفلسـطينى إلـى الاقتتال الداخلى.

أما العنصر الرابع للخسارة، فهو ما وقع من تدمير شديد للمجتمع والاقتصاد الفلسطينى. وقد وضعنا هذا العنصر فـى المقام الأخير من لائحة الخسارة ليس لأن هذا هو رأينا وانما احتراما للقائلين بأن أى شعب لن ينال حقوقه الا بالتضـحية وارادة النضال مهما كانت التكلفة. فالرأى الأخير صـحيح. غير أنه لا يجب أن يعمينا عن ضخامة التكلفة فـى الحالـة الفلسطينية بالذات. كما لا يجـب أن يحجـب عنـا النتـائج السياسية والاجتماعية والانسانية للعنف على الجانبين. فبينما حرم النضال الفلسطينى المسلح سكان اسرائيل مـن التمتـع بالطمأنينه وأصاب اقصادهم ببعض الخسائر المالية المهمـة، فانه لم يعطل أيا من الآليات المهمـة للدولـة. أمـا العنـف الاسرائيلى فقد شل الحياة تماما تقريبا فـى الأرض المحتلـة وعطل إعمال آليات المجتمع السياسى الفلسطينى. هذا فضلا عن الضخامة النسبية للتضحيات بالنسـبة لشـعب صـغير ومحروم تقريبا من الموارد المادية.

فاذا عقدنا مقارنة بسيطة بين الخسائر والعوائد من العنف نستطيع أن نستنتج بوضوح أن الميزان ينقلب باطراد لغيـر صالح العنف حتى لو كان مقاومة. وهو ما يعنى ضـرورة تجاوزه.

ولنعد الآن إلى الشق الثانى من مفهومنـا لنقـد العنـف الفلسطينى فى المرحلة الدقيقة الحالية. فقد قلنا انـه ورغـم وضوح انقلاب ميزان العائد والتكلفة لغير صالح العنف، فانه قد يستحيل اقناع الفلسطينيين بوقف العنـف المقـاوم، الا اذا طرحنا عليهم أسلوبا أرقى من حيث موازينه ونتائجه. فحتى لو لم يكن العنف المقاوم فى الوقت الحالىأسـلوبا عقلانيـا فسوف يستمر مفضلا، إلا إذا كان الناس يرون الضوء فـى نهاية النفق. فاذا لم يكن هناك أمل فى النضـال بـالعنف أو بغير العنف سيكون للعنف جاذبية كبيرة على الأقل لـبعض الناس. وربما نضطر للاعتراف بأن الطبيعـة الانسـانية لا تقبل أن يضبط الناس أنفسهم فـى مواجهـة عنـف الآخـر وخاصة عنف الاحتلال الاستيطانى دون أن يفعلـون شـيئا. وحتى لو أن ذلك يتضمن مجرد القصاص وهو أقل مستويات العدل أخلاقية فهو محتم انسانيا عندما تغيـب الاختيـارات

الأخرى. والارتقاء الى معنى أرقى للسـلوك وهـو تحقيـق الانتصاف والعدالة من زاوية نتائجها يتطلب أن يكون لـدينا اسلوب عمل بديلاً قادراً بالفعل على تحقيق هذه النتائج.

أين المشكلة هنا؟ إنها كامنة فى منطق يقول لا يتصـور المقاومة إلا عن طريق العنف. وهذا بذاتـه رأى خـاطىء تأمليا وتاريخيا. فالمقاومة لها آلاف الاشكال لأن جوهرها هو نزع الشرعية عن نظام ظالم. وثمة آلاف الطرق لتحقيق هذا الغرض. أما فى التاريخ السياسى الفعلى فقد ثبت أن النضال السلمى المنظم والمستدام حقق الاستقلال لعشرات من شعوب العالم. ودعنا هنا من الأمثلة التقليديـة لحركـات التحـرر الوطنى السلمية عن قصد ووفقا لفلسفة مثل الهند لكى نركـز على تجربة مشابهة الى حد ما للقضية الفلسطينية. فبينما لـم يقصر المناضلون فى جنوب أفريقيا أساليب نضـالهم علـى النضال السلمى لا يكاد يمارى أحد فى أن تفكيك آلة الدولـة العنصرية تم فى الجـوهر بمـوازين النضـال السـلمى لا العسكرى أو العنيف. وبتعبير آخر لم تكن تلك الآلة قريبـة بأى معنى من الهزيمة العسكرية بل العكس كـان صـحيحا، فالآلة النعصرية تفككت سلميا بالرغم من أنها كانت اقـرب

الى الانتصار فى ميدان الحرب لأنها كانت قد خسرت ميدان الصراع السلمى. ولعلنا نسلم بأن القياس علـى أى تجربـة أخرى خاطىء. فلا توجد تجربة مشابهة لفلسطين. غير أننـا ان دخلنا الى التفاصيل قد نجد أن انتصار النضال السلمى فى حالة فلسطين قد لا تكون أقل احتمالا من حالة جنوب أفريقيا. وقد نقول أيضاً أن احتمال الانتصار العسكرى فى فلسـطين هو أقل احتمالا مما كان عليه الحال فى جنوب أفريقيا.

ولكن النضال السلمى أصعب بما لا يقاس عـن النضـال العسكرى. فالأخير قد لا يتطلب أكثر من أشخاصاً متحمسين يحصلون على بعض المفرقعات. وقد ثبت أن أى عدد مـن الأشخاص المصممين على الموت دفاعا عن أية قضية حتى لو كانت متهافته يستطيعون إقلاق دول عظمى مهمـا كـان جبروتها. أما النضال السلمى فيتطلب تنظيما دقيقا على نحو رائع وثقافة سياسية رفيعة من طراز فريد وتنوعا مدهشا فى آليات النضال وقدرة على التلامس مع العالم لا يملكها سوى قليلين وانضباط راسخ لا يكاد يميل اليه سـوى المتعبـدين. وبكل أسف فإن المدرسة السياسية التى راجت وقادت النضال الفلسطينى طوال عقود من ذلك كله ليس كبيرا. ولكن النضال

هو مدرسة عظيمة قادرة على توليد أعظم الـدروس وأنـدر الخبرات. المهم هو اتخاذ القرار التاريخى بتبنى اسـتراتيجية النضال السلمى وبعدها تبدأ الخبرات فى التدفق.

غير أن هناك جوانب أخرى للقضية هى ابقى وأبعد وهو ما نتناوله فى الأسبوع القادم.

فالعنف الفلسطينى المقـاوم لا يمكنـه أن يفكـك القـوة العسكرية الاسرائيلية أو ينتصر عليها لأسباب واضحة. وهو فى نفس الوقت لم يزعزع نظام الاحتلال لأنه لم يشـل ارادة الخصم بل زاده جنونا ووحشية لأسباب كثيرة. السبب الأول هو أنه قاد المجتمع الاسرائيلى لاستنتاج أنه لن توجد طريقة لوقف المقاومة الفلسطينية المسلحة حتى لو قام بالانسـحاب من الأرض المحتلـة فـى يونيـو عـام ١٩٦٧. ويكتـب الاسرائيليون هذا المعنى بوضوح فيقولون لو أنهم "تنـازلوا" أمام المقاومة المسلحة بالانسحاب من تلـك الأرض، فمـاذا يمنع الفلسطينيين من الاستمرار فى العمل المسلح بعد ذلـك لتحرير بقية أرض فلسطين التاريخية (أو أرض فلسطين كما كانت فى ظل الانتداب)؟ وتكشف تلك الحجـة عـن عمـق التناقض الكامن فى مفهوم الاحتلال الاستيطانى ذاته. ولكنـه

يعكس منطقا يصعب الرد عليه الا بالتأكيـد علـى جـوهره وفحواه وهو أنه لا يوجد حل مبدئى للصراع سوى تصـفية الطابع العنصـرى للدولـة الاسـرائيلية وتأسـيس دولـة ديموقراطية علمانية: أى دولة لكل مواطنيها بغض النظر عن الدين. ولكن هذا المنطق يخيف غالبية السكان اليهـود لأنـه يضرب من الأساس فكرة الدولة اليهودية بغض النظر عـن نطاقها الجغرافى. وبالمقابل فان هذا المنطق المبدئى يعيـدنا الى الاعتبارات العملية وهى فى الجوهر عدم وجـود حـل عسكرى للصراع: أى عدم امتلاك الفلسطينيين، أو العـرب فى الحقبة التاريخية المنظورة على إلحاق هزيمة عسـكرية حاسمة باسرائيل. والعنف المقاوم هو فى الجـوهر مسـعى لنزع الشرعية عن الكيان الاحتلالى الاستيطانى كله ولـيس تصفيته. وهو فعال نسبيا فيما يتعلق بهـذه الوظيفـة. ومـن وجهة النظر الاسرائيلية يقبل هذا التناقض أحد حلـين. الأول هو قبول الانسحاب من الأرض المحتلة عام ١٩٦٧، وذلـك للحفاظ على الطابع اليهودى للدولة فى حدود عـام ١٩٤٨، وذلك بشرط التزام الجانب الفلسطينى بوقف العنف من حيث المبدأ وليس فقط من حيث الظروف. فذلك وحـده هـو مـا

يضمن من وجهة النظر هذه أن لا يمثل الانسـحاب تسـليما أمام العنف وهو تسليم لا يمكن وقفه فى حدود ١٩٦٧ طالما وقع فى أى وقت. أما الحل الثانى فهـو اسـتمرار الحـرب باعتبار ذلك اختيارا وجوديا. فاسرائيل من هذه الناحية تستمر دولة حرب دائمة، والاسرائيلى يعرف بأنه الشخص الذى لا يمكنه التوقف عن الحرب.

ومن الواضح أن هـذا هـو المعنـى الـذى اسـتنتجه الاسرائيليون من انبثاق الانتفاضة وتحولها الـى المقاومـة المسلحة، فمنحوا أصواتهم لليمين المتطرف الذى يتبنى هـذا الفكر. وقد أحدث ذلك تحولا يكاد يكون بنيويا فى التكـوين السياسى لاسرائيل، حيث صار اليمين قادرا علـى اكتسـاح الانتخابات العامة. واضطر الوسط وأكثر اليسـار للتسـليم بتبعيته لليمين والتحالف معه من موقع الشريك الصغير.

أما من وجهة النظر العربية، فإن هـذا التنـاقض بـين ضرورة تصفية الطابع العنصرى لاسرائيل من ناحية وعـدم وجود حل عسكرى فى الأمد المنظور على الأقل للصـراع يقبل بدوره أحد حلين. الأول هو قبول فكرة المقاومة المسلحة الدائمة حتى لو أدت الى افناء الشعب الفلسـطينى أو وقـوع

تدمير منهجى لكيانه السياسى والاقتصادى. ولا يمكن لعاقـل أن يقبل هذا الحل. إذ أن النزاع على الأرض وطبيعة الدولة هو فى نهاية المطاف نضال من أجل ظروف أفضل للحيـاة وليس من أجل الفناء. أما الحل الثانى فهو عملى بحـت أى قبول ما ٍأسمى بالحل الوسط التاريخى: بمعنى دولة فلسطينية على الأرض المحتلة عام ١٩٦٧، وهو أمر لا يمكن للخصم أن يقبله إلا اذا توقفت المقاومة المسلحة من حيـث المبـدأ. وهذا هو ما يصر عليه اليهود الأمريكيون وفى شـتى بقـاع العالم أيضا. وكرره الرئيس الأمريكى فى مقابـل الالتـزام بدولة فلسطينية. ولكن هـذا الحـل لا يسـتقيم الا بوجـود ضمانات حقيقية لأن تلتزم اسرائيل وأمريكا وبضمانات قوية من المجتمع الدولى بالانسحاب من جميع الأراضى المحتلـة عام ١٩٦٧ وحل قضية اللاجئين حلا منصفا. فبدون ذلك ما الذى يمنع اسرائيل من استمرار التلاعـب المنهجـى الـذى مارسته منذ توقيع اتفاق أوسلو لاستمرار الاسـتيلاء علـى أجزاء أساسية من الأراضى المحتلة فى عام ١٩٦٧ بما فيها القدس الشرقية.

والواقع أن هذه ليست هى المشكلة الوحيدة. فلا يمكن أبدا الافلات من التناقضات المبدئية بأساليب عمليـة. والتنـاقض بين الشعب الفلسطينى والتكوين العنصرى لدولة اسرائيل لن يتوقف حتى لو تأسست دولة فلسطينية على جميع الأراضى المحتلة فـى يونيـو ١٩٦٧. إذ أن الضـعف الاقتصـادى والعسكرى لتلك الدولة سيجعلها تابعـة عضـويا لاسـرائيل كدولة عنصرية. ومن الطبيعى لذلك أن تنشأ الاف التناقضات المستجدة التى تنشط هذا التناقض الرئيسى بعد تأسيس دولـة فلسطينية على جانب صغير ومفقر من فلسطين. وهذا يعيدنا الى حقيقة أن الحل الوحيد للتناقض هو بناء دولة ديموقراكية علمانية على كل أرض فلسطين التاريخية.

واذا تذكرنا أن ذلك مستحيل بأسلوب النضال المسلح فان الوصول الى تحقيق هذا الحل يصبح مرهونا بأساليب النضال المدنى والسلمى بعد تأسيس الدولة الفلسطينية.

وطالما أن النضال السلمى والمدنى وحـده هـو الكفيـل بتأسيس دولة لكل مواطنيها من يهود وعرب علـى المـدى الطويل، وعبر محطة تأسيس دولة فلسطينية فانه يكون أيضا المدخل الأمثل لحل التناقض حول تأسيس دولـة فلسـطينية وانهاء نظام الاحتلال. فأنت لن تقنع الأغلبية اليهوديـة بـأن التعايش بين المواطنين من كل الأديان ممكن إلا إذا عملـت من أجله من خلال الالتزام بالنضال السلمى.

ولعلنا نعيد هنا التأكيد على المعنى العـام لنقـد العنـف وللفكرة التى بدأنا بها هذا الخطاب وهى أنه لن يمكن إقنـاع الفلسطينيين

(٤٧) أخطاء المقاومة العراقية
النموذج الكمبودى

لعلنا نبدأ بالتعاطف والتضامن التام مع أهلنا فى الفالوجـا وبقية المدن العراقية التى تتعرض لهجوم عسكرى أمريكـى عاصف تخطى كل الحواجز القانونية والأعراف الانسـانية ويمثل استمرارا يائسا وغير ذى جدوى للغـزو والعـدوان الوحشى الأنجلو أمريكى على العراق.

ولعلنا أيضا نبدأ بالتعاطف والتضامن التام مع أهلنا فـى الفالوجا والمدن العراقية الأخـرى التـى خضـعت لهيمنـة حركات وقوى عسكرية تنكبت طريـق المقاومـة الحقيقيـة الجديرة باسم شعب عظيم وصاحب حضارة تليـدة وحافـل بالمواهب المبدعة فى كل المجالات باسـتثناء وحيـد وهـو المواهب السياسية،،حركات وقوى تقرأ من كتـاب مفتـوح للأخطاء التى تنصح الخبرة التاريخية والنظريـة السياسـية بعدم ارتكابها فتطبقها جميعا كل الوقت ومنذ بدايتها وحتـى اللحظة الراهنة.

أخر تلك الأخطاء هو الرفض التـام والادانـة العميـاء لمؤتمر شرم الشيخ والهجوم على دور مصـر فـى حشـده ومحاولة الوصول به الى نتائج ايجابية على طريـق انهـاء الاحتلال الأنجلو أمريكى للعراق. فأولى النصائح فى كتـاب الأخطاء التى تتجنبها اية حركة مقاومة جديرة بهذا الاسم هى الهجوم على الجميع وخسارة تأييد اقرب الحلفـاء الممكنـين ودفع المترددين دفعا للمعسكر المضاد. فحتى لو أفترضنا أن مصر ودول الجوار الجغرافى تتردد فى حسم موقفها لصالح المقاومة وتفضل حلا سلميا للصراع الدائر فـى العـراق لا يمكن تجاهل أن لديها جميعا موقفا حاسما فيما يتصل بانهـاء الاحتلال وسحب القوات الأجنبية الغازية والدفع نحو حـوار داخلى بناء بين جميع القوى بما فيهـا المقاومـة العسـكرية لوضع برنامج وطنى يضمن انهاء الاحتلال ويؤسس دولـة جديدة على طريق الحل الـديموقراطى للمحنـة السياسـية العظمى والممتدة فى هذا البلد المنكوب. وهذا هو بعض مـا جاء فى البيان الختامى وفى التفاهمات الفعلية التـى سـادت المؤتمر، وعرض بشكل أوضح ولا مراء فيه فى مـداولات دول الجوار الجغرافى قبل يوم واحد من المـؤتمر الـدولى وتضمنته قرارات ثلاثة مؤتمرات متتابعة سابقة لهذه الدول.

ولكن خسارة تأييد هذه الدول وعلى رأسها مصر لأجنـدة انهاء الاحتلال وضمان مستقبل سلمى للعراق لم يكن نتيجـة رفض مؤتمر شرم الشيخ وحده. بل هو نتيجة جهود مستميتة من جانب تلك "المقاومة" لخسارة تأييد كل القوى الأخرى فى العراق وعلى المستوى الاقليمى والدولى واثارة فزعها مـن المستقبل المريع الذى ينتظر العراق فيما لو انتصرت هـذه المقاومة. فبينما كان العالم كله يناضل من أجل ادخال الأمـم المتحدة طرفا فى المعادلة العراقية كطريق لضـمان سـحب قوات الاحتلال بدءا من تخفيف قبضتها على العملية السياسية فى العراق، قامت "المقاومة" بضرب الأمم المتحـدة وقتـل ممثلها المعروف برفضه التام لاستمرار الاحتلال. وبينما كان العالم كله يحاول زيادة أعداد المنظمات الدوليـة الانسـانية والوظيفية والسياسية فى العراق لتخفيف الويلات الانسـانية للحصار والغزو ولايجاد بديل للهيمنة الأمريكية على الوضع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى قامت المقاومـة بضـرب الصليب الأحمر الدولى وطاردت كل المنظمـات الأخـرى باعمال تفجير المقرات والاغتيـالات والخطـف، فهربـت جميعها تقريبا تاركة الأمر كله بيد الأمريكيين. بل وقامـت "المقاومة" بخطف صحفيين ينتميـان للدولـة التـى قـادت المعارضة الجذرية لمشروع الغزو والاحتلال وهى فرنسـا رغم أنها تدفع ثمنا باهظا لمعارضتها هذه.

ولكن الخطأ العملى الأعظم يقع فى الداخل حيث استهدفت "المقاومة" كل الشخصيات والقوى السياسية الأخرى بذريعـة أنها عميلة، وعلى رأسهم شباب العراق فى قوات الشـرطة، فحفرت بذلك فى نفس كل مواطن سؤالا غـائرا يقـول: اذا كانت "المقاومة" تقوم بكل هذا القتل للعراقيين وغير العراقيين بشتى الذرائع وهى خارج السلطة، فماذا سـتفعل اذا حققـت الانتصار؟. وكانت تلك الذهنية ذاتها وراء المذبحة المذهلـة التى قامت بها قوات الخمير الحمـر بعـد انتصـارها فـى كمبوديا فى السبعينات وأهدرت حياة ثلث السكان بذريعة أنهم عملاء. وكان ذلك أيضا هو تراث نظام صدام حسين الذى لم يتردد لحظة فى قتل مئات آلاف من أكثر النـاس أخلاصـا للوطن فضلا عما سببه من محنة مريعـة للعـراق بسـبب استهتاره بحسابات الحرب فى الخارج. ومن هنا لا غرابـة فى أن تأخذ المقاومة التى تعتبر صدام حسين زعيمها الأبدى بنموذج الخمير الحمر فى كمبوديا وكـررت أخطـاء هـذا النموذج بحذافيرها.

أما الاستراتيجية العامة "للمقاومة" فهى بالتعبير العراقـى "أم الأخطاء". قد تقبل المقاومة الحقيقية التى تريـد مسـتقبلا أفضل لشعبها أن تدمر بعض موارد بلادهـا علـى سـبيل الاستثناء وفقـط أثنـاء معـارك اسـتثنائية فـى أهميتهـا الاستراتيجية. أما "المقاومة" العراقية فتبنت استراتيجية "البلد المحروق" حيث أن تدمير كل شىء وقتل كل شخص ممكـن لمجرد إثبات فشل الاحتلال وهو ما لا يحتاج الـى اثبـات. ويشفق المرء حتى على هذا الطراز العجيب مـن المقاومـة وحتى لو انتصرت، كيف يمكنهـا أن تحكـم بلـدا قامـت باستكمال تدميرها على هذا النحو المنهجى والكامل والمطلق.

أما من الناحية السياسية فأبرز الأخطاء التى يرتكبها كـل من يريد تدمير سمعته السياسـية باسـم المقاومـة فهـو أن يستهدف استعادة النظام السابق أو انشاء نظام أسـوأ منـه. ولدينا بيانات وتصريحات "للمقاومـة" أو بـالأحرى لأهـم تياراتها وهو التيار الذى أتخذ الفالوجا موطنا يسمى صـدام حسين زعيما أبديا وينسب له تنظيم المقاومـة كاسـتراتيجية مقصودة بديلة للمقاومة العسكرية النظامية للغزو والتى كـان ينتظرها الجميع. وتطرح "تلك المقاومـة" اسـتعادة النظـام

الوحشى السابق أو تأسيس نظام أكثر وحشية وهمجية مثـل نظام طالبان. كما أن الطريق لهذا وذاك هو بكل تأكيد طريق الجماجم.

وينغرس هذا الخطأ فى خطأ أشمل للمقاومة وهو الاعتقاد بأنها ظاهرة عسـكرية احترافيـة. والواقـع أن المقاومـة العسكرية فى النظرية العامة للمقاومة هى مشروع سياسـى مجتمعى، ويقتضى استمرار المقاومة كظاهرة تقدمية إحداث طفرات قوية فى مستوى تماسك المجتمع، ومد الجسور بـين أقسامه وجماعاته المختلفة. وغالبا ما تولد الأمم حقا فى سياق حركات مقاومة خلاقة. ولا يمكن الاضطلاع بمسئوليات هذا النوع من المقاومة فى العراق بدون وضع التاريخ السياسـى والاجتماعى للعراق فى الاعتبار. فاذا كانت القيادة العراقيـة السابقة قد عرضت العراق لأعلى مستوى دمـار وتصـفية شهدها أى بلد عربى باستثناء السودان، يجـب أن تحـرص المقاومة على اقل قدر ممكن من الخسائر البشرية. واذا كانت القيادة السابقة للعراق قد عرضته لأسوأ مستوى ممكن مـن التدهور فى العلاقات بين الطوائف والقوميات الأساسية فيـه يتعين على المقاومة أن تناضل من أجل استعادة ثقة القوميات

والطوائف غير السنية بتواضع وروح المبادرة. واذا كانـت القيادة السابقة للعراق قد عملت على ابادة الطبقـة السياسـية غير البعثية بل وقسم كبير من القيـادات التاريخيـة للبعـث وعذبت الشعب العراقى عذابا شديدا سيكون المطلـوب مـن المقاومة أن تطرح برنامجا سياسيا أول بنوده هو المصـالحة الوطنية وحكم القانون والمسـاواة الكاملـة فـى المواطنـة والمحافظة على روح كل عراقى. واذا كانت القيادة العراقية السابقة قد نجحت نجاحا خارقا وبخراقة منقطعة النظير فـى اثارة شكوك كل دول العالم بدون استثناء ضد العراق فإنـه يتحتم على المقاومة العراقية أن تستعيد ثقة المجتمع الـدولى فى النخبة القيادية الجديدة التـى تحـيط بالمقاومـة. ولكـن "المقاومة" العراقية بـدلا مـن الاسـتجابة لهـذه الحاجـات والحتميات الموضوعية أخذت بالنموذج الكمبودى وتصرفت مثل الخمير الحمر وأسوأ. وقد يحقق لها هذا النموذج نجاحا كاملا فى افزاع كل السكان تقريبا ونشـر الرعـب داخـل وخارج العراق. ولذلك نستطيع أن نفهم لماذا مرت جـرائم الحرب الأمريكية فى الفالوجا دون معارضة تذكر من جانب المجتمع الدولى والاقليمى بالرغم من السخط الشـديد علـى

ادارة بوش وتجاهلها الأحمق للقـانون الـدولى والأعـراف الدولية. ان العالم يخشى الولايات المتحدة ويرغب فى خروج قواتها على وجه السرعة من العراق. ولكنه صـار بسـبب تطبيق المقاومة لنموذج الخمير الحمر أشد رعبا منها هـى. ولذلك فحتى لو انتصرت تلك المقاومة مثلما انتصر الخميـر الحمر فى كمبوديا سيكون هذا النصر اقرب الـى المصـيبة الكاملة للعراق والعالم العربى والاسلامى وبداية لمحنة جديدة قد لا تقل سوءا عن محنة، كمبوديا فى ظل الخميـر الحمـر ولفترة طويلة للغاية بعد زوال حكمهم بفضل الغزو الفيتنامى.

يستطيع العراق أن يعيد اختراع المقاومـة الخاصـة بـه والجديرة باسمه. ويستطيع الانتصار فى هـذه المعركـة اذا اخترع مقاومة تلهم المجتمع الـدولى الـرافض للامبرياليـة الأمريكية. وهذا هو ما يجـب أن يوصـى بـه المثقفـون والنشطاء العرب الذين لم يقوموا بدور خلاق لضـمان هـذه النتيجة لأنهم يتحركون بمنطق الكراهيـة لمشـروع بـوش الامبريالى بأكثر كثيرا مما يتحركون بنمطق حـب العـراق وشعبه العظيم.